مكتبة

جيرفي بيرمان

العلاج بالكلام

إرفين د. يالوم

وأدبيات العلاج النفسي

ترجمة:

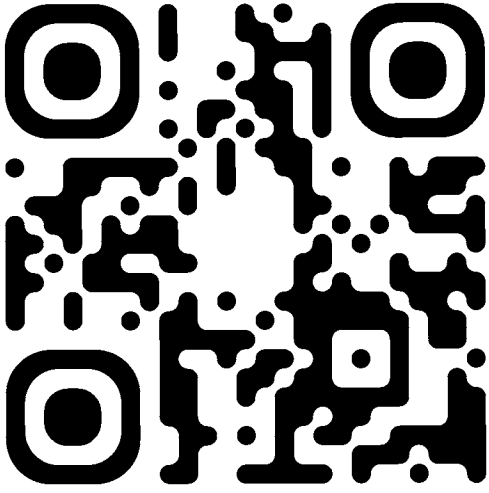
خالد الجبيلي



تنمية

العلاج بالكلام

إرفين د. يالوم
وأدبيات العلاج النفسي



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

العلاج بالكلام: إرفين د. يالوم وأدبيات العلاج النفسي
تأليف: جيفري بيرمان
ترجمة: خالد الجبيلي
تحرير وتدقيق لغوي: د. محمد عبد العال
تصميم الغلاف: عبد الرحمن ناصر محمد
إخراج فني: إسلام عماد
عدد الصفحات: 448 صفحة
رقم الإيداع: 36439 / 2025
الترقيم الدولي: 978-633-8281-42-7
الطبعة الأولى: 2026

مكتبة
t.me/soramnqraa

تنمية
١٩ شارع هدى شعراوي من شارع طلعت حرب - وسط البلد، القاهرة
محمول: 201007201056
هاتف: 00202 / 23926279
Email: khaled_tanmia@hotmail.com
tanmiapublishing@gmail.com

العلاج بالكلام

إرفين د. يالوم
وأدبيات العلاج النفسي

مكتبة
t.me/soramnqraa

جيفري بيرمان

ترجمة: خالد الجبيلي

تنمية

إلى المستقبل - أحفادنا الأحباء:
أودري وماكس ونيت وسكايلر وسلون وتاليا.
وإلى جولي، درّة حياتي المتلألئة.

المحتويات

شكر وتقدير.....٧

مقدمة: ألم الوجود.....٩

الفصل الأول - نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي: فن الكشف عن الذات.....٢٧

الفصل الثاني - كل يوم يقترب قليلًا: العلاج من منظور مزدوج.....٤٧

الفصل الثالث - العلاج النفسي الوجودي: التعايش مع قلق الموت...٦٣

الفصل الرابع - العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين: تثقيف المراقبين والمُراقَبين.....٨٥

الفصل الخامس - جلّاد الحب: العيش مع ألم الوجود.....٩٥

الفصل السادس - عندما بكى نيتشه: الامتنان وسخطه.....١٣٥

الفصل السابع - مستلقيًا على الأريكة: خطر انتهاك الحدود الجنسية ١٨٥

الفصل الثامن - أمي ومعنى الحياة: « كومة سماد داخلية متقدة» من الإبداع.....٢٢١

الفصل التاسع - هبة العلاج: مخاطر وامتيازات أن تكون معالجًا....٢٤٩

الفصل العاشر - علاج شوبنهاور: البحث عن ترياق.....٢٥٩

الفصل الحادي عشر - التحديق إلى الشمس: شفاء بالرواية.....٣١١

الفصل الثاني عشر - مشكلة سبينوزا: «مهدئ لعواطفي».....٣٣٥

الفصل الثالث عشر - مخلوقات فانية: توقع النهايات.....٣٨٩

الخاتمة: علاج يالوم وأن أُصبح نفسي.....٤١٣

المصادر والمراجع.....٤٣٠

شكر وتقدير

مكتبة
t.me/soramnqraa

أشعر بامتنان عظيم لإرفين يالوم لتخصيصه جزءًا من وقته الثمين لقراءة مخطوطة كتاب «كتابة العلاج بالكلام» والتعليق عليها قبل أن أقدّمها للنشر. وقد ساعدتني إشارته إلى بعض الأخطاء الواقعية على إيجاد روابط لم أكن قد رأيتها، ومكنتني من إدراج تعليقاته في دراستي هذه. وقد دعاني إرف وزوجته مارلين يالوم أنا وزوجتي جولي إلى العشاء في ربيع عام ٢٠١٧ عندما كنت أُجري أبحاثًا في أرشيف يالوم في جامعة ستانفورد. وكان من دواعي سروري أن ألتقي بأفراد أسرة يالوم الذين كانوا في غاية اللطف. عندما أقرأ ردود إرف يالوم على مخطوطتي، ينتابني نفس الشعور الذي ينتابني عندما أقرأ كتبه: فهو كما قال هنري جيمس في كتابه «فن الرواية»، من الأشخاص «الذين لا يغفلون عن شيء». ومثل قرّاء كثيرين، أعرف منذ زمن بعيد، أن القراءة والكتابة علاج، وكان تأليف كتاب عن إرفين يالوم أقل العلاجات النفسية تكلفة، وأكثرها فعالية وتأثيرًا في حياتي.

وأعرب عن امتناني للعاملين في «قسم المجموعات الخاصة» في جامعة ستانفورد الذين بذلوا كل ما بوسعهم لمساعدتي عندما كنتُ أُجري بحثي في أرشيف يالوم الذي يضم مئات الرسائل التي تشهد وتؤكد على قوة كتاباته. ومن التعليقات النموذجية التي كتبتها امرأة حزينة على وفاة والدها مؤخرًا، «أريد أن أشكرك على كلّ الأعمال العظيمة التي كتبتها والتي ساعدتني على تقبّل الموت، وفهم القلق من الموت، وأهمية عيش الحياة على أكمل وجه - والأهم من ذلك، أن أشارك في الإعراب عن الحبّ مع الذين نقاسمهم مسارات مشتركة. ولو لم أغرق في كتاباتك، لما استطعتُ أن أتأقلم وأعيش حياتي كما أعيشها الآن. أشكرك، أشكرك من كل قلبي». يمكن للمرء أن يكتب فصلًا كاملًا عن مراسلات يالوم، خصوصًا تأثيره على العاملين في مجال الصحة النفسية، كما يتضح من رسالة أرسلها معالج أسترالي عام

٢٠٠٤، يقول فيها: «أنتَ أكثر المعالجين تأثيرًا في تدريبي، وأكره أن أفكّر أنك لم تعد موجودًا لمشاركة حكمتك وروحك المرحة».

يظهر جزء من مناقشة السيرة الذاتية النفسية في رواية «عندما بكى نيتشه» في الفصل الذي كتبته بعنوان «انتحار همنغواي: مقاربة السيرة الذاتية النفسيّة للأدب» في كتاب «رؤى نقدية: مقاربات نفسيّة للنقد»، حرّره روبرت س. إيفانز، وصدر عن دار غراي هاوس عام ٢٠١٧. وتظهر بعض المعلومات عن علاقة آن سيكستون الجنسية مع طبيبها النفسي فريدريش ج. دوهل في الكتاب الذي شاركنا في تأليفه أنا وبول ي. موشر بعنوان «السرّية ومساوئها: معضلات الخصوصية في العلاج النفسي» الذي أصدرته مطبعة جامعة فوردهام عام ٢٠١٥.

أودُّ أن أشكر القارئين المجهولين في مطبعة جامعة ولاية نيويورك على اقتراحاتهما المفيدة لإدخال تحسينات على هذا الكتاب. وهذا هو كتابي الرابع الذي تنشره مطبعة جامعة ولاية نيويورك، وكالعادة، فإني أعرب عن امتناني لجيمس بيلتز لدعمه المستمر. وأتقدم بشكر خاص لرافائيل تشايكن، مساعد محرر المقتنيات في المطبعة الذي ساعد على الإسراع في صدور المخطوطة. ومع أنني أخصص دائمًا وقتًا لتصحيح الأخطاء النحوية والأسلوبية لطلابي، فإني أتوجه بالشكر لمحررة النسخ الرائعة دانا فوت التي أشارت إلى أخطائي النحوية والأسلوبية. وأودُّ أخيرًا أن أشكر جولي التي ساعدتني بسبل لا حصر لها، بما في ذلك قضاء ساعات من الصبر لإزالة الآثار الغامضة التي ظهرت في أثناء تنسيق المخطوطة.

مقدمة
ألم الوجود

أنا واحد من قرّاء إرفين يالوم الذين يعرفون حق المعرفة، أنهم سيقرؤون جميع الصفحات التالية بعد أن يقلبوا الصفحة الأولى، ويستمعون إلى كل كلمة يقولها. تنبثق ثقتي به على الفور، كما كانت منذ تسع سنوات. أفهمه كما لو أنه يكتب لي (هذه أوضح طريقة للتعبير عن ذلك، حتى وإن كانت طريقة التعبير عنها تتسم بالحمق والغرور).

تصف الجمل السابقة ما أشعر به تمامًا عندما أقرأ أعمال إرفين يالوم، مع أن هذه ليست كلماتي في الحقيقة، وإنما كلمات فريدريش نيتشه التي وردت في مقاله «شوبنهاور معلمًا» معبّرًا عن إعجابه اللا محدود بمعلّمه المفكّر. لقد صادفتُ هذه العبارة عندما كنت أقرأ كتب الفيلسوفين عندما كنتُ أجري أبحاثي على روايتيْ يالوم «عندما بكى نيتشه» و«علاج شوبنهاور».

لا أقصد أن أقول إنني نيتشه أو أن يالوم هو شوبنهاور. لكن يالوم هو أحد أبطالي منذ فترة طويلة - فترة أطول من السنوات التسع التي ذكرها نيتشه. وأنا مُعجب بيالوم كثيرًا لإسهاماته العميقة في العلاج النفسي والرواية، وإنسانيته الواسعة. فهو ليس أول من كتب عن «ألم الوجود»، لكن قلة من الكتّاب بحثوا في هذا الموضوع بوضوح أكبر، وفي فترة زمنية أطول في الأعمال الروائية وغير الروائية، أكثر مما فعل يالوم. فقد حوّل ألم الوجود إلى مقاربة مميّزة للعلاج النفسي وفن حكايات العلاج النفسي معًا.

أهدف في هذا الكتاب إلى إظهار نمو يالوم وتطوّره بوصفه معالجًا نفسيًّا وجوديًّا وكاتب حكايات وروايات في الوقت نفسه. لقد انقلب نيتشه في النهاية على معلّمه السابق، رافضًا تشاؤم شوبنهاور الكئيب، وقوله لا. وبعكس ذلك، فقد ازداد تقديري ليالوم الذي يؤكّد على الحياة بعمق أكبر.

لقد انبعثت ثقتي في يالوم عندما قرأتُ قبل سنوات كتابه «جلّاد الحب» أولًا، ثم رواية «عندما بكى نيتشه». وقد أبهرني كلا العملين. ثم بدأت أقرأ جميع أعماله باستمرار. أنا أستاذ في اللغة الإنجليزية، ولست معالجًا نفسيًّا، لكنني أعتقد أنني أفهمه كما لو أنه يكتب لي. وإذا كان من الممكن أن يجعل هذا الاعتراف نيتشه يشعر بالحمق والغرور، فلا توجد لديَّ مشكلة لأن ينتابني الشعور نفسه.

«نبذة عن السيرة الذاتية»

يشكّل كشف المعالج عن نفسه حجر الزاوية في كتابات يالوم، لذلك أرى من الملائم أن نبدأ «بنبذة عن سيرته الذاتية». فقد ولد في واشنطن العاصمة عام ١٩٣١ لأبوين هاجرا من قرية روسية إلى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الأولى بفترة قصيرة. كان يعيش في شقة صغيرة فوق محل بقالة والديه في حيّ فقير يقطنه السود - كانت واشنطن ما تزال مدينة تمارس التمييز العنصري - ويكشف يالوم في «سيرته الذاتية» أن القراءة كانت ملاذه، وأنه كان يقوم برحلة خطيرة «على دراجته الهوائية» مرتين في الأسبوع من بيته إلى المكتبة العامة:

لم يكن هناك أي توجيه: فلم يحصل والداي على أي تعليم علماني تقريبًا، ولم يقرآ كتبًا قط، وكانا منهمكين طوال حياتهما في الصراع من أجل البقاء الاقتصادي. كانت اختياراتي للكتب متقلّبة، توجهها أحيانًا هندسة المكتبة. فقد لفتت انتباهي في البداية خزانة الكتب الكبيرة في وسط المكتبة التي توجد فيها كتب السيرة الذاتية، وأمضيت سنة كاملة وأنا أتصفّح تلك الكتب بدءًا من حرف «(جون آدمز) إلى حرف» (زرادشت)، لكنني وجدت ملاذًا لي في الروايات، وعالمًا بديلًا أكثر إرضاءً ومصدرًا للإلهام والحكمة. وفي وقت مبكر من حياتي نشأت لديَّ فكرة - لم أتخلّ عنها قط - وهي أن كتابة الرواية أفضل شيء يمكن أن يفعله الإنسان.

كان يالوم يدرك أنه لا يستطيع أن يكسب رزقه من الكتابة، ومن قرارات رفاقه، بدا أنه لا يملك سوى خيارين: إما أن يلتحق بكلية الطبّ، وإما أن يعمل في متجر أبيه. فاختار الخيار الأول لأن كلية الطب بدت أقرب إلى تولستوي ودوستويفسكي اللذين كان يرى أنهما عالمان نفسيان لا مثيل لهما. واختار الطبّ النفسي لأنه بدا له، في ذلك الوقت والآن، مثيرًا للاهتمام. ويرى يالوم أن عنصر السرد في الطب النفسي هو الذي يثير المخيلة. يقول: «تعاملتُ مع جميع المرضى الذين عالجتهم بشعور من الدهشة تجاه القصة التي ستُتكشّف. أظن أنه يجب ابتكار علاج مختلف يناسب كل مريض، لأنّ لكل مريض قصة فريدة».

تزوّج يالوم في عام ١٩٥٤ المرأة التي أصبحت توأم روحه، مارلين كونيك التي عملت أستاذة للغة الفرنسية لسنوات عديدة، ثم باحثة بارزة في معهد كلايمان لدراسات الجندر في ستانفورد، وكتبت عدة كتب بارزة، ورزقا بأربعة أبناء، ويشير إرف ومارلين يالوم غالبًا إلى أحدهما الآخر في الكتب التي يؤلفانها، ولكل واحد منهما تأثير على تفكير وكتابة الآخر.

بعد أن تخرّج في كلية الطب بجامعة بوسطن في عام ١٩٥٦، أكمل يالوم فترة دراسته كطالب مقيم في عيادة هنري فيبس للطب النفسي في مستشفى جونز هوبكنز في عام ١٩٦٠. وقد كتب في كتابه «التحديق إلى الشمس» عن وفاة اثنين من أساتذته في جامعة جونز هوبكنز، هما جون وايتهورن وجيروم فرانك، بالإضافة إلى أستاذ ثالث كان محللًا وصديقًا له أيضًا، وهو رولو ماي. وبعد أن أنهى دراسته في قسم الطبّ النفسي في مستشفى ماونت سيناي في مدينة نيويورك، خدم يالوم برتبة نقيب في الجيش الأمريكي في هونولولو في هاواي، ثم بدأ يدرّس الطبّ النفسي في جامعة ستانفورد في عام ١٩٦٠. وفي عام ١٩٦٨، تدرّج في المناصب حتى أصبح أستاذًا متفرغًا. وأصبح المدير الطبي لوحدة الطبّ النفسي للمرضى الداخليين في مستشفى جامعة ستانفورد من عام ١٩٨١ حتى عام ١٩٨٤، وكان كذلك زميلًا في مركز الدراسات المتقدّمة في العلوم السلوكية في بالو ألتو بكاليفورنيا.

خلال بداية حياته المهنية الأكاديمية كتب يالوم كتبًا دراسية رائدة في الطبّ النفسي جلبت له شهرة مبكرة. فقد نُشر أول كتاب له «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» في عام ١٩٧٠ الذي هو الآن في طبعته الخامسة المنقحة، وهو كتاب نادر في كتب الطب النفسي، بيع منه أكثر من مليون نسخة، وتُرجم إلى ثماني عشرة لغة. وبعد ثلاث سنوات شارك في تأليف كتاب «مجموعات اللقاء: الحقائق الأولى». وفي عام ١٩٧٤، صدر كتابه التالي «كل يوم يقترب قليلًا»، وهو علاج مزدوج شارك في تأليفه مع مريضة تدعى جيني إلكين باسم مستعار. وكان لكتاب يالوم الذي صدر في عام ١٩٨٠ «العلاج النفسي الوجودي» تأثير في توجيه العلاج النفسي اللفظي في اتجاه جديد، وهو اتجاه مستوحى من حبّ المعالج للفلسفة، وفي عام ١٩٨٣، صدر كتاب «العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين».

حقّقت مجموعة «جلّاد الحب»، وهي أول مجموعة من بين ثلاث مجموعات تضم حكايات من العلاج النفسي، نجاحًا نقديًّا وشعبيًّا كبيرًا عندما نُشرت في عام ١٩٨٩، رسَّخت سمعة يالوم بوصفه أستاذًا في القصص الإبداعية غير الروائية. وتكشف حكايات العلاج النفسي العشرة فيها التي تستند جميعها إلى مرضى أُخفيت هوياتهم عن متعة يالوم في سرد القصص. ونشرت دار «بيسك بوكس» جميع كتبه، وهو أمر غير معتاد في مهنة قلما يلتزم فيها المؤلفون والناشرون مع بعضهم مدى الحياة، والالتزام كلمة أساسية ليالوم: فقد أبدى التزامًا طوال حياته تجاه أسرته والمرضى الذين يعالجهم ومهنته وقرّائه.

صدرت رواية «عندما بكى نيتشه»، وهي أول رواية كتبها يالوم، وربما أكثرها شهرة في عام ١٩٩٢، وما تزال تحظى بنجاح نقدي وشعبي واسعين بيع منها أربع ملايين نسخة، وتُرجمت إلى سبع وعشرين لغة، وحوِّلت إلى فيلم سينمائي، وهي رواية تاريخية وفلسفية تتخيّل كيف يمكن أن يعالج شخصان من كبار معاصريه لم يلتقيا قط، وهما جوزيف بروير وفريدريش نيتشه، أحدهما الآخر، باستخدام شكل جديد من العلاج، وهو «العلاج

بالكلام» الذي ساعد بروير على ابتكاره. وتمثّل الرواية أيضًا نوعًا فرعيًّا جديدًا من الرواية، وهي «الرواية التعليمية» التي تضيء جوانب مختلفة من العلاج النفسي للمعالجين الشباب. يتمثّل التحدي الذي يواجهه يالوم كطبيب نفسي وروائي في التعليم والترفيه في آن معًا - وهي مهمة شاقة في ضوء ملاحظة جين أوستن الساخرة في رواياتها «كبرياء وتحامل» «نحبُّ جميعنا أن نعلّم، مع أننا لا نستطيع أن نعلّم إلّا ما لا يستحق معرفته».

بعد كتابَيْ «جلّاد الحبّ» و«عندما بكى نيتشه» جاء مجلدان آخران من حكايات العلاج النفسي، هما: «أمي ومعنى الحياة» (١٩٩٩) و«مخلوقات فانية» (٢٠١٥)، وثلاث روايات أخرى هي: «مستلقيًا على الأريكة» (١٩٩٦)، و«علاج شوبنهاور» (٢٠٠٥)، و«مشكلة سبينوزا» (٢٠١٢). وصدر كتاب «قارئ يالوم» الذي حرّره ابنه بن يالوم في عام ١٩٩٨، وهو مجلد ضخم يضم مختارات من كتبه ورواياته وحكايات من العلاج النفسي. ونُشر كتاب «هبة العلاج» في عام ٢٠٠٢، وهو كتاب يزخر بالأفكار للمعالجين النفسيين وعامة الناس على حد سواء. وصدر كتاب «التحديق إلى الشمس: التغلب على الرعب من الموت» في عام ٢٠٠٨، وهو عبارة عن تأمل في أعمق مخاوفنا. وصدر كتاب «علاج يالوم» في عام ٢٠١٤، وهو كتاب وثائقي عن حياة المعالج الحالية الذي بلغ الثمانين من عمره. وصدر كتاب يالوم الأخير «أن أصبح نفسي: مذكرات طبيب نفسي»، في عام ٢٠١٧. وتقاعد يالوم من التدريس في جامعة ستانفورد في عام ١٩٩٤، بعد اثنين وثلاثين عامًا أمضاها في قسم الطبّ النفسي، لكنه ظل يعمل في عيادته الخاصة الصغيرة في العلاج النفسي في بالو ألتو وسان فرانسيسكو، بكاليفورنيا.

الحصول على الجوائز وتوريثها

حصل يالوم على جوائز عديدة من منظمات أدبيّة ونفسيّة. وقد نالت الترجمة الفرنسية لروايته «مشكلة سبينوزا» جائزة اختيار القرّاء في عام ٢٠١٤،

وفازت رواية «عندما بكى نيتشه» بالميدالية الذهبية لدول الكومنولث لأفضل رواية لعام ١٩٩٣، وكُرِّمت في عام ٢٠٠٩ في معرض فيينا الدولي للكتاب، ووزعت مائة ألف نسخة مجانية على سكان فيينا. وحصل يالوم على جائزة أوسكار بفيستر للمساهمات في الدين والطب النفسي من الجمعية الأمريكية للطب النفسي عام ٢٠٠٠، وعلى جائزة صندوق المؤسسة للأبحاث في الطب النفسي من الجمعية الأمريكية للطب النفسي عام ١٩٧٦، وجائزة إدوارد ستريكر للمساهمات الكبيرة في مجال رعاية المرضى النفسيين المقدّمة من معهد مستشفى بنسلفانيا عام ١٩٧٤. ويرعى قسم الطبّ النفسي والعلوم السلوكية في كلية الطبّ في جامعة ستانفورد جائزة إرفين ديفيد يالوم، الدكتور في الطب، وهي جائزة أدبية تُمنح سنويًّا لطالب مستحق، سواء أكان في مرحلة التعليم الجامعي أم في الدراسات العليا، عن مقال كتابي إبداعي استثنائي يصف فيه تجربته في الطب بوصفه طبيبًا أو متدربًا أو مريضًا.

تمت مراجعة كتب يالوم الدراسية في الطبّ النفسي، وحكايات العلاج النفسي، وروايات العلاج النفسي في عدة مجلات متخصصة في الصحة النفسية، وظهرت مقابلات أُجريت مع يالوم في مجلات وصحف عديدة. ويُعدُّ أحد أشهر الأطباء النفسيين الأمريكيين الأحياء. وفي استطلاع للرأي أجرته مجلة «شبكة العلاج النفسي» في عام ٢٠٠٦ عن أكثر المعالجين النفسيين الأمريكيين تأثيرًا بمناسبة الذكرى السنوية الخامسة والعشرين لتأسيسها، طُرح على المجيبين السؤال التالي: «خلال السنوات الخمس وعشرين الماضية، ما هي الشخصيات التي أثّرت في ممارستك أكثر من غيرها؟ وكان بإمكان المجيبين إدراج أسماء حتى عشرة أشخاص، وجاء يالوم في المرتبة الرابعة، بعد شخصيات بارزة مثل كارل روجرز، وآرون بيك (مؤسس العلاج المعرفي)، وسلفادور مينوشين (أحد مؤسسي العلاج الأسري). ولم يدُرج سيجموند فرويد في القائمة، وجاء كارل يونغ في المرتبة الثامنة. واعتُبر يالوم في نفس الاستطلاع «أشهر منظّر وممارس للعلاج النفسي الوجودي في البلاد». ووجد يالوم طريقه أيضًا إلى الثقافة الشعبية. ففي المسلسل التلفزيوني بعنوان

«في العلاج»، يبدي المعالج النفسي بول مرتبكًا أسفه لمشرفته جينا على عمله طبيبًا سريريًّا، ويقول: «قد يكون يالوم محقًا، لعل الأمر كلّه يتعلق بالعلاقة».

وما عدا دراسة روثيلين جوسلسون عن إرفين د. يالوم في عام ٢٠٠٨ بعنوان «عن العلاج النفسي والحالة الإنسانية»، التي تضم مقابلات قيّمة مع يالوم، لا توجد دراسات كاملة عن أعماله. وقد اتبعت في هذه الدراسة نهجًا زمنيًّا يمكّننا من رؤية نموه وتطوّره كمعالج نفسي وجودي، وكاتب أعمال روائية وغير روائية إبداعية. توجد أوجه استمرارية أكثر بكثير من أوجه الانقطاع في كتاباته، لكن توجد أيضًا مفاجآت عديدة، خصوصًا تطوّره كمعالج نفسي يكشف عن نفسه. إذ يناقش يالوم أحيانًا مريضًا مجهول الهوية في كتاب مبكر ليكشف في كتاب لاحق أن المريض هو نفسه. وفي كثير من الأحيان، يكشف عن نفسه جزئيًّا في كتاب صدر مبكرًا، ثم يسهب حول ذلك في كتاب لاحق.

وتكشف جميع كتبه عن فصول متواصلة من حياته. ويمكّننا التسلسل الزمني من معرفة كيف ومتى وأين ولماذا يغيّر يالوم رأيه حول موضوعات محددة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، كان مترددًا في استخدام كلمة «وجودي» التي وضعها بين علامتي تنصيص في كتابه الأول، وأقرّ بأنه لا يحبّ هذا التعبير. وأصدر بعد عشر سنوات كتابه «العلاج النفسي الوجودي».

سيرتي الذاتية

قد يبدو غريبًا أن يكتب أستاذ في اللغة الإنجليزية وليس طبيبًا نفسيًّا أو معالجًا نفسيًّا كتابًا عن يالوم، لكنني مهتم بالعلاقة بين الأدب والتحليل النفسي منذ زمن طويل، وقد كتبتُ عدة كتب حول هذا الموضوع، بدءًا من كتاب «العلاج بالكلام: التمثّيلات الأدبية للتحليل النفسي» (١٩٨٥) الذي يستكشف مؤلفين وأدباء معروفين أصيبوا بانهيارات نفسية، وبدؤوا علاجًا نفسيًّا من نوع أو آخر، وكتبوا لاحقًا عن تجاربهم في قصص خيالية

أو، hrudm. وقد أجريت منذ بضع سنوات مقابلة مع ألين ويليس، المحلّل النفسي والروائي المتميّز، وكتبتُ عنه مقالًا طويلًا نُشر في كتاب مخصص تقديرًا لأعماله، وكنت أنوي أن أفعل الشيء نفسه مع يالوم، لكنني اكتشفت أن كتاباته أكثر اتساعًا وعمقًا لا يمكن أن تُختزل في مقال واحد. ونتيجة لذلك، جاء هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

لستُ عجوزًا مثل يالوم - فقد ولدتُ في عام ١٩٤٥، في السبعينيات من عمري الآن، كما أقول لطلابي دائمًا. درّستُ في جامعة ألباني لمدة خمسة وأربعين عامًا، بالإضافة إلى السنوات الخمس التي درّست فيها في جامعة كورنيل عندما كنت طالب دكتوراه ومحاضرًا. أشعر بأهمية خاصة لتأليف كتب عن العلاج بالكلام، وهو موضوع طالما كان يستهويني، مع اقتراب فجر وغروب حياتي المهنية.

عمّقت كتب يالوم فهمي عن سبب فعّالية بعض ممارساتي التعليمية. ويتبادر إلى ذهني مثالان بسهولة. الأول، أن يالوم يصرّ دائمًا على أن أهم عنصر في العلاج النفسي هو العلاقة بين المريض والمعالج، وهي ملاحظة تدعمها عشرات الدراسات التجريبية. وأعتقد أن العلاقة بين الطالب والمعلّم أهم عنصر في العملية التعليمة، وأهم بكثير من أي معرفة ينقلها المعلّم للطلاب. فأنا أشجّع طلابي على مخاطبتي باسمي الأول، كما يشجّع يالوم المرضى الذين يعالجهم على مخاطبته باسمه الأول. ويعرف طلابي أنني أهتم بهم كثيرًا. فبالقدر الذي يمكن أن يؤثر فيه المعلّمون على حياة طلابهم، يمكن أن يؤثّر الطلاب في حياة معلميهم. وقد حالفني الحظ أنني بقيت على تواصل مع طلابي طوال عقود من الزمن، وكنت محظوظًا بما يكفي لأعلّم أبناء طلابي السابقين أيضًا، وربما سأعلّم أحفادهم ذات يوم.

والثاني، أن يالوم من أكثر مؤيدي تأثير إفصاح المعالج عن ذاته في العلاج النفسي. فقد كان الإفصاح عن الذات بالنسبة إلى المعلّم دائمًا حجر الزاوية في تدريسي، لأن إفصاح المعلّم عن ذاته يؤدي إلى إفصاح الطالب عن ذاته أيضًا، وأحاول دائمًا أن أكون نموذجًا للإفصاح عن الذات لطلابي. ومن

خلال المراجعات المنشورة لكتبي، أعرف أنني أُعتبر أقلية صغيرة عندما يتعلق الأمر بتشجيع الكتابة التي تكشف عن الذات في الأدب. ويخبرني طلابي أن معظم أساتذتهم في المدارس الثانوية والجامعات لا يسمحون لهم استخدام ضمير المتكلم في كتاباتهم، خشية أن يشجعهم ذلك على الإفراط في الذاتية. صحيح أنه ينبغي ألّا يبدأ الطلاب كل جملة بعبارة «أرى» أو «أشعر»، لكن الكتابة بضمير المتكلم تشجّع الطلاب على التأمل الذاتي، وهي عملية أكثر صعوبة إن لم تكن مستحيلة في الكتابة «الموضوعية». يركّز كتابي «الإفصاح عن الذات والتحوّل الذاتي في الفصل الدراسي» (٢٠٠١) على الطرق التي تسمح بها الفصول الدراسية المتعاطفة أن يكتب الطلاب عن أهم القضايا في حياتهم. إن الفصول الدراسية التي تدرّس الأدب ليست مجموعات دعم، لكنني أبذل كل ما في وسعي لأنشئ فصلًا دراسيًّا آمنًا ومتعاطفًا يدعم الطلاب فيه بعضهم بعضًا. تقول إحدى الشخصيات في رواية «علاج شوبنهاور»: «لا يوجد في أفضل الأحوال سوى حدود غامضة بين التعليم والعلاج».

ومثل يالوم، فقد كتبتُ كتبًا دراسية عديدة، يمتلئ كلّ منها بكتابات الطلاب حول طائفة واسعة من الموضوعات الشخصية. ومن أجل التقليل من احتمالية وجود إكراه خفي، أطلب من الطلاب موافقتهم من أجل استخدم كتاباتهم بعد أن ينهوا دورتهم معي، ويحصلوا على درجاتهم النهائية. وبالطبع فهم يخفون هوياتهم الحقيقية ويستخدمون أسماء مستعارة. ثم أُطلع طلابي بعد ذلك كيف علّقتُ على كتاباتهم، ووضعتها في سياقها الصحيح. وأحصل على إذن أيضًا من مجلس مراجعة المعهد الجامعي الذي يشرف على جميع الأبحاث الإنسانية في الجامعة. واكتشفت، كما اكتشف يالوم، أن الطلاب، مثلهم مثل المرضى، يريدون أن يحكوا قصصهم، ويستفيدون أيضًا من سماع قصص زملائهم ومعلميهم.

كانت حياتي مُرضية بعمق، وزاخرة بالسعادة في الأسرة وفي العمل. ومن المفارقات أن العديد من كتبي تدور حول مأساتين في حياتي هما: انتحار

أستاذي ومعلّمي في الجامعة، لين بورت، في يوم عيد العمال عام ١٩٦٨، ووفاة زوجتي الأولى التي عشت معها خمسة وثلاثين عامًا، باربرا، بسرطان البنكرياس في عام ٢٠٠٤، عندما كانت في السابعة والخمسين من عمرها. وتوجد في بعض كتبي عناوين فصول الانتحار، أو الاحتضار، أو الموت، أو الجروح، أو الترمّل. بالنسبة إليَّ كانت قراءة كتب يالوم تجربة علاجية هامة. فقد ساعدني على إدراك أن العديد من كتبي، وربما معظم كتبي كانت جهدًا مستمرًّا لفهم قلقي من الموت والتعامل معه. إن الكتابة عن يالوم رائعة ومؤكدة للحياة، وشفاء عميق. وكانت قراءة مصادر يالوم الفلسفية العديدة مثل ماركوس أوريليوس، وسبينوزا، وشوبنهاور، ونيتشه، مجزية كثيرًا أيضًا.

خطة هذا الكتاب

أقدّم في طيات هذا الكتاب قراءات مفصّلة لروايات يالوم وحكايات العلاج النفسي. وأناقش أيضًا استخدامه المكثف والدقيق دائمًا للمصادر الفلسفية والنفسيّة والأدبية. وأتناول كذلك المراجعات العديدة لأعماله المنشورة في المجلات المهنية، والمجلات، والصحف. فقد جذبت أعمال يالوم الخبراء العاملين في الصحة النفسية وعامة الناس لأنه صاغ أسلوبًا نثريًّا رائعًا يضعه في مصاف أعظم رواة القصص.

مع احترامي لملاحظة كلوديوس في مسرحية هاملت - «يا إلهي، بسبب التهاب الجَنَبَة/ يموت في غفلة منه» - لم أعلّق على ثلاثة أعمال من أعمال يالوم التي شارك آخرين في تأليفها التي تشمل «مجموعات اللقاء: حقائق أولى» (١٩٧٣)، و«دليل موجز للعلاج النفسي الجماعي» (١٩٨٩)، و«أنا أتّصل بالشرطة»، وهي قصة قصيرة من إحدى وأربعين صفحة نُشرت في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٩ في كتاب إلكتروني.

يبدأ الفصل الأول بكتاب يالوم الأول، والأكثر شعبية حتى الآن، وهو

«نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي». يكمن اهتمامي الأساسي في هذا الكتاب الدراسي في تركيزه على فن الكشف عن الذات، وهو فن يقوده حتمًا إلى الأدب، حيث يستكشف يالوم رواية هيرمان هيسه «لعبة الخرزة الزجاجية» ومسرحية يوجين أونيل «رجل الجليد قادم». ويستخدم يالوم غالبًا أمثلة أدبية لدعم رؤاه السريرية. ويحتوي كتاب «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» على واحدة من أكثر المكاشفات عن نفسه، وهي مكاشفة لم يكن مستعدًّا لأن يفعلها إلّا بعد تسعة عشر عامًا.

أما موضوع الفصل الثاني فهو كتاب «كلّ يوم يقترب قليلًا»، وهو قصة يالوم العلاجية «التي رُويت مرتين» كتبها مع «جيني إلكين». إذ يقدّم يالوم ومريضته في فصول متناوبة انطباعاتهما المتغيّرة عن جلسات العلاج الأسبوعية. وتُعدّ بنية الكتاب فريدة من نوعها في تاريخ أدب دراسة الحالات النفسية من حيث أننا نرى منظورًا مزدوجًا للعلاقة بين المريضة والمعالج. كما أن طريقة المريضة في دفع تكاليف العلاج فريدة من نوعها أيضًا، حيث تكتب ملخصًا عن كل جلسة علاجية تجريها مع يالوم. ونكتشف، في استعارة يستخدمها يالوم لأول مرة، وليست الأخيرة بأي حال، أن كل شيء هو «طحين لطاحونة المعالج». ونكتشف أيضًا أن ما قد يكون مهمًا للمعالج النفسي يكون أقل أهمية، بالنسبة إلى المريض وحتى إنه قد يتجاهله. وإحدى أكثر اللحظات غرابة في كتاب «كلّ يوم يقترب قليلًا» هي عندما تدخل مارلين يالوم في القصة، فيبدأ زوجها يعاني من تضارب في المصالح، ويصبح ممزقًا بين مريضته وزوجته.

يركّز الفصل الثالث على «العلاج النفسي الوجودي»، وهو الكتاب الدراسي الذي يحثّ على اتبّاع نهج جديد للشفاء النفسي. ويُعدُّ هذا الكتاب أيضًا مصدر جميع كتابات يالوم اللاحقة. وتتمثّل المشكلة الرئيسية التي تكتنف مرضاه وشخصياته الروائية في القلق من الموت، وهو موضوع تسعى ثقافتنا التي تنكر الموت إلى تفاديه. ومن السهل أن يشير الكُتّاب إلى قلق الموت الذي يعتري الآخرين، لكن قلة قليلة من الكُتّاب يعترفون بأنه

ينتابهم القلق من الموت. وشأن فرويد في كتابه «تفسير الأحلام»، يستخدم يالوم نفسه مثالًا لشخص يعاني من صراعات يسعى إلى علاجها، لكن فرويد قلما يعترف بأنه كان يكتب عن نفسه، بينما يفعل يالوم ذلك. فهو لا يخشى أن يقول إنه دخل إلى مجال العلاج النفسي لكي يتصالح مع قلق الموت الذي يسعى لمساعدة مرضاه على التغلّب عليه. إن هذه الاعترافات تجعل يالوم أكثر إنسانية، فهو يقدّم رؤى حول دور قلق الموت في حياة الآخرين، بمن فيهم معاصروه. وتكشف نظرية إليزابيث كوبلر روس المؤثّرة لكن التي يعتريها خلل في مرحلة الاحتضار عن قلق الموت غير المعترف به. ويناقش يالوم أيضًا دور قلق الموت في حياة همنغواي. ويقدّم كتاب «العلاج النفسي الوجودي»، الغني بالأفكار الهامة، نظرية جديدة حول أهمية سعي المريض لاكتشاف ذاته في العلاج النفسي. والرؤى التي ترد فيه تنطوي على قيمة عالية، لكن الأهمية الكبرى للبحث عن المعرفة تكمن في أنها تقوي العلاقة بين المريض والمعالج. إن كتاب «العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين»، الذي سأنتقل إليه في الفصل الرابع، هو الكتاب الذي يُعدُّ بمنزلة جسر بين كتابات يالوم السريرية المبكرة، وحكاياته المعروفة في العلاج النفسي. وكان هدفه الرئيسي من كتابة هذا الكتاب تقديم نهج فريد من نوعه للعلاج النفسي الجماعي في أجنحة المرضى الداخليين الذين يتناوبون على العلاج النفسي الجماعي. إن فكرة العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين قد تذكّر بعض القرّاء بالرعب العلاجي في رواية كين كيسي «طار أحدهم فوق عش الوقواق» حيث يستخدم المرضى، بتحريض من طاقم العمل، العلاج النفسي كسلاح لكشف نقاط ضعف أحدهم الآخر. ويقدم لنا يالوم نظرة إيجابية أكثر للعلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين. ويضم الكتاب العديد من المقالات القصيرة السريرية، مع أن معظمها قصير جدًّا بحيث لا يمكن تذكّرها. ومع ذلك، يقدّم العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين العديد من التقنيات المفيدة لخلق علم التربية القائم على الفهم المتطور للملاحظين والملاحظين. يمكن استخدام هذه التقنيات في الفصل الدراسي

وكذلك في المستشفى.

ويركّز الفصل الخامس على تحفة يالوم الأدبية الأولى وهي «جلّاد الحب» التي يبشّر عنوانها المؤرق بشخصيات قلما نراها في دراسات الحالة النفسيّة الأمريكية. تغطي القصص القصيرة العشرة مجموعة رائعة من الشخصيات الملونة، تعاني جميعها من ألم الوجود. وتتحدّى هذه الشخصيات قدرات يالوم الخيالية كمعالج نفسي وجودي وكراوي قصص على حد سواء. وسيجد القرّاء أنفسهم، مثل يالوم والمرضى الذين يعالجهم، يبكون ويبتسمون وهم يشاهدون الدراما التي تظهر في العلاج النفسي. وثمة تقليد متوارث منذ قرن من الزمان للمحلل النفسي في الأدب باعتباره محققًا بارعًا، أو شرلوك هولمز النفسي، لكن يالوم يعطينا صورة جديدة ومثيرة عن المعالِج النفسي، جلّاد الحب، شخصية تتحدّى كل استراتيجياتنا التي تُنكر الموت.

يُفتتح الفصل السادس بمناقشة السيرة النفسيّة، وهو فن أتقنه يالوم في رواياته الفلسفية الثلاث. تقدّم رواية «عندما بكى نيتشه» صورًا مثيرة للاهتمام عن جوزيف بروير، وفريدريش نيتشه، وسيجموند فرويد الشاب الذي كان ما يزال طبيبًا متدربًا. ويظل بروير شخصية غامضة في التاريخ المبكّر للتحليل النفسي. ومع أن بروير شارك في تأليف كتاب «دراسات عن الهستيريا»، وهو أول كتاب عن التحليل النفسي، فقد تحدّث فرويد لاحقًا بطريقة متعالية عن زميله الأكبر سنًّا. واستنادًا إلى فرويد، وقع بروير في حب هوسي مع مريضته «آنا و.» التي صاغت تعبير «العلاج بالكلام». يبذل يالوم الكثير لإضفاء الطابع الإنساني على بروير، جاعلًا منه شخصية مقنعة، أكثر تبصرًا من فرويد في بعض النواحي. ويظهر نيتشه أيضًا كإنسان، عبقري على نحو مذهل، لكنه معذّب بحبّه المظلم لامرأة هجرته مؤخرًا.

ويبحث الفصل السابع في العديد من المفارقات والغموض الذي ينطوي عليه العنوان المثير للذكريات لرواية يالوم التالية «مستلقيًا على الأريكة» التي تدور حول قصة طبيبين نفسيين وجوديين، أحدهما راوٍ بارع ومحتال (لا يتطابقان دائمًا معًا)، والآخر معالج نفسي أخلاقي ينجو من أساليب مريضته

في إغوائه بهدف تدميره. إن يالوم ليس أول روائي يبحث في الإغراءات الجنسية في العلاقة بين المريضة والمعالج، لكنه أول من أظهر كيف تتفاقم هذه التهديدات من خلال كشف المعالج عن ذاته. وتظلّ رواية «مستلقيًا على الأريكة» أكثر روايات يالوم سخرية، فهي مليئة بالمفاجآت المحبوكة ببراعة. وتظلّ هذه الرواية أيضًا أكثر الروايات التي تحلل انتهاكات الحدود الجنسية، وهو موضوع في غاية الجدية.

ويتناول الفصل الثامن رواية «أمي ومعنى الحياة»، الكتاب الثاني من حكايات يالوم عن العلاج النفسي. لكن القصص الست تفتقر إلى الوفرة التي اتسمت بها قصص «جلّاد الحب»، لكنها تحتفظ بكل ما اتسم به من سخرية وغموض. ولا يكشف يالوم عن أساس السيرة الذاتية لقصصه فحسب، وإنما يكشف أيضًا عن السبل التي تكون فيها الحياة «كتلة سماد داخلية مشتعلة» لفنّه. وهو يعيد إحياء إرنست لاش في القصتين الأخيرتين من الكتاب. ويتضح لنا أن مقولة فلوبير الشهيرة - «مدام بوفاري، هذا أنا» - لا تقلّ صحة عن علاقة يالوم بإرنست: توجد أوجه شبه عديدة بين المعالجين النفسيين الوجوديين الحقيقيين والخياليين. ولا يختبئ يالوم وراء المعالجين النفسيين الذين يقدّمهم في قصصه، بل يكشف كيف أنهم يمثّلون جوانبه المختلفة التي لا يكشفها كلها لمرضاه.

ويركّز الفصل التاسع على كتاب «هبة العلاج»، الذي يعلّق فيه يالوم على مسيرته المهنية التي استمرت خمسة وأربعين عامًا كمعالج نفسي. ويمثّل الكتاب نقطة تحوّل في مسيرة يالوم المهنية: فقد أصبح لديه هو والمرضى الذين يُعالجون بدءًا من هذه المرحلة وعي حاد بتقدّمه في العمر. ويُعدّ كتاب «هبة العلاج» كنزًا من الرؤى للمعالجين الشباب الذين يخشى يالوم أن يكون العلاج النفسي الذي يحبّه في أزمة، وتحاصره مُشكلات خارجية وداخلية. لكن نبرة هذا الكتاب الصغير ليست مخيفة، بل مُطمئنة. إذ يشعر المرء أن هذه المهنة ستجتاز العاصفة بسبب كتب مثل كتاب «هبة العلاج».

في روايته الثالثة «علاج شوبنهاور» التي تشكّل محور الفصل العاشر،

يلقي يالوم الكثير من الضوء على أحد أكثر المفكرين الفلسفيين كراهية للبشر، وعلى المعالج النفسي المتدرب الذي يحاول أن يشكّل حياته على فلسفة مليئة بالعيوب. وقد وصف كارل كراوس، الكاتب الفيّني الساخر الذي عاش في أوائل القرن العشرين، التحليل النفسي بسخرية بأنه المرض الذي يُزعم بأنه العلاج. ويمكن قول الشيء نفسه عن فلسفة آرثر شوبنهاور الخالية من البهجة التي كان آرثر شوبنهاور يقدّم علاجًا جذريًّا لمشكلة الحياة الذي يتطلب ترياقًا جذريًّا بنفس القدر. في رواية «علاج شوبنهاور» يبتكر يالوم معالجًا نفسيًّا وجوديًّا مريضًا ميؤوسًا من شفائه يسعى من خلال العلاج النفسي الجماعي إلى تقديم ترياق منقذ للحياة لمريض سابق لم يستطع مساعدته قبل سنوات. والنتيجة رواية فلسفية رائعة تقدم دروسًا حياتية قيّمة في شكل قصة مشحونة بالعاطفة.

يكشف كتاب «التحديق إلى الشمس: التغلب على الرعب من الموت» الذي هو مركز اهتمامنا في الفصل الحادي عشر عن دراسة يالوم التي لا تتزعزع حول دور القلق من الموت في حياة المرضى الذين يعالجهم. ويؤكد أن قلق الموت هو القلق الأساسي: فلا يوجد رعب أعمق منه. يكمن اهتمامنا الرئيسي في كتاب «التحديق إلى الشمس» في مذكراته الموجزة «الوعي بالموت»، حيث يناقش تجاربه المبكّرة مع الموت، وهو موضوع لا يبتعد أبدًا عن حياته الحالية. ولا يمكن أن يهرب المرء من قلق الموت، لكنه يستطيع أن يتعايش معه دون البحث عن علاجات خارقة للطبيعة. ويوضح كتاب «التحديق إلى الشمس» كيف يمكن أن يكون قلق الموت مصدر إلهام للفن، مصدر إلهام مخلص ما يزال يالوم وفيًّا له.

يستكشف الفصل الثاني عشر رواية يالوم الرابعة والأخيرة «مشكلة سبينوزا» التي تقدّم رؤى سيكولوجية لشخصيتين لا يمكن أن تكونا أكثر اختلافًا هما: المفكّر الهولندي الذي عاش في القرن السابع عشر والذي يُعدّ أسمى عقلاني للفلسفة، والرجل الذي كان كبير المنظرين النازيين المعادين للسامية، والساعد الأيمن لهتلر. لماذا كان ألفريد روزنبرغ مهتمًّا بكتابات

سبينوزا حتى إنه أرسل ضابطًا إلى متحف «رينسبورغ سبينوزا» في هولندا عام ١٩٤٢ لمصادرة جميع كتب هذا الفيلسوف؟ ما هي «مشكلة سبينوزا»؟ لم يعثر يالوم على أي دليل تاريخي يربط بين روزنبرغ وسبينوزا، لكنه تخيّل قصة تفسّر لماذا وجد هذا النازي أنه يمكن أن يكون الفيلسوف الهولندي مصدر تهديد. يطرح يالوم سؤالًا إضافيًّا: كيف يمكن أن يعالج معالج نفسي له توجهات شخصية بغيضة مثل ألفريد روزنبرغ؟ قد تكون هذه المهمة مستحيلة، لكن المعالج النفسي المتخيل الذي يقدّمه يالوم يقنعنا بأنه يتمتع بفهم ثاقب للرجل الذي كان له دور فعّال في وضع الأيديولوجية التي أدت إلى الحلّ النهائي.

يركّز الفصل الثالث عشر على كتاب «مخلوقات فانية» الذي يقدم نظرة ثاقبة لحياة الرجل الذي بلغ الثمانين وعمله. فقد دخل معظم المرضى الذين يناقشهم يالوم إلى العلاج النفسي لأنهم قرؤوا واحدًا أو أكثر من كتبه. كيف يشعر المرضى تجاه المعالج الذي يكتب عن العلاج؟ لماذا يريد المرضى، بمن فيهم أولئك الذين يحتضرون، أن يستخدم يالوم أسماءهم الحقيقية؟ يُعدُّ كتاب «مخلوقات فانية» ضروريًّا للقراءة لأي شخص مهتم بهذه الأسئلة والأسئلة ذات الصلة.

في الختام أركّز على الفيلم الوثائقي «علاج يالوم» في عام ٢٠١٤، ومذكراته «أن أُصبح نفسي» الصادرة عام ٢٠١٧. إذ يقدّم الفيلم الوثائقي لمحة نادرة عن علاقة يالوم بزوجته وأولاده وأحفاده. ومن المثير للاهتمام، أن زوجته، مارلين يالوم تُفصح عن نفسها أكثر من زوجها، ونرى خلافاتهما حول الحبّ الرومانسي، بما في ذلك طبيعة الحبّ الجنسانية. لا يستطيع المرء أن يشاهد فيلم «علاج يالوم» دون أن يعي اقتراب الأجل، ومع ذلك، يقول يالوم إنه يستمتع بسنواته الذهبية، وبشغفه التوأم، الحبّ والعمل، ومتحمس لنقل آرائه للآخرين. وقد ظهر كتاب «أن أُصبح نفسي» بعد أن انتهيتُ من مسوّدة هذا الكتاب، لكنني علّقت بإيجاز على وداع يالوم لقرائه بعد مسيرة كتابة امتدت نصف قرن.

هوية مزدوجة ومتضاربة أحيانًا

يعاني كثيرون من هوية واحدة، لكن يالوم يسعى إلى التوفيق بين هويتين، هما هوية المعالج النفسي، وهوية الكاتب المبدع. ويكشف كتاب «قارئ يالوم» بسخرية ذاتية مميّزة أنه كلما التقط عددًا من المجلة الأمريكية للطب النفسي، وقرأ فيها مقالات، فإنه لا يستطيع أن يفهم جيدًا المقالات التي تتناول علم الأدوية النفسية أو أبحاث التصوير الدماغي، وهي مقالات لا علاقة لها باهتمامات المرضى الإنسانية، ويقول: «أنا لا أنتمي إلى الطبّ أو حتى إلى الطبّ النفسي، فأنا كاتب - هذا هو المكان الذي أعيش فيه حقًا». وكلما شعر بصدمة من مراجعة سلبية لكتبه، فإنه يهدّئ من روعه ويقول: «أنا لست كاتبًا، أنا طبيب، وسأظل كذلك طوال الوقت». على الرغم من هذا الانقسام، لم يكتب أحد أفضل منه عن فنّ العلاج النفسي، والعلاج النفسي بوصفه فنًّا - ولم يجمع أحد بين المهنتين ببراعة أكثر مما جمعهما إرفين يالوم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الأول

نظرية وممارسة
العلاج النفسي الجماعي:
فن الكشف عن الذات

«أعتقد أنه لم يبذل أي معالج نفسي جهدًا جديًّا أكثر من هذا لإزالة الغموض عن العملية العلاجية». تصف هذه العبارة الواردة في الصفحة ٢٠٠ من الطبعة الرابعة من كتاب يالوم الأول، «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي»، بدقة أحد أهداف يالوم طوال حياته. وما يزال هذا الكتاب الذي نُشر لأول مرة في عام ١٩٧٠، والذي صدر في طبعته الخامسة المحدثة في عام ٢٠٠٥، يُعدُّ الكتاب المرجعي الرئيسي في هذا المجال. وقد صنفت المجلة الأمريكية للطب النفسي هذا الكتاب باعتباره أحد أكثر عشرة منشورات تأثيرًا في مجال الطب النفسي خلال العقد الماضي. وأشاد جيروم فرانك، أستاذ يالوم في جامعة جونز هوبكنز، بهذا العمل واعتبره «أفضل كتاب وجد حول هذا الموضوع، حاليًّا وفي المستقبل المنظور». ويُعدُّ كتاب «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» الكتاب الوحيد الذي راجعه يالوم مرات عديدة.

وقد لاحظت روثيلين جوسيلسون أنها عندما كانت طبيبة تحت التدريب في علم النفس السريري في عام ١٩٧٠ في مركز ماساتشوستس للصحة النفسية، «الحصن المهيب لفكر التحليلي النفسي»، قابل أساتذتها والمشرفين عليها كتاب يالوم «بالازدراء»، واعتبروا أن نهجه الراديكالي يخرّب الأفكار السائدة في ذلك الوقت. لكن الكتاب أحدث ببطء «تغييرًا جذريًّا» في جيلها، وأصبح الآن، كما كتبتْ في عام ٢٠٠٨، «ربما الأكثر قراءة في جميع عيادات الصحة النفسية»، وما يزال هذا الكتاب الدراسي أكثر كتب يالوم قراءة.

يقرّ يالوم بحسرة أنه عندما كتب «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» كانت لجنة الترقية بجامعة ستانفورد جمهوره الرئيسي. وعندما أُبلغ بأنه حصل على منصب دائم وترقية مبكرة، غيّر جمهوره ونهجه في الكتابة بشكل جذري. «فأبعدتُ لجنة الترقية من تفكيري، وحذفت جميع المصطلحات المتخصصة، وجميع التحليلات البحثية التفصيلية، وجميع الهياكل النظرية المعقدة غير الضرورية، وكتبت واضعًا نصب عيني هدفًا واحدًا فقط وهو

إثارة اهتمام طلاب العلاج الجماعي وتثقيفهم (قارئ يالوم، ٥-٦).

يكمن الاهتمام الرئيسي للممارسين بكتاب «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» في نهجه العملي تجاه جميع جوانب الموضوع: فهو كتاب إرشادي يستكشف بلغة واضحة وخالية من المصطلحات المتخصصة أي سؤال يمكن أن يخطر على البال حول نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي. ويكمن الاهتمام الرئيسي لنا بالكتاب في السبل التي يوضح بها رؤية يالوم للكشف عن الذات، ويتنبأ بظهوره كروائي. يشير يالوم في مقدمة كتابه «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» إلى أن العلاج النفسي «فن وعلم في آن واحد». ويعود إلى هذه العبارة في الصفحة الأخيرة من الكتاب: «العلاج النفسي هو علم وفن في آن معًا». يوجد معنى غير متوقع لهذه العبارات. ويستشهد يالوم طوال الكتاب بالفن الأدبي والقصص الخيالية والمسرحيات التي توضح رؤية الكتّاب للوضع البشري. ويستشهد بمرجعين أدبيين جديرين بالذكر هما: رواية هيرمان هيسه «لعبة الكرات الزجاجية» التي نُشرت باللغة الألمانية عام ١٩٤٣، ونشرت باللغة الإنجليزية، أحيانًا بعنوان «ماجيستر لودي» عام ١٩٤٩، ومسرحية يوجين أونيل «مجيء الرجل الثلجي» عام ١٩٤٦. وتكشف دراسة هذين العملين الأدبيين بتمعن عن مدى اعتماد العلاج النفسي والخيال على الفن السردي.

اعتراف على فراش الموت: لعبة الكرات الزجاجية

يشير يالوم إلى هذين العملين الأدبيين في الفصل المعنون «المعالج: الانتقال والشفافية». يبدأ الفصل الذي يتناول علاقة المعالج بأعضاء المجموعة، بطريقة غير معتادة، باستخدام أسلوب قلما يستخدمه مؤلفو الكتب الدراسية وهو: مخاطبة القارئ مباشرة. «هل تؤدي دورًا كمعالج؟ إلى أي مدى أنت حرّ في أن تكون على طبيعتك؟ إلى أي مدى يمكنك أن تكون «صادقًا»؟ إلى أي مدى يمكن أن تسمح لنفسك بأن تكون شفافًا؟». ويناقش يالوم في نهاية

الفصل هل ينبغي للمعالج أن يعترف بعيوبه للمرضى، ثم يقتبس من زميله الممارس م. ب. بارلوف الذي قال إن «المعالج الصادق هو الذي يحاول أن يقدّم كل ما يمكن أن يستوعبه المريض، والتحقق منه، والاستفادة منه». وفي حاشية، يقدّم يالوم مثالًا واضحًا على ضرورة التوقيت المناسب. ويلخص موضوع فصل مؤلف من ٣١ صفحة في رواية هيسه «الأب المعترف» عن شخصين مسيحيين مشهورين تائبين، أسطوريين بقدرتهما على الشفاء، أصبحا صديقين، وشفى أحدهما الآخر:

كان جوزيف، أحد المعالجين، يعاني بشدة من الشعور بالتفاهة وانعدام القيمة وعدم الثقة في نفسه، فانطلق في رحلة طويلة عبر شبه القارة الهندية ليطلب المساعدة من منافسه ديون. وعندنا وصل إلى إحدى الواحات، وصف جوزيف محنته لشخص غريب، تبين بأُعجوبة أنه ديون، فقبل جوزيف دعوة ديون وعاد معه إلى بيته باعتباره مريضًا وخادمًا له. وبمضي الوقت، استعاد جوزيف هدوءه وحماسته السابقين، وأصبح في النهاية صديق وزميل سيّده. بعد سنوات عديدة، وعندما أصبح ديون على فراش الموت، كشف لجوزيف أنه عندما التقيا في الواحة، كان قد وصل إلى مأزق مشابه في حياته، وكان في طريقه ليطلب مساعدة من جوزيف.

هذه القصة هي خلاصة أعمال يالوم، وتؤكد على الحاجة إلى علاقة علاجية حقيقية، وقيمة الكشف عن الذات لكلّ من المريض والمعالج، وفكرة المعالج الجريح، وإمكانية التغيير والنمو، وأهمية المشاركة كعلاج للوحدة الوجودية.

لا يمكن لحاشية قصيرة أن تغطي دقة «الأب المعترف»، لا سيما موهبة جوزيف في الاستماع بتعاطف. ويقترح هيسه أنه كلما زار شخص مضطرب جوزيف، كان المعالج «يعرف كيف يستمع إليه، ويصغي إليه بقلب مفتوح، ويجمع معاناة الرجل وقلقه في داخله، ويحتفظ بها، حتى يغادر التائب وهو فارغ وهادئ» (هيسه ٤٩٠). بفضل براعته في العلاج بالكلام، لا يُظهر جوزيف أي نفاد صبر عندما يتحدث التائبون مطولًا دون الكشف عن الأسباب التي دفعتهم إلى البحث عنه. وهو لا يصدر كذلك أحكامًا على

الاعترافات وعلى ضمير الضمير التي يسمعها. إن رفضه إصدار أحكام لا يمكّن التائبين من البوح بما في قلوبهم فحسب، وإنما يسمح لهم أيضًا فهم أهمية كلماتهم. ويقول هيسه أن كل ما يُعترف به لجوزيف «لا يبدو أنه يُقال في فراغ، بل يتحوّل ويخفّف ويحرر من خلال القول والاستماع».

يظهر تفكير يالوم في « لعبة الكرات الزجاجية» في الطبعة الأولى من كتابه «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي»، وظل يفكّر في الرواية التي عاد إليها بعد ٣٢ سنة في كتابه «هبة العلاج». ولم يغيّر تفسيره لرواية هيسه، لكنه أدرك الآن شيئًا لم يره من قبل عن العلاقة بين المعالجين الجريحين. «ربما فاتتهما الفرصة ليدركا شيئًا أكثر عمقًا وأصالة وقوة في التغيير. لعل العلاج الحقيقي حدث في مشهد الاحتضار، عندما انتقلا إلى الصدق وكشفا بأنهما كانا رفيقي سفر، وأنهما ليسا سوى كائنين بشريين. ربما أعاقت السنوات العشرون من السرّية، مع أنها كانت مفيدة، وحالت دون تقديم مساعدة أعمق. ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن اعتراف ديون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة قد حدث قبل عشرين عامًا، لو أن المعالج والساعي للعلاج كانا قد التقيا معًا وطرحا الأسئلة التي لا توجد إجابة لها؟»

يتماهى يالوم مع كلّ من جوزيف وديون، المعالجين الجريحين الأصغر والأكبر سنًّا على التوالي، في رواية هيسه الشهيرة التي حظيت بإشادة خاصة من الأكاديمية السويدية عندما منحته جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٦. ويتماهى يالوم أيضًا مع الروائي، مبتكر هاتين الشخصيتين الخياليتين. فقد كتب هيسه هذه الرواية بمنزلة تحذير من خطر النازية المتصاعد. تدور أحداث رواية « لعبة الكرات الزجاجية» بعد خمسمائة سنة من الآن، وتحذّر المثقفين من البقاء معزولين في أبراجهم الأكاديمية العاجية، وهو تحذير يكشف عنه يالوم في كتاباته، إذ يحثّ المفكرين أمثاله إلى التطرق بصدق في مُشكلات الحياة المعاصرة اليومية.

ينقل يالوم في إشارتيه إلى هيسه موضوع «الأب المعترف»، لكن هناك شخصية ثالثة في الفصل لم يعلّق عليها. فقد زار «عالم أو أديب» جوزيف

وديون، و«تحدّث مطولًا ببلاغة وعلم واسع عن النجوم وعن رحلة الحج التي يجب أن يقوم بها الإنسان، بالإضافة إلى جميع آلهته عبر جميع علامات الأبراج منذ بداية كل عصر حتى نهايته» (هيسه، ٥٠٩). ويرى الراوي المجهول الذي يشار إليه باسم عالم أساطير، معان كونية تتجاوز الأيديولوجيات الضيقة، أو المعتقدات الدينية. ولا يستطيع جوزيف أن يفهم لماذا يستمع ديون باهتمام شديد إلى هذا الرجل الذي يصفه بأنه وثني، يتحدّث عن مذاهب باطلة. ويعكس تفسير ديون لاهتمامه التزام هيسه بالحكمة الموجودة في الأساطير والأدب والفنون. عندما يدّعي جوزيف أن إيمانه وإيمان ديون بالمسيحية يتفوق على مذاهب الوثنيين البالية، ويشير المعالج الأكبر سنًّا إلى أن الراوي «يعيش في حكمته من الصور والرموز»، وهي حكمة لا يتفوق عليها أحد.

على صعيد ما، ربما يمثّل عالِم بالأساطير كارل يونغ الذي كان هيسه يعرفه ومعجبًا به: فقد كان هيسه يتبع مدرسة يونغ في التحليل النفسي، وكان مهتمًّا بشكل خاص بالنماذج والأنماط اليونغية واللا وعي الجماعي. وعلى صعيد آخر، فإن عالِم الأساطير هو الروائي، الراوي الذي يستطيع أن يمنح البصيرة والأمل والإلهام للذين قد يفتقرون إلى الإيمان الديني. ويرى ديون في عالِم الأساطير نسخة أصغر من نفسه، ويقول لجوزيف إن أولئك الذين يستمّدون الحكمة القديمة من أسلافهم يستحقون كل الاحترام. وعلى صعيد آخر، فإن عالِم الأساطير هو يالوم نفسه الذي سيصل في تطوره كراوي قصص إلى أن يعيش في حكمة الصور والرموز، بحثًا عن الحكمة التي تتجاوز الأيديولوجيات الضيقة أو المعتقدات الدينية.

إن كشف ديون عن نفسه في شكل اعتراف وهو على فراش الموت، يكشف قيمة اعتراف المعالجين النفسيين بنفس العيوب البشرية التي يعاني منها المرضى الذين يعالجونهم. إذ يؤكد يالوم في كتابه «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» على ميّزة الكشف عن الذات لكل من المريض والمعالج. فالمعالجون الذين يكشفون عن أنفسهم، ويقرّون بعيوبهم دون

تبرير، يشجّعون مرضاهم على قبول عيوبهم. «أظهرت الأبحاث أن المرضى الناجحين يتبنّون حتى نظام القيم المعقد للمعالج.

يقترح يالوم أيضًا أن الكشف عن الذات يفيد طلاب الجامعة، وكذلك مرضى العلاج النفسي. ويستشهد بباحثين، هما د. ميديروس وأ. ريتشاردز اللذين أظهرا في دراسة أجريت عام ١٩٩١ أن الطلاب الجامعيين الذين شاركوا بأسرارهم دون الكشف عن أسمائهم مع زملائهم في الفصل، حصلوا على فوائد تعليمية ونفسية عديدة. واستنادًا إلى يالوم، فقد بذل الباحثان كل ما في وسعهما لضمان سرية هوية الطلاب: فقد كُتبت الأسرار على أوراق موحدة، وقرأها المدرّس في غرفة مظلمة كي لا يرى أحد تعابير وجهه التي تدلّ على امتعاض. وقد تضمنت الأسرار الميول الجنسية، والأفعال غير القانونية أو غير الأخلاقية، والاضطرابات النفسية، أو المُشكلات الأسرية مثل إدمان الكحول. وكانت الأجواء في الفصل مشحونة عاطفيًّا في أثناء قراءة الأسرار، لكن الطلاب شعروا بعد ذلك بنوع من الراحة التي تنتاب مرضى العلاج النفسي. «أفاد الطلاب بأنهم شعروا بالارتياح عندما سمعوا أسرارهم تُقرأ، كما لو أن عبئًا ثقيلًا قد أُزيح عن كاهلهم. لكن الارتياح في أثناء المناقشة التي أعقبت ذلك كان أكبر، حيث شارك الطلاب ردودهم على سماع الأسرار المختلفة، وتبادلوا تجارب مماثلة، ولم يكن من غير المألوف أن يختاروا الكشف عن السر الذي كتبوه. وكان الدعم المتبادل بين الأقران إيجابيًّا ومطمئنًا إلى درجة كبيرة».

ربما استشهد يالوم بالبحث الرائد الذي أجراه عالم النفس التجريبي بجامعة تكساس جيمس بينيباكر الذي أظهر في كتابه الكلاسيكي «الانفتاح» (١٩٩٠/ ١٩٩٧) الفوائد الصحية للكشف عن الذات بين طلاب الجامعة. ويلاحظ بينيبكر في كتابه المحرَّر «العاطفة والإفصاح والصحة» (١٩٩٥) أن «الإفصاح عن أعمق أفكار المرء ومشاعره ظاهرة اجتماعية قوية، سواء في بيئة علاجية أم في الحياة اليومية». ولا ينصح بينيبيكر الطلاب بمشاركة كتاباتهم الشخصية مع الآخرين لكي لا يشعروا بالندم لأنهم كشفوا عن

أنفسهم. أوافق على أن مثل هذه الكتابات تنطوي على مجازفة، لكنني أعتقد أنه يمكن أن يضع المعلّمون بروتوكولات تجعل الفصل الدراسي مكانًا آمنًا للمشاركة في الكتابات الشخصية. بالإضافة إلى ذلك، يتعلّم الطلاب أشياء كثيرة من الاستماع إلى قصص أحدهم الآخر، وهم أنفسهم معلّمون جيدون. كتب يالوم: «يدرك المربّون دائمًا» أن المعلّم الأكثر فعالية هو غالبًا زميل قريب، شخص قريب جدًّا من الطالب لكي يكون مقبولًا، ويستطيع، من خلال التماهي مع العمليات العقلية للطالب، أن يقدّم المادة في الوقت المناسب وبأسلوب يسهل فهمه».

إفصاح فيلسوف أحمق عن ذاته: رجل الجليد قادم

ماذا يحدث عندما يُكشف عن الذات بطريقة ساخرة وطائشة، بخاصة في بيئة جماعية؟ يطرح يالوم هذا السؤال في كتابه «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي». واضعًا في اعتباره حركات المجموعات الجماعية التي كانت رائجة في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، عندما استغلّ عدد من المعالجين الكشف الذاتي للمرضى لأغراض أنانية، أدت في أحيان كثيرة إلى انتهاك الحدود الجنسية. يستشهد يالوم بأحد أسوأ الأمثلة لمعالج يتمتع بشخصية كاريزمية استغلّ أتباعه، وهو ويرنر إرهارد، بائع السيارات الذي تحوّل إلى معلّم روحي، مؤسس شركة «ندوات إرهارد التدريبية» المعروفة باسم est. لكن يالوم شاء أن يناقش بالتفصيل مثالًا أدبيًّا حول الكشف عن الذات الذي انتهى نهاية سيئة، وهو مسرحية «رجل الجليد قادم» بقلم أونيل التي تدور حول مجموعة من المشردين الذين عاشوا بسلام في الجزء الخلفي من حانة لمدة عشرين سنة. ظلّت المجموعة مستقرة طوال تلك السنين لأن كل رجل في المجموعة كان يحترم أوهام حياة أو «أضغاث أحلام» باقي أفراد المجموعة.

يهدّد وصول رجل الجليد، هيكي، بقاء المجموعة، وهو «بائع متجول»،

على حد تعبير يالوم، «معالج مستنير تمامًا، نبي مزيف يعتقد أنه يجلب الرضا والسلام الدائم لكل إنسان بإجباره على أن يتخلّى عن خداعه الذاتي، ويحدّق بصدق لا يرمش له جفن إلى شمس الحياة». ويشجّع رجل الجليد كلّ فرد في المجموعة على أن يهاجم ويدمّر أوهام الآخرين، فيزعزع استقرار أفراد المجموعة كثيرًا، وأدى ذلك إلى انتحار أحد هؤلاء الرجال، وقوّض العلاقات فيما بينهم. وعندما تصف المجموعة هيكي بالجنون وتطرده من بينهم بدافع غريزة البقاء، تمكن الرجال من إعادة تأكيد أوهامهم القديمة، واستعادة تماسكهم السابق، لكن بعد أن تغيّروا جميعهم إلى الأبد.

كسب هيكي ودّ الأشخاص بمناداتهم بأسمائهم الأولى، وشراء مشروبات لهم، والتظاهر بأنه يهتم بحياتهم، لكن تعهده لهم بمساعدتهم على التخلّي عن «أحلامهم الزائفة اللعينة» لم يكن أكثر من محاولة ليحرّر نفسه من الذنب الذي كان يعذّبه. قضى هيكي على نفسه عندما اعترف في نهاية المسرحية بأنه قتل زوجته إيفلين عندما كانت نائمة، زاعمًا أنه كان يريد أن يخفف من حزنها لأنه يلاحق النساء. اعترافه هذا بحضور الرجال ورجلَيْ شرطة دعاهما إلى الحانة، ورغبته المعلنة في إنهاء حياته على كرسي الإعدام الكهربائي، يكشفان عن دافع انتحاري وراء أفعاله. بعد قراءة رجل الجليد قادم، يستطيع المرء أن يقدّر درجة السخرية في وصف يالوم لهيكي بأنه «معالج مستنير تمامًا»، وهو معالج جريح ويجرح في الوقت نفسه. لا توجد قواسم مشتركة عديدة بين هيكي ويالوم، لكن من السخرية أن الأخير يعتبر نفسه، في كتابه الأول من قصص العلاج النفسي، «جلّاد الحب»، ومدّمر الأوهام الزائفة عن الحب. وبالتالي، يمكننا أن نرى أن يالوم نسخة إيجابية من هيكي، فيلسوف مستنير، وليس فيلسوفًا أحمق.

يكشف يالوم في مناقشاته حول «لعبة الكرات الزجاجية» و«رجل الجليد قادم» عن وجود فن الكشف عن الذات. وكما تظهر «لعبة الكرات الزجاجية»، فإن الكشف عن الذات بقدر قليل جدًّا أو متأخر جدًّا قد يؤدي إلى ضياع فرص النمو والصداقة. وتُظهر مسرحية «رجل الجليد قادم» أن

الإفصاح المفرط في وقت مبكر جدًّا قد يسبّب كارثة شخصية واجتماعية. إن فن الإفصاح عن الذات يعتمد على عدة عوامل، بما في ذلك التوقيت المناسب.

الكشف عن الذات العمودي والأفقي

يشجّع يالوم على الإفصاح الحذر عن الذات في كتابه «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي»، ويميّز بين الإفصاح العمودي والأفقي عن الذات. يشير الكشف الرأسي إلى محتوى السرّ ويتضمن البحث والتجريد والكشف والحفر. وعلى النقيض من ذلك، يشير الكشف الأفقي إلى الكشف نفسه، أو الكشف الفوقي، أي «الجوانب التفاعلية» للكشف عن الذات. ويرى يالوم أن أهم شيء في العلاج النفسي الجماعي هو كيف يؤثّر الكشف عن الذات على أعضاء المجموعة والعلاقات المستمرة، وليس على العلاقات السابقة المرتبطة بمحتوى السرّ. ويضرب مثالًا على ذلك، بمريضه جون الذي كشف أمام المجموعة بأنه يجب أن يرتدي ملابس نسائية. وكان «الميل الطبيعي» لأعضاء المجموعة الحصول على مزيد من المعلومات حول محتوى هذا الكشف: كم كان عمر جون عندما بدأ يرتدي ملابس الجنس الآخر، وما هي الملابس التي كان يرتديها، وماذا كانت تخيلاته الجنسية حينذاك. أما نهج يالوم فقد تمثّل في أن يحصل من جون على معلومات أفقية أكثر: هل وجد صعوبة لينتظر اثني عشر أسبوعًا قبل أن يكشف عن ذلك أمام المجموعة، وهل شعر بعدم الارتياح عندما كشف عنها، وهل كان يتوقع أن بعض أعضاء المجموعة سيتقبلون هذه المعلومة أكثر من غيرهم. وخلص يالوم إلى أن «الأهم من التخلّص من العبء عن النفس هو أن يؤدي الكشف إلى علاقة أعمق وأغنى وأكثر تعقيدًا مع الآخرين».

لقد مررت بلحظة «وجدتها (أو يوريكا) عندما قرأتُ عن تمييز يالوم بين الكشف الذاتي الرأسي والأفقي. فقد درّستُ دورات في الكتابة الشخصية

لمدة تزيد على أربعة عقود. وأنا لا أقيّم الطلاب على محتوى مقالاتهم، أو على درجة الكشف عن ذاتهم، بل على جودة كتابتهم «فقط». (أضع كلمة «فقط» بين علامتي اقتباس للإشارة إلى التحدّي الذي يواجهه الأستاذ لمساعدة طلابه على تحسين جودة كتاباتهم). وبما أن الطلاب يكتبون غالبًا عن مواضيع كئيبة كالانتحار، أو الاكتئاب، أو جرح أنفسهم، أو اضطرابات الأكل، أو الاعتداء الجنسي، فإننا لا نناقش محتوى كتاباتهم، على الأقل ليس مباشرة. وبعد أن يقرأ الطالب المقالة التي كتبها بصوت عالٍ، يطرح الطلاب الثلاثة الجالسين على يمينه الأسئلة التي يريدون أن يفكّر فيها صاحب المقالة، لكن دون أن يجيب عنها في الفصل. فإذا كتب الطالب مقالًا عن الاكتئاب، فقد يطرح زملاؤه الأسئلة التالية: متى بدأ الاكتئاب؟ ما سبب الاكتئاب؟ متى زال الاكتئاب؟ أو قد يطرح زملاؤه أسئلة من نوع آخر، تتعلق بعملية الكشف عن الذات. كيف تشعر حيال الكشف عن هذا الأمر في الفصل؟ هل وجدت صعوبة أم سهولة في الكشف عن ذاتك أمام الآخرين في الفصل؟ كيف تشعر حيال ردود زملائك على كشفك عن ذاتك؟ قبل أن أقرأ كتاب يالوم، لم أكن أدرك أن الأسئلة في الفئة الأولى هي أسئلة «محتوى»، وأن الأسئلة في الفئة الثانية، أسئلة «عملية». وبما أن دروس الكتابة هي أقرب إلى العلاج النفسي الجماعي منها إلى العلاج الفردي، فإن الأسئلة الأفقية تكون غالبًا قيّمة أكثر من الأسئلة الرأسية.

مفاهيم التغيير عند بطليموس إزاء كوبرنيكوس

ينطبق أحد الدلالات المتواضعة في بحث يالوم حول مجموعات اللقاء على العلاج النفسي الجماعي أيضًا. وكما يشير في دراسته التي شارك في تأليفها عام ١٩٧٣ بعنوان «مجموعات اللقاء: الحقائق الأولى»، يجب على الذين يقودون مجموعات اللقاء، ويمكننا أن نضيف أيضًا مجموعات العلاج النفسي، أن «يتخلّوا عن مفهوم بطليموس حول عملية التغيير. فالتغيير لا يدور حول شمس القائد الوحيدة: هناك أدلة قوية على أن العلاقات النفسية

الاجتماعية في المجموعة تؤدي دورًا بالغ الأهمية في عملية التغيير». ويؤكد التحوّل من النموذج البطلمي إلى النموذج الكوبرنيكي على الحاجة إلى صدق الأعضاء وانفتاحهم مع أحدهم الآخر، إلى جانب استعدادهم لتقديم وتلقي الملاحظات المتعلقة بسلوكهم في التعامل البيني مع الآخرين.

كشف يالوم عن نفسه

إن كشف يالوم عن نفسه في الطبعات الأربع الأولى من كتابه «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» قليلة وحذرة، وتقتصر دائمًا على الحاضر. ويعزو يالوم إدراكه لأهمية العلاج في «هنا والآن» إلى «عالمة نفسيّة شديدة الذكاء» اسمها دوروثي سيمينو غاروود، قادت جلسة علاج جماعي حضرها في المختبر الوطني للتدريب بعد أن أنهى خدمته العسكرية. قال يالوم لروثيلين جوسيلسون: «لقد أذهلتني عندما بدأت الجلسة بقولها: «أريدنا أن نبقى تمامًا في هنا والآن». فقد كان ذلك جديدًا عليَّ».

في قصصه السريرية، يكتب يالوم عادةً بصيغة الغائب عن معالج أو معالج مشارك مجهول الهوية قد يكون يالوم نفسه. ويكتب أحيانًا عن نفسه بصيغة المتكلّم، ويقدّم تفاصيل سلبية عن المعالج قلما ترد في دراسات الحالات النفسية. ويحدث أكثر ما يكشف عنه عن نفسه عندما يصف ثلاث عضوات في مجموعة أعربن عن انجذاب جنسي قوي له، وليس للمعالج المشارك الآخر. ثم طلب يالوم من تلك النسوة مساعدته على تحديد النقاط المخفية التي جعلت استجابة المريضات الجنسية تجذبهن إليه:

فتح طلبي مناقشة طويلة ومثمرة حول مشاعر أعضاء المجموعة تجاه كلا المعالجين. وكان هناك اتفاق كبير على أننا نختلف عن أحدنا الآخر اختلافًا تامًّا: فقد كنتُ أكثر غرورًا، وأهتم بمظهري الخارجي وملابسي أكثر منه، وأنا دقيق ومحدد في تصريحاتي، ما خلق حولي هالة جذابة من الكمال اللطيف. أما المعالج الآخر فلم يكن يبدي اهتمامًا كبيرًا في مظهره وسلوكه: ويتحدّث

غالبًا عندما لا يكون متأكدًا مما سيقوله؛ ويجازف كثيرًا، ويكون مستعدًّا لأن يكون مخطئًا، وبذلك فهو مفيد أكثر للمرضى. بدت لي هذه التعليقات صحيحة. فقد سمعتها من قبل، وأخبرتُ المجموعة بذلك. فكّرتُ في تعليقاتهم خلال الأسبوع، وفي الجلسة التالي، شكرتُ المجموعة وأخبرتهم أنهم أفادوني كثيرًا».

لا أعرف أي معالج نفسي آخر اعترف في كتاب أو دراسة حالة أو مذكّرات أن مريضات انجذبن إليه كثيرًا بسبب غروره، من بين أسباب أخرى. حتى لو كان المعالجون مستعدين للكشف عن أنفسهم بهذه الطريقة، فمن غير المرجح أن يستخدموا كلمات ساخرة مثل «الكمال الدمث». ولن يعزوا المعالجون الآخرون سلوك المرضى الذي يشي بالجنس إلى نقاط ضعفهم. ولزيادة السخرية، يعترف يالوم بأن زميله المعالج الذي لم يكن يكترث بهندامه، ولم يكن واثقًا من نفسه، ومستعدًّا لأن يخطئ، كان مفيدًا أكثر لمرضاه.

وفي مناسبة أخرى، يشير يالوم إلى نفسه بضمير الغائب ويصف عدم رضاه عن سلوكه خلال جلسة جماعية. «كان يشعر بأنه يسيطر على الأمور كثيرًا، وأنه في غاية النشاط، ويعطي توجيهات بقوة. لا شك أن هذا يعود في جزء كبير منه إلى شعوره بالذنب لأنه غاب الجلستين السابقتين، وإلى رغبته في أن يعوّض ذلك اليوم بإعطاء أكبر قدر ممكن».

تكشف انتقادات المرضى أحيانًا جانب يالوم الإنساني. فعندما سأله المرضى قبل عدة سنوات لماذا يضع سوارًا نحاسيًّا، قال من أجل علاج مرفقه عندما يلعب التنس، فكان حكمهم سريعًا وقاسيًّا. «فقد غضبوا لأنني أومن بالخرافات أو أستخدم علاجات كلّها دجل وشعوذة. (فقد كانوا يوبخونني لشهور لأنني شخص علمي جدًّا، لكنني لستُ إنسانيًّا بما يكفي) واقترح بعضهم أنني إذا أمضيتُ مزيدًا من الوقت مع مرضاي، وقلّلتُ الساعات التي أمضيها في ملعب التنس، فإن الجميع سيكونون في حال أفضل». وبعد صفحة، وصف يالوم موقفًا هاجمه فيه أعضاء المجموعة لأنهم كانوا يرون

أنه ليس قريبًا منهم، فدافع عنه أحد المرضى الذي ذكر، بشكل عابر، أنه اتصل بالهاتف بيالوم، ودار بينهما حديث نسي المعالج أن يذكره للمجموعة، وصاحوا ساخرين: «أين هو اللا وعي لديك؟».

«يبدو أن هذه طبيعتنا التي جُبلنا عليها»: كشف متأخر عن الذات

إن أكثر ما يثير الاهتمام في كتاب «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» أن الكشف عن الذات يظلّ أمرًا مجهولًا. إذ يحتوي الفصل الافتتاحي الأول من الطبعات الأربع الأولى من الكتاب الدراسي على قسم بعنوان «الشمولية» يذكر فيه يالوم أن معظم المرضى الذين يأتون إلى العلاج النفسي لأنهم يخشون أنهم «فريدون في بؤسهم». ويعتري هؤلاء المرضى شعور بالراحة عندما يكتشفون أنه توجد لدى أعضاء آخرين في المجموعة مخاوف مماثلة. وهذا الشعور بالراحة الناجم عن المعرفة بأن «الجميع في نفس المركب» يحدث أيضًا في العلاج الفردي. ويعطي يالوم المثال التالي على أهمية التحقق بالتراضي:

في إحدى المرات، راجعت مع أحد المرضى تجربته التي استمرت ٦٠٠ ساعة في التحليل الفردي مع معالج آخر. وعندما سألته ما هو أهم حدث يتذكّره في علاجه، وصف حادثة كان فيها في حالة كرب شديد بسبب مشاعره تجاه أمه. وعلى الرغم من مشاعره الإيجابية القوية في ذلك الوقت، كانت تراوده رغبة في أن تموت، لأنه سيرث منها ثروة كبيرة. فعلّق معالجه ببساطة: «يبدو أن هذه هي طبيعتنا». وقد جعل هذا التصريح البسيط أن يشعر المريض بارتياح شديد، وقد مكّنه ذلك من استكشاف تناقضاته بعمق أكبر.

إن ما يميّز هذه القصة السريرية عن غيرها من القصص الواردة في كتاب يالوم المدرسي الأول في الطب النفسي هو أنه عاد إليها بعد تسعة عشر عامًا، في مجموعته القصصية «جلّاد الحبّ»، حيث كشف لأول مرة أنه كان

يشير إلى نفسه. وفي وصفه لمريضة كانت « تشعر بخجل شديد من أبيها»، يتذكّر يالوم شيئًا كانت قد قالته له محلّلته النفسية الأولى، أوليف سميث، قبل ثلاثين سنة (أظن أنني أتذكّر ذلك جيدًا، لأنه كان الشيء الوحيد الذي قالته لي على الإطلاق، والذي كان شخصيًّا إلى حد ما، والأكثر فائدة، خلال الستمائة ساعة التي أمضيتها معها). كنتُ قد تأثّرت كثيرًا بعد أن عبّرت عن بعض المشاعر الفظيعة تجاه أمي، فانحنت أوليف سميث فوق الأريكة، وقالت بلطف: «يبدو أننا خُلقنا هكذا».

ماذا يمكننا أن نقول عن اعتراف يالوم المتأخر؟ فلم يكن مستعدًّا لأن يعترف علنًا في عام ١٩٧٠، عندما صدر كتاب «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» لأول مرة، ولم يكن مستعدًّا لأن يفعل ذلك في الطبعات الثانية والثالثة والرابعة من الكتاب. بل أصبح مستعدًّا عندما نشر كتابه «جلّاد الحب»، واثقًا بما يكفي ليكشف عن تفاصيل محرجة جدًّا عن علاقته المتضاربة مع والديه. ويشير في كتابه إلى «الثلاثي المحرّم» الذي قلما يُطرح في العلاج وهو: الجنس والمال والموت. وقد أصبح الآن مستعدًّا لمشاركة قرائه موضوعين من هذه الموضوعات المحرمة. وكما استخدمت أوليف سميث كلمة «نحن» لوصف نقاط الشبه بينها وبين يالوم، اعتراف بجانبها المظلم، فهو مستعد ليطمئن قراء كتاب بالاعتراف بقرابة صلة الدم بينه وبينهم.

يجب على الذين يشجعون على فنّ الكشف عن الذات المحفوف بالمخاطر أن يكونوا حساسين للخجل الكامن. فقد عمّق سيلفان تومكينز، وهيلين بلوك لويس، وليون وورمسر، فهمنا لديناميات الخجل. فقد حدّد وورمسر ثلاثة معانٍ متميّزة للخجل هي: الخوف من العار، وتأثير الازدراء، والصفة الشخصية التي تمنع الكشف عن الشيء المشين. وبخلاف هؤلاء المنظرين، كشف يالوم عدة مرات عن خجله، ليصبح بذلك قدوة يحتذى به للمرضى الذين يعالجهم.

إن كشف يالوم المتأخر عن نفسه هو هدية لقرائه الذين يؤكد لهم أن المشاعر المظلمة جزء من طبيعتنا. وبالكشف عن هوية المعالج الذي كان

يقاضي نفسه على دوافعه الدنيئة، فإنه يطبّق عمليًّا إيمانه بالكشف عن الذات بحذر. يمكننا أن نخمّن أنه في أثناء كتابة مجموعة «جلّاد الحبّ» كان يشعر بالبهجة لأنه يكشف أول مرة في كتاب مطبوع عن أمور كانت تثقل كاهله منذ سنوات.

إن الشيء الذي تغيّر في كشف يالوم عن نفسه أيضًا طريقة التعبير. ففي كتابه «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي»، كان أسلوبه النثري واضحًا وخاليًا من المصطلحات النفسية المعقدة، لكن لغته لم تكن متألقة كما في كتاباته اللاحقة. (يعرف الأكاديميون أن الأسلوب النثري المتألق لا يثير إعجاب لجان الترقية والتعيين). تتجلّى موهبة يالوم في استخدام اللغة المجازية عندما يشير بسخرية إلى نفسه بأنه «إخفاء عن أنظار الادعاء»، وهي استعارة تذكّرنا برواية كافكا «المحاكمة». لا يشير يالوم ببساطة إلى أمله في أن يحصل على ميراث: بل يتوق إليه «بطمع». ويجسّد في بضع كلمات بسيطة قوة محلّلته النفسية على إدراك الطبيعة القاتلة للذات المظلمة وتخفيف حدتها.

إزالة الغموض عن العلاج

يعلن كتاب «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» عن بداية مسيرة يالوم الطويلة لإزالة الغموض عن العملية العلاجية. وما يزال هذا الكتاب يشكل علامة فارقة لعدة أسباب، منها إصراره الشديد على شفافية المعالج. وتظهر حقيقة يالوم في كل صفحة من صفحات الكتاب. وأي شيء يقف في طريق الحقيقة يصبح عائقًا أمام العلاج. فهو ينتقد مثلًا في الطبعة الرابعة من كتابه الدراسي مقالًا نُشر في عدد من «المجلة الأمريكية للطب النفسي» في عام ١٩٩٣، ينصح فيه المعالجين بالابتعاد عن «الإنسانية ذاتها» التي تشكّل جوهر العلاج. وعلى حد تعبير يالوم، فقد كُتب المقال «بنبرة فيكتورية عالية، وحذّر الأطباء النفسيين من أن يقدموا القهوة أو الشاي لمرضاهم، ومخاطبتهم بأسمائهم الأولى، وألّا يستخدموا أسماءهم الأولى، وألّا يتجاوزوا

الخمسين دقيقة مدة الجلسة، وألّا يقابلوا أي مريض في الساعة الأخيرة من العمل (لأن المخالفات تحدث في ذلك الوقت عادة)، وألّا يلمسوا المريض أبدًا - حتى تصرف مثل الضغط على الذراع، أو التربيت على ظهر مريض الإيدز الذي يشعر كما لو أنه مجذوم منبوذ ويحتاج إلى لمسة علاجية - يجب أن يتم فحصه وتوثيقه». ويصرّ يالوم على أن هذه التحذيرات «تؤدي إلى تآكل العلاقة العلاجية بشكل عميق». ويظهر المؤلفان المشاركان في المقالة المسيئة في قائمة المراجع، على الرغم من وجود خطأ في كتابة أحد الأسماء T. Gutheil وG. Gabbard. وتظهر نفس الانتقادات الموجهة إلى المؤلفين المشاركين في الطبعة الخامسة، لكن يالوم حدّث تعليقه: «يُحسب لمؤلفي المقال الصادر عام ١٩٩٣ أنهما أدركا التأثير المضاد للعلاج الذي أحدثه مقالهما الأول، وكتبا مقالًا ثانيًا بعد خمس سنوات بهدف تصحيح رد الفعل القوي الذي أثاره المقال الأول».

الكشف عن الذات بشكل مُدمّر

لا يجمّل يالوم الحقيقة أبدًا ولا يبرر إخفاقاته. ولا يدلي بتصريحات قد تكون مزعجة جدًّا بحيث يتعذر على مرضاه أو قرائه قبولها. لكن هذا لا يمنعه من الكشف عن أن «السرّ النهائي والمروّع للمعالج النفسي» هو أن «الدراما الشديدة التي تجري في غرفة المجموعة تؤدي دورًا صغيرًا جدًّا ومحدودًا في حياته». كشف يالوم عن هذا السرّ مرة واحدة فقط - أمام مجموعة علاجية من أطباء الأمراض النفسية المقيمين الذين كانوا يشعرون بالحزن المسبق على رحيله لقضاء إجازة دراسية. وعرض على المجموعة حقيقة كانوا يعرفونها، لكنهم رفضوا الاعتراف بها، وهي: «كنت بالنسبة إليهم أهم بكثير مما كانوا لي. إذ يوجد لديّ عدد كبير من المرضى، أما هم فلا يوجد لديهم سوى معالج واحد. ومن الواضح أنهم يدركون هذا التفاوت في عملهم النفسي مع مرضاهم، وعلى الرغم من ذلك، فإنهم لم يطبّقوه على أنفسهم قط. عندما أدركوا هذه الحقيقة، وهذا الإنكار لهذه الخاصية، شعر

أفراد المجموعة بهذه القسوة المتأصلة في العلاج النفسي».

كان بإمكان يالوم أن يخفّف من حدة هذه الحقيقة القاسية بالقول إنه سيعود بعد بضعة أشهر، وإنه ما يزال يتمنى لهم التوفيق رغم غيابه، وإنه واثق من أنهم سينجحون من دونه. كان بإمكانه أن يقول ليس سوى ناقل رسالة غير محببة. كان بإمكانه أن يقول أيضًا، مقتبسًا من كلام معالجته السابقة: «يبدو أننا جُبلنا هكذا». لكن المرء يشك في أن يالوم، بإظهاره أنه جزء من القسوة المتأصلة في العلاج النفسي، سمح لمرضاه، بل شجعهم، على أن ينزعوا الصورة المثالية عنه، فسهّل عليهم الاستغناء عنه.

من المفارقة أنه على الرغم من أن يالوم لم يحدّد قط «السر النهائي والرهيب للمعالج النفسي»، فإن رواياته وقصصه عن العلاج النفسي تكشف سرًّا آخر لا يقلّ أهمية. إذ يحتاج المعالج النفسي الذي يواجه الموت في رواية «علاج شوبنهاور»، جوليوس هيرتزفيلد، إلى أعضاء المجموعة الآخرين بقدر ما يحتاجون إليه. وتعتمد رغبته في الموت على ممارسة عمله الذي يحبّه حتى النهاية. وكان أعضاء المجموعة كذلك، كأفراد أو مجموعة، ضروريين بالنسبة إلى جوليوس بقدر ما هو ضروري بالنسبة إليهم.

حتى عندما يطرح فكرة جذرية، مثل كشف المعالج عن نفسه، ينصح يالوم «بالاعتدال في كل شيء»، كما يذكر في الطبعتين الرابعة والخامسة من كتابه. «هناك مكان مناسب لإخفاء المعالج، وليس بالضرورة أن يكون المعالج الأكثر فائدة هو الذي يكشف عن نفسه بشكل كامل ومتسق. (الطبعة الرابعة). لا يتمالك يالوم الأدبي نفسه من إضافة حاشية على هذه الملاحظة، مشيرًا إلى أن العديد من «الابتكارات الجريئة في العلاج» نشأت في جنوبي كاليفورنيا، ثم يتذكّر يالوم «الفكرة الخيالية» التي وردت في رواية «اغتنم اليوم» للكاتب سول بيلو، عن شخص يميل خريطة كبيرة ومسطحة للولايات المتحدة ويلاحظ أن «كل شيء لم يكن مثبتًا بمسامير أو براغي انزلق إلى جنوبي كاليفورنيا».

«التوق إلى علاقة أكثر إنسانية»

بعد نشر مجموعة «جلّاد الحب» و«عندما بكى نيتشه»، تلقى يالوم «سيلًا من الرسائل، من مرضى ومعالجين، تشهد على الاهتمام الواسع والرغبة في إقامة علاقة أكثر إنسانية في هذا المجال العلاجي». وتشهد الطبعات التي تُحدَّث باستمرار من كتاب «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» على أهميته المستمرة. ويشير في كتابه «قارئ يالوم» إلى أن كل طبعة كانت تتطلب سنتين من العمل الدؤوب. ويظل الكتاب مرجعًا ممتازًا للمرضى والمعالجين وعامة الناس حتى الآن. ويدرك يالوم، رغم كلّ ما يبذله من جهد، أن الكلمة الفصل في العلاج الفردي أو الجماعي لا تُكتب أبدًا، ويحثّ القراء على أن ينظروا بعين الريبة، خصوصًا عندما يقول لأحد المرضى: «إنك تملأني بحكمة هائلة». هذه واحدة من العبارات القليلة في الكتاب التي سيختلف معها قرّاءه عليها.

الفصل الثاني

كل يوم يقترب قليلًا:
العلاج من منظور مزدوج

واجه المعالجون النفسيّون الذين كتبوا عن تجاربهم السريرية مشكلة محيرّة قد تكون مستعصية على الحل، وهي: كيف يمكن الحفاظ على سرّية المرضى والكشف عن أسرارهم العميقة. إن إخفاء وتمويه شخصية المرضى إلى درجة كبيرة يغيّر معنى قصتهم، ويلحق قلة تمويهها ضررًا بهويتهم. وقد أربكت هذه المشكلة فرويد الذي ذكر في بداية كتابه «ملاحظات حول حالة من العصاب الوسواسي» - قصة «رجل الجرذان» (١٩٠٩). «لا أستطيع أن أقدّم تاريخًا كاملًا للعلاج، لأن ذلك يتطلب أن أدخل في تفاصيل حياة مريضي. إن اهتمام عاصمة [فيينا] الملحّ الذي يركّز بصورة خاصة على أنشطتي الطبية، يمنعني من تقديم صورة دقيقة للحالة (SE، المجلد ١٠، ١٥٥). وقد تم التعرّف على جميع مرضى فرويد، عدد كبير منهم خلال حياتهم، وبعضهم، كما في حالة «رجل الذئاب»، من خلال المريض نفسه.

لكن ماذا عن سرّية المعالج؟ إلى أي مدى يستطيع أن يكشف المحللون عن أنفسهم دون أن يشعروا بالقلق من أن هذه المعلومات الشخصية قد تعقّد العلاج أو حتى تعرقله؟ ومن أجل تجنب هذه المُشكلات ومُشكلات أخرى، شدّد فرويد على حيادية المحلل النفسي. وحذّر في «توصيات للأطباء الممارسين للتحليل النفسي» (١٩١٢) بالقول: «لا يمكنني أن أنصح زملائي بقوة أن يقتدوا في العلاج التحليلي النفسي بالجرّاح الذي يضع كل مشاعره جانبًا، حتى تعاطفه الإنساني، ويركّز كلّ قواه العقلية على هدف واحد وهو إجراء العملية بأكبر قدر ممكن من المهارة». (SE، المجلد ١٢، ١٥٥). وأقرّ فرويد بأن توصيته تنطوي على «برودة عاطفية»، لكنه مستعد لتحمّل هذه المخاطرة.

وأكد فرويد أن نموذج العلاج الجراحي «يخلق الظروف الأكثر ملاءمة لكلا الطرفين: للطبيب، حماية مرغوبة لحياته العاطفية، وللمريض، أكبر قدر من المساعدة التي يمكننا أن نقدّمها له اليوم». يستخدم فرويد في الفقرة التالية استعارة أكثر تجريدًا للعلاقة العلاجية. بصيغة مُختصرة: يجب أن يُوجّه

لاوعيه، بصفته عضوًا مُستقبِلًا، نحو لاوعي المريض المُرسِل. ويجب أن يُكيّف نفسه مع المريض كما يُكيّف سماعة الهاتف مع الميكروفون المُرسِل. (١١٥-١١٦). وفي نهاية المقالة، رفض فرويد إغراء المحللين النفسيين «الشباب» و«المتحمسين» «إدخال شخصيتهم الفردية» في علاج المرضى الذين يعالجهم. «لذلك، فإني لا أتردد في إدانة هذا النوع من التقنيات باعتبارها غير صحيحة. ويجب ألَّا يكون الطبيب شفافًا مع المرضى الذين يعالجهم، ومثل المرآة، ينبغي ألَّا يريهم سوى ما يراه هو».

قدّم فرويد هذه التوصيات جزئيًّا لأنه أراد أن يرسّخ التحليل النفسي باعتباره علمًا طبيًّا - ثم غيّر رأيه وقال إنه ينبغي أن يكون المحللون أطباء، لكنه لم يغيّر إيمانه بأن التحليل النفسي علم وليس فنًّا - وجزئيًّا لأنه خشي أن يكشف المحللون الذين ينخرطون عاطفيًّا بإفراط عن جوانب من أنفسهم قد تضرّ بالعلاج. ويُعدُّ اكتشاف فرويد للانتقال (الميول الإسقاطي اللا واعية للمريض) والانتقال المقابل (الميول الإسقاطية اللا واعية للمحلّل) والمقاومة السريرية من بين أعظم رؤاه. وكان محقًّا في تذكير المحللين بالمخاطر التي يشكّلها الانتقال والانتقال المقابل. وكتب فرويد في نهاية كتابه «ملاحظات حول حبّ - الانتقال» (١٩١٥): «يعرف المحلّل النفسي أنه يعمل مع قوى شديدة الانفجار، وأنه يجب أن يتوخى الحذر ويعمل بهمة كيميائي» (SE، المجلد ١٢، ١٧٠).

ومن المثير للاهتمام أن فرويد لم يمارس قط ما كان يدعو إليه. فنحن نعلم، مثلًا، من تحليله في قصة «رجل الذئاب» بأن فرويد لم يتردد في إعطائه نصائح، مثل عدم اتباع رغبته في أن يصبح رسامًا، وتجنب العودة إلى روسيا بعد الثورة فيما اعتبره مسعى خطيرًا، وربما عقيمًا ليستعيد ثروته المفقودة. بالإضافة إلى ذلك، قدّم فرويد هدايا لرجل الذئاب، وأفضى إليه معلومات شخصية عن أسرته وأصدقائه وزملائه. ويؤكد عدد كبير من الذين أُجريت لهم معالجة تحليليّة نفسانيّة الذين أصبحوا محللين هم أنفسهم، والذين كتبوا عن تجربتهم مع فرويد، أنه لم يكن مرآة فارغة بالنسبة إليهم. ومنذ بداية حياته المهنية،

رفض يالوم نموذج فرويد الجراحي للعلاج النفسي لأنه يحول دون إجراء العلاج الحقيقي.

«علاج يُروى مرتين»

يتمثّل أحد الحلول لمشكلة السرّية في دعوة مريضة للمشاركة في تأليف كتاب السماح لها أن تجري التغييرات اللازمة لإخفاء هويتها. وقد استخدم يالوم هذه الاستراتيجية في كتابه «كلّ يوم يقترب قليلًا» الذي شارك في تأليفه مع مريضته التي استخدمت اسمًا مستعارًا هو جيني إلكين. ويحمل الكتاب عنوانًا فرعيًّا «علاج يُروى مرتين»، ربما في إشارة إلى مجموعة قصص هاوثورن القصيرة «حكايات تُروى مرتين»، يضم انطباعات يالوم عن جلساته الأسبوعية مع جيني، تليها انطباعاتها هي. ونحصل بذلك على منظور مزدوج للعلاقة بين المعالج والمريضة. بالإضافة إلى ذلك، فقد كتب كلّ منهما مقدمة وخاتمة بعد ثمانية عشر شهرًا من آخر جلسة علاجية لهما.

تتميّز بنية الكتاب عن غيرها في تاريخ الطب النفسي، كما تميّزت طريقة الدفع التي اتبعتها المريضة. فبدلًا من أن تدفع أتعاب العلاج التي لم يكن بوسعها أن تدفعها، طلب منها يالوم أن تكتب ملخصًا عن كل جلسة، «لا يتضمن ردود أفعالها على ما حدث فقط، وإنما يتضمن أيضًا وصفًا للحياة الخفيّة التي حدثت في تلك الجلسة، ملاحظة من العالم السرّي - كلّ الأفكار والتهويمات والتخيلات التي لم تظهر في ضوء النهار خلال أحاديثهما الشفوية. هل ستتمكن جيني من التغلب على حبسة الكتابة التي تعاني منها والتي وصفها يالوم «بالحيلة الإجرائية الجريئة»، وهي مشكلة محيّرة لروائية طموحة في الثالثة والعشرين من عمرها التحقت مؤخرًا ببرنامج الكتابة الإبداعية في جامعة محلية؟ ويضيف يالوم بسرعة أن هذا الترتيب لم يتطلب أي تضحية مالية من جانبه، لأنه كان عضوًا متفرغًا في هيئة التدريس بجامعة ستانفورد، وكان عليه أن يعطي الجامعة أي مبلغ يكسبه من عمله السريري.

واتفق يالوم وجيني على ألّا يقرأ أحدهما تقارير الآخر لعدة أشهر لتجنب الشعور بالخجل. ولم تكن فكرة النشر مطروحة عندما بدآ العمل معًا.

كان يالوم يدرك مخاطر تجربته العلاجية هذه. وكان مرتاحًا في الكشف عن نفسه أكثر منها، وكانت ستخسر الكثير لو انتُهكت سرّيتها. فهي المريضة الضعيفة، وتملأ حياتها أشياء كثيرة من الكرب والشعور بالذنب والعار. لكن كشف يالوم الجريء عن نفسه عرّض صورته العامة للخطر. ولم يتردد قط في طرح أسئلة أخلاقية صعبة. هل «العقد المبرم بينهما» شكل من أشكال الاستغلال؟ لم يكن متأكدًا من ذلك. «أشكّ في أنني أضع توقعات كبيرة على جيني. هل أستغل حقًّا موهبتها في الكتابة لكي تُنتج لي شيئًا؟ إلى أي مدى يُعتبر طلبي لها أن تكتب بدلًا من أن تدفع مجرد إيثار؟ وإلى أي مدى يُعتبر أنانيًّا؟». إن صياغة هذه الأسئلة تشير إلى أن الإيثار والأنانية لا تتعارضان. ومن خلال النظر إلى المريضة من منظور مزدوج، كان يالوم يأمل في أن يكون اهتمامه الرئيسي منصبًا على جيني كشخص، وألّا يكون «سوى مغازلة خفيفة» مع جيني الكاتبة.

كاتبة مترددة

لم تكن جيني مُتحمَّسة لكتابة انطباعاتها عن الجلسات مثل يالوم. فقد كانت تؤجل الكتابة في بعض الأحيان، ولم تكن تعرف ماذا تكتب في أحيان أخرى، خصوصًا عندما تكون مكتئبة، وكان ذلك يحدث معظم الأحيان. ولم يستطع يالوم أن يقرر إن كان عليه أن يحثّها على الكتابة، أم يوبخها لأنها لم تفِ بالجزء المتعلق بها من العقد. وإذا اختار الخيار الثاني، فهل سيزداد اكتئابها؟ ليس من المستغرب أن يظلّ أكثر انفتاحًا وتمعنًا من جيني. فقد كانت التقارير التي يدوّنها عن تلك الجلسات أطول وأكثر تفصيلًا ويزيد عددها على التقارير التي تكتبها. وفي محاولة ليكونا متساويين قدر الإمكان، كان يشير إليها باسم «جيني»، وهي تشير إليه «أنت»، لأنها لم تستطع أن

تخاطبه باسمه الأول.

يتجلّى تردّد جيني في الكتابة عن نفسها بوضوح طوال القصة. ويذكّرنا رفضها الكتابة بناء على طلب شخص آخر بالكاتب العام بارتلبي الذي كان لتعبيره «أفضّل ألّا أكتب» تأثير جنوني على الراوي في قصة ميلفيل القصيرة. فعلى الرغم من العقد الذي أبرمته مع يالوم، لدى جيني سبب وجيه لتتوخى الحذر في الكتابة عن نفسها. كل هذه التقارير عن الجلسات هي كلمات سحرية أخفيها. لا أريد أن يراها أحد». ونادرًا ما تتطلع إلى كتابة تقارير العلاج، ولم تتغلب قط على خوفها من أن يكتشف صديقها كارل ما تكتبه. (وكما يتضح، يحضر كارل بعض الجلسات ويقدّم انطباعه كتابة عن العلاج، فيخلق قصة علاجية تُروى ثلاث مرات). وتشعر جيني بالقلق من أن تدينها كتاباتها وألّا تعبّر رواية يالوم أو روايتها في العلاج عن حياتها بدقة.

وتثير قراءة بعض تعليقات يالوم قلق جيني. ويعرف علماء النفس منذ زمن أن العواطف معدية كالجراثيم، وزادت معرفة جيني بأن يالوم أصيب بعدوى عواطفها المظلمة، لكن معظم تعليقات يالوم عن جيني كانت داعمة، وأدركت أنه حليف لها. فقد أكّد لها موهبتها الأدبية، وأن لغته «غير متقنة وتفتقر إلى الخيال» مقارنة بلغتها. وهو لا يختار جملًا معينة ليمتدحها، لكن توجد جمل كثيرة تمتدحه بها. وينتاب جيني الشك بأن الحديث عن كتاباتها ليس سوى «حيلة ليتحدّث عن مصدر إلهامي». بعد صفحة واحدة، تقدّم وصفًا فريدًا حول كيف أثّرت كتابة التقارير على العلاج، «يبدو كما لو أنني أعيش في بند «لو» في العلاج النفسي. حياتي معلقة من كلمة «لو». وفي نهاية العلاج تقريبًا، كتبت مقالة ساخرة بعنوان «الشخص غير الكفؤ»، تحلم فيها بإهداء جميع كتبها في المستقبل «إلى الدكتور «ي» الذي منحني الحرية لكي أبكي، والحماسة لكي أطير، وعشرة أسباب لكي لا أموت».

وتوصلت جيني إلى عدة استنتاجات حول التقارير التي كتبتها خلال علاجها الذي استمر مدة سنتين. كلما كانت الجلسة أكثر هدوءًا، كان من الصعب أن تكتب عنها. هل يمكننا أن نستنتج أن الصراع كان مصدر إلهامها

في الكتابة؟ ربما، لكنها لم توضح ذلك قط. وليس من الواضح أيضًا إن كانت الكتابة قد خففت من صراعاتها الداخلية. وتذكر في الخاتمة التي كتبتها جيني مع أن التقارير التي كتبتها تتسم أحيانًا «بالكآبة والجدية المتعمّدة، أو الركاكة والسطحية، لم أستطع أن أجبر نفسي على أن أصل إلى الكلمات الشافية التي كان يريدها». وتشير إلى أن الكتابة عن انطباعاتها عن العلاج ثم قراءة كلمات يالوم لم تؤد إلى أي رؤى أو تقدم محدد. ولم تكن هذه الكتابة مفيدة من الناحية السريرية. وتذكر أنها وجدت عملًا يشمل البحث والكتابة، لكنها لم تكن متأكدة إن كانت قد حصلت على عملها الجديد نتيجة العلاج.

وعلى الرغم من شكواها من المقالات، فقد ظلت جيني مخلصة ليالوم في أثناء العلاج وبعده. فقد ساعدها على أن تشعر بأنه طرأ تحسّن تجاه نفسها وأصبحت تمتلك ثقة أكبر في حياتها. إن الكرم والامتنان سمتان قيّمتان جدًّا في شخصية يالوم، وذكّر جيني بأن عليها أن تشعر بالرضا عن جهودها في تكوين صداقات مع الآخرين، وحذّرها من أن تستخف بحدسها وتعتبره عيبًا، كما كانت تفعل. «طلبتُ منها أن تتوقف عن هذا التبسيط والاختزال الفرويدي، وأن تتقبّل الكرم أو اللطف باعتبارهما حقيقة إيجابية ومهمة عن نفسها قائمة بذاتها ولا تحتاج إلى مزيد من التحليل». وكما سنرى، يصبح تعليق يالوم حجر الزاوية في رواية «عندما بكى نيتشه»، حيث يتعلّم الفيلسوف تقدير الامتنان باعتباره هدية تُثري المانح والمتلقي على حد سواء.

الوعي الأدبي الذاتي

تتمثّل إحدى نقاط قوة يالوم الفريدة في قدرته على الاعتراف بالشكوك وعدم الشعور بالطمأنينة التي يحاول الكتّاب الآخرون إخفاءها. ففي الصفحة الأولى من الكتاب، يعترف بأن التحدّث مع جيني يذكّره بمحادثاته الأخيرة مع عالم النفس الوجودي فيكتور فرانكل. إن معرفته بأن معالجين آخرين أثّروا على طريقة تعامله مع جيني تجعله يشعر «كأنه حرباء لا لون

لها». وبعد بضع صفحات، يكرر نفس الملاحظة، لكن بطريقة أقسى على نفسه. «أشعر دائمًا بالاشمئزاز من نفسي إذا قرأت لأحد ثم وجدت نفسي أتبع تقنياته في جلستي العلاجية التالية». قلما تجد هذه الاعترافات طريقها إلى الأدبيات الواسعة حول دراسات الحالات النفسية. ويشك يالوم كذلك في العنصر الأدائي للكتابة، ويشعر بعدم الارتياح تجاه الحاجة إلى إثارة إعجاب قرّاء كتابه. ومع ذلك، فهو يدرك أن الرغبة في كسب إعجاب قرّائه لا تنفي الحاجة إلى مساعدة مرضاه. ويخلص إلى أن الحلّ للوعي الذاتي يتمثّل في «أن أراقبه – العين الثالثة، الأذن الثالثة»، وقد تكون هذه الأخيرة إشارة إلى كتاب ثيودور ريك بعنوان «الاستماع بالأذن الثالثة».

تزخر كتابات يالوم بالإشارات الأدبية، إلّا أنه يشبه في كتبه الأولى أحيانًا طالب دكتوراه يستعد لامتحاناته، ويذكّر أساتذته بشعور بالذنب بأنه لا يعرف الكثير. ويشعر بالتوتر لأنه سيلقي محاضرة يوم غد في ندوة «الفكر الحديث»، ويقول: «لأن اهتمامي بالأدب يفوق اهتماماتي في هذا المجال بسبب الثغرات المعرفية الصارخة». لكن هذه الثغرات لا تبدو واضحة للقارئ أبدًا. فهو يقتبس من الأدباء بسهولة، عندما يلاحظ أن جيني تضفي أحيانًا طابعًا رومانسيًّا مأساويًّا على محنتها، ويذكّره ذلك «بفرجينيا وولف التي ستملأ جيوبها بالأحجار ذات يوم وتتوجه إلى المحيط»، (للتوضيح، فقد أغرقت وولف نفسها في نهر أوز خلف منزلها في ساسكس بإنجلترا). وفي مرة أخرى، حذّر نفسه من «استعادة الماضي بطريقة بروستية» من ماضي جيني. ولا يخشى من أن يعترف بأنه لم يقرأ بعض الكتّاب عندما أشار إلى حماسة جيني لقراءة سلسلة من روايات أنتوني باول.

مادة دسمة لطاحونة المعالج النفسي

يعُدُّ كل شيء مادة دسمة لطاحونة كاتب العلاج، بما في ذلك موضوع لن يكتب عنه أي شخص آخر – كيف تؤثّر علاقة المعالج بمريضته على

زواجه. إذ يبدأ كتاب «كل يوم يقترب قليلًا» بمقدمة كتبتها مارلين يالوم التي تصف، بوصفها أستاذة لغة فرنسية، شعورها عندما قرأت لأول مرة وجهتَيْ نظر زوجها وجيني. «تساءلتُ في سريرتي ألن تشكل هذه التقارير حول تلك الجلسات قطعة أدبية قابلة للنشر، تشارك فيها شخصيتان متميزتان، لهما أسلوبان أدبيان مميّزان، لا تختلف عن رواية مكتوبة في شكل رسائل». وقد ثبتت صحة حكمها الأدبي، وساعدت على إقناع زوجها بأن يشتركا في تأليف الكتاب، فأقنع جيني بذلك. وأكد يالوم لجيني أن كلّ ما سيكتبانه سيكون ملكًا مشتركًا لهما، وأن عليهما أن يوافقا على تقديم النص النهائي للنشر، وتقاسم حقوق النشر بالتساوي بينهما إذا نُشر الكتاب. وحررت مارلين يالوم الكتاب «كل يوم يقترب قليلًا»، لكنها أصبحت أيضًا بطلة غير مقصودة في القصة. فقد التقى يالوم بجيني وزوجته بعد أربعة عشر شهرًا من الجلسة الأخيرة فيما أسماه «اجتماع عمل اجتماعي». كان الموقف مربكًا للجميع. «تناديني زوجتي إرف، لكن جيني لا تستطيع أن تنطق هذه الكلمة، وأواصل الدوران في فلكها بصفتي الدكتور يالوم». ويقر بأن الأمر الأكثر غرابة «نفوري من رفع زوجتي الكلفة معي أمام جيني. نسيت ما الذي كنت أخطط أن أفعله لجيني؟ آه، نعم، «المساعدة على اختبار الواقع لكي تعمل من خلال انتقالها الإيجابي».

لكن ما حدث بعد ذلك كان أكثر غرابة. فبينما كان يكلّم يالوم جيني في مكتبه، قرعت زوجته الباب، وأرادت أن تكلّم جيني حول بضع جمل في تقرير علاجها، لكن يالوم وجيني حاولا تجاهل قطع حديثهما، لكن زوجته التي بدأت تفقد صبرها، قرعت الباب مرة أخرى، فقالت جيني، لدهشة يالوم، بشيء من الحدة: «بضع دقائق أخرى فقط»، وعندما أُغلق الباب، انفجرت جيني في البكاء، وقالت: «أدركتُ للتو أنه لم يعد أمامي سوى بضع دقائق أخرى. لا يتعلق الأمر بأن زوجتك معك طوال الوقت، لكن هذا الوقت ثمين جدًّا بالنسبة إليَّ». فقال يالوم: «بكت من أجلنا كلينا». وبعد بضع صفحات، يعود يالوم إلى «انفجار» مشاعره المضطربة عندما

حاولت زوجته أن تتدخل في علاقته مع جيني. «عندما غادرت جيني، كنت مكتئبًا ومنزعجًا جدًّا، ورفضت دعوات زوجتي للحديث عن لقائنا، مع أن أحاديثي الهاتفية مع جيني كانت قصيرة ومهنية بصورة عامة، لم أكن مرتاحًا لوجود زوجتي في الغرفة. حتى إنني ربما كنت أدعو زوجتي، على نحو متناقض، إلى علاقتنا لمساعدتي في انتقالي المقابل.

يحرص يالوم دائمًا على مراعاة الحدود المهنية، لكنه يصوّر موقفًا لا مفر منه لانتهاك هذه الحدود: مريضة سابقة أصبحت الآن مؤلفة مشاركة، ويعمل بأسلوب احترافي مع زوجة المعالج في مشروع كتابة يضم الشخصيات الثلاثة. استغل يالوم الموقف بكل ثرائه الأدبي، وكون زوجته أستاذة للغة الفرنسية زاد من نبرة أن تصبح رواية هزلية فرنسية.

المنظور المزدوج

يلخص يالوم في الكلمة الختامية أهدافه في علاج جيني، ويركّز على نظرية العلاقات الشخصية التي تتمثل في الاعتقاد بأن الاضطرابات النفسية تنبع من الصراعات في العلاقات بين الأشخاص. مستخدمًا مصطلحًا يظهر في كتبه اللاحقة، يجادل يالوم بأن العلاج النفسي هو «علاج دوري» يصعد فيه المعالج والمريض «معًا على درج لولبي متقلقل، منخفض الانحدار» (في حاشية في كتاب «العلاج النفسي الوجودي»، ينسب يالوم كلمة العلاج الدوري إلى رسالة شفوية تلقاها من د. هامبورغ الذي كان رئيس قسم الطب النفسي في جامعة ستانفورد عندما عُيّن يالوم أستاذًا مساعدًا) ويقود المنظور المزدوج يالوم إلى استنتاج جدير بالملاحظة: يقدّر المريض والمعالج غالبًا جوانب مختلفة من العلاج. وكان الجزء الأهم من العلاج بالنسبة إلى جيني علاقتها مع يالوم. فقد كانت تقدّر وجودها مع شخص تثق به وتحترمه، ويقدّم لها الدعم الذي تحتاج إليه. وكان يالوم يقدّر أيضًا العلاقة

بين المريض والمعالج، لكنه كان مهتمًّا بشكل أساسي بمساعدة جيني على اكتشاف الأفكار التي تؤدي إلى تغيير الشخصية والنمو العلاجي. «وقلما كانت تعترف بجهودي، ونادرًا ما تقدّرها، وبدلًا من ذلك، يبدو أنها تستفيد من أفعالي الإنسانية البسيطة». وكانت تقبل أحيانًا تفسيرًا ما فقط لتحافظ على قرب العلاقة بين المريض والمعالج.

تخلق المنظورات المزدوجة في كتاب «كل يوم يقترب قليلًا» تأثير راشومون، حيث يكون للمريض والمعالج وجهات نظر مختلفة بشكل لافت حول ما يحدث في العلاج. وتعلّق روثيلين جوسيلسون بالقول: «الكتاب تمرين في الواقعية ما بعد الحداثة. وإن ما نظن أنه يحدث ليس إلّا نسخة واحدة من الواقع، وويل للمعالج الذي يفقد إدراكه بأن المريض قد يمرّ بتجربة تفاعلية مختلفة تمامًا».

يُشبّه يالوم العلاج بمسرحية توم ستوبارد «مات روزنكرانتس وغيلدنسترن»، حيث تختلف المسرحية التي تُعرض على خشبة المسرح عن المسرحية خارج المسرح. «وأن المعالج هو بطل العديد من المسرحيات المتنوعة والمتزامنة وهذا هو سرّه الرهيب النهائي». وهذا يثبت أنه اكتشاف كبير ليالوم، اكتشاف يغيّر رؤيته للعلاج إلى الأبد. ولم يصف أي كاتب بصراحة أكبر التناقضات العديدة في العلاج النفسي، حيث يحقق المريض والمعالج، إذا حالفهما الحظ، علاقة حميمة لم تكن موجودة قبل جلسة العلاج أو بعدها. «إن علاقتنا عميقة وأصيلة، ومع ذلك فهي مغلّفة بطريقة معقمة: نلتقي لمدة خمسين دقيقة المحددة، وتتلّقى إشعارات محوسبة من مكتب أعمال العيادة. نفس الغرفة، ونفس الكراسي، ونفس الوضعية. يعني أحدنا للآخر كثيرًا، ومع ذلك، فإننا شخصيات في بروفة نهائية. يهتم أحدنا بالآخر بعمق، لكننا نختفي عندما تنتهي الجلسة، ولن نلتقي مرة أخرى أبدًا عندما ينتهي «عملنا».

معالج يحتاج إلى علاج

يكشف يالوم في نهاية الخاتمة في «كل يوم يقترب قليلًا» عن أهم أسراره حيث يقدّم بيانًا يقع بين القبول والاعتراف. إن الكشف عن نفسه يضفي أكبر قدر ممكن من التشويق، ويثير فضولنا بسرّ لم يعد قادرًا على إخفائه. ثم يكشف عن الانتقال المقابل الذي جلبه إلى علاجه مع جيني. «ليس صحيحًا تمامًا أنها كانت المريضة وأنا المعالج. لقد اكتشفت ذلك لأول مرة قبل بضع سنوات عندما أمضيت سنة التفرغ الدراسية في لندن. لم تكن لديَّ أي ارتباطات، ولم أكن أزمع أن أفعل شيئًا سوى أن أعمل على كتاب عن العلاج الجماعي. ويبدو أن ذلك لم يكن كافيًا، فقد أصبتُ بالاكتئاب والقلق، وقبلتُ أخيرًا أن أعالج مريضين – من أجلي أنا أكثر من أجلهما. مَنْ كان المريض، ومَنْ كان المعالج؟ فقد كنت مضطربًا أكثر منهما، وأظن أنني استفدت أكثر مما استفادته من عملنا معًا. ولا يستخدم يالوم مصطلح «المعالج الجريح» في كتاب «كل يوم يقترب قليلًا»، لكنه يشكّل مفهومًا مركزيًّا في كتبه اللاحقة الروائية وغير الروائية. فقد استخدم كارل يونغ عبارة «المعالجون الجريحون» لأول مرة، ثم طوّره معالجون لاحقون، ويشير إلى أن المعالجين الجريحين مُرغمون على علاج المرضى لأنهم جرحى هم أنفسهم. ومن المفارقات في العلاج أن علاج الآخرين يسمح للمعالجين الجرحى علاج أنفسهم. ومن تجربته الشخصية، يشير يالوم إلى أن جزءًا من الانتقال المقابل لدى المحلل هو الدافع المضاد للرُهاب. فقد يكون المعالج والمريض جريحين بسبل مختلفة، لكنهما يستفيدان من العمل مع أحدهما الآخر.

سبق استخدام يالوم المنظور المزدوج في العلاج بثلاثة عقود نهجًا مشابهًا استُخدم في «الطب السردي»، وهي حركة بدأت في مطلع القرن الحادي والعشرين في جامعة كولومبيا، حيث يحاول الأطباء تعلّم كل ما يمكنهم تعلّمه عن القصة التي يرويها المريض. ويدمج الطب السردي قيم وأساليب الدراسة الأدبية في الممارسة السريرية والتعليم. ويتمثل الهدف النهائي من

التعرّف على تاريخ المريض الصحي والمرضي في تحسين الرعاية الصحية. وتشمل إحدى تقنيات هذا العلاج قيام الطبيب بكتابة ملاحظات عن دراسة الحالة، ثم يقرأها المريض ويعلّق عليها. وتشرح ريتا شارون وإريك ر. ماركوس في كتابهما «مبادئ وممارسات الطب السردي» (٢٠١٧) أن قراءة كتابة أحدهما الآخر «بروح الاكتشاف المشترك» تؤدي إلى «شعور بالتناغم». وينقل يالوم هذا الشعور في كتابه «كل يوم نقترب قليلًا».

الرواة والمعلّمون الجريحون

إن نظير المعالج الجريح هو الراوي الجريح، وهو أيضًا عنوان كتاب آرثر و. فرانك المؤثّر الصادر عام ١٩٩٥.

بوصفهم جرحى، قد يتلقى الناس الرعاية، أما بوصفهم رواة، فهم يبدون اهتمامًا بالآخرين. بإمكان المرضى وجميع الذين يعانون أن يكونوا معالجين أيضًا. وتصبح إصاباتهم مصدر قوة قصصهم. ومن خلال قصصهم، يقيم المرضى روابط تعاطف بينهم وبين الذين يستمعون إليهم. وتتسع هذه الروابط عندما يعاد سرد القصص. ثم يروي المستمعون القصص للآخرين، وتتسع دائرة التجارب المشتركة. وبما أن القصص قد تشفي، فإن المعالج الجريح والراوي الجريح ليسا منفصلين، وإنما هما وجهان مختلفان لنفس الشخصية.

يُعدُّ يالوم معالجًا جريحًا وقاصًّا جريحًا، ويندمج هذان الدوران ببراعة في كتاباته.

قلما نسمع عن «معلّم جريح»، ما عدا العدد المتزايد من حوادث إطلاق النار في الفصول الدراسية، لكن مثل المعالج الجريح والقاص الجريح، يستخدم المعلّم الجريح جراحه لخلق روابط تعاطف مع طلابه. وتصبح جراح المعلّم حقيقة أكاديمية من حقائق الحياة، مناسبة لأي موضوع يتعلق بالمعاناة. ويشهد المعالجون الجرحى والرواة والمعلمون على حتمية المعاناة

وإمكانية الشفاء، وهي رؤية تنطبق على المرضى والقرّاء والطلاب والمعلمين على حد سواء.

نهاية القصة

بعد أن نقرأ كتاب «كل يوم يقترب قليلًا»، نعرف عن يالوم أكثر مما نعرفه بكثير عن جيني، وهذا ليس أمرًا مفاجئًا. فقد كانت مترددة طوال فترة دراسة الحالة في الكشف عن أشياء كثيرة في حياتها، ربما لأنها كانت تشعر بأنها لا تستحق التمحيص الشخصي أو العام. فقد ظلت خجولة ومتحفظة، ولم تكن تحبّ الاهتمام أو التحدّث عن نفسها بأي شكل من الأشكال. فقد كانت امرأة لديها توقعات متواضعة من الحياة. ومن السهل أن نفهم لماذا ترى أن ملاحظاتها العلاجية «مروعة» وتدينها، مع أنها ثاقبة النظر وشجاعة. ويمكننا أن نفهم أيضًا سبب شعورها بالشلل عندما كانت تريد أن تعبّر عن مشاعر قوية، سواء كانت غضبًا أم سخطًا، فلم يجعلها أي شيء في حياتها مهيأة لتنظر إلى حياتها من خلال عدسة يالوم المكبرة. إنها مريضة جيدة، لكنها تشعر بالذنب لأنها لم تكن مريضة استثنائية، كما كان يالوم يأمل. وإدراكًا منها لخيبة أمله، لم تستطع أن تحجب أي شيء في تقاريرها.

بعد انتهاء القصة، نتمنى أن نعرف ما الذي استجدَّ في حياتها، أو على الأقل أن نعرف ما هي مشاعرها بعد سنوات من إعادة قراءة منظور حياتها المزدوج. هل دارت حياتها بعد العلاج حول هويتها باعتبارها أول مريضة رئيسية ليالوم، كما شعر بعض مرضى فرويد، مثل دورا ورجل الذئاب؟ هل تغلبت على حبسة الكتابة، وأصبحت الكاتبة التي كانت تريد أن تصبح؟ هل أعادت قراءة دراسة الحالة لتأكيد أو مراجعة هويتها؟ بما أننا نهتم بها كشخصية، فإن هذه هي الأسئلة التي تدور في أذهاننا بعد انتهاء القصة. ولدينا أسئلة أخرى مختلفة نريد أن نطرحها على يالوم. هل كان من الصعب أو السهل أن يلفت الانتباه إلى غروره الشديد؟ فهو يذكّرنا مرارًا وتكرارًا

بطموحاته الأدبية ورغبته في أن يصبح كاتبًا عظيمًا. فهو يعترف في بداية القصة «وجدت نفسي آمل أن تلاحظ أنه توجد كتب لا تتعلق بعلم النفس في خزانة كتبي، مسرحيات أونيل، دوستويفسكي. يا إلهي، يا له من صليب يجب أن أحمله! يا لسخافة الأمر. ها أنا ذا أحاول أن أساعد جيني على حل مُشكلاتها لتواصل حياتها، وأنا ما أزال مثقلًا بأعبائي التافهة».

وفي مقابلة نُشرت في «مجلة علم النفس في أمريكا الشمالية» في عام ٢٠٠٧، أشار يالوم إلى أنه فقد الاتصال بجيني إلكين لعدة سنوات إلى أن أرسلت له مجموعة من المقابلات التي نشرتها بمناسبة الذكرى المئة والخمسين لإنشاء ولاية تكساس عن سكان تكساس الذين يلغوا الثمانينيات والتسعينيات من العمر. وكانت المرة التالية عندما رآها بشكل غير متوقع في محاضرة ألقاها في مكتبة في بيركلي. ثم دارت بينهما أحاديث عديدة طويلة. كانت جيني مدرّسة لغة إنجليزية في نظام بيركلي التعليمي، وتوفيت، كما أضاف يالوم، نحو عام ٢٠٠٥ من متلازمة مارفان، وهي اضطراب وراثي يُضعف النسيج الضام في الجسم يؤدي أحيانًا إلى تمدد الأوعية الدموية الأبهري.

رغبة في الكشف عن جيني وعن نفسه، فإن ما يوحي به يالوم عن معنى عنوان كتابه، «كل يوم يقترب قليلًا؟ يقترب من ماذا؟ على صعيد ما، فإن العنوان يشير إلى أغنية «كلّ يوم» التي كتبها بادي هولي ونورمان بيتي. وتستشهد جيني بعدة أسطر من الأغنية المبهجة التي تشير إلى أن الحبّ الحقيقي قريب جدًّا. وعلى صعيد آخر، يشير العنوان إلى التحسّن التدريجي في علاج جيني. ويشير السطر الأخير في خاتمة الكتاب التي كتبتها إلى قربها من يالوم وقوة العلاقة العلاجية بينهما: «بقدر ما كنتُ أتكوّر، فقد كنتَ تعيدني». وعلى صعيد آخر، يعلن العنوان نهاية فترة تدريب يالوم الأدبي وظهوره ككاتب مهم. فلم يلقَ كتاب «كلّ يوم يقترب قليلًا» اهتمامًا كبيرًا من النقاد. ولم أجد سوى تعليق واحد منشور في مجلة «مراجعات كيركوس»، ولم يعرف الناقد المجهول كيف يقيّم الكتاب. « مهما كانت القيمة التخمينية التي يوليها الآخرون لهذا الكتاب، فإنه يظهر بالفعل العملية التناضحية-

التحفيزية في الواقع». وعلى الرغم من لحظات الوعي الأدبي التي أبداها يالوم وحيرة الناقد، فإن الطبيب النفسي سيكتب بعد ذلك قصصًا تُصنَّف ضمن كلاسيكيات أدب دراسة الحالات النفسية.

الفصل الثالث

العلاج النفسي الوجودي:
التعايش مع قلق الموت

صدر كتاب «العلاج النفسي الوجودي» الذي يقع في قرابة ٥٥٠ صفحة في عام ١٩٨٠، وهو ليس كتابًا لذوي القلوب الضعيفة. وقد أخبر يالوم روثيلين جوسيلسون أنه أمضى عشر سنوات في قراءة الأعمال الفلسفية وكتابة هذا الكتاب الدراسي. وهو مصدر «كل ما كتبته منذ ذلك الحين. فقد كانت جميع كتب القصص والروايات وسيلة أو أخرى لتوسيع أحد جوانب العلاج النفسي الوجودي». ويعلّق يالوم بأسلوب يفتقر إلى الحرارة في كتابه «قارئ يالوم» ويقول: «كان كتاب «العلاج النفسي الوجودي» كتابًا دراسيًّا مخصصًا لدورة دراسية لم تُوجد بعد، يحدّد تخصصًا مهنيًّا لم يتبلور بعد ومثير للجدل في آنٍ معًا». ويبدأ يالوم كتابه «العلاج النفسي الوجودي» بتعريف واضح: «إن العلاج النفسي الوجودي هو نهج ديناميكي للعلاج يركّز على الشواغل والاهتمامات المتجذرة في وجود الفرد». ويقول: «من بين جميع مفردات العلاج، لا توجد مفردة واحدة منها تنافس النهج الوجودي في الغموض والالتباس». وتُظهر جميع كتب يالوم التزامه بالكتابة الواضحة والتفكير الواضح، وهو التزام ينتهكه غالبًا المفكرون الوجوديون الذين يدين لهم بالفضل. «ويقف النص الفلسفي الوحيد الأكثر أهمية في هذا المجال، وهو كتاب هايدغر «الكينونة والزمان»، وحده كبطل بلا منازع في الغموض اللغوي». ولا تشوب أعمال يالوم مثل هذا الغموض.

يُعدُّ كتاب «العلاج النفسي الوجودي» كنزًا من الحكمة الفلسفية والعلاجية، ويزخر بالرؤى الثاقبة، لكن اهتمامنا ينصب بشكل أساسي على ما يكشفه عن يالوم بوصفه شخصًا ومعالجًا وكاتبًا. بالإضافة إلى القلق من الموت، فإن الشعور بالذنب الوجودي والعزلة الوجودية والعلاقة العلاجية، تشكّل عناصر مهمة في مناقشة يالوم. علاوة على ذلك، يسلّط الكتاب الضوء على مؤلفين آخرين، بمن فيهم زميلة يالوم في الطب النفسي، إليزابيث كوبلر- روس. ويستمّد يالوم في كتاب «العلاج النفسي الوجودي»، الإلهام من روائيين عمالقة مثل إرنست همنغواي وفرانز كافكا، ويزيد في الوقت

نفسه من فهمنا لهم. وتشير الإشارات إلى سبينوزا وشوبنهاور ونيتشه إلى رواياته اللاحقة عن كل من هؤلاء الفلاسفة الثلاثة. ومثل كتب يالوم الأخرى، يستمد كتاب «العلاج النفسي الوجودي» أعظم رؤاه عن الطبيعة البشرية من العوالم الإنسانية للأدب والفلسفة وليس من مجال البحث النفسي التجريبي. «إن حقيقة الشخصيات الخيالية تحركنا لأنها حقيقتنا». أو كما قال بيكاسو، «الفن كذبة تقول الحقيقة». ثم يقتبس يالوم مقولة ثورنتون وايلدر: «لو قرأت الشخصيات التاريخية - الملكة إليزابيث، أو فريدريش الأكبر، أو إرنست همنغواي، على سبيل المثال - سيرهم الذاتية، لهتفوا قائلين: «آه - ما يزال سرّي في أمان». أما إذا قرأت ناتاشا روستوف رواية «الحرب والسلام»، فإنها ستصرخ وهي تغطي وجهها بيديها: «كيف عرف؟ كيف عرف؟».

يتعلّم الأكاديميون انتقاد الأكاديميين الآخرين، لكنهم قلما ينتقدون أنفسهم، خصوصًا في المطبوعات المنشورة. ويمتد شك يالوم في الأبحاث النفسية إلى كتبه. إذ يكشف كيف أجرى مع زميلين من زملائه قبل بضع سنوات مشروعًا بحثيًّا كبيرًا حول نتائج مجموعات اللقاء. ونشروا أبحاثهم في كتاب «مجموعات اللقاء: الحقائق الأولى» (١٩٧٣). وأشاد بعض العلماء بالكتاب لدقته في العمل السريري، لكن علماء آخرين من ذوي خلفية إنسانية هاجموه بقسوة. وقد كتب المؤلفان المشاركان مع يالوم ردودًا «قوية وفعالة» على الانتقادات المنشورة، أما يالوم فلبث صامتًا، جزئيًّا لأنه وافق مع النقاد. وعلى الرغم من تحفظاته، ظل يالوم ملتزمًا بالبحث التجريبي، لكنه كان مهتمًا بشكل أساسي بالنهج الظاهري الذي يسعى إلى فهم العالم الداخلي للمريض.

الأسلاف الوجوديون

يستخدم يالوم استعارة «العائلة» للإشارة إلى علاقته بأسلافه في مجال الصحة النفسية. فالمحللون الوجوديون مثل لودفيغ بينسوانجر وفيكتور

فرانكل وورلو ماي هم «أبناء العمومة من الريف القديم». أما علماء النفس الإنسانيون مثل غوردون ألبرت وهنري موراي وغاردنر مورفي وجورج كيلي وأبراهام ماسلو وكارل روجرز، فهم «أبناء العمومة الأمريكيون الرائعون». أما المحللون النفسيون الإنسانيون مثل أوتو رانك وكارين هورني وإريك فروم وهيلموث كايزر الذين تدرّبوا جميعهم في أوروبا ثم هاجروا إلى الولايات المتحدة، فهم «أصدقاء العائلة». ويلاحظ يالوم بسخرية أن العلاج النفسي الوجودي «يشبه إلى حد كبير طفلًا مشردًا بلا مأوى، لا ينتمي إلى أي مكان».

لا يتسامح يالوم كثيرًا مع الغرور الأكاديمي، وهو مستعد لإعطاء الفضل لمن يستحقه. إذ يقول لنا إن القرّاء الجادين غالبًا ما يزعجهم تشتت الانتباه في كتابات فيكتور فرانكل. «في كل عمل تقريبًا، توجد تعليقات عديدة تهدف إلى تضخيم الذات: اقتباسات كتبها بنفسه، وتذكير بالجامعات العديدة التي ألقى فيها محاضرات، وألقابه العديدة، والشخصيات البارزة العديدة التي تؤيد نهجه، وعدد المهنيين الذين يساعدونه، والمناسبات التي صفقّ فيها طلاب كلية الطب بحرارة في إحدى المقابلات التي كان يجريها، والأسئلة السخيفة التي طرحت عليه، وردوده الموجزة». ويجب أن نلاحظ أن هذه الأمور التي تصرف الانتباه لا تظهر أبدًا في كتابات يالوم. فهو ينزعج كثيرًا من ولع فرانكل بالتكلّف، لكنه يقرّ أيضًا بالرؤى الثاقبة في كتاباته. فعلى سبيل المثال، يشير يالوم إلى أنه على الرغم من استخدام فرانكل تقنية إزالة الانعكاس التي تطلب من المرضى التوقف عن التركيز المفرط على أنفسهم، هي تقنية بسيطة وسلطوية، فإن الفكرة وراءها صحيحة. «يجب على المعالج أن يجد طريقة لمساعدة المريض على تنمية فضوله واهتمامه بالآخرين».

القلق من الموت

قلما يعترف أخصائيو الصحة النفسية في كتاباتهم بأنهم يعانون من نفس

المُشكلات التي يعانيها مرضاهم، لكن يالوم هو الاستثناء. إذ يكشف في بداية كتابه «العلاج النفسي الوجودي» عن مُشكلاته الخاصة بالقلق من الموت، بما في ذلك المشكلة التي نشأت عن اصطدام سيارته بسيارة أخرى. فقد تحطمت السيارتان، وأصيب السائق الآخر الذي كان المخطئ، بجروح بليغة. ومن حسن حظ يالوم أنه لم يصب بأذى جسدي، ثم سافر في ذلك اليوم إلى مدينة أخرى حيث ألقى محاضرة في مساء ذلك اليوم. بدأ يالوم يعاني بعد حادث السيارة من عدة أعراض نفسية، منها القلق في أثناء المناقشات على الغداء حول قضايا علمية مع زملائه. «هل سيكون لديّ شيء مهم يمكنني أن أقوله؟ كيف سينظر إليَّ زملائي؟ هل سأجعل من نفسي أضحوكة؟ وازداد قلقه كثيرًا حتى إنه بدأ يتجنب وجبات الغداء التي كان يتطلّع إليها في الماضي. وتحوّل القلق من الموت الذي نجم عن حادث السيارة والذي كاد أن يودي بحياته «إلى مخاوف أقل أهمية مثل تقدير الذات، أو الخوف من أن أُرفض من قبل الآخرين أو الإهانة». وظهرت مُشكلات أخرى ذات صلة، مثل الخوف من قيادة السيارة، وركوب الدراجات الهوائية، والتزلج، وأصبح العالم مكانًا أكثر خطورة بالنسبة إليه.

وقد دفع القلق من مشكلة أخرى، وهي الأرق، يالوم إلى زيارة معالج سلوكي قبل محاضرة كان سيلقيها في كليفلاند، «مدينة النوم السيئ». ولم تساعده الجلسات الأربع أو الخمس التي ركّزت على نهج التخفيف المنهجي للحساسية، لكن بينما كان يغادر المكتب، علّق المعالج بشكل عابر تعليقًا أثبت فعاليته على نحو غير متوقع، فقال: «عندما تحزم حقيبتك لتسافر إلى كليفلاند، لا تنس أن تضع مسدسًا فيها». سألته: «لماذا؟» فأجاب: «إذا لم تستطع أن تنام، يمكنك دائمًا أن تطلق النار على نفسك». كان كثير من المرضى سيشعرون بالإهانة من هذه المزحة، لكن تبين أنها «حيلة علاجية ملهمة». فقد أثّرت هذه الملاحظة في أعماق يالوم وما تزال تتردد في ذهنه بعد سنوات. لماذا؟ فقد ساعدته هذه الملاحظة على إعادة صياغة الموقف، وقد مكّنه ذلك من أن يضع قلقه في منظور وجودي ذي معنى. كانت ملاحظة

نيتشه، «أن فكرة الانتحار عزاء كبير: فمن خلالها يستطيع المرء أن يتجاوز ليال مظلمة كثيرة»، مفيدة أيضًا، لكن هذا القول المأثور لم يكن في ترسانة المعالج السلوكي.

لا يشغل القلق من الموت مكانة بارزة في كتاب «كل يوم يقترب قليلًا»، لكن يالوم ألمح إليه في مقدمته. «ما يؤلمني دائمًا أن أجد دفاتر مواعيد قديمة مليئة بأسماء نصف منسية لمرضى عشت معهم أجمل اللحظات». وتذكّره خزائن الملفات ذات الطبقات المتعددة المليئة بدراسات الحالات وأكوام التسجيلات الصوتية «بمقبرة شاسعة». وأن العيش مع هذه «الآثار» يملأه «بإحساس قوي بالزوال». إن الكتابة عن تجربته مع جيني وسيلة «لدرء الاضمحلال، وإطالة عمر حياتنا القصيرة معًا» ويذكر في نهاية كتاب «كل يوم يقترب قليلًا» لقد ضمن هذا الكتاب أن جيني لن تصبح اسمًا نصف منسيًّا في دفتر مواعيدي القديم، أو صوتًا ضائعًا على شريط كهرومغناطيسي. بالمعنى الحقيقي والرمزي، لقد هزمنا الموت. هل من المبالغة القول إن علاقتنا قد اكتملت في هذا العمل المشترك؟» وبالتالي، فإن كتابة دراسة حالة ليست سوى وسيلة لتحقيق الخلود مع المريض، أو على الأقل وهم الخلود، وهو دافع قوي من أجل الكتابة. ويقدّم يالوم في كتابه «العلاج النفسي الوجودي» تحليلًا مقنعًا للدور الذي يؤديه القلق من الموت لا على نفسه فقط، وإنما على غيره من المنظرين أيضًا، بدءًا من فرويد الذي فضّل أن يتحدّث عن القلق من الإخصاء بدلًا من الخوف من الموت الذي كان قريبًا جدًّا من واقعه. ويذكّرنا يالوم بأن عددًا قليلًا من الأشخاص في التاريخ كانوا أوفر حظًّا من فرويد في تحقيق الخلود: «كان يتمتع بخيال خصب، وبطاقة لا حدود لها، وبشجاعة لا تقهر». اقترب فرويد من العظمة عدة مرات، لكن في كل مرة، كان يخفق في تحقيق نجاح دائم. وأصبح كشف بنية العقل «عشيقة» فرويد. فقد وضع كل رهانه على نظرية الغريزة الجنسية، حتى لو كان ذلك يعني التخلّي عن تلاميذه الذين لم يتقبّلوا آرائه. ولم يرق دور الموت باعتباره سببًا للقلق أو عنصرًا من

عناصر الدافع لفرويد. وحتى في أعماله المتأخرة مثل «ما وراء مبدأ اللذة» التي تركّز على مبدأ التكرار القهري، والرغبة في التغلب على التجارب الصادمة، تجاهل فرويد الخوف الأساسي من بين جميع المخاوف وهو: موت الإنسان. فالموت بالنسبة إلى فرويد، كما قال يالوم، «قديم جدًّا، منذ العهد القديم»، وليس فكرة تؤدي إلى شهرة أبدية. يستشهد يالوم بإحدى نكات فرويد المفضّلة عن رجل يقول لزوجته: «إذا مات أحدنا قبل الآخر، أظن أنني سأنتقل إلى باريس».

كيف يشعر المرضى عندما يكون معالجوهم مؤلفين مشهورين عالميًّا؟ كيف يؤثر الإفصاح الشخصي المنشور للمعالج على المريض؟ في كتابه «العلاج النفسي الوجودي»، يقدّم لنا يالوم مثالًا على مريضة استجابت لأحد كتبه بعكس ما كان يقصده. فقد كانت «كارين» مريضة في الأربعين من عمرها، خضعت للعلاج لمدة عامين، ونشأت لديها علاقة انتقال إيجابية قوية تجاهه. وقد يتوقع المرء من مريضة تُصوّر مُعالجها بأنه شخصية أسطورية فائقة، تتمتع بالمعرفة والمقدرة، لترحّب بصورة أكثر إنسانية. لكن الأمر لم يكن كذلك. «فقد قرأت كتابًا كتبته مع مريضة، كشفتُ فيه عن كثير من مخاوفي والحدود التي تقيدني». لقد زادت قراءة كارين كتاب «كل يوم يقترب قليلًا» من إعجابها به. قد يكون ذلك أقل إثارة للدهشة مما يدرك يالوم: إذ تتطلب الكتابة علنًا عن قلق المرء وحدوده شجاعة وقوة غير عاديتين. ويلاحظ يالوم أن العلاج نجح في التخفيف من بعض مُشكلاتها، لكن جاء وقت بدا فيه أن استمرار العلاج يعوق مزيدًا من التقدم. فقرر أن يحدد موعدًا لإنهاء العلاج بعد ستة أشهر. وعندما اقترب الموعد، تملكها الذعر، وهددته بأنها ستنتحر إذا أنهى العلاج، لكنه تشبّث بموقفه. واستطاعت أن تتغلب على مخاوفها واستعادت القدرة على التحكم في حياتها. والتقى بها مرة واحدة بعد سنتين. فقد تعلّمت أن العلاج، مثل الحياة، «توجد ركيزة واحدة لا مفر منها من العمل المنفرد، والوجود المنفرد».

موضوع مخالف للمنطق

تُظهر كتابات يالوم الروائية وغير الروائية أن القلق من الموت يتناسب عكسيًّا مع الشعور بالرضا عن الحياة. ويقرّ بأن هذا الموضوع قد يكون غير منطقي، لأن المرء قد يتوقع أن الذين يشعرون بخيبة أمل ومحبطين من الحياة يرحبون بالموت باعتباره وسيلة للهروب. لكن يالوم يشير إلى أن العكس هو الصحيح، ثم يقتبس من نيتشه الذي قال «بمبالغته المعهودة»: «كلّ شيء يصبح كاملًا، كلّ شيء يصبح ناضجًا، يريد أن يموت. كلّ شيء لم ينضج بعد يريد أن يعيش. كلّ من يعاني يريد أن يعيش لكي يصبح ناضجًا وسعيدًا ويتوق إلى ما هو أبعد وأعلى وأكثر إشراقًا».

إليزابيث كوبلر - روس: إزالة الطابع المروع عن الموت

كانت الطبيبة النفسية السويسرية المولد، إليزابيث كوبلر - روس في ذروة شعبيتها في عام ١٩٨٠، وكانت شخصية مرموقة حقًّا، عندما نُشر كتابها «العلاج النفسي الوجودي». يجادل يالوم أنه بالرغم من أنها رفضت في بداية حياتها المهنية الممارسة الدينية المتمثلة في تلقين الأطفال صورًا خيالية عن الجنة والله والملائكة، فقد كان هذا تمامًا ما تفعله عندما تقول للأطفال إن الأشخاص الذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة يتحولون أو يتحررون «مثل فراشة» إلى مستقبل مريح، كما أكدّت في كلمة ألقتها في كلية الطب بجامعة ستانفورد عام ١٩٧٨. من سمات يالوم أنه ينتقد الفكرة ولا ينتقد الشخص. «إن الموقف الحالي لهذه المعالجة المميزة التي واجهت الموت بثبات ذات يوم يشير إلى مدى صعوبة مواجهة الموت دون خداع الذات».

ولدت كوبلر-روس في عام ١٩٢٦، قبل يالوم بخمس سنوات فقط، وكانت أشهر عالمة في علم الموت في النصف الثاني من القرن العشرين. وكانت تجمع بينها وبين يالوم قواسم مشتركة كثيرة. فقد تحدّيا كلاهما الحكمة النفسية التقليدية الراسخة في ذلك العصر، بما في ذلك الاعتقاد بأن الأطباء يجب أن

يخفوا الحقيقة عن المرضى المصابين بأمراض مميتة. وحثّا كلاهما على اتباع نهج متعاطف من دون إطلاق أحكام تجاه قضايا نهاية الحياة. وأشارا كلاهما إلى الترابط بين الحياة والموت. كان يالوم يتفق مع ما قالته كوبلر-روس في كتابها الرائد الذي صدر في عام ١٩٦٩ بعنوان «عن الموت والاحتضار»، أننا «كلما تقدّمنا في العلوم، ازداد خوفنا من حقيقة الموت وإنكارنا له. كيف يمكن ذلك؟» ووافقت كوبلر-روس على ما قاله يالوم في كتابه «العلاج النفسي الوجودي» من أنه «لا يمكن ترك الموت للشخص الذي يحتضر». وذكرا كلاهما أنهما تعلّما من المرضى الذين يعالجونهما، والذين ظلوا معلمين لهما، أكثر بكثير مما تعلماه من أساتذتهما أو زملائهما في كلية الطب. وكانا كلاهما معجبين بنفس المنظّرين، بمن فيهم إرنست بيكر الذي جادل في كتابه الحائز على جائزة بوليتزر عام ١٩٧٣ بعنوان «إنكار الموت» أن الفناء والموت هما أعمق مخاوف البشرية. وكانا كلاهما يعتقدان أن المناقشات الصريحة والمفتوحة حول الموت ستؤدي إلى موقف صحي أكثر تجاه الحياة والموت. ودرسا كلاهما التحليل النفسي وخضعا لتحليلات نفسيه شخصية طويلة، إلّا أنهما لم يُغرما بالنظرية التحليلية النفسية الكلاسيكية. وانتقدا كلاهما اعتماد الطب النفسي المتزايد على علم الأدوية النفسية.

كانت كوبلر-روس ويالوم مؤلفين غزيري الإنتاج، وتحتوي كتبهما على مئات القصص السريرية الحيّة التي تتجاوز المناقشات الجافة لمعظم دراسات الحالات النفسية. وقد جذبت كتبهما التي نشرتها دور نشر تجارية وليست جامعية، جمهورًا عريضًا من القرّاء، وحرصا دائمًا على تجنب المصطلحات النفسية المعقدة.

كان الموت مصدر إلهام إليزابيث كوبلر-روس، كما كان مصدر إلهام ليالوم. إذ تظهر كلمة «يحتضر» أو «الموت» في عنوان أو عنوان فرعي لاثني عشر كتابًا من كتبها. وأمضت حياتها كلها في الكتابة عن العواقب المدمرة لإنكار الموت، بما في ذلك العزلة التي يعانيها المحتضرون. وتطرح في كتابها «عن الموت والاحتضار» السؤال التالي: من قال: «إننا لا نستطيع أن ننظر إلى

الشمس طوال الوقت، لا يمكننا مواجهة الموت طوال الوقت؟» الجواب الذي لم تعطه لنا قط، هو جواب لا روشفوكو: «لا يمكن النظر إلى الشمس، ولا إلى الموت بثبات». يستخدم يالوم هذه المقولة في عنوان كتابه «التحديق إلى الشمس» ويكتب في الخاتمة: «لا أنصح أحدًا بأن يحدّق إلى الشمس، لكن التحديق إلى الموت شيء آخر تمامًا. إن رسالة هذا الكتاب تكمن في إلقاء نظرة شاملة على الموت».

تشتهر كوبلر-روس في المقام الأول بـ«نظرية المراحل» للموت التي تقترح بأن الشخص المحتضر يمرّ بخمس مراحل متتالية من الأسى: الإنكار، والغضب، والمساومة، والاكتئاب، والقبول. تظلّ نظرية المراحل إحدى أكثر النظريات تأثيرًا، وإن كان يعتريها عيب، في علم الموت الحديث. فقد انتُقدت نظرية كوبلر-روس لافتقارها إلى الأدلة التجريبية التي تدعمها، وإهمالها مراحل أخرى من الموت، مثل الخوف والشعور بالذنب والأمل واليأس، وإعطائها الأسبقية للمرحلة «النهائية»، وهي القبول؛ وعدم مناقشتها دور الثقافة في تشكيل ممارسات الموت. لكن على الرغم من هذه الانتقادات، ظلت نظرية مراحل الموت تتمتع بهالة من المصداقية العلمية، لكن ليس لنظريات كوبلر-روس اللاحقة عن الموت. فقد أصبحت مؤلفاتها الأخيرة تبدو كأنها خيال علمي. كانت واحدة من أبرز مؤيدي ظاهرة «الخروج من الجسد»، وكتبت عن تجاربها الخاصة في لقاء أرواح ملائكية، والوعي الكوني، وتجارب إعادة الولادة ومحادثاتها مع يسوع المسيح. لم يكن هناك شيء خيالي كثيرًا بحيث لا تصدقه، وحتى بعد أن كُشف عن أن بعض زملائها الذين ادّعوا أن لديهم القدرة على التواصل مع الأرواح من العالم الآخر دجالون، فقد ظلت تؤكد على أنها تمتلك دليلًا علميًّا على وجود الخلود.

ناقشت كوبلر-روس في مذكراتها الصادرة عام ١٩٩٧ بعنوان «عجلة الحياة» كيف أنها سافرت في عام ١٩٦٩ إلى سويسرا لزيارة أمها التي تبلغ من العمر ٧٧ سنة، وكانت قلقة جدًّا على صحتها، وقالت لها: «إذا دخلتُ ذات يوم في حالة غيبوبة، أريدكِ أن تُنهي حياتي». فغضبت كوبلر-روس من

طلب أمها، وأجابتها: «إذا حدث لك شيء، فإني سأفعل لكِ ما أفعله لجميع مرضاي. سأساعدك على أن تعيشي حتى تموتي».

لم تمض فترة طويلة حتى أصيبت أمها بجلطة دماغية شديدة. وبقيت على قيد الحياة، عاجزة عن الحركة أو الكلام طوال أربع سنوات. وسألت كوبلر-روس: لماذا أبقاها الله على قيد الحياة كل هذه المدة وهي في هذه الحالة؟ بعد أن لعنت الله على حالة أمها، أدركت كوبلر-روس فجأة «ثم، وبقدر ما يبدو الأمر غير معقول، غيّرتُ رأيي، وبدأت أشكره على كرمه. ألا يبدو هذا جنونًا؟ بدا لي الأمر كذلك حتى أدركت أن درس أمي الأخير هو تعلّم كيف تتلقى الحبّ والرعاية، وهو شيء لم تكن تجيده قط. ومنذ ذلك الحين، بدأتُ أشكر الله لأنها علمتني ذلك خلال أربع سنوات فقط. أقصد، كان من الممكن أن تكون المدة أطول من ذلك بكثير».

بعد عدة سنوات، عندما وجدت كوبلر-روس نفسها في الحالة التي كانت أمها فيها، تغيّرت وجهة نظرها. فقد تعرضت في منتصف وأواخر تسعينيات القرن العشرين إلى سلسلة من السكتات الدماغية جعلتها مشلولة ومقعدة على كرسي متحرك. وبعد طلاقها من زوجها، وانفصالها عن طفليها، وعزلتها عن المجتمع، أنهت كتابها «عجلة الحياة»، وهي تنتظر الموت بفارغ الصبر. وكشفت كارولين ميس في مقدمة طبعة ٢٠٠٨ لكتاب «عن الحياة بعد الموت» عن أن كوبلر-روس طلبت مساعدتها حول كيف تموت. «خلال السنتين الأخيرتين من حياتها، عندما تدهورت صحتها، اتصلت بي ثلاث مرات: لا لتعرف ما الذي يمكنها أن تفعله لتساعد نفسها على الشفاء، بل لتعرف ما الذي يمكنها أن تفعله لتساعد نفسها على أن تموت بسرعة أكبر. فقد كانت ترى أن العيش على كرسي متحرك، تنتظر الموت ببطء، معاناة لا تطاق. وحاربت الله حتى النهاية، غاضبة لأنها لم تستطع تحديد وقت موتها. يبدو أنه كان حتى على إليزابيث أن تمرّ بالمراحل الشهيرة للموت والاحتضار». وتشير الجملة الأخيرة إلى أن ميس ما تزال ملتزمة بنظرية مراحل الموت، لكننا لن نعرف أبدًا ما هي مشاعر كوبلر-روس في

نهاية حياتها. وقد ماتت في عام ٢٠٠٤ وهي في الثامنة والسبعين من عمرها.

لم يطبّق يالوم قط رؤى العلاج النفسي الوجودي على حياة كوبلر-روس وموتها، لكن يمكن اعتبار نظرياتها على أنها محاولات لإنكار قلقها من الموت. ويستشهد يالوم بملاحظة روبرت جاي ليفتون بأن نظرية فرويد عن الغريزة الجنسية «تجرّد الموت من طابعه المقدس»، وهي ملاحظة تنطبق أيضًا على نظريات كوبلر-روس التي كانت تصرّ في كتابها «عجلة الحياة»، أنه «لا وجود للموت». يطرح إيمانها بالحياة الماضية والمستقبلية تساؤلات حول أهمية الحرية، والاختيار، والمسؤولية في الحياة الراهنة. وبخلاف يالوم الذي يجادل مع الوجوديين بأن الموت عملية فردية، وأنه لا يمكن لأحد أن يموت نيابة عن شخص آخر، أكدت كوبلر-روس أن لدى المحتضرين ملاك حارس يرافقهم إلى «الجانب الآخر». وإن سبب موت الأطفال في سن مبكرة بسيط: «فقد تعلّموا في وقت قصير جدًّا ما الذي ينبغي للمرء أن يتعلّمه، والذي قد يختلف من شخص إلى آخر (عن الحياة بعد الموت)، وتضيف أنك إذا عشت حياة جيدة، ينبغي ألّا تقلق من الموت. وتزخر كتاباتها اللاحقة بالصور المسيحية، كما أشرت في كتاب «الموت بكرامة»: «تنتشر أوهام الإنقاذ بين الأطباء والمتخصصين في الصحة النفسية، لكنها قوية جدًّا في أعمالها. فهي «تنقذ» مرضاها وقراءها، أولًا، من خلال طمأنتهم على ألّا يخشوا الاحتضار والموت؛ وثانيًا، من خلال وعدهم بأنهم سيندمجون في نشوة مع حبّ الله غير المشروط؛ وأخيرًا، بإخبارهم بأنه يجب أن ينهوا شؤونهم العالقة كي لا يضطروا إلى العودة إلى الحياة وعيش تجارب مؤلمة مرة أخرى». ولم يقدّم يالوم مثل هذه الوعود لقرّائه قط.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قلق همنغواي من الموت

يختلف قلق همنغواي من الموت عن قلق كوبلر-روس، ويقدّم يالوم ملاحظة جديرة بالملاحظة حول مفهوم البطولة التي يتباهى بها الروائي

والتي لا يوجد لها «مكان للشيخوخة والضعف، لأنهما ينمّان عن الاعتيادية». ثم يشير يالوم إلى المفارقة المتمثّلة في أن أحد أسباب انتحار همنغواي هو الخوف من الموت. «قال كثيرون: إني أخاف من الموت إلى درجة أنني أفكّر في الانتحار».

ومن الأمثلة الصارخة على الخوف من الانتحار رواية همنغواي التي تعتبر أكثر رواياته سيرة ذاتية، «لمن يُقرع الجرس» (١٩٤٠)، حيث يمثّل الموت البطولي الوشيك لروبرت جوردان في نهاية الرواية انتحارًا مقنعًا. فقد كانت أكبر مخاوف جوردان في الحياة أن يسير على خطا أبيه الذي انتحر، مثل والد همنغواي نفسه. لا يناقش يالوم هذه الرواية، مع أنه يذكر موعظة جون دون التي استوحى منها همنغواي عنوان روايته. ويقتبس يالوم سطرين من الموعظة، «لذلك لا تسأل أبدًا لمن يُقرع الجرس. إنه يُقرع لك»، للتأكيد على أن «موت شخص عزيز يُقدّم للكثيرين أعمق تقدير لموتهم».

شارك إرفين ومارلين يالوم في كتابة مقال عن همنغواي نُشر في مجلة «أرشيف الطب النفسي العام» في يونيو (حزيران) ١٩٧١، أعيد نشره في كتاب «قارئ يالوم». وقد نُشر المقال قبل صدور السيرة الذاتية النفسية الرائدة لكينيث س. لين في عام ١٩٨٧ التي كشفت عن أن غرايس همنغواي ربّت طفليها الأولين، مارسيلين وإرنست، اللذين ولدا بفارق سنة ونصف بينهما، ليكونا توأمين من نفس الجنس. وكانت غرايس همنغواي تُلبس ابنها ملابس بنات حتى بلغ السادسة من عمره. وقد جادل عدد من نقاد الأدب، بمن فيهم كارل إيبي، بأنه كان لهذا التصرف تأثير مدى الحياة على بناء الهوية والجنس في حياة همنغواي وفنه، والتوفيق بينهما. وتعزّز الأبحاث الجديدة جدال يالوم المركزي حول الانقسام الجذري بين الذات المثالية لهمنغواي وذاته الحقيقية. «عندما تكون الصورة المثالية قاسية وبعيدة المنال، كما كانت بالنسبة إلى همنغواي، فقد تنجم عن ذلك عواقب مأساوية: فلا يستطيع الفرد في الحياة الواقعية أن يقترب من النطاق الغيبي الذي تتمتع به الصورة المثالية، وتدّخل الواقع في النهاية، فيدرك التناقض بين ما يريد أن يكون، وما

هو عليه في الواقع». واتسع هذا الانقسام كثيرًا عندما اقترب همنغواي من سن الشيخوخة. «وعندما نقرأ عن التصرفات الغريبة غير اللائقة لهمنغواي عندما بلغ الستين، نشعر أننا مضطرون إلى أن نصرخ مثل مهرج الملك لير: «ما كان ينبغي أن تشيخ حتى تصبح حكيمًا».

لكن يمكن التشكيك في بعض ما ذكره إرفين ومارلين يالوم في مقالتهما. فهما يؤكدان أن زوجة بطل قصة همنغواي القصيرة المعادية للمرأة في رواية «حياة فرانسيس ماكومبر القصيرة السعيدة» تطلق النار على زوجها وتقتله عن طريق الخطأ، لكن هذه تبقى مسألة مثيرة للجدل، وثمة أدلة كثيرة على أن القتل كان متعمدًا. وتوحي مقالة إرفين ومارلين يالوم أن كاثرين باركلي، عشيقة فريدريك، تموت «بلا معنى» بعد الولادة، لكن هذا ما أراد الروائي أن يوصله في الجمل التالية المستوحاة من نيتشه: «يكسر العالم الجميع، ثم يصبح كثيرون أقوياء في الأماكن التي كُسرت، لكنه يقتل الأماكن التي لم تُكسر». وتوجد أسباب نفسية أخرى وراء قرار الروائي بقتل كاثرين، بما في ذلك ملاحظة ليزلي فيدلر الساخرة في كتابه «الحب والموت في الرواية الأمريكية» بأنها لو عاشت، لأصبحت عاهرة همنغواي المعروفة.

بعكس ما قاله ثورنتون وايلدر الذي أيدّه يالوم سابقًا في كتابه «العلاج النفسي الوجودي»، بأن همنغواي كان سيشعر بأن «سرّ» حياته في أمان لو قرأ سيرته الذاتية، فقد تملك الروائي الرعب عندما أرسل له فيليب يونغ مسوّدة أولى لدراسته النفسية البيوغرافية. وفي تحليله لشخصيات همنغواي الروائية الرئيسية، وجد يونغ أن كل شخصية عانت من جرح جسدي أو نفسي صادم، وربط الناقد الأدبي ذلك بالإصابة التي كادت تودي بحياة همنغواي خلال الحرب العالمية الأولى، عندما أصيب بقذيفة هاون. وقد أكدّ همنغواي أن دراسة يونغ لم تكن انتهاكًا لخصوصيته فحسب، وإنما أضرّت كذلك بقدرته على الكتابة. وأكدّ همنغواي بغضب أن حياة المؤلفين الأحياء ينبغي ألّا تصبح كتابًا مفتوحًا ليقرأه ويحلله الآخرون. وهدّد همنغواي بمنع نشر الدراسة النفسية للسيرة الذاتية، لكنه تراجع في النهاية، وصدر الكتاب

عام ١٩٥٢. ويذكر يونغ بحسرة في مقدمة الطبعة المنقحة التي نُشرت في عام ١٩٦٦ المكالمات الهاتفية التي تلقاها في ٢ يوليو (تموز) ١٩٦١، والتي «تهنئه» على دقة توقعاته. ويذكر في مقدمة الكتاب أيضًا أن يونغ لم «يتنبأ» في كتابه الصادر عام ١٩٥٢ بالانتحار، بل وصف «حالة، نمطًا، عملية في حياة همنغواي وعمله، لا تتعارض فيها عملية الانتحار تمامًا».

وحرص إرفين ومارلين يالوم في مقالهما على عدم المبالغة. فلم يسعيا إلى تفسير عبقرية همنغواي، لكنهما كانا مقنعين في إظهار الدافع المضاد للرُهاب الذي يقبع وراء كتاباته. واتفقا مع تصريحه الشهير الذي أفضى به إلى أ. إي. هوتشنر، بأن «محلّله» الحقيقي كان «كورونا» آلة الكاتبة التي يستخدمها. إن الدافع المضاد للرهاب هو القوة الدافعة وراء العديد من الكتّاب، أما في حالة همنغواي، فلم يستطع أن يبقيه هذا الدافع على قيد الحياة، خصوصًا عندما وجد نفسه غير قادر على الكتابة عندما اقتربت نهاية حياته.

دور الاستبصار في تعزيز العلاقة العلاجية

مثل فرويد، يعتقد يالوم أن المعرفة قوة، وأنها جوهرية من أجل التغيير والنمو النفسي. ويقترح يالوم أن الاستبصار في العلاج دون تغيير لا يكفي، ويستشهد بملاحظة ذكرها ألين ويليس في عام ١٩٥٠: «لا يمكن أن يحدث العلاج تغييرًا في الشخصية إلّا بقدر ما يقود المريض إلى اعتماد نمط جديد من السلوك. إن التغيير الحقيقي الذي يحدث في غياب الفعل مستحيل من الناحيتين العملية والنظرية». ويقتبس يالوم في كتابه «العلاج النفسي الوجودي»، فقرة من مقال آخر كتبه ويليس نُشر عام ١٩٥٦، عن الأشخاص الذين «يجلسون على مفترق طرق الحياة»، لا يستطيعون اتخاذ قرار يتطلب نكران الذات».

يقدّم يالوم تفسيرًا جديدًا عن سبب تعزيز الاستبصار في العلاقة العلاجية. إذ يقول في أحد أهم تصريحاته: «إن البحث عن الفهم يوفر سياقًا

لتكوين العلاقة بين المعالج والمريض. إنه الصلة التي تربط المريض والمعالج، ويبقيهما منشغلين في مهمة مُرضية للطرفين». ويشعر المرضى بالرضا للاهتمام الذي يوليه لهم المعالج الذي يساعدهم على فهم جانب لم يكونوا يدركونه في سلوكهم، ويشعر المعالج بالرضا للتحدي المتمثّل في الاكتشاف الفكري والنفسي. لكن هل هذا يعني أن التفسيرات غير النفسية يمكن أن تكون فعّالة في العلاج؟ نعم، يعترف يالوم بذلك، ثم يشرح السبب. «إذا كان التفسير الفلكي أو الشاماني أو السحري يعزّز إحساس المرء بالسيطرة، ويؤدي إلى إحداث تغيير داخلي وشخصي، فإنه يكون صحيحًا (مع مراعاة الشرط بأنه يجب أن يتوافق مع إطار مرجعي للمرء). توجد أدلة كثيرة من الأبحاث النفسية عبر الثقافات تدعم موقفي. ففي معظم الثقافات البدائية، لا يُقبل سوى التفسير السحري أو الديني، وبالتالي فهو صحيح وفعال».

الدعم التجريبي

تدعم الأبحاث المعاصرة اعتقاد يالوم بمركزية العلاقة بين المعالج والمريض. فقد درس بروس إي. وامبولد، وزاك إي. إيميل لفترة طويلة الأبحاث التجريبية المكثفة، وخلصا إلى أن المواجدة «ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالنتيجة أكثر من أي متغير آخر جرت دراسته في العلاج النفسي». ويؤكد الباحثان فرضية سول روزنزويغ في عام ١٩٣٦ بأن جميع الأساليب العلاجية، عندما تُستخدم بكفاءة، تكون ناجحة بنفس القدر. وفي إشارة إلى رواية لويس كارول عام ١٨٦٥ «أليس في بلاد العجائب»، أطلق روزنزويغ على تخمينه اسم تأثير طائر الدودو. «أخيرًا قال طائر الدودو: «لقد فاز الجميع، ويجب أن يحصلوا كلهم على جوائز»». وكما يقول وامبولد وإيميل، «لقد نجحت فرضية طائر الدودو في اختبارات عديدة، ويجب اعتبارها «صحيحة» إلى أن تُقدَّم أدلة كافية لدحضها».

لا ينكر يالوم أهمية العلاقات الانتقالية التي تنطوي على إسقاط المريض

لمشاعره المرتبطة عادة بشخصية من الماضي على المعالج، لكنه يؤكد أن العلاقة الحالية، أي في الحاضر، هي التي تشفي. ولا يهتم محلّلو يالوم في رواياته بالنبش عميقًا في ماضي المريض كما فعل فرويد، بقدر اهتمامهم بالتحقيق في تفاصيل حياة المريض الحالية. إن الأمور التي تهم المعالج النفسي الوجودي هي خيارات المريض الحالية والمستقبلية، وليس خياراته في الماضي.

الذنب الوجودي

يقدّم يالوم تصنيفًا للشعور بالذنب في كتابه «العلاج النفسي الوجودي». بينما ينطوي الشعور بالذنب التقليدي على مخالفة حقيقية أو متخيّلة ارتكبها المرء ضد شخص آخر، فإن الشعور بالذنب الوجودي ينشأ عن الندم، «الوعي بالحياة التي لم تُعش، بالإمكانيات التي لم تُستغلّ داخل المرء». ويشير يالوم إلى أنه لم يصف أحد الذنب الوجودي على نحو أعمق من فرانز كافكا، ويقدّم تحليلًا ثاقبًا لشعور جوزيف ك. بالذنب في رواية «المحاكمة». كما يدرك القارئ تدريجيًّا، يواجه جوزيف ك. محاكمة داخلية، قابعة في أعماق نفسه». ولم يفهم جوزيف ك. أنه مذنب بارتكاب جريمة لأنه عاش حياة غير مرضية، ولم يغتنم الفرصة لتحقيق مصيره - وهو موضوع نيتشوي وكافكاوي. إن جميع روايات يالوم هي، في الواقع، أمثلة توضيحية لهذه المحاكمة الداخلية. ومن المثير للاهتمام أن مارلين يالوم كتبت أطروحة الدكتوراه في جامعة جونز هوبكنز عن «أسطورة المحاكمة في كافكا وكامو».

في فصل لاحق من كتاب «العلاج النفسي الوجودي»، بعنوان «الرغبة»، يجادل يالوم بأن الذنب الوجودي ينشأ من رفض تحمل المسؤولية عن الحياة. لكن المسؤولية سلاح ذو حدين: «إذا قبل المرء أن يتحمّل المسؤولية عن وضعه في الحياة، واتخذ قرارًا للتغيير، فإن ذلك يعني أنه هو وحده المسؤول عن حطام حياته في الماضي، وأنه كان بإمكانه أن يتغيّر منذ زمن طويل».

الإبداع

يذكر يالوم الإبداع بشكل عابر في كتابه «العلاج النفسي الوجودي»، لكن سيزداد هذا الموضوع أهمية في كتبه اللاحقة. فهو يشير إلى أن الحياة الإبداعية تنطوي دائمًا على معنى. ويستشهد بعدة روائيين وشعراء ورسامين وفلاسفة وعلماء نفس وفلكيين تغلّبوا على إعاقات جسدية أو نفسية، وقدّموا إسهامات فريدة في الفنون والعلوم. وخصّ بيتهوفن بالذكر باعتباره أحد أعظم الأمثلة في التاريخ عن الإبداع الذي تغلّب على اليأس. «فقد قال بيتهوفن صراحةً إن فنّه منعه من الانتحار. فقد كتب عندما كان في الثانية والثلاثين من عمره، كان يشعر باليأس لأنه أصم، «الفن وحده هو الذي منعني من أن أضع حدًّا لحياتي. للأسف، يبدو أنه من المستحيل أن أغادر هذا العالم قبل أن أفعل كل ما أشعر أنني أريد أن أفعله، لهذا السبب، فإني أواصل العيش في هذه الحياة البائسة». وتتفق عدة شخصيات تاريخية في روايات يالوم، بمن فيهم سبينوزا وشوبنهاور ونيتشه وفرويد، بالإضافة إلى بيتهوفن في أن السعي وراء الإبداع كان الهدف الأسمى في حياتهم، الهدف الذي أضفى على حياتهم معنى.

العزلة الوجودية

كما توجد أنواع مختلفة من الشعور بالذنب، توجد أنواع مختلفة من العزلة: العزلة بين الأشخاص، أو الوحدة التي تشير إلى العزلة عن الآخرين؛ والعزلة داخل الشخص نفسه التي ينفصل فيها جزء من النفس عن جزء آخر، كما في العُصاب الوسواسي؛ والوحدة الوجودية التي تشغل اهتمام يالوم كثيرًا. وقد تشير العزلة الوجودية إلى «الفجوة التي لا يمكن رأبها» بين الفرد والآخرين، أو قد تشير إلى انفصال جذري أكثر بين الفرد والعالم. ويقرّ يالوم بأنه مدين لفلاسفة مثل مارتن هايدغر، وروائيين مثل ألبرت كامو، وعلماء لاهوت مثل مارتن بوبر، الذين قدّموا أقوى الأوصاف عن العزلة الوجودية. ويرى

يالوم، مثلهم، أن علاقات الفرد بالآخرين لا يمكن أن تقضي على العزلة الوجودية.

لكن، مع أن كلّ واحد منا وحيد، يمكننا أن نتقاسم وحدتنا مع الآخرين، وبذلك نساعد أنفسنا والآخرين على أن نتحمّل العزلة المؤلمة. «أعتقد أننا إذا استطعنا أن نقرّ بوضعنا المنعزل في الوجود ومواجهته بحزم، سنتمكن من التوجه نحو الآخرين بمحبة. أما إذا غلبنا الخوف أمام هاوية الوحدة، فإننا لن نمدّ أيدينا إلى الآخرين، بل سنبتعد عنهم كي لا نغرق في بحر الوجود». لا توجد عبارة في أي كتاب من كتب يالوم تعبّر عن رؤيته للحياة بصورة أكثر إيجازًا وبلاغة من هذه العبارة. ومن دون اختزال شخصياته المعقدة إلى فكرة واحدة، يمكننا القول إن جميع قصصه ليست سوى تنويعات حول هذا الموضوع الأساسي.

لتوضيح الوحدة الوجودية، يلجأ يالوم إلى مارتن بوبر الذي جادل بأن الوجود هو في المرتبة الأول علائقي، يتكوّن من شكلين من الحوار، أنا-أنت، وأنا-هو. ويؤكد يالوم على علاقة أنا-أنت، مستشهدًا بقول بوبر: «كل مشارك يضع في اعتباره الآخر أو الآخرين في كيانه الخاص، ويلجأ إليهم بنيّة إقامة علاقة متبادلة حيّة بينه وبينهم». وإدراكًا منه للحاجة إلى التوازن بين علاقتَيْ أنا-أنت وأنا-هو، يستذكر يالوم كلمات الحاخام هيلل: «إذا لم أكن لنفسي، فمن سيكون لي؟ وإذا كنت لنفسي فقط، فماذا أكون؟».

يحترم يالوم التقاليد الصوفية التي تحثّ على تعزيز الوحدة مع الكون، لكنه يحذّر من فقدان الأنا التي تنشا عن ذلك، أي فناء الذات. إن هذا «الانصهار»، سواء كان مع فرد آخر أو مع مجموعة أو قضية معينة، فإنه «حلف مع الشيطان» يؤدي إلى الشعور بالذنب الوجودي، «ذلك الحزن بالشعور بالذنب الذي ينذب الحياة التي لم تُعش في كل واحد منا». لا يحاول يالوم إخفاء علمانيته، لكنه ليس ملحدًا متعصبًا، كما كان فرويد، ولا يعني رفضه للدين رفضه للروحانية. يصف يالوم في روايته الأخيرة، «مشكلة سبينوزا»، تخلّي الفيلسوف المفاجئ عن هويته بأنها فقدان للانفصال، لكن

لا يمكن أن تُعزى هذه التجربة التي تبدو قريبة من التصوّف، إلّا إلى تجربة يالوم الشخصية.

العمل مع مرضى السرطان

تعلّم يالوم الكثير عن قلق الموت في منتصف سبعينيات القرن الماضي عندما أنشأ أول مجموعة لدعم المصابات بسرطان الثدي النقيلي. شاركت بعض المريضات اللاتي كتب عنهن في كتابه «العلاج النفسي الوجودي» في مجموعة المرضى الخارجيين الذين كان يراهم كل أسبوع في كلية الطبّ بجامعة ستانفورد. ووجد أن «المرضى الذين يشعرون بمعنى عميق في حياتهم يبدون أكثر اكتمالًا في حياتهم ويواجهون الموت بقدر أقل من اليأس، مقارنة بأولئك الذين تفتقر حياتهم إلى المعنى». وفي كتابها الصادر عام ١٩٩٧ بعنوان «تاريخ الثدي» تشير مارلين يالوم إلى عمل زوجها مع المصابات بسرطان الثدي، وأشارت إلى أن «القلق الأساسي الذي ينتاب معظمهن لم يكن الخوف من الموت وإنما الشعور بالوحدة الذي يحيط بهن وهن في سبيلهن إلى الموت - كان سرطان الثدي ما يزال موضوعًا محظورًا في تلك الأيام». ووجدت دراسة متابعة استمرت لمدة عشر سنوات، أجراها أحد زملاء يالوم، الطبيب النفسي في جامعة ستانفورد ديفيد شبيغل، أن العلاج النفسي أدى إلى تحسين نوعية حياة النساء، ومعدلات بقائهن على قيد الحياة. وكتبت مارلين يالوم: «عاشت النساء في مجموعة الدعم في المتوسط ضعف المدة التي عاشتها النساء اللاتي لم يحصلن على الدعم النفسي منذ انضمامهن إلى الدراسة».

أثبت عمل يالوم مع مرضى السرطان في المرحلة النهائية إمكانية إيجاد معنى شخصي في غياب المعنى الديني أو الكوني. ومهما كانت معتقداتهم الدينية أو عدم إيمانهم، فقد أظهر مرضى كثيرون إيثارًا للغير حتى نهاية حياتهم. لم يكن يالوم يهدف إلى التأكيد على أن يحقق مرضاه ما سمّته كوبلر - روس «القبول النهائي للموت»، وإنما كان يهدف إلى إظهار كيف يبتكر

الناس معنى حياتهم، ثم يلتزمون بتحقيقه. يتداخل الإبداع مع الإيثار في البحث عن تحقيق الذات.

إن نظرة يالوم التفاؤلية التي ينظر بها إلى العلاج النفسي لا تجعله غافلًا عن المزالق والعقبات الكامنة في مهنته. فهو ما يزال يشكّ في العلاجات النفسية الشعبية التي انتشرت في سبعينيات القرن العشرين والتي انتشر كثير منها في ولاية كاليفورنيا التي يعيش فيها. وانتقد يالوم فيرنر إرهارد (اسمه الحقيقي جون بول روزنبرغ) الذي أصبح معلمًا ونبيًّا للعصر الجديد. فقد وعد إرهارد الذي أسس برنامج «est» (ندوات إرهارد التدريبية) انضم إليه زهاء سبعمائة ألف شخص بين الأعوام ١٩٧١ و١٩٩١، بتحولات خارقة. وحذّر يالوم بالقول: «من السفسطة الادعاء، كما تفعل est على الأرجح، بأن مسؤولية شخصية قد تنشأ من عملية استبدادية». وفي المقابل، أكد يالوم أن العلاج النفسي الحقيقي هو «علاج دوري»، «عملية طويلة ومعقدة تُعالج فيها نفس المشكلات مرارًا وتكرارًا في بيئة العلاج، وتُختبر وتُعاد في بيئة حياة المريض».

يقتبس يالوم في أحيان كثيرة من الروائيين والفلاسفة المتشائمين بعمق، لا لتأييد نظرتهم إلى العالم، وإنما للإشارة إلى ما يمكننا أن نتعلّمه منهم. إن كتاب «العلاج النفسي الوجودي» هو أول كتاب، لكنه ليس الأخير الذي يقتبس فيه يالوم تعليق توماس هاردي: «إذا كان هناك طريق إلى الأفضل، فإنه يتطلب نظرة شاملة إلى الأسوأ». وربما كانت هذه الفقرة الأدبية الأثيرة لدى يالوم. وبعكس شخصيات هاردي المأساوية التي لا تتعلم من أخطائها أبدًا - حتى أصبحت عبارة « لا يمكن إصلاح ما حدث» شعارًا رئيسيًّا في رواياته الأخيرة - أما شخصيات يالوم فإنها تتعلّم عادةً من إخفاقاتها السابقة، وتواصل، بمساعدة العلاج النفسي، عيش حياة مُرضية.

الفصل الرابع

العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين: تثقيف المراقبين والمُراقَبين

يذكر غلاف كتاب «العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين» أن كتاب يالوم السريري الصادر عام ١٩٨٣ «مناسب خاصة للأقسام النفسية المعاصرة في المستشفيات التي يُدخل إليها المرضى الذين يعانون من اضطرابات حادة لفترات قصيرة». والجمهور المستهدف ليالوم في هذا الكتاب «الأطباء السريريون الذين يعملون في الخطوط الأمامية - أخصائيو الصحة النفسية الذين يقودون مجموعات في خضم الاضطرابات التي تحدث غالبًا في الأقسام النفسية الحادة». إن العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين عمل انتقالي، يمثّل نهاية كتب يالوم السريرية المؤثّرة، وبداية مسيرته في كتابة الروايات والقصص. تثير فكرة العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين لدى الكثيرين شبح «حفلة النقر» في رواية كين كيسي التي صدرت عام ١٩٦٢ بعنوان «أحدهم طار فوق عش الوقواق»، مثل الدجاجات التي أصيبت بالجنون تهاجم بعضها بعضًا، فإن مرضى العلاج النفسي في جناح الأم راتشيد النفسي يذبح أحدهم الآخر. لم يذكر يالوم رواية كيسي، لكن رؤية الطبيب النفسي لمجموعة العلاج في كتابه «العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين» لا يختلف عنها كثيرًا.

يختلف كتاب «العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين» عن كتب يالوم السريرية الأخرى من حيث أنه يقدّم طيفًا من الأمراض النفسية أوسع بكثير مما يظهر عادة في شخصيات رواياته وقصصه عن العلاج النفسي: الذهان الشديد، وتعاطي المخدرات، والفصام، والانهيار النفسي، ومتلازمات الطب النفسي، والشيخوخة، والأزمات الحادة، وفقدان التوازن. ويذكّرنا كتاب «العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين» بخبرة يالوم الواسعة في جميع أنواع الاضطرابات النفسية تقريبًا قبل أن يصبح روائيًّا. فهو على معرفة شاملة بجميع جوانب الطب النفسي، بما في ذلك وجود طرف ثالث قوي، وهو «المسؤول المالي المقيم الذي له درجة عالية من التأثير على قرارات القبول والخروج». كما أنه كتاب غير نمطي من حيث أنه يتجاهل قلق الموت

وألم الوجود اللذين يهيمنان على كتابات يالوم اللاحقة.

بعد مضي أكثر من ثلاثة عقود على صدوره، يُظهر كتاب «العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين» التزام يالوم المستمر بالعلاقة بين المعالج والمريض حتى في الظروف التي لا تتاح فيها الوقت الكافي لإقامة هذه العلاقات، ويُظهر الكتاب شغفه بالسرد القصصي مع أن القصص الواردة فيه قصيرة وغير مكتملة بالضرورة.

يرى يالوم أن العلاج الجماعي للمرضى الداخليين والخارجيين يعتمد على نظرية العلاقات بين الأشخاص، التي تفترض أن «بنية شخصية الفرد تتشكّل من خلال علاقاته السابقة مع الأشخاص الآخرين، وأن الأعراض الحالية للمريض ليست سوى مظهر من مظاهر العلاقات المضطربة بين الأشخاص. ويطلب المشاركون المساعدة في طائفة واسعة من الشكاوى، لكنهم يجدون صعوبة كبيرة في إقامة علاقات مُرضية ودائمة فيما بينهم والحفاظ عليها». وتنطوي النظرية الشخصية على أن المعالج لا يحتاج إلى التركيز على تاريخ المريض أو على سلوكه خارج المجموعة؛ وستظهر صعوبة المريض في إقامة علاقات شخصية عن في مجموعة العلاج. وبالتالي، فإن العلاج الذي يركّز على «هنا والآن» سيساهم في التغيير العلاجي. ويتكوّن العلاج النفسي الجماعي في الوقت الحالي (هنا والآن) (بخلاف العلاج في الماضي) من مرحلتين: مرحلة التجربة، حيث يُقدَّم كل عضو إلى المجموعة، ويصف حياته بإيجاز، ومرحلة التأمل الذاتي، حيث تُدرس أقوال وتصريحات كل عضو من حيث تأثيرها على المجموعة. ويستخدم يالوم كلمة «محتوى» لوصف مرحلة التجربة، وكلمة «عملية» لوصف مرحلة التأمل الذاتي. وتتمثّل مهمة المعالج في مرحلة التأمل الذاتي في توضيح، أو إلقاء الضوء، على الجوانب العلائقية بين أعضاء المجموعة. وتُعدُّ مرحلة التأمل الذاتي الأصعب في الحفاظ عليها، ولو لمجرد إغراء السماح للأعضاء بإدخال مواد لا يمكن تحليلها بشكل مفيد من قبل المجموعة. ويركّز العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين حصرًا على التعليقات في «هنا والآن». مخاطبًا

قرّاءه بصيغة المخاطب، ومستخدمًا تشبيهًا لم يستخدمه في مكان آخر، يحثّ المعالجين الجماعيين على التفكير والتصرّف في «هنا والآن» فقط. «يجب أن تكونوا مثل الراعي الذي يعيد الخراف الضالة إلى الطريق الصحيح - إلى المواد «الخارجية»، إلى مناقشات الأحداث الماضية في حياتهم، إلى المناقشات الفكرية المجردة».

يتمثّل أحد الاختلافات الرئيسية بين العلاج الجماعي للمرضى الداخليين والخارجيين في أن متوسط مدة الإقامة في المستشفى في معظم أقسام الحالات الحادة تتراوح من أسبوع إلى أسبوعين. وبالتالي، فإنه لا يوجد وقت كافٍ، كما هو الحال في العلاج الجماعي للمرضى الخارجيين، لمعالجة هذا الصراع. ويجب أن يكون هدف المعالج الجماعي للمرضى الداخليين «حلّ الصراع بسرعة، وليس إثارة الصراع». ويجب أن يكتفي المعالج الذي يُظهر قدرة على حلّ الصراع بسرعة بقصص قصيرة توضح نقطة سريرية. فلا يوجد وقت لاستنباط الغموض في كل دراسة حالة.

تخفيف حدّة الغضب

يقدّم يالوم عدة اقتراحات علاجية قيّمة «للتخفيف» من حدة الغضب بين أعضاء مجموعة المرضى الداخليين. وتتمثّل إحدى التقنيات في التعبير عن الغضب «بعد إزالته» باستخدام صيغة الشرط. يقول لأحد المرضى: «إذا أردتَ أن تعبّر عن غضبك، فماذا يمكن أن تقول؟» وثمة تقنية أخرى وهي أن يطلب من الآخرين في المجموعة أن يلعبوا دورًا لمدة دقيقة أو دقيقتين، «أن يتظاهروا بأنهم هم الشخص الغاضب ويعبّروا عن الغضب الذي يعتقدون أنه يشعر به». وهناك تقنية أخرى وهي منح الشخص وقتًا محددًا للتعبير عن مشاعر الغضب، ربما لمدة ستين ثانية. ويدعو يالوم إلى شفافية المعالج، ويقترح أن يكون المعالجون المساعدون قدوة من خلال التعبير عن اختلافاتهم في الرأي مع أحدهم الآخر أمام المجموعة بأكملها. وإذا اختلف

المعالجون المساعدون مع بعضهم، لكنهم استمروا في العمل معًا، «فإنهم يقدّمون نموذجًا ممتازًا للمرضى». ويذكّرنا يالوم بأن المرضى الداخليين هشّون، وأن نهج «من هو الذي يخاف من فيرجينيا وولف؟» المدمر غير مناسب.

التفاعلات بين المراقبين والمرَاقَبين

إن أحد أكثر الأقسام إثارة للاهتمام في كتاب «العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين» تكمن في مناقشة نموذج «التقرير الختامي»، وهو المرحلة الأخيرة من العمل مع مجموعات العلاج النفسي للمرضى الداخليين من المستوى الأعلى. ويوصي يالوم بعدة تقنيات علاجية بارعة تزيل الغموض عن العلاج، وتوفر نموذجًا للكشف عن الذات يمكن استخدامه في العديد من أشكال التعليم، وهو أسلوب تعليمي قائم على التفاعلات بين المراقبين والمرَاقَبين.

يطرح يالوم سؤالًا بسيطًا أرّق المعالجين لعقود طويلة. وهو كيف يمكن للطلاب والمعالجين المتدربين مراقبة المرضى المقيمين في المستشفى الذين يخضعون للعلاج النفسي من دون أن يشعروا بأنهم فئران تجارب؟ والنموذج التقليدي للمراقبة في العلاج النفسي هو المرآة ذات الاتجاهين، التي تسمَّى أيضًا على نحو غريب، «المرآة أحادية الاتجاه»، وهي مرآة عاكسة في جزء منها، وشفافة في الجزء الآخر، تسمح بالرؤية من الجانب المظلم، لكن لا تسمح بالرؤية من الجانب المضاء. ويُحفظ الأشخاص الموجودون في الجانب المضاء، أي المرضى النفسيون المقيمون في المستشفى في الظلام، لا يدركون من هم الذين ينظرون إليهم. وتُستخدم المرايا ذات الاتجاهين في غرف الاستجواب، وفي غرف الإعدام، لكن من غير الأخلاقي استخدام مثل هذه المرايا مع المرضى النفسيين دون إخبارهم بأنهم مُراقَبون.

تستحضر المرآة ذات الاتجاهين شبح المراقبة كما في روايات أورويل

وفوكو، حيث يفقد مرضى العلاج النفسي الجماعي الداخليين أي حرية خصوصية قد تكون لديهم. ويكره مرضى العلاج النفسي المرآة ذات الاتجاهين، ويريدون أن يعرفوا «في أي جانب من المرآة يقف المعالجون». ويتفق الجميع على أن مراقبة العملية العلاجية تشكل جزءًا أساسيًّا من تدريب الطلاب، لكن المراقبة تخلق عددًا من الصعوبات. تتمثّل إحدى المُشكلات في أن المرايا ذات الاتجاهين تنتهك سرّية المريض. إذ يخشى بعض المرضى، لا سيما المرضى الذين يعانون من أفكار جنونية، فقدان السرية إلى درجة أنهم يرفضون حضور العلاج النفسي الجماعي. وثمة مشكلة أخرى، وهي أن بعض المرضى يرون أن وجود أشخاص آخرين يراقبونهم يسلب العلاج حميميته وكرامته. وهناك مشكلة أخرى وهي أن المراقب يؤثّر حتمًا على ما تجري ملاحظته. تثير مشاهدة مرضى العلاج النفسي من خلف مرآة ثنائية الاتجاه مبدأ عدم اليقين لهيزنبرغ، حيث يؤثّر «تأثير المراقب» على ما تجري ملاحظته. باختصار، كيف يمكن للمعالجين المتدربين مشاهدة العلاج الجماعي للمرضى الداخليين من دون عرقلة العملية من دون قصد؟

لا يقتصر الحلّ الإبداعي الذي توصل إليه يالوم على جعل المراقبين جزءًا من عملية العلاج، بل يجعلهم يتبادلون الأدوار، الأمر الذي يسمح للمرضى مراقبة المعالجين المتدربين. يقول يالوم إن المرضى «أبدوا اهتمامًا شديدًا بمناقشة موضوع المراقب والمعالج. وكرّروا مرارًا تعليقاتهم على المشاعر والأفكار العديدة التي أثارتها المناقشة، وأعربوا عن أسفهم لانتهاء الجلسة دون أن تتاح لهم الفرصة للتعبير عن آرائهم. بالإضافة إلى ذلك، فقد رغب عدد من المرضى في التفاعل مع المراقبين، إما للحصول على توضيح لتعليق أحدهم، أو للردّ على سؤال طرحه أحدهم». ويصف يالوم عدة تقنيات علاجية أخرى ذات صلة تشجّع المراقبين والمرَاقَبين على تبادل الأدوار لفهم وجهة نظر الآخرين ما يؤدي إلى إزالة الغموض عن العلاج، وزيادة الكشف عن الذات. ويشير يالوم إلى أن إحدى هذه التقنيات ابتُكرت في أربعينيات القرن العشرين عندما تشكلت مجموعات التدريب على التوعية.

فقد كانت «المراقبة» تقنية «تجلس فيها مجموعة في دائرة حول مجموعة أخرى، ويتم تبديل الكراسي بشكل دوري بحيث تصبح المجموعة الخارجية هي المجموعة الداخلية، وتناقش عملية المجموعة الداخلية التي شاهدتها للتو». ويلّخص يالوم تقريرين سريريين عن استخدام تقنية «المراقبة» في مجموعات المرضى الداخليين. إذ يجتمع المرضى في دائرة داخلية، ويراقبهم المراقبون من دائرة خارجية. وفي الدقائق الخمس عشرة الأخيرة، تتبادل المجموعتان أماكنهما: ويستمع المرضى إلى المراقبين وهم يناقشون جلستهم التي لا يوجد لها قائد. وقد استخدم يالوم نفس التقنية في مجموعته الطويلة الأمد من المرضى الخارجيين ليرى كيف يناقش طلابه الذين كانوا يراقبون مرضاه.

توجد تقنية أخرى ذات صلة، وهي ملخص جماعي مكتوب ومشترك. «في نهاية جلسات المجموعة الخارجية، أكتبُ ملخصًا تفصيليًّا للمجموعة (ملخص سردي يتضمن تحليلًا تفصيليًّا للعملية، وكشفًا كبيرًا عن خطتي العلاجية الاستراتيجية) وأرسله إلى الأعضاء قبل انعقاد جلسة الأسبوع التالي». واستخدم يالوم تقنية مماثلة مع جيني إلكين في «كلّ يوم يقترب قليلًا»، وتتكوّن تقنية أخرى، تدعى بذكاء «العلاج المتعدد»، من عدة معالجين، معظمهم من المتدربين، يجتمعون مع مريض واحد في كلّ مرة. «يتفاعل المعالجون خلال هذه الاجتماعات بشكل فردي أو جماعي مع المريض، لكنهم يشتركون غالبًا في مناقشة فيما بينهم لتحليل بعض الجوانب الخاصة من تفاعل المجموعة بأكملها». ويجد المرضى دائمًا أن «العلاج المتعدد» مفيد. ويخلص يالوم بحسرة إلى أنه لا يوجد لهذا النموذج مستقبل اقتصادي»، لكنه يبرهن على جهوده الدؤوبة لاستنباط تقنيات علاجية جديدة تساعد مرضى العلاج النفسي والممارسين والطلاب.

تعزيز الصحة النفسية

يؤكد يالوم في كتابه «العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين»

على مبادئ شفافية المعالج، والكشف الدقيق عن الذات، ودور المواجدة، واستخدام علاج «هنا والآن»، والأهمية الحاسمة للعلاقة بين المعالج والمريض. ويقول لنا إن أكثر ما يتذكّره عن علاجه النفسي قبل سنوات «الكلمات الدافئة والتأكيدية التي قالها لي معالجي». ويُظهر نفس الصفات الأدبية التي نراها في جميع أعماله. ويبذل كل ما بوسعه ليجعل العلاج النفسي مفهومًا وواقعيًّا، ويستشهد بتعريف هاري ستاك سوليفان للعلاج النفسي: «موقف يلتقي فيه شخصان، أحدهما أقل قلقًا من الآخر». ولا يخشى يالوم من مراجعة تصريحاته السابقة، فما أسماه في كتابه «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي» «عوامل علاجية» يُعبَّر عنه بشكل أكثر واقعية «بعوامل علاجية». ويسعده أن يعبّر عن التعابير الشائعة الاستخدام بطرق غير متوقعة. «يكاد العلاج النفسي يتطلب دائمًا قدرًا من التمدد من جانب المريض، ويعني التمدد دائمًا التوتر. (قيل: «إذا كان الحذاء مناسبًا، فقد لا تدع نفسك تنمو»).

لم يحظ كتاب «العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين» بمراجعات عديدة، لكن المراجعات التي ظهرت كانت مذهلة. «يرجى الانتباه، جميع الأطباء والمعلمين والمشرفين والإداريين الذين يعملون في مستشفيات الأمراض النفسية، أو في وحدات العلاج النفسي للمرضى الداخليين»، قال إي. مانسيل باتيسون في «مجلة الخدمات النفسية»، «هذا هو الكتاب الذي طالما انتظرتموه - وصف مباشر وسريري لكيفية إجراء العلاج النفسي الجماعي المصمَّم خصيصًا لبرامج العلاج الداخلي. مزيد من الأخبار السارة: السعر معقول جدًّا حتى إنكم يجب أن تشتروا عدة نسخ للعاملين معكم».

أخبار سارة أخرى: يظهر يالوم دائمًا بأنه محنك جريء، وقاص مبدع. إذ يتردد بعض المعالجين في تحليل تحسّن حالة المريض، ويستشهدون «بالقصة القديمة عن دودة أم أربع وأربعين (حريش)، عندما سُئلت كيف يمكنها أن تمشي جيدًا بكل تلك الأرجل، فبدأت تتفحص خطواتها بعناية شديدة حتى انهار إيقاعها التلقائي، ولم تعد قادرة على المشي. وفي نسخة يالوم لهذه القصة،

كان المعالج يثني على أرجل دودة أم أربع وأربعين، ويفحص رجليه خلال ذلك، ثم مشى بفخر مع الدودة، كل منهما معجب بخطوات الآخر[1].

١ ما تزال هناك أخبار جيدة أخرى، كما أخبرني يالوم. «فقد حدث انتعاش مؤخرًا في العلاج الجماعي وظهرت نتائج جيدة وفق النموذج الذي استخدمته في العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين. انظر العمل «عن العلاج النفسي الجماعي المركّز والموجز» بقلم مارتن ويتينغهام.

الفصل الخامس

جلّاد الحب:
العيش مع ألم الوجود

«ليس كل شيء كما يبدو تمامًا، يحذّر راندال وينغارتن في مقدمة طبعة كتاب «جلّاد الحبّ وقصص أخرى عن العلاج النفسي» الصادر عن دار Perennial Classics عام ٢٠٠٠، «يبدو هذا الكتاب أداة تعليمية، ويبشّر أيضًا بظهور نوع فني جديد بواسطة موهبة أدبية حقيقية». ويقدم واينغارتن، الأستاذ السريري في الطب النفسي بجامعة ستانفورد التي درّس فيها يالوم عدة سنوات قبل أن يحال على التقاعد في عام ١٩٩٤ عندما بلغ الثالثة والستين، ملاحظة ثاقبة أخرى. ففي مجموعة «جلّاد الحب»، ينجح يالوم في إزالة الغموض عن العلاج النفسي، لكن، من المفارقات، أن الغموض يزداد عمقًا.

إن يالوم ليس أول معالج نفسي يكتب قصصًا تقع على مفترق الطريق بين الفن والعلم. فقد كان فرويد يجيد ابتكار حالات دراسية مثيرة للاهتمام، نعرف كثير منها لا بأسمائها الرسمية، بل بأسمائها المستعارة مثل: «رجل الجرذان» و«رجل الذئاب» و«هانس الصغير». وسار معالجون آخرون على هذا النهج، من بينهم ثيودور ريك في كتابه «الاستماع بالأذن الثالثة» (١٩٤٨)، وروبرت ليندنر في كتابه «ساعة الخمسين دقيقة» (١٩٥٥). أما يالوم فقد ابتكر نوعًا مميزًا من دراسات الحالات النفسية في كتابه «جلّاد الحب»، حيث يتعلّم المعالج بنفس القدر الذي يتعلّمه المريض، إن لم يكن أكثر، حيث لا يسير العلاج كما هو متوقع، وحيث يثبت فشل المعالج الظاهري في النهاية بأنه نجاح. ويتميّز كتاب «جلّاد الحبّ» بأوجه أخرى. فلم يسبق لأيّ معالج أن كشف عن نفسه أكثر مما كشف عنه يالوم في هذا الكتاب، ولم يصوّر أي معالج نفسه أنه أكثر تعثرًا وأكثر إخفاقًا. ويؤدي يالوم أدوارًا عديدة في هذه الكتاب، بما في ذلك الشخص الذي يقدّم عرضًا كوميديًّا، المستعد دائمًا ليضحك من إخفاقاته ونقاط ضعفه، لكنه كان يظهر أيضًا كساحر وعرّاف، يطلق العنان لقوة العلاج الشافية.

الرحلة من كتابة قصص الحالات المرضية إلى كتابة القصص القصيرة

بعد أن أنهى كتابة كتب الطب السريري الدراسية، وجد يالوم نفسه عند مفترق طرق، فقد كان متحمسًا لمواصلة الكتابة عن العلاج النفسي، لكنه كان محبطًا من اللغة النثرية لكتب علم النفس الرسمية. كما يذكر في كتابه «قارئ يالوم»، بدأ يبحث عن أسلوب نثري أسهل وأكثر إثارة. كان له هدفان من كتابة «جلّاد الحبّ» هما: تعليم أساسيات العلاج النفسي السريري، وإعطاء صوت لطموحاته الأدبية. وقرر أن يعكس الاستراتيجية التي استخدمها في كتباته الدراسية. فبدلًا من أن «يهرّب» القصص التوضيحية إلى مناقشاته النظرية، قرر أن «يمنح القصّة مركز الصدارة ويسمح للمواد النظرية أن تنبثق منها». وللقيام بذلك، اعتمد يالوم على الملاحظات الموسعة التي كان يدوّنها في مذكراته عن كل مريض. وكان يخصص دائمًا خمس عشرة أو عشرين دقيقة بين كل مريض وآخر، ليتمكن من تدوين انطباعاته عن كل جلسة. ويشبّه هذه الملاحظات التي يدوّنها في مذكراته باللحظات المضيئة في أعمال جويس، «اللحظات التي توضح الأفكار المضيئة».

كان النموذج الأدبي الأصلي الذي اتبعه يالوم في كتابه «جلّاد الحب» كتاب لويس توماس «حياة الخلية». فقد خطّط يالوم لوصف جلسة علاجية في بضع صفحات، ثم الربط بين أهميتها وأحد جوانب العلاج في بضع صفحات أخرى. لكن النتيجة خيّبت أمله: فقد استحدث شخصيات مسطحة بدلًا من شخصيات متعددة الأبعاد، لم تكن حيّة خارج صفحات الكتاب. وتمثّل الحلّ في أن يكتب قصصًا أطول «لها قدم في الواقع، وقدم في الخيال». لكن برزت أمامه مشكلة أخرى. فقد بدا له أن القصص اتخذت حياة خاصة بها. فقد عاش يالوم «تجربة كتابية رائعة» سيطر عليه اللا وعي. وكلما اقترب من نهاية قصة، ظهرت له قصة أخرى: «بدا الأمر كما لو أنني لم أختر القصة، بل القصة هي التي اختارتني».

كانت القصص نفسها أسهل في الكتابة وأسرع من الكلمة الختامية النظرية. فحذف ثماني كلمات ختامية واحتفظ باثنتين، ثم دمجهما في مقدمة

طويلة واحدة. ووافق يالوم على مضض على اقتراح محرّرة الكتاب بحذف جميع الكلمات الختامية، وقصر «التمهيد» على ثماني صفحات فقط. كان هذا القرار بمنزلة «صراع شخصي فاصل جعلني أتخلّى عن الأسلوب التعليمي وأترك القصة تتحدّث عن نفسها».

نُشر كتاب «جلّاد الحب» في عام ١٩٨٩، بعد ست سنوات من نشر كتاب «العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين»، وأتاح ليالوم الفرصة للكتابة بعمق عن عدد قليل من المرضى، واستكشاف تعقيداتهم بطريقة لم تكن ممكنة في كتب الطب السريري السابقة. وتظهر القصص السريرية العشر رؤية جديدة للعلاج بالكلام استنادًا إلى نموذج علاجي يقوم على العلاقات وفكرة ألم الوجود. والكتاب مميّز أيضًا لسبب آخر. إذ نرى يالوم هنا يطوّر موهبته في تصوير الشخصيات، وآرائه، وحواراته، وأسلوبه الساخر، وسرعة بديهته، وتناقضاته، وهي موهبة بلغت ذروتها في مجلداته الثلاثة من قصص العلاج النفسي وأربع روايات. ويحوّل كتاب «جلّاد الحب» العلاج بالكلام إلى فن أدبي، ويقدّم العلاج النفسي إلى جمهور عريض من القراء.

وقد حرص يالوم على الحفاظ على سرّية هوية المرضى العشرة الذين ظهروا في «جلّاد الحبّ». والذين قرؤوا كل عبارة وجملة من القصّة التي ذُكروا فيها ليتأكدوا من أن هوياتهم قد أخفيت تمامًا، ما عدا مريض توفي قبل انتهاء الكتاب، ووافق جميع المرضى على نشر قصصهم. ومن المثير للاهتمام معرفة كيف كان ردّ فعلهم عندما رأوا أنفسهم في كتابه، لا سيما عندما لم ينجح العلاج، على الأقل من وجهة نظر يالوم. فهل شكلوا، على سبيل المثال، هويتهم لاحقًا حول فكرة كونهم أحد مرضى يالوم المشهورين، كما فعل مرضى فرويد؟

يعبّر التمهيد «لجلّاد الحبّ عن اعتقاد يالوم بأن العلاج النفسي يتعلّق دائمًا بألم الوجود، حتى لو لم يشر إلى ذلك سوى قلة قليلة من المعالجين قبله. فلا يمكن تحقيق رغباتنا العميقة أبدًا: «رغباتنا في عودة الشباب، ووقف تقدّم الشيخوخة، وعودة الذين رحلوا، والحبّ الأبدي، والحماية، والأهمية،

وفي الخلود نفسه». وعلى الرغم من حتمية الموت، فإننا نتصرف كما لو أننا نستطيع أن نهرب من نهاية الحياة بطريقة ما. ويكمن دور المعالج في توضيح الأوهام التي قد تتكون لدى المرضى حول الهروب من الموت. ويرى يالوم نفسه بأنه شخص يزيل الأوهام، ويذكّر مرضاه بأن هذه الحياة هي كلّ ما لدينا، وأنه على الرغم من عدم وجود حلّ للوحدة الوجودية، «يجب أن يثبط المعالجون الحلول الزائفة».

عَالِم اللحظات

بدءًا من فرويد، وضع مؤلفو دراسات الحالات النفسية المحلل في موقع المحقّق أو التحرّي، المحقّق البارع في الحياة الداخلية الذي يكشف عن أدلة وآثار الماضي المضطرب للمريض التي تفسّر مرضه الحالي. في هذا النموذج، يأخذ المحلّل شخصية شارلوك هولمز الذي يحلّل زلات اللسان والأفعال الأخرى التي تدلّ على أعراض المرض والأحلام والخيالات والتداعيات الحرة. ويعرف المحلل الهولمزي عن المرضى أفضل مما يعرفون عن أنفسهم، ويستخدم هذه المعرفة للكشف عن أسرارهم. في بعض الأحيان، يكون شرلوك هولمز نفسه بحاجة إلى سيجموند فرويد، كما يتخيّل نيكولاس ماير في روايته البارعة الصادرة في عام ١٩٧٤ بعنوان «الحلّ السبعة في المائة»، حيث يكون المحقّق البارع مدمنًا على الكوكايين، وهي مشكلة كان فرويد يعرفها من تجربته الشخصية المؤلمة. وفي دراسة الحالة هذه وغيرها، يفسّر الكشف عن الماضي السلوك الحالي، مما يؤدي إلى الشفاء العلاجي.

لكن هذه ليست رؤية يالوم في العلاج النفسي. تشير نظرية العلاقات بين الأشخاص إلى أن صعوبات المرضى تظهر في علاقاتهم الحالية. وتفترض النظرية الوجودية أن الزمن هو العدو اللدود في الحياة. وبالتركيز على الحاضر (هنا والآن)، يقدّم يالوم رؤية جديدة للمعالج، وهي أنه شخصية لا تهتم بالتنقيب عن الآثار، كما كان فرويد – الذي كانت تماثيل قديمة تزّين

طاولة مكتبه في فيينا - بل تهتم بدقات الساعة التي تعلن اقتراب الموت. إن قلق الموت، وليس قلق الإخصاء، هو الذي يجعل شخصيات يالوم مريضة، ويجب على المعالجين أن يتصالحوا مع قلقهم من الموت قبل أن يتمكنوا من مساعدة المرضى على معالجة هذا الخوف. ويركّز يالوم في العلاج على اللحظة - لذلك فهو معالج يمكن اعتباره «عَالِم اللحظات». ولكي يغتنم المعالج اللحظة، مؤكدًا على مبدأ «اغتنم يومك»، يجب أن يحلل أولًا اللحظة، وهو عمل مليء بالدلالات الهامة. ولا يستخدم يالوم أسلوب النثر الذي يعتمد على تدفق الوعي لخلق اللحظة، كما فعلت فيرجينيا وولف في رواياتها، بل يُظهر كيف أن لحظة العلاج مليئة بالمفاجآت والتقلبات والتطورات غير المتوقعة. ولا يمكن أن يكون المعالج متأكدًا أبدًا مما ستحمله اللحظة التالية. ولا يمكن للقارئ أن يكون متأكدًا من ذلك أيضًا.

قصص الوجود

إن السؤال الأول الذي يطرحه يالوم على المرضى في «جلّاد الحب»: «ما الذي يؤلمك؟» يؤكد على ألم الوجود. في هذا الكون المظلم، فإن المشاركة والالتزام والأصالة ضرورية لتجنب الاستسلام لليأس. ويجب أن يكون المعالجون متناغمين مع قلق المريض دون أن يصيبهم هذا القلق بالشلل. «كلما كان المعالج قادرًا على تحمّل قلق عدم المعرفة، قلّت الحاجة إلى اعتناق المعالج للمعتقدات التقليدية». ويتفق يالوم مع ملاحظة ف. سكوت فيتزجيرالد في كتابه «الانهيار» أن «اختبار الذكاء من الدرجة الأولى هو القدرة على الاحتفاظ بفكرتين متعارضتين في العقل في الوقت نفسه مع الاحتفاظ بالقدرة على العمل». ويوافق يالوم كذلك على عبارة شكسبير في مسرحية الملك لير: «النضج هو كل شيء»، وقد يضيف يالوم: «الغموض هو كل شيء».

جميع القصص العشر الواردة في مجموعة «جلّاد الحب» قصص وجودية،

لا تذكّرنا بالألم الوجودي وحتمية الموت اللذين يحدثان جرحًا غائرًا في جميع المرضى في قصص هؤلاء الرجال والنساء العاديين فحسب، وإنما تذكّرنا أيضًا بأن الحميمية ممكنة، مهما كانت قصيرة الأمد. تعيش شخصيات يالوم في ظروف صعبة، وتتمثل مهمة المعالج في مساعدتهم على عيش حياة أكثر أصالة. وهو يعرف أن الماضي يؤثّر على الحاضر، وفي غالب الأحيان، يشكّل المستقبل، لكنه يصرّ على أن العلاج ليس فحصًا لا نهاية له عن التاريخ الشخصي القديم. كما يرفض يالوم صورة المحلّل بأنه شاشة فارغة كما قدّمها فرويد، ويرفض إحدى الاستعارات المركزية في التحليل النفسي الفرويدي.

لقد تعلّمتُ أن مهمة المعالج لا تكمن في إشراك المريض في حفريات أثرية مشتركة. وإذا استفاد أي مريض من هذه الطريقة، فإن سبب ذلك ليس البحث عن هذا الدليل الزائف، والعثور عليه (لا تُفسد الحياة بسبب دليل زائف، وإنما تفسد لأن الدليل الرئيسي زائف). لا، لا يساعد المعالج المريض من خلال النبش في الماضي، وإنما من خلال الوجود المحبّ مع هذا الشخص. من خلال كونه جديرًا بالثقة ويبدي اهتمامًا، ومن خلال إيمانه بأن نشاطهما المشترك سيؤدي في النهاية إلى الخلاص والشفاء.

إن إدراج يالوم أحد الأقوال المأثورة بين قوسين أمرٌ مُضلِّل: فلا تنطوي هذه الفكرة على أيِّ تلميح.

إن يالوم ساخر، يدرك التناقض بين المظهر والواقع. وكما هي الحياة، لا تكون نتائج العلاج النفسي متوقعة. فمن الممكن أن يحدث أي شيء في عالم يالوم. ويُفاجأ المعالج كما يُفاجأ المريض - وأحيانًا أكثر منه، لأن المريض لا يستطيع أن يقرأ أفكاره. فالشخصية غامضة، لا يمكن التنبؤ بها، لا يمكن معرفتها: وأفضل ما يمكننا أن نفعله التقاط لمحة عابرة عن العالم الداخلي لشخص آخر. لا يمكننا أن نأخذ أي شيء أو أي شخص باعتباره أمرًا مسلمًا به. في بعض الأحيان، لا نتعلّم شيئًا مهمًّا عن حياة شخص ما إلّا بعد أن يموت. في بداية القصّة، لا يعرف يالوم المعالج بقدر ما يعرف يالوم الكاتب. ويظل القارئ أيضًا في الظلام حتى نهاية القصة. تذكّرنا حالات يالوم التي

لا يمكن التنبؤ بها بالكاتب الأمريكي القصصي أو. هنري الذي كان يستمتع بالنهايات المفاجئة، غالبًا في تقلبات غير متوقعة. تتضمن القصص العشر في مجموعة «جلّاد الحب» تجارب تعليمية لكل من يالوم ومرضاه. وتشمل هذه الحكايات صراعات سريرية تتحدّى إبداع يالوم بوصفه معالجًا وكاتبًا. وتُظهر دور يالوم بأنه شخص محبط، وتكشف عن تعاطفه مع جوانب من حياة هؤلاء المرضى. نرى كشف يالوم الجريء والمحفوف بالمخاطر في كثير من الأحيان عن نفسه، والذي يساعد المرضى على إدراك أنهم ليسوا وحدهم في صراعهم في مشكلة ما. يسعى يالوم في جميع حكايات «جلّاد الحب» إلى أقصى قدر من الشفافية، ويُظهر ذاتية المرضى الذين يعالجهم بالإضافة إلى ذاتيته هو نفسه.

مريض متيّم: «جلاد الحب»

لعل القصة التي تحمل عنوان الكتاب، والأطول والأكثر تعقيدًا في المجموعة كلها، والتي تحمل عنوانًا مؤثرًا، تبدأ بالافتتاحية الأكثر إثارة للدهشة من بين جميع الحكايات المنشورة. «لا أحبّ أن أعمل مع المرضى الغارقين في الحبّ. ربما بسبب الحسد، فأنا أيضًا أتوق إلى السحر. ربما لأن الحبّ والعلاج النفسي لا يتوافقان جوهريًّا. فالمعالج الجيد يحارب الظلام ويبحث عن النور، أما الحبّ الرومانسي، فإنه يقتات على الغموض وينهار عند الفحص. إني أكره أن أكون جلّاد الحبّ».

ماذا يمكننا أن نقول عن هذه الفقرة الافتتاحية الرائعة؟ إنها أجمل فقرة كتبها يالوم، ولعلها الأثيرة لديه، وكما يذكر في كتابه «علاج يالوم» كان بإمكانه أن يتجنب الاعتراف بشعوره بالحسد، لكن ذلك سيجعله أقل إنسانية. إن اعترافه بشعوره بالحسد وشغفه بالسحر يضعه في نفس موقف مرضاه، مما يشير إلى أنه معالج جريح. وقوله إنه لا يحب أن يعمل مع المرضى الغارقين في الحب يعني أنه لا يكشف عن تحيّزه فقط، بل يكشف أيضًا عن

مشكلة انتقال عاطفي مقابل، وهي الأولى من بين العديد من المُشكلات التي يعترف بها. وبوصفه جلّاد الحبّ، فقد يشعر يالوم بالحاجة إلى تبديد سحر الحبّ لدى مرضاه، لكن قصص علاجهم لا تفقد طابعها الأخاذ قط.

يختلف يالوم عن مؤلفي دراسات الحالات النفسية الآخرين لأنه يلفت الانتباه دائمًا إلى نفسه، لا لأنه أكثر نرجسية من الآخرين - فهو ليس كذلك - وإنما لأن اهتمامه الرئيسي ينصبّ على العلاقة بين المعالج والمريض. مقتديًا بنموذج الكشف عن الذات الذي يطلبه من مرضاه، فإنه يستمتع بالاعتراف، بصورة محسوسة، بصفاته الإنسانية، حتى لو كانت هذه الصفات التي ترتبط غالبًا بالخجل، والتي قلما يكشف عنها المعالجون الآخرون.

يرى عدد من مرضى يالوم أنه المعالج الأخير الذي يلجؤون إليه عندما يفشل المعالجون الآخرون في علاجهم، خاصة عندما يرى بعضهم أن الانتحار هو الخيار الوحيد المتبقي أمامهم. وينطبق هذا خاصة على ثيلما، المرأة السبعينية المتيّمة التي ظلت مغرمة بماثيو، الشاب الوسيم، الطالب المتدرّب في كلية علم النفس الذي يصغرها بأربعين عامًا، والذي أقامت معه علاقة عاطفية استمرت سبعة وعشرين يومًا بعد سنة من انتهاء علاجها معه الذي استمر ثمانية أشهر. وكانت ثيلما تتحدث بحماسة عن ماثيو طوال فترة علاجها مع يالوم. تقول ثيلما بحماسة: «لقد عرّفني على البعد الروحي والديني للحياة. علّمني أن أهتم بجميع الكائنات الحية».

من المفهوم أن ينتاب يالوم الرعب. فلا يوجد شيء مضرّ للعلاج أكثر من أن تنام مريضة أو مريضة سابقة مع معالج، بغض النظر عمَّن الذي بادر بالإغواء. وبالطبع يكون المعالج هو المذنب دائمًا، وليس المريضة. فلا يمكن أن يكون الجنس في العلاج «بالتراضي» أبدًا لأن المريضة قد تخشى أنها إذا رفضت - تكون الضحية عادة أنثى - فإن المعالج سيرفض علاجها. ويقع المرضى المبتلون بمرض الحب تحت تأثير الحب الانتقالي الذي يعمي بصيرتهم، والذي يمكن أن يستغلّه المعالج عديم الضمير بسهولة. لذلك حظرت جميع منظمات الصحة النفسية الجنس في العلاج الذي يُعتبر شكلًا

رمزيًّا من أشكال سِفاح القربى. وتسيطر انتهاكات الحدود الجنسية وغير الجنسية على رواية يالوم الأكثر سخرية، «مستلقيًا على الأريكة»، لكنه يلمح في مجموعته «جلّاد الحب، وفي أماكن أخرى إلى أنه لا يوجد شيء مضحك في مريضة يلحق بها العلاج الجنسي الضرر.

يثير سلوك ماثيو في قصة «جلّاد الحب» غضب يالوم. «لقد رأيت عددًا كبيرًا من المريضات اللاتي لحق بهن ضرر شديد من معالجين استغلوهن جنسيًّا. إن ذلك يلحق الضرر دائمًا بالمريضة». غير مبالية بتصريحات يالوم بأن سلوك ماثيو لم يكن مسؤولًا ومدمرًا، ناهيك عن أنه مدمر للذات، تصرّ ثيلما على أن الاستلقاء بين ذراعي ماثيو كان أحد أعظم اللحظات في حياتها. وهي تؤمن بذلك حتى بعد سلوكه ببرودة تجاهها عندما التقيا بالصدفة بعد ستة أشهر من انتهاء علاقتهما. كانت المرأة ما تزال مغرمة به، وابتلعت قنينة من الحبوب المنومة وكادت أن تموت. «لم أتوقف عن التفكير فيه طوال ثماني سنوات».

في بداية مجموعة «جلّاد الحبّ»، يذكر يالوم تفصيلين لا تظهر أهميتهما إلَّا في نهاية القصة. الأول أن ثيلما متزوجة من رجل يدعى هاري الذي لو علم بعلاقتها مع ماثيو، لقتله. ومع أنه لا يوجد سوى قدر قليل من الحبّ، ولا يوجد جنس في زواجهما، فقد بقيا معًا لسنوات عديدة، ولم تكن ثيلما مستعدة لأن تتركه. وتظهر «يدا هاري الكبيرتان والخانقتان» إمكانية عنفه. والتفصيل الثاني أن يالوم وثيلما يوقّعان عقدًا للعلاج: توافق ثيلما بموجبه على أن تلتقي به مرة في الأسبوع لمدة ستة أشهر، مع إمكانية تمديد الفترة ستة أشهر أخرى إذا رأيا ضرورة لذلك. ووافقت أيضًا على المشاركة في مشروعه البحثي في العلاج النفسي، لدراسة تأثير العلاج النفسي على المسنين. ويتضمن المشروع «إجراء مقابلة بحثية ومجموعة من الاختبارات النفسية لقياس النتائج، يتم إجراؤها مرتين، مرة في بداية العلاج، ومرة بعد انتهائه بستة أشهر». لذلك، ستتضمن نهاية القصة ثلاث وجهات نظر تقييمية مختلفة: وجهة نظر المريضة، ووجهة نظر فريق البحث، ووجهة نظر المعالج - ووجهة نظر رابعة

إذا أخذنا هاري في الاعتبار.

ذكر يالوم بصدق جميع أخطائه في علاجها. بعد لحظة من إعرابه عن دهشته لثيلما لأنها لم تتحدّث قط مع معالجها السابق عن علاقتها الجنسية مع ماثيو، أدرك يالوم أنه ارتكب خطأ فادحًا. «تقنية سيئة! خطأ شخص مبتدئ - لكنني لم أستطع أن أكبت دهشتي». إن اعتقاد يالوم بأنه يستطيع أن يحقق نجاحًا بعد أن فشل معها معالجون آخرون، بدا له فيما بعد أنها غطرسة من جانبه، عرّفها الفلاسفة الذين سبقوا سقراط بأنها «عصيان على القانون الإلهي»، والتي وصفها يالوم العلماني بأنها عصيان على «القوانين التي تحكم سير الأحداث في مجال مهني». وكلما حاول يالوم أن يحرم ثيلما من الوقود الذي يغذّي هوسها بماثيو، ازداد دفاعها عنه. وحتى عندما يالوم يعلّمها المشاعر الأساسية - السيئة والحزينة والغاضبة والسعيدة -تعود إلى آلياتها الهائلة في إبعاد الآخرين. وبعد أن ازداد شعوره باليأس من تجربته الشخصية المؤلمة بأن هوس الحب يستنزف الحياة من واقعها ويجعل الحبّ الحقيقي مستحيلًا. ثم قدّم أكثر الاعترافات المذهلة في كتاباته:

في مؤتمر عقد قبل أن ألتقي ثيلما بسنتين تقريبًا، صادفتُ امرأة استحوذت على عقلي وتفكيري وأحلامي. واستقرّت صورتها في ذهني، وتحدّت كل محاولاتي لإبعادها عن تفكيري. لكن كان ذلك مقبولًا لفترة من الوقت: فقد أحببت هذا الهوس واستمتعت به كثيرًا. وذهبت بعد بضعة أسابيع في إجازة لمدة أسبوع مع أسرتي إلى جزيرة جميلة في البحر الكاريبي، ولم أدرك إلّا بعد عدة أيام أنني أفتقد كل شيء في هذه الرحلة - جمال الشاطئ، والنباتات الغنّاء والغريبة، وحتى متعة الغوص تحت الماء. لقد طمس هوسي كلّ هذه الواقع الغني والجميل. كنت غائبًا، مسجونًا داخل عقلي، لا أرى إلّا نفس الخيال الذي أصبح عديم المعنى. قلقًا ومستاءً من نفسي، بدأتُ العلاج (مرة أخرى)، وبعد عدة أشهر صعبة، استعدتُ صوابي، وعدتُ إلى تجربة حياتي المثيرة كما كانت في الماضي. (يا له من أمر غريب: فقد أصبح معالجي في النهاية أحد أصدقائي المقربين، وأخبرني بعد سنوات أنه عندما كان يعالجني، كان

مغرمًا بامرأة إيطالية جميلة كان اهتمامها منصبًّا على شخص آخر. وهكذا، من مريض إلى معالج إلى مريض، تستمر دوامة الحبّ الهوسية).

اعترف كتّاب آخرون بأنهم كانوا ينجذبون إلى مريض ما أو ينفرون منه، لكنني لا أعرف معالجًا آخر، خصوصًا معالجًا لديه زوجة وأطفال، اعترف في دراسة حالة أنه أصبح مهووسًا بالحب جعله يعود إلى العلاج - ثم اكتشف، لدهشته، أن المعالج غارق في الوقت نفسه في الحبّ. يثير كشف يالوم هذا أسئلة عديدة. ما هو شعور زوجته وأبنائه وأصدقائه وزملائه عندما كشف عن نفسه؟ هل تردّد بعد أن صدر الكتاب؟ أم أن هذا ليس سوى مثال آخر على أن كل شيء مادة خصبة للمعالج - الكاتب؟ إن الكشف عن الذات مهم بالنسبة إلى يالوم لأنه يؤكد على الدور المزدوج للمعالج كمشارك ومراقب. وبعكس المحللين النفسيين التقليديين الذين يتعلّمون الكشف عن القليل أو عن لا شيء على الإطلاق للمريض، يرى يالوم أن الكشف غير الكافي عن الذات يشكّل معضلة بالنسبة إلى المريض أكثر من الكشف المفرط. «لقد أخطأت دائمًا في الكشف عن القليل عن نفسي، بدلًا من الكشف عن الكثير، فكلما كشفتُ أشياء كثيرة عن نفسي، استفاد المرضى من معرفة أنني أواجه مُشكلات لأنني بشر مثلهم».

لم تتأثّر ثيلما بالجهود التي بذلها يالوم ليخلّصها من هوسها. عندما فكّر في الأمر مليًّا، استطاع أن يفهم السبب. «بالتعميم من تجربتي إلى تجربتها، افترضت خطأً أن حياتها غنية لكنها كانت تفتقده بسبب هوسها. ومع أنها لم تقل ذلك صراحةً في ذلك الوقت، شعرت ثيلما أن الهوس ينطوي على حيوية أكثر بكثير من تجربتها الحياتية». وعلى الرغم من نجاح يالوم في الكشف عن نفسه من وجهة نظر أدبية، فقد ثبت فشله من وجهة نظر علاجية. ومع ذلك، لم يضع كل شيء، لأن العلاج (أو إعادة العلاج) ساعد يالوم ومعالجه على التغلّب على حبهما المرضي. واقتنعت ثيلما من إصرار يالوم، بأنها يجب أن تتحرر من هوسها بحبّ ماثيو. لكن السؤال يبقى: كيف يمكنها أن تتخلص من سحره الشرير؟ كانت أمام يالوم مهمة أخرى وهي الحفاظ على قصة

أنه جلّاد الحب.

ينجح يالوم في كلا المسعيين من خلال وصف الأخطاء العديدة التي ارتكبها من دون قصد في علاجه لها. وتكشف الأخطاء أن العلاج النفسي فن بقدر ما هو علم، ويتم من خلال الارتجال والتجربة والخطأ. يطلب يالوم من ثيلما أن تؤدي دور ماثيو. خطأ: سماع «ماثيو» وهو يتحدث عن محاولتها الانتحار زاد من اكتئابها. وفي أثناء أداء الدور، شعرت أيضًا أنها «مراهقة حمقاء». طلب منها يالوم أن تفكّر في انتقال مشاعر ماثيو إليها. خطأ آخر. فلم تشعر بالراحة من أنها ليست سوى «مشاهدة بريئة» في انتقال مشاعر أمومية متضاربة. علمًا أن خوفها من الشيخوخة والموت هو الذي يغذّي هوسها هذا، ويأمل يالوم بأن تقوي علاقتها الحقيقية به لتتحرر من علاقتها المثالية مع ماثيو. خطأ آخر. قلبت ثيلما الطاولة عليه عندما سألته سؤالًا نظريًّا: «ألّا يفضّل المعالجون النفسيّون علاج مريض في الثلاثين من عمره على معالجة مريضة في السبعين من عمرها؟» وجد يالوم نفسه مرة أخرى أنها تفوقت عليه بذكائها.

لكن أن يتفوق عليك أحدهم في الذكاء هو جزء من عملية العلاج، خصوصًا عند معالجة مريض يبدي مقاومة شديدة. وكلما ازدادت الحالة صعوبة، أصبحت القصة مثيرة أكثر. يرى يالوم المفارقات التي يغفلها المعالجون الآخرون، مثل تماهيه مع معالج يكرهه في الأصل. عندما قال يالوم لثيلما إن أسئلتها غير الشخصية تُبعده أكثر، أجابته: «هذا ما كان يقوله ماثيو تمامًا»، فاكتفى يالوم بابتسامة، وصرّ على أسنانه بصمت.

أخيرًا، عندما بدأ الوقت ينفد – لم يتبقَّ أمامهما سوى شهرين – لعب يالوم ورقة أخيرة: جلسة ثلاثية مع ثيلما وماثيو. تنتفض ثيلما، وتشعر بالقلق فجأة من فرصة اختبار صورتها عن ماثيو في الواقع. وتوضح جميع الأسباب التي تجعلها تعتقد أن هذه فكرة سيئة. ويقدّم يالوم أهمّ مبدأ علاجي لديه: «الحياة غير المتخيلة لا تستحقُّ أن تُعاش». تفكّر ثيلما في الأمر طوال أسبوع، ثم تعود إلى الجلسة التالية وقد بدت أصغر من عمرها بعشر سنوات، ووافقت على

الجلسة الثلاثية. وسرعان ما يفاجئ يالوم القارئ بأكبر مفاجأة. فقد اتضح أن ماثيو لا يشبه المعالج غير المسؤول الذي كان يالوم قد تخيّله. كان يالوم مستعدًّا لصراحته وبساطته - «في غالب الأحيان، يقدّم المعتلُّون اجتماعيًّا (السيكوباتيون) أنفسهم بصورة جيدة» - وربما لاهتمامه بكتابات يالوم - «إني أقرأ كتبك منذ سنوات. وإنه لشرف لي أن ألتقي بك» - لكنه لم يكن مستعدًّا لتفسير ماثيو.

كانت قصة ماثيو مثيرة للاهتمام. فبعد أن أنهى تدريبه السريري قبل ثماني سنوات، فكّر في أن يصبح راهبًا بوذيًّا، وسافر إلى الهند للتأمل لمدة ثمانية أيام، وبسبب الصمت التام والعزلة، بدأ يفقد حدود «الأنا». وفي الأسبوع الثالث، بدأ يهلوس، وبعد أن وصف له طبيب هندي أدوية مضادة للذُهان، عاد ماثيو إلى سان فرانسيسكو حيث التقى بالصدفة ثيلما. كان ما يزال في حالة من التشتت، وتحت تأثير الروح البوذية عن الوحدة الكونية، أعطاها كل ما أرادت، بما في ذلك تجربة «الوحدة والحبّ المثاليين». لكن سرعان ما أدرك ماثيو أنه ارتكب خطأً فادحًا، وعمل بتوصية طبيبه النفسي وقطع أي تواصل مع ثيلما من أجل مصلحتهما معًا. إن ما اعتبرته قسوة قلب من جانبه، كان محاولة منه للتعويض.

بعد أن استمع يالوم إلى قصة ماثيو، شعر بشيء من التوتر والارتباك: فلم تكن أي من فرضياته لتفسير سلوك المعالج الذي تجاوز كل الحواجز صحيحة ولو من بعيد. ونتيجة انهياره النفسي وعلاقته التي تجاوزت الحدود مع ثيلما، قرّر ماثيو أن ينهي حياته المهنية كطبيب نفسي، وهو يشغل حاليًّا منصب مدير منظمة مسيحية للرعاية الصحية. استمع يالوم وثيلما إلى قصّة ماثيو باهتمام شديد، وكذلك القارئ.

يجد يالوم متعة بتحطيم توقعات القارئ، ويثبت أن كل ما ذكره عن ماثيو مذهل، بما في ذلك تحوّله إلى طائفة مسيحية متطرفة. لكن ثيلما لم تصدّق كلمة واحدة من القصة التي رواها ماثيو، مما زاد من حيرة وإرباك يالوم. وبعد أن غضبت من ماثيو ويالوم، لم تجد ثيلما أي عزاء في حقيقة أن ما كان تجربة حبّ

بالنسبة إليها، كان نتيجة تجربة نفسية لمعالجها السابق. فلم تر ماثيو الذي عرفته قبل ثماني سنوات كمعالج جريح، مضطربًا وضعيفًا، ونادمًا بصدق على ما سبّبه لها من أذى، بل رأت أنه شخص متلاعب وشرير. «كم كنتُ حمقاء لأنني حميت هذا الرجل طوال ثماني سنوات».

أضفى غضب ثيلما حيوية على القصة. فقد لاحظ يالوم الذي حاول أن يقنع ثيلما بأن ما جرى بينها وبين ماثيو لم تكن تجربة حب متبادلة: «لا أظن أنني قلتُ شيئًا أقسى من هذا، لكن لكي أُسمع صوتي، كان عليّ أن أتكلم بكلمات قوية وصارمة لا يمكن تحريفها أو نسيانها». رفضت ثيلما ما قاله يالوم حول قيمة التخلّص من عذاب الحبّ الهوسي، ولخيبة أمله، رفضت أن تمدّد فترة العلاج بعد أن أكملت ستة أشهر منها. نجح يالوم في جهوده الرامية لأن يكون «جلّاد الحبّ»، بنتائج كارثية من وجهة نظر المريضة. وتكمن المفارقة في صورة يالوم عن نفسه باعتباره «جلّاد الحبّ»، ومحطّم الأوهام العلاجية، في أن عددًا قليلًا من المعالجين النفسيين هم أكثر تفاؤلًا بالحياة، وإمكانية تحقيق الحبّ الحقيقي. ويتجلّى تفاؤله في جميع كتاباته: كتبه الدراسية السريرية، ودراسات الحالات النفسية، ورواياته. ويظل تفاؤل يالوم الذي لا يتسم بالسطحية أو السذاجة أبدًا، أحد أعظم نقاط قوته كمعالج وكاتب. وقد يذكّرنا يالوم الذي لا يخدع أحدًا، في دوره كمحرر من الأوهام بساخر آخر هو فرويد الذي ردّ في ختام كتابه «دراسات في الهستيريا» على مريضة تساءلت كيف يمكن مساعدتها بينما يرتبط مرضها بأحداث حياتها، كان ردّ فرويد تحفة من الحكمة الساخرة، «لا شك أن القدر سيجد حلًا أسهل مما أجده أنا ليخلّصك من مرضك. لكنك ستتمكنين من إقناع نفسك بأنك ستربحين الكثير إذا حوّلتِ بؤسك الهستيري إلى تعاسة عادية».

لم يستنفد يالوم كلّ مفارقات «جلّاد الحبّ». ففي نهاية الجلسة الأخيرة مع ثيلما، تحدّث يالوم لفترة قصيرة مع هاري الذي لم يكن يرى فائدة من العلاج. «دكتور، أعد لي زوجتي، ثيلما القديمة، كما كانت من قبل». لم يدرك هاري أن ثيلما القديمة كانت مغرمة بجنون بمعالجها السابق، وأن غيابها عن زوجها

كان رمزيًّا. يتحدّث هاري بصوت يشي بالتوسل، لكن يالوم لا يتمالك نفسه من ألّا ينظر إلى يديه الكبيرتين اللتين تشبهان يديّ شخص «خانق». فكّر يالوم مليًّا في توسل هاري، وقال في نفسه: «مثل ثيلما تمامًا، اختار هاري أن يتبنّى الوهم. لقد سأل سرفانتس: «أيهما تختار: الجنون الحكيم أم العقل السليم الأحمق؟» كان من الواضح ما هو الاختيار الذي اختاره هاري وثيلما». بعد بضعة أيام، تحدّث يالوم مع ثيلما على الهاتف وأخبرته عَرَضًا أنها رأت ماثيو في اليوم السابق، وقالت إنها ما تزال مقتنعة بأنه ساعدها «بما لا يقدّر بثمن». واتفقا على أن يلتقيا كلّ شهر تقريبًا «ليتجاذبا أطراف الحديث». دفعت هذه المعلومة يالوم إلى حالة شديدة من الفضول، لكنها قالت له إنها لم تعد مريضته، وأنه لم يعد يحق له أن يسألها أسئلة شخصية.

احترمت ثيلما التزامها تجاه مشروع البحث، وبعد ستة أشهر من انتهاء العلاج، التقت بباحث نفسي لإكمال سلسلة من الاستبيانات. وخلصت الاختبارات إلى أن ثيلما قد «أحرزت تحسنًا ملحوظًا» في العلاج. ومن بين ٢٨ مريضًا مُسِنًّا شاركوا في الدراسة البحثية، كانت ثيلما الأكثر إيجابية، لكن لأسباب بعيدة تمامًا عن الحقيقة، كما قال يالوم في حيرة، «يبدو أن المعالج استخدم بنجاح خطة علاجية براغماتية موجهة نحو الأعراض مصمّمة لتوفير الراحة بدلًا من التعمق في الفهم، أو تغيير الشخصية».

هل أدّى التفكير الخاطئ إلى استنتاج أكثر دقة؟ لن يصدّق أي قارئ لمجموعة «جلّاد الحب» أن يالوم استخدم عبارة «خطة علاجية براغماتية موجّهة نحو الأعراض، كما يرى فريق البحث. وينبغي أيضًا ألّا نقبل اعتراف يالوم في الجملة الأخيرة المضحكة من القصة بأن نتائج تقرير البحث لم تمنحه سوى قدر قليل من الراحة. صحيح أن علاج ثيلما لم يسر كما كان متوقعًا، وربما شعر يالوم بأنه «أفسد هذه الحالة بشكل لا يصدّق»، لكن يُشكّ بأنها قد تكون قد شعرت بذلك. إذ تقول له إنها إذا عادت إلى العلاج، فإن يالوم سيكون خيارها الأول كمعالج. وشأن جميع المرضى في مجموعة «جلّاد الحبّ»، قرأت ثيلما مخطوطة دراسة الحالة ووافقت على نشرها. ومهما

بلغ غضبها من يالوم لكونه «جلّاد الحب»، فقد وثقت به وعهدت إليه بقصة حياتها، وقدمت له بذلك هدية ثمينة، ولقرّائه أيضًا.

هدية الوالد الأخيرة: «لو كان الاغتصاب قانونيًا...»

تنتهي القصة التالية في مجموعة «جلّاد الحبّ»، «لو كان الاغتصاب قانونيًا...»، بفكرة ستبقى ماثلة في ذاكرة القرّاء لفترة طويلة. تدور أحداث القصة التي لا تتجاوز عشرين صفحة حول رجل مصاب بالسرطان، لكنه لا يتورّع عن إبداء تعليقات جنسية فجّة على أعضاء مجموعة العلاج، ما أثار غضب النساء اللاتي تعرضت إحداهن للاغتصاب. يقول طبيب الأورام ليالوم: «كارلوس قطة بتسع أرواح، لكن يبدو أنه يقترب الآن من نهاية حياته التاسعة». يعترف كارلوس بلا خجل ليالوم أن هدفه في الحياة «مضاجعة أكبر عدد ممكن من النساء». لم يكن يالوم متأكدًا من سبب انجذابه إلى كارلوس الذي يصارع السرطان منذ عشر سنوات، وعندما شارف على الموت، تساءل يالوم هل يستطيع مريضه أن يحقق أي شيء طموح في العلاج، لكن الأمر الذي زاد صعوبة التحدّي الذي يواجهه يالوم هو أن سلوك كارلوس العدواني كان يزداد حدة عندما يدخل السرطان في مرحلة خمود.

ولتحقيق هدفه العلاجي المتمثّل في جعل كارلوس يدرك الآثار المحررة المحتملة لفكرة الموت، يجد يالوم نفسه يتصرّف مثل فيلسوف أو معلّم ديني أكثر من كونه معالجًا. فقد اقتحم يالوم «أعمق معابد كارلوس الداخلية: حبّه لأبنائه وإيمانه في التناسخ». وسأل كارلوس ماذا سيكون شعوره إذا كانت ابنته التي يحبّها تعيش في مجتمع يكون الاغتصاب فيه قانونيًا، كما يرغب كارلوس، فأصبح كارلوس فجأة جادًا واعترف أنه لا يريد أن يحدث شيئًا كهذا. ثم ساعد يالوم كارلوس على تفسير حلم رآه عن سيارة هوندا سيفيك خضراء، وهو لون وطراز سيارة يكرهه كثيرًا. كان الحلم يرمز إلى حياة في المستقبل ستكون عقابًا له على أفعاله في هذه الحياة.

ما يلفت الانتباه في نهاية قصة «لو كان الاغتصاب قانونيًّا...» ليس تحول كارلوس في الأشهر الأخيرة من حياته الذي أصبح أكثر أفراد المجموعة دعمًا وأبًا مخلصًا لولديه فحسب، وإنما كذلك إدراك يالوم كيف أن المحتضرين يمكنهم أن يساعدوا الأحياء. «لطالما شعرتُ أن الطريقة التي يواجه بها المرء الموت تتحدّد إلى درجة كبيرة بالنموذج الذي حدّده والداه. إن أفضل هدية يمكن أن يقدّمها الوالدان لأبنائهم تعليمهم من خلال القدوة كيف يواجهون الموت بهدوء - وقد قدّم كارلوس درسًا استثنائيًّا في الكرامة». قد تكون رعاية شخص يحتضر هدية، وتكون غالبًا هدية رائعة، خصوصًا إذا كان الموت صعبًا وطويلًا، لكن الأشخاص الذي يفكّرون في الموت الذين يعترفون بهذه الهدية قد ينسون أن هذه الهدية تأتي من الأشخاص المحتضرين الذين يكافحون بكل قوتهم كي لا يكونوا عبئًا على الذين يحبونهم. وقد قدّم كارلوس هذه الهدية لأبنائه، وينقل يالوم هذه الهدية إلى قرائه من خلال قصته المؤثرة هذه.

الاعتراف بالتحيز: «السيدة البدينة»

لا يُقارن اعتراف يالوم في بداية مجموعة «جلّاد الحبّ» بأنه لا يحبّ أن يعالج المرضى الذين يقعون في الحبّ باعترافه بتحيّز مختلف في بداية القصة التالية التي أطلق عليها صراحة «السيدة البدينة» التي يصوّر فيها بشكل درامي صفة لم يكن يعتبرها قط نقطة ضعف لديه حتى عالج بيتي. «كنتُ أشعر دائمًا بالاشمئزاز من النساء البدينات. أجدهن مقززات: طريقة مشيهن السخيفة وهن يتمايلن، وغياب ملامح أجسادهن - الثديان، الفخذان، الردفان، الكتفان، الفكان، عظام الوجنتين، كل شيء، كل شيء أحبّ أن أراه في المرأة، محجوب تحت فيض من اللحم. وأكره ملابسهن - الفساتين الفضفاضة عديمة الشكل، أو الأسوأ من ذلك، الجينز الأزرق القاسي الذي يغطي أفخاذهن السميكة. كيف يجرأن على أن يفرضن هذا الجسد علينا».

كيف يمكن لمعالج نفسي يفترض أنه لا توجد لديه مثل هذه التحيزات البغيضة أن يستعيد احترام قرّائه بعد اعتراف مدمّر كهذا؟ تزداد المهمة صعوبة لأنه يصوّر مشاعره بالنفور بنثر حيوي، مشحون عاطفيًّا. فلا يكتفي بإخبارنا بأنه يزدري البدينات، بل يُظهره أيضًا بتفاصيل صادمة. ومن دون أن يخفي شيئًا، متحديًا الحذر السياسي والنفسي، يحلّل يالوم أصل نفوره هذا: «كانت البدانة المتفشية في عائلتي جزءًا كان عليَّ أن أتركه ورائي عندما قررتُ، أنا الطموح، المولود في أمريكا من الجيل الأول، أن أنفض غبار القرية الروسية من قدميَّ إلى الأبد». لكن تحليله الذاتي لا يقلّل بأي حال من مسؤوليته بأنه تنتابه هذه المشاعر المخجلة.

يهدف التحدي الرئيسي الذي يواجهه يالوم في قصة «السيدة البدينة» إلى استعادة تعاطف قرّائه، وإذا استطاع أن يحقق ذلك، فإن ذلك بفضل جهوده الحثيثة لمساعدة مريضته بيتي التي أتاحت له الفرصة لصقل مهاراته كمعالج. «كنت آمل أن أتغيّر مع تقدم بيتي وتقدمي في علاجها (علاجنا)». ويذكّرنا بأن العلاقة هي التي تشفي - «مسبحتي المهنية». لا بد أن المعالج اليهودي يصبح يائسًا عندما يتذكّر المسبحة.

نقلت «السيدة البدينة» عملية الانتقال المقابل للمعالج إلى شكل من أشكال الفن. وكما في قصصه الأخرى، فإن كل شيء يشكّل مادة خام للمعالج - الكاتب. لا يتمالك يالوم نفسه من التفكير بأن بيتي أكثر مريضة مملّة عالجها، حتى إنه كان يضطر إلى أن يجلس منتصبًا في كرسيه حتى لا يغفو. ثم أدرك أنه عندما كان رولو ماي يحلّله، كان يجلس على كرسي خشبي مستقيم الظهر. «قال إن ظهره يؤلمه، لكنني عرفته جيدًا بعد ذلك بعدة سنوات، ولم أسمعه قط يقول إنه يعاني من مشكلة في ظهره. هل يمكن أن يكون قد كشفني...؟»

تمتلئ قصة «السيدة البدينة» بمثل هذه التفاصيل. إنها العدالة الشعرية، أو العدالة العلاجية، التي تعود وتطارد مشاعر الانتقال المقابل ليالوم. تتناوب المريضة والمعالج على لعب دور المحقق النفسي لأحدهما الآخر. إذ

يساعد يالوم بيتي على أن تدرك بأن سلوكها ما هو إلّا دفاع في وجه مخاوفها من التبعية. وعندما تعترف بأنها عندما تلتقي بأشخاص جدد، فإنها تتخيّل كيف سيكون الأمر عندما تودعهم، فيتذكّر على الفور إحدى ملاحظات أوتو رانك المثيرة للاهتمام: «رفض قرض الحياة، لتجنب دين الموت». يعلّم يالوم بيتي المشاركة، في حين تشير إلى نقاط ضعفه.

تثبت العلاقة العلاجية أنها مؤلمة بالنسبة إلى يالوم بقدر ما هي مؤلمة بالنسبة إلى بيتي. في في أثناء علاجه لها، بدأ يشعر بالذنب عندما يتناول الطعام، كما لو أنه يتصرف بسوء نية تجاهها، وعندما وجد أنه بدأ يتجاوز الحد الأقصى للوزن الذي فرضه على نفسه، بدأ نظامًا غذائيًّا لمدة ثلاثة أسابيع، أجبره على فهم معاناتها من فقدان الوزن أكثر مما كان يتوقع. واستطاعت بيتي أن تنقص من وزنها مئة باوند، وتغلّبت على اكتئابها الذي تعاني منه منذ فترة طويلة وتدني ثقتها بنفسها، لكنها أشارت في النهاية إلى شيء لم يكن يدركه. فقد كان ينفر من جسدها حتى إنه لم يكد ينظر إليها خلال الأشهر الستة الأولى، ولم يصافحها طوال ثمانية عشر شهرًا. مستمتعة بانزعاجه، قطعت عليه تبريراته لكي لا يزداد أنفه «طولًا مثل بينوكيو»، كما قالت له ساخرة. واعترفت بيتي أنها كانت تعرف منذ البداية شعور يالوم اتجاهها لأنها لم تكن، مثله، تحتمل الأشخاص البدينين. وتنتهي القصة عندما عانقها يالوم وهو يودعها، «فوجئت بأنني استطعت أن أضمّها بين ذراعي».

تُعدُّ قصّة «السيدة البدينة» قصّة رائعة لما تتضمنه من رؤى علاجية عديدة. فعندما أنقصت بيتي وزنها، «أعادت تجربة الأحداث الصادمة أو التي لم تُحسم في حياتها والتي حدثت عندما كانت في وزن معين». لا يؤيد يالوم «حركة استعادة الذاكرة» التي فقدت مصداقيتها الآن، حيث يقوم المعالج، بوعي أو من دون وعي، بزرع أفكار في عقول المرضى، لكنه يتعاطف مع فكرة أن الجسد يستطيع أن يتذكّر ما نسيه العقل منذ زمن طويل. ومن الأفكار الرائعة الأخرى أن الصراعات لا تُحلّ بشكل كامل في العلاج النفسي، وهذا ما يفسر ولع يالوم بمقارنة العلاج النفسي «بالعلاج الدوري». وتثير قصّة

«السيدة البدينة» الاهتمام أيضًا لما يكشفه المعالج عن نفسه، فلا يخفي يالوم أشياء كثيرة عن حياته الخاصة، ولا يتردد في أن يبدي تعاطفه مع مرضاه، كما هو الحال عندما يعترف بأنه يعرف شخصيًّا «مدى صعوبة تواصل الأبناء البالغين المتعلمين مع آبائهم غير المتعلمين من الطبقة العاملة».

إزالة الجليد عن الحزن: «أخطأ الموت في الاختيار»

تركّز قصّة «أخطأ الموت في الاختيار» بصورة أساسية على الفجيعة، وربما تدرس أكثر جوانب الفقد إيلامًا في الحياة، وهي وفاة طفلة، لكن القصة تثير كذلك سؤالًا قلما يناقشه مؤلفو دراسات الحالات النفسية. هل يجب أن يتركز التزام المعالج الأساسي على الأبحاث أم على المريض؟ قد يظن معظم القراء أن الإجابة كلاهما، لكن ماذا يحدث عندما يبدأ المعالج يُجري مقابلة مع شخص بحاجة ماسة إلى علاج لا يستطيع المعالج أن يقدمه له؟ إن ردّ يالوم على هذا السؤال يجعل قصة «أخطأ الموت في الاختيار» مثيرة للاهتمام.

تبدأ القصة بإعلان قصير نشره يالوم في إحدى الصحف المحلية يبحث فيه عن أشخاص «لم يتمكنوا من التغلب على حزنهم». كانت بيني أول من اتصلت به من بين ٣٥ شخصًا لحجز موعد. كانت بيني، وهي امرأة مطلقة في الثامنة والثلاثين من عمرها، تعمل سائقة سيارة أجرة لمدة ستين ساعة في الأسبوع، ما تزال حزينة على ابنتها التي ماتت منذ أربع سنوات. كانت بيني تبدو امرأة صلبة وضعيفة في الوقت نفسه. كان من الواضح أنها تمرّ بأزمة، وقد غابت عن الوعي وهي تقود سيارتها وكادت أن تموت. شعر يالوم أنه في مأزق. فمن ناحية، كانت أولوية حياته حينذاك الوفاء بموعد نهائي قريب لتقديم طلب منحة لمشروع بحثي جديد. وكان عليه أن يغادر بعد ثلاثة أشهر في إجازة دراسية لمدة عام، وهو وقت غير كافٍ للعلاج النفسي طويل الأمد الذي تحتاج إليه بيني. ومن ناحية أخرى، وجد نفسه منجذبًا إلى قصتها، ومتأثرًا بصلابتها ومرونتها. وتخيّل أيضًا كم سيكون حزينًا لو أنه

فقد أحد أبنائه.

لكي لا تجتاحه مشاعر بيني العميقة، قرر يالوم، مثل أوديسيوس، أن يربط نفسه بصاري العقل. ووفاءً لوعوده، طرح عليها أسئلة صعبة جعلتها تسرد له قصة الخسائر العديدة التي منيت بها. وأجرى معها مقابلة لمدة ساعتين، ثم مقابلة أخرى لمدة ساعتين أخريين، وعندما أدرك أن الجلسات الثلاث التي أجراها معها من أجل «البحث» كانت في الواقع جلسات علاجية، وافق على أن يجري معها ست جلسات أخرى، وعندما قالت له إنها لا تستطيع أن تدفع تكاليف الجلسات، طمأنها بأنه لن يتقاضى منها أي مبلغ: «بما أننا بدأنا نلتقي لاستكمال مشروع بحثي، لم أستطع، بضمير حي، أن أغيّر عقدنا فجأة، وأطلب منها أن تدفع لي نقودًا». وخلال الجلسة التاسعة والأخيرة، ضحّى يالوم بما تبقى من مصداقيته، وعرض عليها أن يراها ثلاث جلسات أخرى، حتى يحين موعد سفره. عندما سأل نفسه لماذا وجد صعوبة في إنهاء العلاقة مع بيني، اعترف بأنه كان «مفتونًا بالدراما التي بدأت تتكشّف عندما بدأت تظهر كل أسبوع حلقة جديدة ومثيرة وغير متوقعة تمامًا».

يصوّر يالوم هذه الدراما التي بدأت تتكشف من خلال ظهور الخسائر العديدة التي منيت بها بيني، بدءًا من وفاة ابنتها كريسي لإصابتها بنوع نادر من «اللوكيميا» قبل يوم واحد من عيد ميلادها الثالث عشر. وهناك خسارات أخرى أقل وضوحًا. فقد هجرها زوجها المدمن على الكحول، وبدا أنه لم يكن هناك أمل في إنقاذ ابنيها اللذين كانا في سن المراهقة عندما ماتت شقيقتهما، وتركا المدرسة، ووقع أحد ابنيها في مُشكلات قانونية وسُجن، وأدمن ابنها الآخر على المخدرات. كانت كل جلسة تجلب مفاجأة جديدة، مثل وجود توأم غير شرعيين تخلّت عنهما بيني عندما أنجبتهما وهي في السادسة عشرة من عمرها، ولم تخبر أحدًا عنهما.

أدى حزن بيني المتعدد الطبقات إلى شعور بالذنب وغضب شديدين. فقد شعرت بالذنب لأنها لم تكن موجودة مع كريسي عندما ماتت (فقد غابت بيني عن الوعي في الساعات الأخيرة قبل موت ابنتها)، وشعرت

بالذنب لأنها لم تشجّع كريسي على أن تعبّر عن مخاوفها من الموت، وشعرت بالذنب لأنها لم تستطع ألّا تدعها تذهب، وشعرت بالذنب لأنها أمّ سيئة، وشعرت بالذنب لأنها تؤمن بأن الموت اختار الطفلة كريسي المثالية بالخطأ، بدلًا من أن يموت أحد ابنيها. وفي محاولة لتوقف الزمن، حوّلت بيني غرفة نوم كريسي إلى مزار، واحتفظت بجميع ملابسها ومقتنياتها ولم تحركها من أماكنها السابقة. يذكّرنا ذلك بحزن وغضب السيدة هافيشام التي هجرها زوجها يوم زفافها في رواية ديكنز «توقعات عظيمة». لكن الفرق الوحيد هو أن بيني أخذت سرير كريسي إلى غرفتها وبدأت تنام عليه كلّ ليلة، وهو تصرّف رأى يالوم في البداية، في بساطته، أنه تصرّف غير طبيعي وغريب، لكنه سرعان ما أدرك أنه أمر شائع لدى الآباء الذين فقدوا طفلًا.

تعلّم يالوم والقارئ أيضًا أشياء كثيرة من قصة بيني عن الحزن المزمن. وعندما قالت إن الطفلة التي ماتت هي الطفلة الخطأ، اعتراف بدا لها أنه غير إنساني، خالفها يالوم الرأي، وذكّرها بأن شعورها هذا طبيعي. «أنا أسمع مشاعر إنسانية فقط. قد لا تبدو جيدة، لكن هذه هي طبيعتنا البشرية». تذكّر أن كلمات مماثلة كانت قد قالتها له محللته النفسية أوليف سميث عندما قال لها إنه يشعر بالذنب لأنه كان يرغب في أن يرث أموال والديه. أثنى يالوم على بيني لأنها معلّمة ممتازة في مجال الحزن، وتعلّم منها مفهومًا أثبت أنه حجر الزاوية في عمله في المستقبل مع الأشخاص الذين فقدوا أحباءهم: «إذا أراد المرء أن يتعلّم أن يعيش مع الموتى، يجب أن يتعلّم أولًا أن يعيش مع الأحياء». وفي المقابل، طلب يالوم من بيني أن تتخيّل كيف كان يشعر أبناؤها عندما كرّست كلّ وقتها وطاقتها لابنتها المريضة.

«لا تقلق عليّ»، قالت بيني ليالوم بعد الجلسة الثانية عشرة والأخيرة، «سأكون على ما يرام»، وذكّرته بأنها كانت طفلة مسؤولة عن نفسها. وذكر يالوم في الخاتمة أنه رأى بيني مرة أخرى بعد سنة عندما عاد من إجازته، «لم أعالج قط مريضة مستعدة لتكشف عن جميع هذه الأحداث المؤلمة في هذا الوقت القصير». لقد تغيّرت أمور كثيرة في حياتها. كانت ما تزال

امرأة مسكونة بهواجسها، لكنها أصبحت الآن تحارب شياطين الحاضر، لا شياطين الماضي.

يعترف يالوم أنه على الرغم من أن الوقت الذي أمضته بيني في العلاج كان قصيرًا جدًّا لا يكفي لمعالجة قلقها من الموت، فقد استطاع أن يساعد بيني على أن تدرك أن أبناءها هم الضحايا الحقيقيون لمأساة الأسرة من نواحٍ عديدة - وهي رؤية كان عليه أن ينقلها لها بلطف، كي لا تشعر بمزيد من الذنب. حققت بيني تقدمًا ملحوظًا في علاجها القصير، رغم بقاء أمور عديدة أخرى يجب العمل عليها. وتؤكد كلمات يالوم الأخيرة على قيمة الأهداف الواقعية في العلاج القصير الأجل، ويُنهي القصة بتذكير القراء بفكرة تعلّمها من أحد أساتذته: «تذكّر، لا تستطيع أن تفعل كل شيء. اكتفِ بمساعدة المريض حتى يدرك ما الذي يجب عمله، ثم ثق برغبته في النمو والتغيير».

تعدُّ قصّة «أخطأ الموت في الاختيار» أقل كشفًا عن الذات من القصص الأخرى في مجموعته «جلّاد الحبّ». إن يالوم «قاس» لكنه لا يثبّط الأمل أبدًا، ولا ينتقد نفسه بقسوة إذا أخفق في العلاج. فقد لا يقبل معالجون آخرون في موقفه إجراء مقابلة مع شخص مضطرب، لكن يالوم لا يتبع نهج «إما كل شيء أو لا شيء على الإطلاق». فقد ظلّ ملتزمًا تجاه بيني باعتبارها شخصًا يخضع للأبحاث ومريضة، ونجح أيضًا في دوره كراوٍ رائع. تزخر قصّة «أخطأ الموت في الاختيار» بالكشف عن الأسرار. فكل خسارة في حياة بيني تخفي خسارة أعمق، وبدأنا نرى كيف أن مأساة الأمّ أثرت على جميع أفراد أسرتها. كلّ شيء يعتمد على وجهة النظر، وفي نهاية القصة نتخيّل وجهات نظر الابنين. تقدّم القصة دروسًا للقرّاء السريريين وغير السريريين، بما في ذلك أهمية أن يكون المرء منفتحًا وواعيًا للتفاصيل قدر الإمكان. قد يكون فهم جزء فقط من قصة الفقدان هو أفضل ما يمكننا أن نفعله.

أرني كل شيء: «لم أتخيّل قط أن ذلك يمكن أن يحدث لي»

يقارن يالوم المشاعر القاتمة في قصة «أخطأ الموت في الاختيار» بالخفة مع قصّة «لم أتخيّل قط أن ذلك يمكن أن يحدث لي» وهي أقصر قصّة علاجية وأكثرها سخرية. وهي تشبه قصّة «السيدة البدينة» في أنها تحتوي على اعتراف خجول من المعالج عن حدوث انتقال مقابل. بدأت إيلفا العلاج مع يالوم بعد ثمانية أشهر من وفاة زوجها، وكان علاجها يسير على ما يرام إلى أن تعرضت إلى انتكاسة مؤخرًا. في الصفحة الأولى من القصة تقول ليالوم: «لم أكن أظن قط أن هذا يمكن أن يحدث لي». فقد جرى لص نحوها في باحة موقف للسيارات، وسرق محفظتها، وقفز إلى سيارته وهرب. بعد بضع ساعات، عثرت الشرطة على محفظتها معلقة على شجيرة بجانب الطريق، واختفت منها الثلاثمائة دولار التي كانت فيها. غيّرت هذه السرقة كل شيء في حياتها، وجعلتها تشعر بالحرمان بطرق جديدة. ووجد يالوم نفسه فجأة يكره هذه المرأة المسنّة، «نصف قزمة، نصف جنية، نصف ضفدع، وكل جزء فيها سيئ المزاج». وكان أحد الأسباب الأخرى الذي جعله يكره إلفا أن غضبها يذكّره بلسان أمه السليط. وكان الشخص الوحيد الذي لم تكرهه أمه هو والده الذي كان «جزءًا منها حقًّا، لسان حالها، روحها، مخلوقها الذي... لم يستطع أن ينقلب على خالقته - بالرغم من صلواتي لأن يفعل ذلك ولو مرة واحدة - مرة واحدة فقط، أرجوك يا أبي - اضربها». يستحضر يالوم أيام طفولته ليظهر كيف أن الماضي ما يزال يؤثّر على الحاضر. ويذكر «أول قانون لآسيموف للروبوتات»، في إشارة إلى مجموعة القواعد التي وضعها كاتب الخيال العلمي لكي لا تنقلب الروبوتات على مبدعيها البشر. تتبادر إلى الذهن إشارتان أخريان وهما: رواية «فرانكشتاين» لماري شيلي، ورواية «توقعات عظيمة» لتشارلز ديكنز، حيث يسعى بيب عبثًا لأن يحصل على مساعدة جو طيب القلب ليدافع عنه من عنف السيدة جو. كيف يستطيع

يالوم أن يعالج إلفا إذا كان ما يزال غير قادر على أن يتعايش مع غضب طفولته؟

يسعى يالوم جاهدًا لإقامة علاقة علاجية إيجابية مع إلفا. ولدهشته، فقد بدأ يستمتع بصحبتها. بعد أن أصيبت بصدمة عندما سُرقت محفظتها، تهدّم شعورها بالأمان، وذكّرتها هذه الخسارة بوفاة زوجها، فأصبحت الحقيبة رمزًا لحياتها المفقودة. لكن عندما امتلأت الحقيبة مرة أخرى بعد فترة، شعرت بخطر أن تُسرق مرة أخرى. في لحظة إلهام، اقترح يالوم على إلفا أن تُفرغ محتويات محفظتها، وهذا يذكّرنا بالكوميديا الساخرة. وبينما راحت تُفرغ محفظتها، كان يجادلها حول كل قطعة. سألها بدهشة: هل يجب أن تحتفظي بكيس بلاستيكي فيه قشور برتقال قديمة، وكيس من خميرة العجين، وثلاث نظارات شمسية؟ تنبع الفكاهة من متعة يالوم في التلصص على محتويات حقيبة إلفا. قلة قليلة من الروائيين أو الكتّاب المبدعين الذين يمكن أن يصلوا إلى الاستنتاج الذي وصل إليه يالوم، بأن النظر داخل حقيبة امرأة مسنّة تجربة تغييرية عميقة، لكن نهاية القصة مثالية. «كان وقتًا حميمًا - سمّه حبًّا، سمّه ممارسة الحبّ - وقتًا تعويضيًّا. في تلك الجلسة الواحدة، انتقلت إلفا من موقف اليأس إلى موقف الثقة. وعادت إلى الحياة وأقنعت نفسها مرة أخرى بقدرتها على الشعور بالألفة. أظن أنها كانت أفضل جلسة علاج قدمتها في حياتي».

رسائل سرية: «لا ترحل بهدوء»

يبدأ يالوم قصّة «لا ترحل بهدوء» بمشكلة لم يواجهها من قبل قط: هل يحفظ رسائل الحبّ السرية لرجل في التاسعة والستين من عمره. فقد مضى ثلاثون عامًا على موت حبيبة ديف، وظل يحتفظ بمئات من رسائلها عن علاقتهما السرّية. لكنه بدأ يشعر بالقلق من أن تكتشف زوجته تلك الرسائل بعد موته، فطلب من يالوم أن يخبئ له تلك الرسائل التي يحتفظ بها في حقيبة

سفر منتفخة. فكّر يالوم في أسباب عديدة يجعل فيها ديف يتخلّى عن حماقته، ويتلف تلك الرسائل، لكنه اعترف بحسرة أن هناك حدودًا لنفاقه. «أنا لديّ أيضًا كيس مليء بالرسائل من حبّ قديم ضاع منذ زمن طويل. وكنتُ أحرص على وضعها في مكان سري (كنت أقرأ رواية ديكنز الأثيرة لديّ «المنزل الكئيب» عندما تكون الحياة في أحلك أوقاتها)، وأنا أيضًا لم أقرأ تلك الرسائل قط، فكلما حاولت أن أقرأها، كنت أشعر بالألم، لا بالراحة، وبقيت ملقية هناك لم يمسّها أحد طوال خمسة عشر عامًا، وأنا أيضًا لم أستطع أن أتلفها».

لم يُخبر يالوم مريضه عن تلك الرسائل الغرامية المخفية، لكنه أخبر قرّاؤه، في كشف خطير عن نفسه. ليست هذه أول مرة يلمح فيها يالوم إلى وجود صعوبات زوجية في حياته. فعندما كان يالوم يتحدّث في كتابه «كلّ يوم يقترب قليلًا» عن مُشكلات جيني في التواصل مع صديقها، كان يفكّر في «مُشكلات مماثلة مع زوجتي». ويعترف يالوم قبل ذلك في «جلّاد الحبّ» بهوس حبّ عاشه قبل بضع سنوات، فاضطر إلى العودة إلى العلاج. إن الاعتراف علنًا بوجود رسائل حبّ مخفية في قصة «لا ترحل بهدوء» هو اعتراف آخر محفوف بالمخاطر، لكن يالوم مستعد لعمل ذلك لقناعته بأن المرضى يتعلّمون الكثير من المعالجين الذين يثقون بهم، ويخبرونهم أنهم واجهوا صراعات مماثلة.

تثير قصة «لا ترحل بهدوء» عدة أسئلة علاجية شائكة يستكشفها يالوم بالتفصيل، بما فيها إذا كان ينبغي له أن يوافق على طلب ديف بأن يحتفظ برسائل الحبّ السرّية. «إذا احتفظت بهذه الرسائل، فقد يكون ذلك بمنزلة حبل نجاة: فلن يذهب ويختفي. ويجب أن أكون، على الأقل، صريحًا حول إنهاء العلاقة: سيأتي ويطلب أن أعيد له الرسائل». ومن ناحية أخرى، قد يكون قبول الرسائل «ميثاقًا مع ظلّه - تحالفًا مع المرض»، شكل من أشكال «التواطؤ، بطريقة معاكسة للعلاج، مع ميله إلى السرّية». ويزداد السؤال تعقيدًا عندما يقبل ديف اقتراح يالوم بأن ينتقل من العلاج الفردي

إلى العلاج الجماعي الذي سيتيح له الفرصة لاستكشاف الآثار الشخصية لسرّيته، وتشييئه للنساء، وعدم ثقته بالرجال. لكن ربما يشكّل انتقاله إلى العلاج الجماعي مشكلة ليالوم لأنه لا يعرف مقدار المعلومات الحميمة التي يجب أن يشاركها مع المجموعة عن مريضه.

ترتبط جميع هذه الأسئلة بالسؤال الأساسي، وهو المعنى النفسي الذي يكمن وراء حاجة ديف إلى الاحتفاظ برسائل الحبّ السرّية. وافق يالوم على أن يحتفظ بالرسائل في مكان آمن إذا وافق ديف على أن يخبر المجموعة عن اتفاقهما. أجلّ ديف اتخاذ قراره، لكنه كشف للمجموعة بشكل غير متوقع عن خوفه المرضي من المرض والموت. وفي الجلسة التالية، حكى ديف الحلم التالي: «الموت يحيط بي من كل جانب. أستطيع أن أشمّ رائحة الموت. لديّ حزمة في داخلها مغلّف، ويحتوي المغلّف على شيء محصن ضد الموت أو التعفن أو التلف. أخفيه في مكان سرّي. عندما ذهبتُ لأخذه ولمسته، لاحظت فجأة وجود شق فيه أنه فارغ. شعرت بضيق شديد، ولاحظت أن أحدًا فتحه. ثم وجدت ما كنت أظن أنه موجود في المغلف في الشارع، وهو حذاء قديم متسخ، نعله مخلوع».

بصورة عامة، فإن العلاج الجماعي ليس المكان المناسب لاستكشاف القضايا الوجودية، لكن معنى الحلم مليء بقلق الموت حتى إن يالوم يسعى جاهدًا لإيجاد طريقة لمساعدة ديف والآخرين على تفسير الحلم. ظلّ ديف يتصرّف بطريقة غامضة، ووجد يالوم أن صبره بدأ ينفد، فطلب من ديف الموافقة على أن يكشف عن معنى الحلم للمجموعة، فوافق. قال يالوم أن الحلم يُجيب على السؤال لماذا كانت الرسائل «مشحونة بالعواطف» بالنسبة إلى ديف، لكنه لم يُخبر المجموعة أن الحلم يُفسر لماذا كانت رسائل يالوم «مشحونة» أيضًا بالنسبة إليه. يقول لنا: «لكنني لم أتحدّث عن رسائلي، فهناك حدود لشجاعتي».

قال يالوم للمجموعة إن حلم ديف يدور حول الموت. فقد بدأ الحلم

«بالموت يحيط بي من كل جانب. أستطيع أن أشمّ رائحة الموت»، والصورة المركزية هي المغلّف، مغلّف يحتوي على شيء محصّن ضد الموت والتفسخ. ماذا يمكن أن يكون أوضح من ذلك؟ كانت رسائل الحبّ تعويذة، أداة لإنكار الموت. تدرأ عنه الشيخوخة، وتحافظ على شغف ديف متجمّدًا في الزمن». لكن ظلّ أحد تفاصيل الحلم غامضًا، وهو معنى «النعل» (sole) الذي انفصل عن الحذاء، لكن أحد أعضاء المجموعة فسّر ذلك وقال: «الحذاء يفقد روحه (soul). يوحي يالوم لنا، وليس للمجموعة، أن هذا التفسير يشرح سبب احتفاظه بمجموعة رسائل الحب لسنوات، لكن هناك معنى آخر للقصة لم يعلّق عليه. بوصفه أديبًا وكاتبًا، يوضح يالوم كيف يكون الإبداع تعويذة، أداة لإنكار الموت، حصنًا ضد الموت أو التفسخ أو التدهور. إن تأليف كتاب شكل من أشكال الخلود بالنسبة إلى الكاتب، أو، على الأقل، وهم الخلود، وهو اعتقاد لا يمكن حتى لمن فقد الأمل أن يبدّده تمامًا.

عندما غادر ديف العلاج فجأة، ولم يعد بعد ذلك، أصبحت مسألة الاحتفاظ بالرسائل عديمة الجدوى. ولام يالوم نفسه على رحيل ديف. قد تبدو درجة لومه لنفسه، هنا وفي أماكن أخرى، مبالغًا فيها، لكن حزنه على رحيل ديف صادق.

يشير عنوان قصّة يالوم إلى قصيدة ديلان توماس الشهيرة «لا ترحل بهدوء إلى تلك الليلة الجميلة»، لكن قصّة يالوم ليست دعوة لتحدّي الموت أو لتأجيل المحتوم، وإنما تأمل في ضرورة تقدير كل دقيقة من الحياة. وبخلاف ادعائه، فإن حياة ديف ليست كتابًا مفتوحًا، وربما غادر العلاج بسبب إدراكه، على حد تعبير القصيدة، أن كلماته «لم تُحدث تأثيرًا»، بل على العكس، يلمح يالوم إلى أن الحكماء الذين عاشوا حياة مُرضية، سيكونون أقل غضبًا من موت النور.

أن نُغرم بإبداعاتنا: «ابتسامتان»

تُعدُّ قصة «ابتسامتان» أكثر قصّة فلسفية في مجموعة «جلّاد الحب»، التي ربما توضح بصورة أفضل السبل التي أثرى بها كتّاب الأدب خيال يالوم. يقول يالوم: «من المقلق أن ندرك أن الواقع ليس سوى وهم»، ويضيف، «وفي أحسن الأحوال، فهو إضفاء ديمقراطية على الإدراك بناء على إجماع المشاركين». لا تعرّف هذه الجملة الواقع فحسب، وإنما تعرّف أيضًا موضوع قصّة «ابتسامتان»، وهي قصة غامضة بأسلوبها مثل لوحة الموناليزا.

طوال ثلاث سنوات عالج يالوم ماري التي لم تستطع أن تمضي قدمًا في حياتها منذ وفاة زوجها الجراح في حادث منذ سبع سنوات. ومثل بيني في قصة «أخطأ الموت في الاختيار»، ظلت ماري متجمدة في حزنها، لكنها بعكس بيني، وصلت إلى طريق مسدود في العلاج. فقد سقطت ماري قبل أربعة أسابيع من تلفريك في سان فرانسيسكو، وأصيبت بجروح خطيرة منها إصابات شديدة في وجهها وأسنانها. كانت امرأة بالغة الجمال، وقد بدأت إصلاح أسنانها مع جراح الفم الدكتور ز. الذي التقت به لأول مرة عندما كانا يدرسان معًا في جامعة مكسيكو سيتي، وحاول إغوائها لكنها لم تستجب له. بعد عقود، انتقل إلى الولايات المتحدة وعمل في المستشفى الذي يعمل فيه زوجها. وبعد وفاة زوجها بفترة قصيرة، بدأ الدكتور ز. يغازلها مع أنه متزوج ولديه خمسة أطفال، لكنها رفضته بغضب. وها هي الآن بحاجة إلى علاجه المهني، لكنه ظل يضايقها، وفي محاولة لمعاقبتها والسيطرة عليها، رفض أن يصف لها أدوية مسكنة للألم. ولمساعدتها لتسكين ألمها، أوصاها يالوم بالذهاب إلى معالج نفسي اسمه مايك.

دفع الصدق يالوم إلى إضافة بعض التفاصيل التي قد يتجاهلها معالجون آخرون في كتاباتهم. فقد شعر أولًا بانجذاب جنسي نحو ماري الجميلة، وتخيّل نفسه وهو يعانقها ويشعر بجسدها يذوب بين ذراعيه. كانت تذكّره

بعمته الجميلة التي كانت تصفف شعرها كما تصفف ماري شعرها. «كانت تلعب دورًا رئيسيًّا في تخيّلاتي الجنسية عندما كنتُ مراهقًا». وثانيًا، عندما أوصى ماري بأن ترى معالجًا بالتنويم المغناطيسي، أسرّ لنا أنه فعل ذلك بدافع خفي. فقد أراد أن يرى مايك كيف أن ماري مريضة صعبة المراس. «نعم، أعترف بذلك، كان جزء مني يتمنى أن يجد مايك صعوبة مع ماري: هيا، يا ماري، افعلي ما تفعلينه عادة»، لكن لدهشة يالوم، أثبتت ماري أنها مريضة نموذجية. ومن دون أن يعرف شيئًا عن تاريخها، قدّم لها مايك توصيتين: مناقشة معالجة الألم مع جرّاح الفم، والحدّ من تدخينها المفرط. ولتحقيق المهمة الثانية، حثّها مايك على أن تتخيّل أنها تقدّم لكلبها المحبوب علبة طعام مكتوب عليها «سمّ». وعندما كان يقدّم لها الاقتراحين، «تلاقت عيناهما»، وكانت ماري في كل مرة تبتسم وتومئ برأسها موافقة.

مفتونًا بهاتين الابتسامتين، تساءل يالوم عن معناهما، ثم سأل مايك عن مغزى ابتسامتيْ ماري، فقال إنه يتذكرهما جيدًا. «لاحت الابتسامتان عندما قال لها شيئًا هامًا، وكانتا تعنيان أن ماري فهمت رسالته وتأثّرت بها». فاجأت إجابة مايك يالوم لأنه لم يفسّرها بأنهما تعبّران عن انسجام، وإنما عن سخرية، تشيران إلى سذاجة مايك في تقديم اقتراحات بسيطة تعرف أنها مستحيلة عليها: فقد كانت ماري تكره الدكتور ز. الفاسق، ومثل يالوم، لم تكن تحبّ الكلاب. تذكّرت ماري أيضًا ابتسامتيها، لكن تفسيرها كان يختلف عن تفسير مايك ويالوم. فقد كانتا تعبّران عن امتعاضها الشديد: كانت تخشى أن يظن مايك بأنها «عاهرة» لتشجيعه إياها على سلوك الدكتور ز. الفاسق، وحرجها من أن يكون يالوم قد تجاوز دوره كطبيب نفسي عندما قدّم لها نصيحة مباشرة بأن تتخلص من كلبها.

تنطوي الابتسامتان في هذه القصة التي تشبه قصة راشومون على آثار نفسية ولغوية وفلسفية واسعة، كما يناقش يالوم في الخاتمة. ويستشهد برثاء فلوبير في رواية «مدام بوفاري» حول إخفاق اللغة في نقل الواقع: فقد كتب فلوبير: «لا يستطيع أحد منا أن يعبّر عن احتياجاته أو عن أفكاره أو عن

أحزانه بدقة». ولإثبات أن الواقع مشوّه بسبب أخطاء الترجمة والتحيّز، يستشهد يالوم بفكرة بروست بأننا لا نحبّ إبداعات الآخرين وإنما نحب إبداعاتنا نحن. ثم يستشهد يالوم بجهود جوليان بارنز الفاشلة في رواية «ببغاء فلوبير» للعثور على الطائر المحشو «الحقيقي» الذي ادّعى الروائي أنه استخدمه في إحدى قصصه.

وبخلاف زملائه، لا يثق يالوم كثيرًا باختبارات الشخصية أو التشخيص النفسي، لكنه يرى أن التشخيص قد يكون مفيدًا في حالات الاضطرابات النفسية العضوية الخطيرة مثل الفصام والاضطراب ثنائي القطب. ويبدي دهشته بأنه يمكن لأي شخص أن يعتقد بأن التشخيص هو أكثر من مجرد مجموعة مختزلة من الأعراض والسمات السلوكية. «حتى أكثر أنظمة التصنيف النفسي ليبرالية تمارس العنف على كيان الآخر».

تؤكد قصة «ابتسامتان» على الحاجة إلى النظر إلى الآخرين، المرضى وغير المرضى على حد سواء، بعيون جديدة، لكننا ننظر دائمًا إلى الواقع الذاتي، ونرى بطريقة نرجسية إبداعاتنا الخاصة. يوجد لكل واحد منا منظور مختلف عن الواقع على نحو لافت، حتى عندما نظن أننا نرى ما يراه الآخرون. إن النظرات المثبتة في عينَيْ أحدنا الآخر تعني أننا محبوسون في رؤيتنا للواقع، وغالبًا ما نكون سجناء لها. لا نثق دائمًا بـ«الاتحاد» أو «الاندماج» الروحي، ويقترح يالوم في واحدة من أكثر استعاراته أهمية، أن الأشخاص الذين «يشعرون بالفراغ لا يشفون أبدًا بالاندماج مع شخص آخر غير مكتمل، وبخلاف ذلك، فإذا تزاوج طائران مكسوا الجناحين معًا فغنهما يشكلان طائرًا أخرق».

نهاية غامضة: «ثلاث رسائل لم تُفتح»

بسبب الطبيعة الذاتية للواقع، فإن أفضل خاتمة لأي قصة هي الخاتمة الغامضة، كما نرى في «ثلاث رسائل لم تُفتح». يعود شاول، عالم الأعصاب

البارع الذي يبلغ من العمر ثلاثة وستين عامًا، إلى يالوم بعد غياب دام ثلاث سنوات. خلال تلك الفترة، حصل شاول على جائزة سخية من معهد ستوكهولم للأبحاث في السويد: زمالة لمدة ستة أشهر مع مرتب قدره خمسون ألف دولار. شعر شاول بالفخر ليعمل مع عالم أحياء خلوية اسكندنافي شهير يدعى الدكتور ك. لكن هذا التعاون قوّض ثقة شاول الهشة بنفسه. فقد كان يأمل بأن ينشر مقالًا مشتركًا مع الدكتور ك. لكنه واجه الرفض تلو الرفض من محرري المجلات، فنشر مقالًا آخر في مجلة مرموقة، لكنه لم يذكر بحثه المشترك مع الدكتور ك. وأصبح شاول يخشى أن ينشر المقال كي لا يظن الدكتور ك. أو المعهد أنه محتال ولص.

عندما تلقى شاول خلال بضعة أيام ثلاثة مغلّفات من معهد ستوكهولم، تملكّه الذعر، وعاد إلى العلاج. غير قادر على استجماع شجاعته لفتح الرسائل، استسلم شاول لمخاوفه الكارثية، وخلص إلى أنه لا يوجد لديه سوى خيار واحد وهو: أن يعيد الخمسين ألف دولار. أدرك يالوم أن ردّ فعل شاول المفرط غير عقلاني، لكنه تعاطف كذلك مع هوس شاول الشديد بالعمل: فشياطين مماثلة تطارد كلًّا من المعالج والمريض، فقد فهم يالوم الذعر التي تملك الدكتور ك. الذي تذكّرنا شخصيته في البداية ببطل رواية كافكا المعذّب في رواية «المحاكمة». يخشى شاول أن يكون الدكتور ك. ومعهد ستوكهولم قد قدّماه إلى المحكمة. وشعر أن الرسائل التي لم يفتحها هي الحكم النهائي الذي صدر بحقه، وهو حكم الإعدام. إن تصريح الضابط في قصّة كافكا «في مستعمرة العقاب» - «المبدأ الذي يوجهني هو: لا يمكن الشك في الذنب» - صحيح في عالم يالوم.

لكي لا يقدم شاول على الانتحار، زاره يالوم، على غير عادته، في منزله، ليقنع المريض طريح الفراش بأنه يعاني من شعور شديد بالذنب دون أن يرتكب أي جريمة. واتفق يالوم مع شاول على ألّا يقدم على الانتحار، مع أن هذه الاتفاقات لا قيمة لها («إذا قتلت نفسك، فلن أعالجك بعد الآن»). ساعد يالوم شاول على أن يدرك بأن للرسائل المهددة التي لم يفتحها أهمية

أكبر في حياته، وأنها ترمز إلى كفاحه طوال حياته كي يصبح عالمًا مقبولًا ومعترفًا به. لكن العلاج لم يُخرج شاول من اكتئابه العميق، بل أخرجه اكتشافه أن الدكتور ك. مات منذ فترة قصيرة - قبل أن يتسلّم إدارة المجلة التي يوجد فيها مقال شاول. وعلى الفور، زال رعب شاول الذي سبّبته له الرسائل الثلاث، وعندما فتحها لم يجد فيها شيئًا ضده، فانتهى العلاج، ومات شاول بعد ذلك بثلاث سنوات. وفي الفقرة الأخيرة من القصة، التقى يالوم في حفلة شابًا عاد مؤخرًا من الدراسة في معهد ستوكهولم من منحة دراسية قُدِّمت له بفضل كرم شاول بشكل غير مباشر. يرد في الجملة الأخيرة سؤال الشاب المفاجئ ليالوم، «هل سمعت أن شاول ترك في وصيته مبلغ خمسين ألف دولار لمعهد ستوكهولم؟»

مثل أي قصة جيدة، تتركنا «ثلاث رسائل لم تُفتح» مع أسئلة مثيرة. هل ترك شاول النقود بدافع الامتنان أم لأنه كان يشعر بالذنب؟ هل مات وهو يعتقد أنه حصل أخيرًا على التقدير الذي كان يتوق إليه؟ أم أنه مات وهو ما يزال يعتقد أنه لم يحقق أهدافه المهنية؟ يطرح يالوم سؤالين إضافيين. هل أدرك شاول اهتمام يالوم به؟ وهل كان شاول قادرًا على أن ينسى العمل من حين لآخر، ويستمتع بوقت فراغه في نزهة في الحديقة بعد الظهر؟ يمكن طرح السؤال الأخير على يالوم نفسه الذي يخبرنا في بداية القصة أنه «واصل العمل مرغمًا، وفرض على نفسه جدولًا مهنيًّا يجعل تلك النزهة مستحيلة». تظلّ نهاية القصة غامضة. وتصبح «ثلاث رسائل لم تُفتح» استعارة عن «جلاد الحبّ»: كلما قرأنا بتأنٍ دراسة حالة نفسية أو قصة قصيرة، ازدادت الأسئلة التي تطرح نفسها. يتيح الراوي للقرّاء إمكانية أن يتوصلوا إلى تفسيراتهم الخاصة بهم، أو، كما ذكرت إحدى الشخصيات في رواية هنري جيمس «دورة اللولب» أن القصة لا تُروى... بطريقة حرفية أو بلغة مبتذلة».

تفاني المريض: «الزواج الأحادي العلاجي»

كانت مارج وايت التي تعمل في مختبر وتبلغ الخامسة والثلاثين من عمرها من ذلك النوع من المرضى الذين لا يريد المعالج معالجتهم. كان أول ردّ فعل لها بعد أن رآها هو «أن يبتعد عنها، بحق الجحيم». قبل يالوم علاج مارج لسبب ربما لا يعترف به أي معالج علنًا. «كنت أسأل نفسي مؤخرًا كيف يمكنني، بكل صدق، أن أستمر في تعليم الطلاب ممارسة العلاج النفسي وأنا أرفض في الوقت نفسه علاج المرضى الصعبين».

بذل يالوم كل ما في وسعه لمساعدة مارج على إدراك صفاتها الحميدة العديدة، مثل التعاطف، لكنها ازدادت سوءًا من دون قصد، تجاه نفسها، وكشف عن عدم كفاءته. في إحدى مكالماتها المتكررة في وقت متأخر من الليل إلى بيته، حثّها على ألّا تقارن نفسها بنساء حققن نجاحًا كبيرًا مثل زوجته التي ظهرت في مقال بارز في صحيفة ستانفورد ديلي، وأوصاها بأن تشبّه نفسها بأحد المشردين الذين ساعدتهم، وأدرك على الفور أنه ارتكب «خطأً جسيمًا». وفي الجلسة التالية، قالت إنه عبّر عن مشاعره الحقيقية عندما ربطها «بأكثر الأرواح بؤسًا على وجه الأرض».

وصل العلاج إلى طريق مسدود حتى ظهر صوت غريب جديد من مارج. فقد قالت مارج «الأخرى»: «إنك لا تعرفني». كانت محقّة، قال يالوم: «لم أعرف الصوت الذي تحدّث. كان الصوت مختلفًا تمامًا، قويًّا، مفعمًا بالثقة والعنفوان. ويصف يالوم الجانب المظلم من شخصية مارج «بالسيدة الحسناء بلا رحمة» في إشارة إلى قصيدة جون كيتس (Belle Dame sans Merci) عام ١٨١٩. هذا الصوت الجديد، الحازم، المغري، الذي يطلق على نفسه «أنا»، وفجأة نجد أنفسنا في قصة انقسمت فيها شخصية واحدة إلى شخصيتين.

يشبّه يالوم وجود «أنا» في «الزواج الأحادي العلاجي» إلى شخصية جِنيّة البحر التي تغوي البحارة، أو شخصية لوريلي التي تسعى إلى إغوائه لخيانة

مارج. ويرى يالوم أن المعالجين ليسوا «أحاديي الزواج» لأنهم يعالجون عدة مرضى، وللمريض الحقّ في أن «يتوقع الإخلاص خلال ساعة العلاج». يظلّ يالوم مخلصًا لمارج، وليس لشخصيتها الأخرى المغوية التي تجسّد غضب مارج وكراهيتها لنفسها. بينما قد ينخدع معالج آخر بـ «أنا»، ويظل يالوم مركزًا على «هنا والآن». تتمثّل استراتيجية يالوم العلاجية في دمج «أنا» في شخصية مارج، ويعترف يالوم دون شعور بالذنب أو الندم أنه كان بمنزلة جلّاد الحبّ لمارج التي لم تعد موجودة، شبح وُلد لإظهار تفرّد مارج كشخص. لكن يالوم يُظهر أن مارج فريدة بطريقتها الهادئة والمتواضعة. لم ينس يالوم الشبح، كما يقول لنا في الجملة الأخيرة: «لقد انتقمت لنفسها بحرق صورتها في ذاكرتي» - وفي ذاكرة القارئ أيضًا.

الدهشة: «بحثًا عن الحالم»

يُنهي يالوم مجموعته القصصية «جلّاد الحبّ» بقصة محاسب في الرابعة والستين من عمره، «المارفينان»، لكن قصة «بحثًا عن الحالم» ليست قصة أخرى تتحدث عن تعدد الشخصية، بل يميّز يالوم بين مارفين الإنسان، ومارفين الفكرة. «كان مارفين الإنسان هو الذي كان مزعجًا ولم يكن مثيرًا للاهتمام، أما مارفين المشروع، فقد كان مثيرًا للاهتمام». قبل نحو ستة أشهر، بدأ مارفين يعاني من صداع نصفي شديد يبدو أن له علاقة بمُشكلات جنسية حديثة. لم يستطع طبيب الأعصاب تفسير سبب الصداع النصفي الذي يعاني منه مارفين والقضاء عليه، فأحاله إلى يالوم. تبدأ القصة بمارفين وهو يفتح بعناية سجلًا طبيًا طوله ثلاثة أقدام سجّل فيه بطريقة منهجية كل نوبة صداع نصفي وتجربة جنسية حصلت له مؤخرًا. «سبق كل نوبة صداع نصفي في الأشهر الأربعة الأخيرة إخفاق جنسي خلال أربع وعشرين ساعة». كان مارفين مقتنعًا بوجود علاقة سببية بين الأمرين، لكن يالوم لم يكن مقتنعًا بذلك. رأى يالوم أن مارفين الذي لم يكن قادرًا أو راغبًا في التأمل الذاتي الضروري للعلاج النفسي، وتنتابه شكوك قوية بالطبّ النفسي مثل زوجته

فيليس التي عاش معها ٤١ سنة، غير مناسب للعلاج النفسي، وإنما للعلاج السلوكي المعرفي القصير الأمد، أو ربما للعلاج الزوجي، على الرغم من ادعائه بأن زواجه مثالي ومتناغم. لكننا نعرف، مثل جميع قصص «جلّاد الحب» أن هناك مفاجآت تنتظر يالوم وقرّائه. فقد كان تقاعد مارفين الوشيك وقراره بأن يبيع شركة المحاسبة التي أمضى فيها حياته المهنية، أكثر إشكالية مما كان يدرك، وربما كان سبب الصداع النصفي الذي يشلّ حركته. ويلاحظ يالوم أن التقاعد «فترة لمراجعة الحياة، وتلخيصها، فترة لزيادة الوعي بالفناء وقرب الموت»، لكن مارفين لم يكن يدرك ذلك.

في مقولته الشهيرة قال فرويد إن الأحلام هي الطريق الملكي إلى اللا وعي. يكمن مفتاح مشاعر مارفين تجاه المستقبل في أحلامه التي تكذّب روايته عن زواج لا توجد فيه صراعات. وتحمل أحلام مارفين العديدة رسالة وجودية. فقد كشف أحد أحلامه عن خوفه من اقتراب نهاية عمله في الحياة، وأن الجنس وحده هو الذي يبقيه على قيد الحياة - وحتى ذلك بدأ يفشل الآن. وأشار حلم آخر، بشكل أكثر تفاؤلًا، إلى أن معالجه النفسي يمنحه الفرصة، على حد تعبير يالوم، «ليرسم حياته من جديد على لوحة فارغة». ويستحضر حلم آخر التهديد الذي يشكله يالوم على مارفين وفيليس وعلى زواجهما المضطرب. وينطوي حلم آخر على إشارة أدبية (أو سينمائية) ملفتة للنظر أثارت اهتمام يالوم، وهو حلم تذكّر فيه امرأة مارفين بمدام ديفارج في فيلم « قصة مدينتين» التي كانت تحيك عند المقصلة بينما كانت الرؤوس تُقطع». ويرى يالوم أن الحلم يشير إلى أن مارفين أصبح يدرك الموت بسرعة كبيرة، دون أن يتسنى له الوقت لاستيعابه.

وبفضل انفتاحه الجديد وصدقه وفضوله، واصل مارفين مفاجأة يالوم. اتخذت القصة منحى غير متوقع عندما بدأ فيليس التي ظلت حبيسة في المنزل لفترة طويلة، العلاج النفسي، وناقشوا ثلاثتهم كيف تفاقم رُهابها من الأماكن المفتوحة نتيجة التقدم الذي أحرزه مارفين في العلاج. استخدم يالوم استراتيجية علاجية جديدة ومخالفة للمنطق تستند إلى التناقض.

فطلب من مارفين أن يتصل بزوجته كلّ ساعتين تمامًا في أثناء العمل ويقول لها: «فيليس، أرجوك لا تغادري المنزل. أريد أن أعرف أنك موجودة في المنزل طوال الوقت لتعتني بي وتجعليني لا أشعر بالخوف». حدّق الزوج والزوجة إلى يالوم غير مصدقين ما قاله لهما، لكن مارفين نفذّ تعليمات يالوم بحذافيرها. «انزعج مارفين مني كثيرًا لأنني جعلته يعدني بأن يكرر نفس العبارة الغبية. ومع أن فيليس تعرف أن مارفين ينفذ تعليماتي، فقد غضبت منه لأنه أمرها بأن تبقى في المنزل، وبعد بضعة أيام، غادرت البيت وذهبت إلى المكتبة وحدها، ثم ذهبت إلى السوق، وفي الأسابيع القليلة التالية، بدأت تتجرأ وتذهب إلى أماكن أبعد مما كانت تذهب إليها منذ سنوات».

أكثر الكتب مبيعًا

بقيت مجموعة «جلّاد الحب» على قوائم أكثر الكتب مبيعًا لعدة أسابيع، وتُرجمت إلى ٢٧ لغة. وحظيت بإشادة كبيرة من النقاد، ما رسّخ سمعة يالوم بوصفه كاتب قصص مبدع. وقد اقتبست النسخة الورقية من الكتاب ما قاله ناقد صحيفة سان فرانسيسكو كرونيكل: «يكتب يالوم بروح سرد أو. هنري الساخرة، وفكاهة إسحاق باشيفيس سينجر الواقعية». وشبّه ناقد صحيفة واشنطن بوست بوك وورلد يالوم بفرويد، وقال: «كاتب أنيق وذكي». كان هذا ثناءً كبيرًا بالفعل لأن الجائزة الكبرى الوحيدة التي حصل عليها فرويد في حياته هي جائزة غوته المرموقة في عام ١٩٣٠.

توصلت المراجعتان اللتان نُشرتا عن مجموعة «جلّاد الحب» في صحيفة نيويورك تايمز إلى استنتاجات مختلفة. فقد كتبت إيلين سيمبسون في صحيفة صنداي تايمز أنها شعرت بانزعاج من التداخل بين الحقيقة والخيال. «بصفتي قارئة نهمة لقصص الحالات النفسية والقصص القصيرة، فإني أقرأ هذا النوع من الكتب وذاك لأسباب مختلفة. فالتحليل النفسي في الأدب يثير اشمئزازي، كما أن الحرية الدرامية في تقارير العلاج النفسي تجعلني أشعر

بعدم الارتياح». ولاحظت الناقدة الأخرى في صحيفة التايمز، إيفا هوفمان، أن يالوم «يثبت مرة أخرى أن العلاج النفسي هو في الأيدي الصحيحة، وقد يكون مادة مثيرة للاهتمام مثل أكثر الروايات إبداعًا وثراءً»، وأضافت أن يالوم لا يختزل مرضاه إلى مجموعة من الأعراض.

إعادة قراءة «جلّاد الحب»

كيف شعر يالوم عندما أعاد قراءة «جلّاد الحب» عندما أصبح في الثمانين من عمره؟ فقد كتب في خاتمة الطبعة الورقية الصادرة عام ٢٠١٢ عن مواجهته لنفسه الشابة: «أشعر شخصيًّا بالصدمة. فكيف تجرأت وكشفت أمورًا كثيرة عن حياتي الخاصة؟ مخبأ رسائلي الغرامية السرّية، وعاداتي القهرية في العمل، ومواقفي القاسية التي لا تُغتفر تجاه البدينين، وهوس الحب الذي منعني من أن أكون موجودًا بشكل كامل مع أسرتي خلال إجازة عائلية على الشاطئ. وعلى الرغم من هذا السلوك، فإني فخور بأنه لم يضع أي عائق أمام تكوين علاقة علاجية حقيقية، وإني سأفعل ذات الشيء اليوم. فما زلتُ مقتنعًا بأن الكشف الحكيم عن الذات من قبل المعالج يسهّل مسار العلاج». والشيء الوحيد الذي يأسف عليه يالوم هو أن عدة نساء بدينات شعرن بالإهانة من قصة «السيدة البدينة». ويعترف بأنه «حاكم» نفسه عدة مرات، ووجد أنه مذنب. ودفاعًا عن نفسه، أضاف أنه كان هو الشخصية الرئيسية في القصة التي تظهر جهوده الصادقة لفهم مشاعره المخزية كي يتمكن من العمل بنجاح أكبر مع مريضته. ويختتم «الخاتمة» بالكشف عن فائدة غير متوقعة لفقدان الذاكرة الحتمي الذي يحدث عندما يبلغ المرء الثمانين من عمره. «بينما كنتُ أقلّب صفحات قصة «ثلاث رسائل لم تُفتح»، و«جلّاد الحب» و«أخطأ الموت في الاختيار» من بين قصص أخرى، شعرت أنني أحترق بفضول لذيذ. فقد نسيت كيف انتهت هذه القصص».

الفصل السادس

عندما بكى نيتشه:
الامتنان وسخطه

صدرت رواية «عندما بكى نيتشه» في عام ١٩٩١، وهي رواية تاريخية تستند إلى شخصيات حقيقية: الطبيب الفيّني جوزيف بروير (١٨٤٢-١٩٢٥)، والفيلسوف الألماني فريدريش نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠)، والمرأتان اللتان افتُتنا بهما كثيرًا، «آنا و.» (١٨٥٩-١٩٣٦)، أول مريضة في التحليل النفسي، و«لو سالومي» (لو أندرياس سالومي لاحقًا) (١٨٦١-١٩٣٧)، وهي روسية فاتنة أصبحت محلّلة نفسية رأى نيتشه والشاعر الألماني راينر ماريا ريلكه أنها امرأة فاتنة. ويظهر أيضًا سيجموند فرويد الشاب (١٨٥٦-١٩٣٩) الذي كان ما يزال تحت تأثير أستاذه بروير. يلتقط يالوم الإثارة الفكرية والفنية والثقافية في نهاية القرن التاسع عشر في فيينا، مركز أوروبا خلال لحظة تاريخية مضطربة.

تُعدُّ رواية «عندما بكى نيتشه» رواية فلسفية، ربما تعيد إلى الحياة أعظم فيلسوف في القرنين التاسع عشر والعشرين، الرجل الذي ما تزال أفكاره المذهلة تشكّل الفكر المعاصر. يستخلص يالوم جوهر فلسفة نيتشه الأيقونية، ويبرز التناقض الصارخ بين أفكاره المتألقة وحياته القاتمة. ويبتعد يالوم عن التعبير عن أفكاره بطريقة ساخرة، والسيرة التقديسيّة، ودراسة الحالة السريرية، ويقدّم نيتشه على أنه شخصية معقدة ثلاثية الأبعاد، تظلّ إنسانية، لا بل إنسانية إلى درجة كبيرة.

ورواية «عندما بكى نيتشه» أيضًا رواية سيكولوجية تصوّر ولادة التحليل النفسي. ويثير يالوم سؤالًا مثيرًا للاهتمام، وهو كيف كان من الممكن أن تكون ردة فعل نيتشه اليائس لو أن طبيبًا معاصرًا له عالجه، يجرّب معه شكلًا جديدًا من أشكال العلاج اللفظي، ويعاني من أزمته العاطفية؟ تبحث

رواية «عندما بكى نيتشه» العديد من القضايا النفسية المثيرة للجدل، بما فيها طبيعة الامتنان والتعاطف. فقد كان نيتشه وفرويد يعتقدان أن العلاقة بين الواهب والمستفيد تقوم على صراع غير واعٍ على السلطة، وبالتالي فهي علاقة مشحونة بالاستياء والعدوانية. وقد أدتْ هذه النظرة السوداوية للامتنان إلى توتر علاقات الرجلين مع الأشخاص المدينين لهم. ويقدّم يالوم رؤيته الخاصة عن العرفان بالجميل، وهي رؤية تسترشد بها جميع كتاباته.

يُعدُّ نيتشه التاريخي موضوعًا مناسبًا لرواية فلسفية نفسيّة منطقية لأن التمييز بين الفلسفة وعلم النفس لم يكن واضح المعالم قبل القرن العشرين. ولم يكتفِ نيتشه بدمج هذين الاختصاصين معًا فحسب، بل أصبح أيضًا أعظم كاتب نثر ألماني بعد غوته. كان نيتشه أصغر أستاذ لفقه اللغة الكلاسيكية في تاريخ جامعة بازل الموقرة في سويسرا، وكان نيتشه خبيرًا في اللغتين اليونانية واللاتينية. وكان أيضًا من أوائل النقاد الثقافيين في العالم وأروعهم. ومات نيتشه وهو في الخامسة والخمسين من عمره، وقد ضاعت السنوات العشر الأخيرة من حياته في الجنون عندما أصيب بمرض الزهري من الدرجة الثالثة، وهو مرض متكرر لم يكن قابلًا للشفاء في ذلك الحين (ما يزال مرض الزهري في مرحلة متأخرة غير قابل للشفاء). وتكهن بعض الدارسين بأن نيتشه عانى من مرض الهوس الاكتئابي معظم حياته الراشدة. ومن المرجح أنه عانى من سلسلة من السكتات الدماغية قبل أن ينهار في أوائل عام ١٨٨٩، أعقبها خرف دائم. وخلطًا بين العبقرية والجنون، خلص بعض العلماء من مرضه الأخير إلى أن كتاباته كانت أيضًا نتاجًا للجنون، وهو حكم يرفضه يالوم بحكمة.

الأهمّ من كلّ ذلك، فإن رواية «عندما بكى نيتشه» رواية مؤثّرة وطموحة بعمق، تقدّم نظرة ثاقبة عن حياة رجلين مضطربين إلى درجة كبيرة، يجدان نفسيهما في موقف يعلّم فيه أحدهما الآخر ويتعلّم منه. وتستند صداقتهما إلى المعاملة بالمثل، وهي فكرة محورية في رؤية يالوم للعلاج النفسي.

يالوم والسيرة النفسية

تُعدُّ رواية «عندما بكى نيتشه» أول رواية من الروايات الثلاث التي كتبها يالوم والتي تُقدّم سيرًا نفسية لكبار الفلاسفة والأطباء الأوروبيين. وتُمثّل السيرة النفسية التي لم يمضِ على ظهورها سوى قرن من الزمان، جهدًا لفهم حياة الشخص باستخدام النظريات النفسية والسيرة الذاتية. تُعدُّ السيرة الذاتية النفسية «متعددة الأطر الزمنية، وفوضوية من الناحية النظرية بشكل أساسي»، كما يُقرّ ويليام تود شولتز في مقدمة كتابه المحرّر بعنوان «دليل السيرة الذاتية النفسية» الصادر عام ٢٠٠٥. ويسعى عالم النفس البيوغرافي إلى معرفة العوامل الشخصية والتاريخية والثقافية التي تساهم في هوية الشخص، ومن ثم إظهار العلاقة بين حياة الشخص وعمله. ويؤكد علماء البيوغرافيا النفسية ذوو التوجه التحليلي النفسي على أهمية تجارب الطفولة، وتأثير الوالدين في تشكيل الشخصية، ودور اللا وعي، والطرق التي يشكّل بها الماضي الحاضر والمستقبل.

يستحضر العنوان الفرعي لكتاب ألان إلمز الصادر عام ١٩٩٤ بعنوان «الكشف عن الحيوات» العلاقة المتوترة بين تخصصين منفصلين لكنهما مترابطان: التحالف المضطرب بين السيرة الذاتية وعلم النفس. يبدأ إلمز بالاستشهاد بتعريف الكاتب الصحفي جورج ويل الساخر: «في «السيرة الذاتية النفسية» «تُفسَّر» الأعمال الكبيرة للأفراد العظماء بالإشارة إلى بعض الميول أو العجز غير المتوقعة، التي «تُفسَّر» بدورها بشيء من الإهانة التي تعرّض لها الفرد في سنّ مبكرة - لنقل عندما كان في السابعة من عمره عندما أبعدت عنه أمه المصاصة». ويؤكد لنا إلمز أنه لم يصادف قط مثالًا مثيرًا للسخرية مثل «فرضية المصاصة» التي طرحها ويل، لكنه يدرك نقاط القوة والضعف في السيرة الذاتية النفسية.

تستطيع السيرة الذاتية النفسية تسليط كثير من الضوء على العلاقة المراوغة بين موضوع السيرة الذاتية وعمله أو عملها، لكن المعرفة الكاملة

مستحيلة. أو كما أشار ويليام جيمس في خاتمة كتابه المعنون بجدارة «حول عمى معين في الكائنات البشرية»، «لا يمكن أن تكشف الحقيقة كلها، أو الخير كله، لأي مراقب واحد، مع أن كل مراقب يكتسب تفوقًا جزئيًّا في الاستبصار من الموقف الغريب الذي يقف فيه». يجب أن نسأل أنفسنا دائمًا ما الذي نعرفه وما الذي لا نعرفه عن موضوع ما. ففي معظم الأحيان، فإننا لا نعرف ما لا نعرفه، وتظل هناك أمور كثيرة غامضة وغير معروفة عن لوحات يالوم عن نيتشه وشوبنهاور وسبينوزا. مكتبة سُر مَن قرأ

يقدّم إلمز اقتراحات عديدة مفيدة لكتابة السيرة الذاتية النفسية الجيدة والحكم عليها، اقتراحات اتبعها يالوم بشكل بديهي. إذ ينبغي تجنب السيرة الذاتية النفسية الضيقة والاختزال النظري. «لا يمكن لنظرية سيكولوجية واحدة أن توضح بفعالية كل شخصية نريد أن نفهمها. لذلك يجب أن تتضمن السيرة الذاتية النفسية أكبر قدر ممكن من التنوع الانتقائي». ويجب أن تتوخى السيرة الذاتية النفسية الجيدة الحذر من الناحية النظرية والمنهجية، وتتجنب ما يسميه فرويد «التحليل الجامح»، وهو الميل نحو التفسير الجدلي، أو التخميني، أو التفسير الفظ. ينبغي أن تركّز السيرة الذاتية النفسية على الصحة النفسية، وليس على الأمراض. والدافع الفني دليل على الصحة وليس على المرض، محاولة لفهم الصراع الداخلي والتصالح معه. وكما يذكّرنا فرويد، فإن السيرة الذاتية النفسية الجيدة تتجنب الإغراء المزدوج المتمثّل في إضفاء الطابع المثالي على الموضوع، والتقليل من قيمته. وعلى النقيض من ذلك، فإن السيرة النفسية السيئة تستغرق وقتًا طويلًا في البحث عبثًا عن أحداث السيرة الذاتية الرئيسية، الأمر الذي يؤدي إلى مُغالطة «علم المنشأ أو الأصول» الذي يعرّفه إريك إريكسون في كتابه «الشاب لوثر» (١٩٥٨) بأنها «عادة تفكير تختزل كل حالة إنسانية وتشبّهها بحالة سابقة، والأهم من كل ذلك، إلى تلك السلائف الأقدم والأبسط والأكثر طفولية التي يُفترض أنها «أصلها». يتجنب يالوم خطأ علم الأصول حتى وهو يشير إلى أنه كان لبعض أحداث السيرة الذاتية النفسية تأثيرات تحويلية على حياة الأشخاص.

أخيرًا، يجب أن نأخذ في الاعتبار ملاحظة دان ب. ماك آدامز حول قيمة انخراط الكاتب النفسي السير ذاتي في موضوع السيرة الذاتية. «يجب أن تهدف الروايات المكتوبة بالضمير الغائب التي يسردها مصممو السير الذاتية النفسية عن حياة الأشخاص الذين يتناولون سيرتهم الذاتية إلى الكشف عن الهويات السردية بالضمير المتكلم وتفسيرها ودمجها وانتقادها؛ ويجب أن تتفاعل القصة التي يرويها مصمم السيرة الذاتية على نحو خلاق مع القصة التي يظن مصمم السيرة الذاتية أن الشخص نفسه هو الذي يرويها. وقد أخذ يالوم هذا الدرس بجدية كبيرة. فلا تجلب رواياته الحياة إلى نيتشه وشوبنهاور وسبينوزا فحسب، وإنما تُظهر كذلك كيف أن كتابات الفلاسفة أثّرت على حياة القرّاء، بمن فيهم يالوم نفسه.

شخصيتان من لحم ودم

كُتب الكثير عن بروير ونيتشه، لكن يالوم هو أول من حوّل هذين الرجلين إلى شخصيتين متعاطفتين من لحم ودم، شرحهما روائي على معرفة واسعة ودقيقة بالتحليل النفسي والفلسفة. لم يلتقِ بروير ونيتشه في الحياة الواقعية قط، لكن ظلّ كل منهما على طبيعته طوال رواية يالوم. والأهم من ذلك، ظلّ بروير ونيتشه شخصيتين قابلتين للتصديق تمامًا في الرواية، وحمل كل منهما بصمة يالوم الروائية. تكشف الشخصيتان أشياء كثيرة عن مبدعهما بقدر ما تكشفان عن أسلافهما التاريخيين.

لم يكن لدى نيتشه نظراء فكريين كثر. فكما أشار في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه «العلم المرح» كان «ما يزال ينتظر طبيبًا فلسفيًّا بالمعنى الاستثنائي لهذه الكلمة - طبيب يجب أن يتابع مشكلة الصحة الكلية لشعب، أو زمن، أو عرق، أو إنسانية - ليستجمع الشجاعة ويدفع شكوكي إلى حدودها القصوى، ويجازف بفرضية: أن الذي كان على المحك في التفلسف حتى الآن لم يكن «الحقيقة» على الإطلاق، وإنما شيء آخر - لنقل، الصحة، المستقبل،

النمو، القوة، الحياة». ويواجه نيتشه طبيبًا فلسفيًّا في شخص بروير الذي لا يهدف إلى شيء سوى شفاء جسد الفيلسوف وعقله.

كانت نية الروائي الأصلية كما ذكر في كتابه «قارئ يالوم» أن يبتكر شخصية طبيب كاهن - معالج متخيّل ليعالج نيتشه، لكنه أدرك أن بروير التاريخي سيكون نموذجه. « فأنا أعرف عمل بروير جيدًا لأنني درّست لمدة عشر سنوات دورة دراسية حول تقدير فرويد، ناقشت فيها إسهامات بروير». وعندما اختار بروير معالجًا لنيتشه، «سرعان ما استقرّت بقية الحبكة في مكانها الصحيح».

كان بروير طبيبًا مرموقًا يُعرف بأنه أفضل طبيب تشخيصي في فيينا. وكان باحثًا أجرى اكتشافات فيزيولوجية عصبية رائدة حول دور العصب المبهم: «منعكس هيرينغ - بروير» الذي يحول دون تضخم الرئتين، واشتُهر أيضًا بأبحاثه حول دور الأذن الداخلية في تنظيم التوازن. وكان بروير يريد أن يصبح أستاذًا في الطب، وكان مؤهلًا لذلك على نحو رائع، لكن معاداة السامية الخبيثة في فيينا حينذاك أنهت حلمه بأن يصبح أستاذًا أكاديميًّا، وهو نفس المصير الذي أصاب سيجموند فرويد. ويعرف طلاب التحليل النفسي بروير أساسًا بأنه أحد المتعاونين الأوائل مع فرويد. وظهرت دراسة الحالة التي أجراها بروير عن امرأة شابة تعاني من الهستيريا لأول مرة في مجلة للطب النفسي في عام ١٨٩٣، وفي عام ١٨٩٥، شارك في كتابة مقالة بعنوان «دراسات حول الهستيريا» تُعد بشكل عام أول بحث منشور عن التحليل النفسي.

١٨٨٢

كان عام ١٨٨٢ عامًا بالغ الأهمية بالنسبة إلى فرويد وبروير ونيتشه. كان فرويد طبيبًا متدربًا في منتصف العشرينيات من عمره في عام ١٨٨٢ عندما بدأت أحداث الرواية، وكان يعتبر بروير الذي يكبره بأربعة عشر

عامًا معلّمًا وصديقًا وبمنزلة أب له. وفي دراسة عن سيرته الذاتية (١٩٢٥)، اعتبر فرويد في عام ١٨٨٢ بأنه كان «نقطة تحول» في حياته المهنية، عندما قام إرنست بروكه، أستاذ علم وظائف الأعضاء الذي كان فرويد يكنّ له تقديرًا عظيمًا، «بتصحيح تبذير أبي السخي بنصيحته لي بأن أتخلّى عن مهنتي النظرية بسبب حالتي المادية السيئة». ونفذّ فرويد توصية بروكه، وترك المختبر الفسيولوجي، والتحق بمستشفى فيينا العام حيث عمل في أقسام مختلفة. والتقى فرويد بجوزيف برويز في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر، لكن ربما لم تكن علاقتهما قوية كما أصبحت في عام ١٨٨٢، عندما أصبح فرويد يتناول العشاء في أحيان كثيرة في بيت برويز، وخطب فرويد سرًّا مارثا بيرنيه في ١٧ يونيو (حزيران) ١٨٨٢.

وفي عام ١٨٨٢، قطع برويز علاجه مع أول مريضة في التحليل النفسي، أطلق عليها في دراسة الحالة التي نشرها اسم «فرولين آنا و.»، وكان يعالجها من أعراض عديدة كان من بينها الشلل واضطرابات في النطق والرؤية. وكان برويز حينذاك متزوجًا وأب خمسة أطفال. وأدّى تورطه المتزايد مع مريضته إلى توتر زواجه، الأمر الذي أدّى في نهاية الأمر إلى إنهاء علاجها بشكل مفاجئ.

يشير والتر كوفمان إلى أنه بين شتاء العامين ١٨٨٢-١٨٨٣ ونهاية عام ١٨٨٨، «بلغ نيتشه ذروته»، وكتب ثمانية كتب. وشهد عام ١٨٨٢ صدور أحد أعظم أعمال نيتشه، وهو كتاب «العلم المرح» الذي يؤدي دورًا رئيسيًّا في رواية يالوم بالإضافة إلى كتاب «إنسان مفرط في إنسانيته» الذي صدر عام ١٨٧٨. وفي عام ١٨٨٢، استقال نيتشه من منصبه أستاذًا في جامعة بازل بعد أن عُيّن في عام ١٨٦٩ وهو في الرابعة والعشرين من عمره، لأسباب تتعلق باعتلال صحته. كان يعيش على مُرَتَّب تقاعدي ضئيل، وينتقّل من طبيب إلى آخر بحثًا عن علاج للمُشكلات التي أرهقته طوال حياته.

في تلك السنة المشؤومة التقى نيتشه امرأةً تدعى لو سالومي أقام معها علاقة غرامية قصيرة وعفيفة. ويرى إرنست جونز أن لو سالومي «ارتبطت

بأعظم رجال القرن التاسع عشر والقرن العشرين: نيتشه وفرويد على التوالي. كان فرويد معجبًا بشخصيتها الراقية والهادئة كثيرًا ورأى أنها تفوق شخصيته بكثير، وكانت تقدّر إنجازات فرويد كثيرًا»، وكانت تقدّر إنجازات نيتشه، لكنه لم يعتبرها شخصية راقية وهادئة. وعاش نيتشه وسالومي والفيلسوف بول ريه معًا لفترة قصيرة في علاقة ثلاثية، وعندما عرض نيتشه على سالومي الزواج على عجل بعد أن أُغرم بها، رفضته الأمر الذي عجّل في حدوث أزمة نيتشه الانتحارية التي تفتتح بها رواية يالوم.

الحقيقة والخيال

يستطيع القارئ أن يقدّر رواية «عندما بكى نيتشه» دون أن يفهم تاريخ بروير وفرويد ونيتشه، لكن الرواية تكتسب أهمية إضافية عندما ندرك مدى قرب يالوم من الواقع الذي صاغ شخصياته على غرار شخصيات روايته. ففي بداية الرواية، تربط بين بروير وفرويد صداقة وثيقة جدًّا. من الغريب أن نقرأ رواية يطغى فيها بروير على فرويد الذي كاد التاريخ أن ينساه. لماذا قرر يالوم أن تتمحور روايته حول رجل يبدو في وقتنا الحالي هامشيًّا في تطوّر التحليل النفسي؟ ففي عام ١٨٨٢، كان فرويد البالغ من العمر ستة وعشرين عامًا يفتقر إلى النضج والخبرة لفهم عمق معاناة نيتشه وعزلته.[٢]

وبخلاف ذلك، كان بروير البالغ من العمر أربعين عامًا، أقل اندفاعًا من الناحية الفكرية من فرويد، لكنه كان أكثر دفئًا وحكمة في التعامل مع رجل مثل نيتشه الذي يعاني هو نفسه من بعض الصراعات.

يُظهر يالوم كيف أن مثالية فرويد تجاه بريور منعته من فهم خيبات أمل الرجل الذي يكبره سنًا في حياته المهنية والزوجية. فقد كان فرويد شابًّا لا يشعر بأزمة منتصف العمر التي بدأت تتنامى لدى بروير، بما في ذلك

٢ أخبرني يالوم أنه كان يفضّل أن يكون اللقاء العلاجي بين فرويد ونيتشه، لكن التواريخ لم تكن متطابقة. «فعندما كان فرويد طبيبًا نفسيًّا، لم يكن نيتشه باستطاعته التواصل معه أو إمكان مساعدته».

التنازلات التي أُرغم على تقديمها في فيينا المعادية للسامية. وكانت لدى بروير نظرة في حياة فرويد أعمق مما لدى فرويد في حياة بروير. فقد أدرك عبقرية فرويد المتنامية، وتنبأ بشهرته العالمية. وبينما كان يراقب فرويد وهو يتفحّص أرفف الكتب في مكتبه، سأله بروير: «هل أحتفظ برفّ لكتبك في المستقبل يا سيغ»، فردّ عليه الشاب: «كم أتمنى ذلك، لكن ليس في هذا العقد يا جوزيف».

سيأتي زمن فرويد التاريخي بعد حين، كما سيأتي زمن نيتشه. فقد أُعجب فرويد بعبقرية نيتشه، كما أشار جونز الذي ذكر أيضًا أن فرويد قال مرات عديدة إن نيتشه يمتلك «معرفة عن نفسه أكثر نفاذًا وعمقًا من أي شخص آخر عاش أو ربما يعيش». وأضاف جونز: «إنه إطراء رائع من أول مستكشف للاوعي». لكن ما يدين به فرويد لنيتشه أكثر تعقيدًا مما أشار إليه جونز. فمع أن فرويد ادعى أنه لم يقرأ نيتشه لكي لا يتأثّر به، يقول يالوم إن توجد لدى فرويد مجموعة كاملة من كتب نيتشه أهداها له أوتو رانك. وفي إشارة إلى «العمل غير المكتمل بين نيتشه ومجال العلاج النفسي»، ذكر يالوم أن «مجال العلاج النفسي برمته سار على خطى فرويد وتجاهل مساهمة نيتشه». وكان يالوم ينوي في روايته «عندما بكى نيتشه» أن «يعالج هذا السهو والبدء في حصد رؤى نيتشه النفسية بمزيد من الوضوح». وحتى نهاية القرن العشرين، كانت معظم معرفتنا عن بروير مستمدة من فرويد الذي كاد يكون مصدر معلومات غير متحيّز، بينما كان فرويد حَكَمًا قاسيًا ومتحيّزًا على الآخرين، خاصة أولئك الذين لم يتقبّلوا نظرياته النفسية تمامًا. واستند حكم فرويد على بروير إلى تعاونهما القصير والمتضارب في ثمانينيات القرن التاسع عشر. فقد كتب بروير «الآنسة آنا و.» في عام ١٨٨٢، أما فرويد فقد استغرق أكثر من عشر سنوات لإقناع مؤلفه المتردّد بأن يُدرج دراسة الحالة في كتاب «دراسات حول الهستيريا» الذي يضم خمس دراسات حالة، كتب فرويد أربعة منها.

وبحسب فرويد، افتُتن بروير بالمريضة الشابة التي كان يعالجها والتي بدت عليها عدة أعراض هستيرية محيّرة. ووصفت «آنا و.» علاجها الشهير

مع بروير بأنه «علاج بالكلام»، وأطلقت بذكاء على العلاج بالكلام اسم «كنس المدخنة»، وألمح بروير بشكل مضلل في نهاية دراسة الحالة إلى أنها تماثلت للشفاء تمامًا لكنه اعترف بشيء من الغموض بأنه «أخفى تفاصيل كثيرة هامة». فقد كانت بعيدة تمامًا عن الشفاء. وكشف جيمس ستراشي، المحرّر العام لمجلة «ستاندرد إديشن، في حاشية مقتبسة لدراسة الحالة أن فرويد أسرّ له بأن بروير أنهى علاجها فجأة عندما أظهرت المريضة، كما قال ستراشي، «حدوث انتقال إيجابي قوي ذي طبيعة جنسية لا لبس فيها. وفي رأي فرويد أن هذا ما دفع بروير إلى إرجاء نشر تاريخ الحالة لسنوات عديدة، وإلى تخليه في النهاية عن أي تعاون آخر في أبحاث فرويد».

حدث غير متوقع

باستخدام تعبير إنجليزي، أشار فرويد إلى هذا «الحدث غير المتوقع» في كتابه «عن تاريخ حركة التحليل النفسي». وألمح إلى أن خجل بروير الفكري، ورفضه الاعتراف برغبة الآنسة آنا و. الجنسية تجاهه، وشعور بروير بالذنب والكرب هي التي آذنت بنهاية العلاج. يرى فرويد أن بروير يفتقر إلى شجاعة قناعاته. بعبارة أخرى، يرى فرويد أن بروير يفتقر إلى شجاعة قناعات فرويد.

يقدّم إرنست جونز تفاصيل أخرى عن القصة، بما في ذلك اسم «آنا و» (بيرثا بابنهايم) التي أصبحت لاحقًا أول أخصائية اجتماعية في ألمانيا. (وقد أثار كشف جونز غضب عائلة بيرثا بابنهايم). وقدّم جونز معلومات صحيحة أو زائفة عن الانتقال المقابل من جانب بروير. وذكر فرويد أنه عندما أجرى بروير زيارة طارئة إلى منزل آنا و.، وجدها، على حد تعبير جونز، في «مخاض ولادة هستيرية (حمل كاذب)، الإنهاء المنطقي للحمل الوهمي الذي نشأ بشكل خفي استجابةً لخدمات بروير. وعلى الرغم من صدمته الشديدة، تمكّن من تهدئتها بتنويمها مغناطيسيًّا، ثم هرع وخرج من المنزل وهو يتصبب

عرقًا، وفي اليوم التالي، غادر مع زوجته إلى فينيسيا لقضاء شهر عسل ثانٍ، أثمر عن إنجاب طفلة».

ما مدى دقة رواية فرويد - جونز عن علاقة بروير بالآنسة آنا و.؟ هل حملت حملًا زائفًا؟ هل أنهى بروير العلاج لأنه خشي من أن تُغرم به؟ يتفق كتاب «قصة آنا و.»، سيرة بيرثا بابنهايم الذاتية التي كتبتها لوسي فريمان عام ١٩٧٢ مع رواية فرويد-جونز. فقد كتبت فريمان خلال العصر الذهبي للتحليل النفسي، وكتبت عدة كتب شهيرة عن العلاج بالكلام، بما فيها مذكراتها عن تجاربها الطويلة في التحليل النفسي، ولم تطعن قط بنظرية فرويد التقليدية. وترى أن قصّة «آنا و.» غيّرت مصير تاريخ البشرية، «فقد وصف بعض الذين عرفوا بيرثا بابنهايم بأنها «شبه قديسة»، ووصفوا بروير بأنه «مثل المسيح».

«إن دراما الشفاء الغريبة هذه التي أدّاها هذان الشخصان طوال ثمانية عشر شهرًا هي التي مهدت الطريق إلى الخلاص النفسي للإنسان».

تقدّم السيرة الذاتية التي كتبها ألبريشت هيرشمولر عام ١٩٧٨ عن بروير التي تُرجمت إلى اللغة الإنجليزية عام ١٩٨٩، الصورة الأكثر دقة عن علاقة الطبيب ببيرثا بابنهايم. يقول هيرشمولر إن رواية فرويد «إعادة بناء تفسيرية»، رواية تغيّرت «بتأثير التقدّم الذي حصل في مذهب التحليل النفسي على مدى عقود عديدة». ولا توجد أدلة عديدة تثبت أن «آنا و.» قد تعرضت لحمل هستيري - وإذا كان الأمر كذلك، يتساءل هيرشمولر، لماذا لم يذكر فرويد هذه المعلومات في كتاباته المنشورة؟ واقترح كاتب السيرة أنه ليس من المحتمل أن يكون بروير قد هرب من «آنا و.» ومن فيينا في صيف عام ١٨٨٢. وخلص هيرشمولر إلى أنه مثل معظم «الأساطير»، فإن رواية فرويد - جونز تنطوي على «جزء من الحقيقة بين كل تلك الأخطاء وأنصاف الحقائق». وأضاف هيرشمولر أنه ربما عانى بروير من تعارض بين «الاهتمام الشخصي والطبي بهذه الحالة، وخوف من عواقب هذه العلاقة العميقة». ويرى كاتب السيرة الذاتية أنه ربما عرفت ماتيلد بروير بانجذاب زوجها إلى

«آنا و.» فعجّل بحدوث أزمة زوجية بينهما. مستشهدًا ببحث هيرشمولر في كلمة المؤلف لرواية «عندما بكى نيتشه»، استخدم يالوم هذين التخمينين المعقولين وهما - انجذاب بروير إلى «آنا و.» واكتشاف زوجته المرعب - ليفسّر المأزق الشخصي والمهني لبطله في الرواية، وأدرج يالوم أيضًا الجزء الأقل معقولية من الأسطورة، وهو حمل بيرثا بابنهايم الهستيري، وطلب ماتيلد بروير من زوجها أن يحيل المريضة إلى طبيب آخر.

ازدواجية فرويد تجاه معلّمه السابق - وعدم ثقته بغراتيتيود

أدلى فرويد بعدة تصريحات مُهينة عن بروير. وحُفرت صورة بروير على أنه مثقف جبان في تقاليد التحليل النفسي. وكان لجزء من حذر فرويد من معلّمه السابق يرتبط بازدواجية فرويد تجاه الامتنان، وهي إحدى القضايا الرئيسية في رواية يالوم. يتذكّر فرويد في كتابه «في تاريخ حركة التحليل النفسي» أنه ألقى محاضرة في جامعة كلارك عام ١٩٠٩ في أثناء زيارته الوحيدة إلى الولايات المتحدة، وكان شديد التأثر بهذا الحدث الهام وقال: «لم أكن أنا الذي أخرج التحليل النفسي إلى حيّز الوجود: بل يعود الفضل في ذلك إلى شخص آخر، إلى جوزيف بروير، الذي كان يعمل عندما كنت ما أزال طالبًا منهمكًا في اجتياز امتحاناتي (١٨٨٠-١٨٨٢)» ثم ذكر فرويد دون مبرر أن الآخرين اعتبروا مديحه مبالغًا فيه، وأنه عبّر عن ذلك «بإسراف شديد في تلك المناسبة».

لقد حقق فرويد هنا هدفين: فقدْ أعرب أولًا عن امتنانه غير المقيّد لبريوير لأنه ابتكر التحليل النفسي، ثم استخدم بدائل لم يذكر أسماءها ليشير إلى أن مديحه مبالغ فيه. واختتم فرويد بالقول: «لا يهمّ إن كان تاريخ التحليل النفسي قد بدأ مع بروير أو معه هو»، وهو تصريح يناقض ما قاله في الفقرة الأولى من الكتاب عندما قال مؤكدًا: «أنا الذي ابتكر التحليل النفسي، فقد

كنت الشخص الوحيد الذي اهتمّ به لمدة عشر سنوات». إن إرنست جونز محق جزئيًا فقط عندما قال إن «العداء المرير» من قبل فرويد تجاه بروير، العداء الذي انعكس في مراسلات فرويد في تسعينيات القرن التاسع عشر، شعور «لم يخنه قط في أي من كتاباته المنشورة، بل كان يتحدّث عن بروير دائمًا بعبارات المديح والامتنان». وبعكس ذلك، كانت ازدواجية فرويد العميقة تجاه بروير واضحة في كتابه «عن تاريخ حركة التحليل النفسي»، حيث أعقب تعبيره عن امتنانه تجاه بروير مباشرة مديحًا خافتًا، مخادعًا.

ويظهر استياء فرويد من أنه كان مدينًا بمبلغ من المال لبريوير، على الرغم من (أو ربما بسبب) استعداد بروير لمسامحته عن الدين في رسالة بعث بها إلى صديقه فيلهلم فلييس في ١٦ يناير (كانون الثاني) ١٨٩٨. فقد بدأ فرويد رسالته بعبارة «قام بروير مؤخرًا بحيلة عبقرية أخرى»، ثم سرد حديثه المتبادل مع بروير حول القرض، ويختتم فرويد رسالته بمرارة: «هذا يكفي لجعل المرء غير ممتن للأعمال الجيدة» (رسائل سيجموند فرويد الكاملة إلى فيلهلم فلييس).

يمكن أن يتفهم المرء سخط فرويد إلى جانب كبريائه المجروح لأنه اضطر إلى أن يستدين مبلغًا كبيرًا من المال من زميله الذي يكبره سنًّا. قد يكون هناك شيء من الحقيقة في تفسير فرويد الساخر لدوافع بروير، لكن المرء يستطيع أن يفسّر تصرفات بروير بمزيد من السخاء، كما فعل يالوم عندما قال لنا في نهاية الرواية تقريبًا أن بروير أعفى فرويد من جميع ديونه له. كانت العلاقة بين الدائن والمستدين متوترة من جانب فرويد، وربما لم تكن محتملة، لكن ربما كان بروير يبذل كل ما في وسعه حتى لا يشعر فرويد بأنه مدين له. وقد انتهت علاقتهما بطريقة سيئة، وشعر كل منهما بخيبة الأمل في الآخر.

معضلتا بروير

عندما يبدأ يالوم روايته «عندما بكى نيتشه»، فإنه لا يضيّع وقتًا ليكشف

لنا عن معضلتيْ بروير التوأم. فبينما كان يمضي إجازته مع زوجته في فينيسيا لينعم براحة مؤقتة من رؤية عشرات المرضى يوميًّا، وفرصة لإنهاء علاجه لبيرثا بابنهايم الذي استمر سنتين، تلّقى بريوير رسالة جريئة من شابة تدعى لو سالومي أصرّت على لقائه في صباح اليوم التالي في مقهى سورينتو لمناقشة مسألة في غاية الأهمية. «مستقبل الفلسفة الألمانية على المحك». وافق بروير على طلبها على مضض، وفي أثناء انتظاره لها، لم يتوقف عن التفكير في المريضة السابقة المغرمة به. تذكّر «بروير» مشدوهًا كلماتها الأخيرة عندما قال لها إنه لم يعد بإمكانه أن يكون طبيبها. «ستكون دائمًا الرجل الوحيد في حياتي». كان جمالها الفاتن يشغل لحظات يقظته ونومه. «هل قُدِّرَ لي أن أكون مجرد مسرح تُمثّل عليه ذكريات بيرثا إلى الأبد؟» وتساءل من أين تنبع هذه الأفكار المجنونة.

وبينما كانت تراود بروير هذه الأسئلة، دخلت لو سالومي المقهى بغطرسة وورطته في معضلة أخلاقية محيرة. واستخدمت مفاتنها لإقناعه بأن يستقبل مريضًا لم يسمع به من قبل، يدعى فريدريش نيتشه الذي قد ينتحر إذا لم يحصل على هذه المساعدة الطبية، وحذرّت سالومي بروير من أنه ستكون لموت الفيلسوف «عواقب وخيمة - عليك، وعلى الثقافة الأوروبية، وعلينا جميعًا».

مع أن يالوم خصص بضع صفحات فقط في رواية «عندما بكى نيتشه» للو سالومي، فقد أظهرت ثقة كبيرة بنفسها، وبدا أنها تدرك مصيرها ومصير نيتشه جيدًا، ثم وافق بروير على أن يلتقي بسالومي مرة أخرى في مكتبه في فيينا بعد شهر، لتزوده بمعلومات إضافية عن نيتشه، وأصرّت على ألّا يخبر بروير نيتشه بأنها هي التي دبّرت أمر فحصه ومعالجته لأن الفيلسوف لن يغفر لها ذلك لأنها رفضت طلبه للزواج بها، ويجب ألّا يعرف نيتشه أنها هي التي أعطت الطبيب كتابين من كتبه ليقرأهما وهما «هو ذا الإنسان» و«العلم المرح»، بالإضافة إلى رسالة كتبها الملحن الألماني ريتشارد فاغنر إلى نيتشه. وأرت بروير صورة تظهر فيها سالومي ورييه وهما واقفان أمام عربة وهي

جاثية في داخل العربة تلوّح بسوط صغير، وهذا يرمز إلى سلطتها على الرجلين - ثلاثة رجال، إذا أخذنا بروير في الاعتبار الذي وقع هو الآخر تحت تأثير سحر سالومي. إن صورة سالومي التي رسمها يالوم لها تذكّرنا بشخصية سالومي التوراتية التي تجسّد الإغواء الأنثوي القاتل.

تروق لبروير فكرة التحدي لعلاج نيتشه الذي كان قد فحصه أربعة وعشرون طبيبًا من أفضل أطباء أوروبا، ولم يعرف أحد منهم سبب أعراضه الجسدية والنفسية. وانجذب بروير أيضًا بوصف نيتشه المذهل لنفسه بأنه «وُلد في زمن غير زمانه»، مفكّر لم يستعد العالم بعد لفهمه. ومثل نيتشه، كان بروير شغوفًا بالفلسفة. ولدى بروير التاريخي معرفة تامة بالفلسفة الكلاسيكية والمعاصرة، ومعرفة تامة بالفيلسوفين الأثيرين لدى يالوم: شوبنهاور وسبينوزا، بالإضافة إلى ذلك، كان بروير يأمل في أن يحرّره ذلك من هوسه الشديد ببيرتا بابنهايم، وأن يساعده شفاء نيتشه على شفاء نفسه.

شرحت سالومي حاجة نيتشه إلى «طبيب لمعالجة اليأس»، وقالت لبروير إنها سمعت عن علاجه لـ «آنا و.» «المرأة التي كانت تعاني من اليأس وعالجتها بتقنية جديدة، «العلاج بالكلام» - وهو علاج يستند إلى العقل، لفك التداعيات المتشابكة للصحة النفسية». كيف عرفت سالومي ذلك إذا لم يكن بروير وفرويد قد نشرا دراسات عن الهستيريا إلّا بعد أكثر من عشر سنوات؟ تخيّل يالوم بطريقة معقولة أن سالومي عرفت عن «آنا و.» من شقيقها طالب الطب الذي كان قد حضر محاضرة ألقاها بروير عن الهستيريا. ساهمت حبكة يالوم الدقيقة، ودقتها التاريخية، ومهارة توصيفها في نجاح الرواية. قبل بروير تحدّي سالومي بالرغم من خشيته بعدم قدرته على معالجة عقل مريض، في إشارة إلى ما قاله طبيب ماكبث. وهكذا تبدأ علاقة بروير مع نيتشه بعنصر الازدواجية. ومع أن بروير يفتخر بنزاهته، فإنه يظل مثقلًا بالشعور بالذنب حتى نهاية الرواية، عندما يكشف السرّ لنيتشه الحائر.

يشير استعداد بروير لقبول نيتشه مريضًا جديدًا لمعالجته إلى جرأته كطبيب. فقد يتطلب علاج مريض كهذا الحاجة إلى ابتكار علاج جديد،

علاج نفسي، فلا يمكن أن يكون المرء متأكدًا أبدًا من عواقب التجربة الطبية. وقد أكد فرويد التاريخي، بسخرية ذاتية، أن التحليل النفسي يُبرز أسوأ ما في الشخص. هل سيُخرج علاج بروير التجريبي لنيتشه أسوأ ما في المريض؟ في المعالج؟ وبشكل إيجابي أكثر، هل يستطيع الطبيب أن يشفي نفسه في الوقت الذي يشفي فيه الآخر؟ في علاقة قائمة على العلاج المتبادل، كيف يمكننا أن نعرف من هو المعالِج ومن هو المعَالَج؟

بروير: شخصية مميّزة

في رواية يالوم نجد أن بروير لا يلتزم بقواعد السلوك المتعارف عليها مثل بروير التاريخي، لا تقيّده كثيرًا الإجراءات الطبية التقليدية، وأقل حرصًا من تجنب المخاطر. ففي مقدمة طبعة كتاب «دراسات حول الهستيريا» عام ٢٠٠٠، وصف يالوم بروير بأنه «أول معالج نفسي ديناميكي في التاريخ» - ثم أظهر بوضوح رؤى بروير النفسية. وفي ضوء فهمنا لكتابيّ «كل يوم يقترب قليلًا» و«جلّاد الحب»، يمكننا أن نرى أن بروير الذي يتحدّث عنه يالوم يشبه يالوم نفسه من عدة نواحٍ.

في الواقع، فإن يالوم شخصية متميّزة، وصورة للطبيب النفسي التي يتخيّل نفسه في حالة بريور، فكلاهما مستعدان لتجريب أشكال جديدة من العلاج النفسي التي تنطوي على مخاطر على كل من المعالج والمريض. ويشعران كلاهما بالحاجة إلى شفاء الآخر، وإلى شفاء نفسيهما أيضًا، ويؤكدان كلاهما على قيمة الكشف عن الذات، واستعدادهما للكشف عن حياتهما للآخرين، مدركين أن الكشف عن الذات، يشجع على كشف الآخر عن ذاته. ويكرهان كلاهما تضخم الذات لدى الأطباء، وغرور المجتمع الراقي، ويكرهان ضيق أفق أولئك الذين يقتنعون بأنهم يعبدون الإله الحقيقي الوحيد. وكلاهما مخلص لزوجته، لكنهما يعرفان معنى أن يكون الرجلان في مخاض حبّ نساء أخريات استحوذن على أفكارهما وأحلامهما. يتفهم

يالوم إعجاب بريوير بالنساء، ورغبته في «الاندماج بأجسادهن، ورضاعة حلماتهن، والانزلاق في دفئهن ورطوبتهن»، وهي رغبة يقاومها الطبيبان بكل ما أوتيا من قوة. ويتماهى يالوم مع خوف بروير من الموت - استحالة الهروب من «سجن الزمن»، ويقدّران العلاجات النفسية التي تتجنب الإفراط في تناول الأدوية؛ ويؤمن بروير، مردّدًا صدى يالوم، بأنه اكتشف «المعادل النفسي للعلاج الدوائي البديل». ويجبر طبيب اليأس بروير ويالوم على أن يصبحا طبيبين للروح، وهو بحث يقودهما كلاهما إلى نيتشه والشفاء الوجودي.

لا يستطيع بروير المسكون برغبته الرهيبة تجاه بيرثا بابنهايم أن يتحدّث عن حبّه الهوسي مع أي شخص، ولا حتى مع تلميذه الشاب سيجموند فرويد الذي كان قاسيًا جدًّا ولم يكن بإمكانه أن يفهم شكاوى رجل في منتصف العمر. بالإضافة إلى ذلك، كان فرويد التاريخي معجبًا كثيرًا بماتيلد، زوجة بروير - وقد سمّى فرويد ابنته الكبرى باسمها - وأصدر أحكامًا على الرجل الأكبر سنًّا الذي كان شغوفًا بالمريضة التي يعالجها. وما زاد الموقف تعقيدًا أن خطيبة فرويد، مارثا بيرنايز، كانت صديقة مقرّبة لبيرثا بابنهايم، فلا عجب أن بروير لم يستطع أن يثق بفرويد.

واستباقًا لأحد أعظم اكتشافات فرويد، شكّ بروير في أن حبّه لبيرثا بابنهايم قد نشأ من جزء من الدماغ لا يمكن الوصول إليه في الوعي. لكن بروير لم يكن مستعدًّا بعد لقبول نظرية ثورية جديدة للوعي بدأت تنبت في عقل فرويد الذي كان يدرس معنى الأحلام. يقول بروير لفرويد: «عندما تبدأ تتحدّث عن عقل آخر منفصل، قزم واعٍ في داخلنا يصمّم أحلامًا معقدة ويخفيها عن عقلنا الواعي - فإن ذلك يبدو سخيفًا».

وبما أنه لم يكن قادرًا على تحرير نفسه من أفكار الموت والجنس، بدأ بروير يقتنع بشكل متزايد بأنه لا بد من وجود جزء من الدماغ لا يمكن الوصول إليه في الوعي. وفي عام ١٨٨٢، كان فرويد التاريخي على بعد سنوات من افتراض وجود ذات لا واعية بمنزلة مستودع للدوافع الجنسية والعدوانية

المكبوتة، اكتشاف نشأ عن تحليله الذاتي.

ضائع في الأزقة الخلفية والأبواب السرّية

شيئًا فشيئًا، بدأ بروير يعتنق هذه الفكرة عندما التقى أخيرًا بنيتشه الذي أرغمه على التشكيك في كل جانب من جوانب حياته وعمله. ومثل فرويد، نشأت لدى نيتشه أيضًا فكرة أن النفس لا تعمل باعتبارهما كيانًا واحدًا. يقول نيتشه لبروير إن «أجزاء من عقلنا قد تعمل بطريقة مستقلة عن الأجزاء الأخرى. فقد أكون قد حكتُ «أنا» وجسدي مؤامرة في الجزء الخلفي من عقلي. فكما تعرف أن العقل مغرم بالأزقة الخلفية والأبواب السرية».

يزخر عقل نيتشه بالأزقة الخلفية والأبواب السرية التي أفضت إلى شخصية قريبة من التشظي الانتحاري. وطوال الرواية، ينقل يالوم معاناة نيتشه وعزلته وانعدام ثقته بنفسه. نيتشه كائن ذو مزاج متقلب مظلم قادر على التحليق إلى ذروة الوجود في لحظة، والهبوط إلى أعماق اليأس في اللحظة التالية، ويعاني نيتشه من صداع نصفي معيق، وغثيان، وعمى جزئي، ومُشكلات في الجهاز الهضمي، ودوّار، وأرق - وهي مُشكلات عانى منها نيتشه التاريخي بالفعل. بالإضافة إلى ذلك، فهو مدمن على نحو خطير على المورفين وهيدرات الكلورال، العقاران اللذان يتناولهما بإفراط. ومما زاد الأمر تعقيدًا، لم يكن مريضًا متعاونًا، غير متأكد من أنه يريد أن يتخلّص من مرضه الذي يدفعه إلى اليأس والذي هو في الوقت نفسه مصدر إلهامه.

كيف يمكن أن يعالج بروير رجلًا مريضًا استقال مؤخرًا من منصب أستاذيته في جامعة بازل، وترك أقاربه وبيته، وجاب أنحاء أوروبا بحثًا عن الراحة من الألم المدمّر؟ وتركه وجوده المُترَحِّل بلا جذور وبلا أصدقاء. بعد أن خانه معلّمه ريتشارد فاغنر قبل سنوات، وخانه الآن بول رييه ولو سالومي وأخته إليزابيث التي سعت إلى تدمير علاقته مع رييه وسالومي، والتي حرّفت لاحقًا، بوصفها الوصية الأدبية عليه، كتاباته لتتناسب

مع أجندتها المعادية للسامية، كان نيتشه يحتقر التعاطف ومشاعر الشفقة والامتنان التي تشكل كلها جزءًا من عالم علائقي يؤمن بأنه يُضعف الذات. كيف يمكن أن يعالج بروير مريضًا يربط بين البشرية وعقلية القطيع، والمرأة بالازدواجية، والامتنان بالانتقام، والإيثار بالضعف؟

تجسّد أوصاف يالوم المبكّرة لنيتشه التناقض الصارخ بين سلوكه اللطيف والمحترم، وصوته المذهل الذي غالبًا ما يكون حادًّا في أعماله. لا ترفع صورة يالوم الفيلسوف إلى مرتبة القداسة، ولا تقلل من شأنه وتختزله إلى صورة كاريكاتورية. ولا يسعى يالوم إلى تبييض شخصية نيتشه التاريخية، أو تطهير كتاباته ليجعلها تبدو جذابة أكثر. نرى نبل روح نيتشه تتصارع مع كراهيته الذاتية الدنيئة. يتجنب نيتشه في رواية يالوم التحدّث عن نفسه، ويختصر نيتشه في بضع جمل: «أصبحت حياتي كلها رحلة، وبدأتُ أشعر أن بيتي الوحيد، المكان الوحيد المألوف الذي أعود إليه دائمًا، هو مرضي». لم يتحدّث أي مريض عن مرضه ببلاغة أكثر من هذه - يكمن جزء من براعة يالوم الفنية في قدرته على الإيجاز. كان نيتشه التاريخي نفسه سيّد الإيجاز. كما يقول في كتابه «غسق الأوثان»، «إن طموحي هو أن أقول في عشر جمل ما يقوله الجميع في كتاب - ما لا يقوله الجميع في كتاب».

لا يقلّ بروير عن نيتشه في سلطته وصوته. فقد رفض أن يقرأ التقارير الطبية الضخمة التي قدّمها له نيتشه، وقدّم تفسيرًا يستطيع أن يفهمه نيتشه بسهولة. وشرح لمريضه قائلًا: «كان هناك عيب كبير في بدايتي معهم. كثير من السلطة، وكثير من الآراء والاستنتاجات المرموقة تضطهد قوى المرء التركيبية الخيالية. وللسبب نفسه فإني أفضّل أن أقرأ المسرحية قبل أن أراها وهي تُعرض على المسرح، وبالتأكيد قبل أن أقرأ المراجعات النقدية. ألم تجد أن هذا هو الحال في عملك؟» ندرك من الحوار الافتتاحي أن كلا الرجلين يتمتعان بفكر عظيم، وأن القراءة تشكل نشاطًا مركزيًّا في حياتهما. إذ يقرأ كل منهما شخصية الآخر - ويقرأ بروير كتب الفيلسوف في محاولة لفهم حياة المؤلف.

نجح يالوم في استخدام ضربات فرشاة قليلة لرسم أفكار نيتشه الرائدة. وقاد الحديث الافتتاحي عن قراءة النصوص، سواء كانت طبية أم فلسفية، إلى قول نيتشه بأنه لا يثق بجميع المفسرين، لأنهم لا يستطيعون الابتعاد عن آرائهم الشخصية والتاريخية. وعندما سأل نيتشه كيف يتفادى هذه المشكلة بنفسه، اعترف بهذا القصور - ثم تعلّم أن «يرى نفسه من بعيد»، وأضاف، « للأسف تُضعف شدة مرضي منظوري في بعض الأحيان».

يبدو أن المرض قد وسّع من منظور نيتشه نفسه بشكل صارخ - على الأقل عندما لا يكون مريضًا جدًّا لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب. يجعل المرض الناس في معظم الأحيان، خصوصًا الاكتئاب، صامتين، ويسجنهم في عالم من المعاناة والألم، لكن نيتشه في رواية يالوم يتحدّث عن كآبته ببصيرة فريدة. «تمرّ عليّ فترات سوداء. ومن لم يمرّ بها؟ لكنها لا تنال مني. إنها ليست من مرضي، بل من كياني. يمكن للمرء أن يقول إنني أمتلك الشجاعة لأن أنال منها».

الإبداع والجنون

يقول الشاعر الإنجليزي في القرن السابع عشر جون درايدن ساخرًا: «لا بدّ أن يكون الذكاء العظيم متحالفًا مع الجنون إلى حد كبير»، ويضيف، «وتفصل الفواصل الرقيقة بين حدودهما». كانت لدى نيتشه نظرة ثاقبة في العلاقة الغامضة بين الإبداع واضطرابات المزاج. كيف كان شعوره تجاه مرضه؟ يظهر بيانه المسهب عن صحته - وربما الأكثر صعوبة في التفسير - في كتابه «Ecce Homo» (هو ذا الإنسان) الذي كتبه عام ١٨٨٨ ونُشر بعد وفاته في سنة ١٩٠٨. «لا توجد فيّ سمة مرضية؛ حتى في فترات مرضي الشديد، لم أكن مريضًا قط، ولا يمكن أن يجد أحد سمة تعصب في شخصيتي. لا توجد في حياتي لحظة يستطيع المرء فيها أن يشير إليها ويدينني بطبيعة متغطرسة ومثيرة للشفقة». يعترف والتر كوفمان أنه يستحيل معرفة

إن كان هذا التعليق «ساخرًا بشكل صارخ أم عكس ذلك، «فهو يفتقر تمامًا إلى الوعي الذاتي» (كتابات نيتشه الأساسية ٧١٣).

أتاح الفحص الطبي الشامل الذي أجراه بروير على نيتشه، والذي أتبعه بتاريخ طبي دقيق، أن يقدم يالوم وجهة نظره الخاصة في كونه طبيبًا. فالمرضى يستمتعون سرًا بفحص حياتهم بدقة بسبب رغبتهم للاعتراف بهم. «كانت متعة المراقبة عميقة جدًّا حتى إن بروير كان يعتقد أن الألم الحقيقي للشيخوخة والفجيعة وموت الأصدقاء هو غياب التدقيق - الرعب من العيش حياة لا يلاحظه فيها أحد». يشير يالوم إلى أن العزلة الوجودية والوحدة الوجودية تشتدان مع اقتراب حياتنا من نهايتها، الأمر الذي يجعل الحاجة إلى التواصل الإنساني أكبر. فقد كان نيتشه كاتبًا بلا قُرّاء، وكان يعاني من رعب أن يعيش حياة لا يلاحظه فيها أحد. لذلك قدّر كثيرًا أسئلة بروير عن صحته.

حقائق قاسية

بوصفه طبيبًا باطنيًّا، كان بروير يفكّر غالبًا كمعالج نفسي. هل ينبغي له أن يطرح أسئلة استقصائية تثير مقاومة مريضه؟ أم ينبغي أن يطرح أسئلة أخرى تزيد العلاقة بين الطبيب والمريض قوة من خلال التعاطف معه؟ يختار عادة الطريقة الأخيرة، مدركًا استحالة التعاطف بإفراط. وينبئنا بروير المتخيّل عن معالجين نفسيين مثل كارل روجرز، وهاينز كوهوت، ويالوم نفسه الذين يصرّون جميعهم على أهمية التعاطف والمواجدة.

وافق نيتشه على إجراء فحص لفترة طويلة، لكن عندما نهض بروير ليغادر، طلب المريض منه طلبًا غير معتاد: فرصة طرح ثلاثة أسئلة صريحة. فوافق بروير: هل سيصاب نيتشه بالعمى؟ هل ستزداد النوبات التي تعتريه حدة؟ هل يعاني من مرض دماغي متفاقم سيبلغ ذروته بالشلل أو الجنون أو الخرف؟ رحب بروير بهذه الأسئلة المباشرة القاسية التي رأى أنها تتيح له فرصة للإصرار على أن يلتزم المريض بالصدق مع الطبيب. ربما يتذكّر

القارئ أسئلة يالوم القاسية التي طرحها على بيني في قصة «جلّاد الحب»، لكن نيتشه أصرّ على النقطة التي أكد فيها بروير على أنه يجب أن تقوم العلاقة بين الطبيب والمريض على أساس الصدق المتبادل. أثار نيتشه سؤالًا يتعارض مع تدريب بريوير الطبي. ماذا عن التزام الطبيب بأن يكون صادقًا مع مريض على مشارف الموت؟

انقلبت الأدوار فجأة: فقد وضع الفيلسوف الطبيب في موقف دفاعي. فقد أعلن بروير، معبرًا عن وجهة النظر الطبية التقليدية التي ظلت سارية حتى الربع الأخير من القرن العشرين، أنه لا يحق له أن يفرض الحقيقة المؤلمة على الآخرين. لكن نيتشه اعترض وقال: «من يمكنه أن يحدّد ما الذي لا يرغب المرء في معرفته؟» أصبحت هذه المحادثة القصيرة لحظة محورية في الرواية لأنها أتاحت لنيتشه أن يوجّه بروير إلى ضرورة وجود حقائق قاسية. فأجاب نيتشه: «في بعض الأحيان، يجب أن يكون المعلّمون قساة. يجب إعطاء الناس رسالة قاسية لأن الحياة صعبة، والموت صعب». كان نيتشه محبطًا، كما كان يالوم طوال كتاب «جلّاد الحب».

مع استمرار الحوار بينهما، عبّر نيتشه عن رؤى أساسية تعكس رؤيته ورؤية يالوم إلى الحياة. فقد كشفت إحدى حقائق الفيلسوف الثابتة والرئيسية «كن كما أنت» عن الحاجة إلى تحقيق الذات. وقد استمّد نيتشه هذه المقولة من الشاعر اليوناني القديم بيندار الذي أكّد: «كن كما أنت، بعد أن تعلّمت ماذا يعني ذلك». وثمة حقيقة نيتشوية رئيسية تدعو إلى التصالح مع الموت. إن سؤال «كيف نعيش» يفترض ضمنًا سؤال «كيف نموت». فعلى المرء أن يقرر «كيف يواجه الموت»، كما يرشد نيتشه بروير، ثم يعطي أمثلة حول كيف يمكن أن يستجيب الناس للموت، والتوصل إلى استنتاجاتهم حول سرّ الحياة المركزي. إن صوت نيتشه هنا هو صوت مؤلف لا لبس فيه. ومثل أعمال يالوم الأخرى، فإن رواية «عندما بكى نيتشه» رواية معاصرة عن الموت، تكشف عن فن الموت.

قد يكون نيتشه الفيلسوف الأكثر اقتباسًا وسوء الاقتباس في التاريخ

الحديث. فاستخلاص جوهر عمل كاتب عظيم في جمل قليلة هو فن في حد ذاته. ولتفادي الخطر الواضح المتمثّل في استخدام نيتشه كما لو أنه مجرد بوق مؤلف يقول حقائق وجودية، لا يقدم يالوم ما يتبادله الطبيب والمريض مثل محاضرة وإنما مثل مباراة شطرنج حيث تحاول فيها كل شخصية أن تتفوق على الأخرى. ويستثمر يالوم العلاقة بين بروير ونيتشه في تنافس شخصي وانضباطي شديد، بحيث لا يكون القارئ متأكدًا من النتيجة أبدًا.

في سعيه لإقناع الفيلسوف أن يؤدي دور المريض، اقترح بروير أنه ينبغي للطبيب أن يحافظ على أمل المحتضر، لكن نيتشه ينفجر غاضبًا، ويؤكد أن «الأمل هو الشر الأخير»، وهي عبارة تظهر في كتابه «إنسان مفرط في إنسانيته». عندما أثار بروير مسألة الانتحار، ردّ نيتشه بطريقة الأقوال المأثورة: «أشعر دائمًا أن المكافأة النهائية للموتى هي أنهم لن يموتوا بعد ذلك»، وهي عبارة ترد أيضًا في «جلّاد الحب». أومأ بروير برأسه إيماءة تقدير، ودوّن هذه العبارة، مما أجبر نيتشه على أن يلاحظ أن هذه العبارة مأخوذة من كتاب «العلم المرح». وعندما أعرب بروير عن رغبته في شراء الكتابين، ولم يقل له إن لو سالومي أهدته الكتابين من دون علم نيتشه، قال المؤلف المغمور إن لا أحد يشتري كتبه، ثم كتب لبروير اسم وعنوان ناشر كتبه، ثم قدّم لبروير نسخًا شخصية من كتابه «إنسان مفرط في إنسانيته»، و«العلم المرح» المليئين بالملاحظات الهامشية المكتوبة بخط يده. لا يصدّق بروير حظه السعيد عندما أصبح بإمكانه أن يشير الآن إلى الكتابين علنًا دون أي مواربة.

«ما هي دوافعك؟»

كيف ينبغي لبروير أن يعالج مريضًا غير متعاون مثل نيتشه يتشبّث بمرضه بنفس القوة التي يتمنى أن يتحرّر منه؟ استشار بروير فرويد، وكشف له عن نتائج الفحص الطبي الذي أجراه لمريضه، وطلب منه مشورة كيف يمكنه أن يواصل علاجه معه، فقدّم فرويد ثلاثة اقتراحات هي: إقامة علاقة قوية

بين الطبيب والمريض، وإدخال المريض إلى المستشفى لبضعة أسابيع، وإجراء مناقشات متعمقة متكررة حول شعوره باليأس باستخدام أسلوب «كنس المدخنة» الذي استخدمه بروير مع بيرثا بابنهايم. قبل بروير توصيات فرويد بسهولة وأنهى حديثه معه بالقول: «لقد علّم التلميذ المعلم». لعل بروير استشهد بواحدة من أكثر عبارات نيتشه ذكاءً: إن بقاء التلميذ تلميذًا مكافأة سيئة للمعلّم.

لكن لم تُحدث توصيات فرويد التأثير المطلوب، لأنه عندما أثنى بروير على كتابات نيتشه، لم يرد الفيلسوف بوضوح. ولم يبدو راضيًا عن إجابات بروير الصريحة على الأسئلة الطبية الثلاثة. وبعد أن قال له إنه لم يخفِ عنه أي حقائق طبية، ذكّر بروير نيتشه بالعقد المبرم بينهما على الصدق المتبادل، فأجاب نيتشه بأن الحوار الذي لا يخفي شيئًا هو «جحيم». ثم بدأ «يبارك» مرضه، وقال: «كل ما لا يقتلني، يجعلني أقوى»، أكثر عباراته الشهيرة التي لا تُنسى. وردًّا على سؤال حول ما إذا كان المرء يختار المرض، أجاب نيتشه: «لست متأكدًا. ربما يختار المرء المرض. إن ذلك يتوقف على من هو «الشخص». فالنفس لا تعمل باعتبارها كيانًا واحدًا. وقد تعمل أجزاء من عقلنا بمعزل عن الأجزاء الأخرى. وربما شكّلت «أنا» وجسدي مؤامرة من وراء ظهر عقلي. كما تعرف فإن العقل مغرم بالأزقة الخلفية والأبواب السرّية». يُدهش بروير من التشابه اللافت بين مقولة نيتشه وفرويد. وينقل يالوم لقرائه دراما اكتشافه من تاريخ الأفكار أن نظريتين متشابهتين على نحو مثير للدهشة قد تنشأ كل واحدة منهما مستقلة عن الأخرى.

لكن على الرغم من اعتراف نيتشه بالحاجة إلى فك ألغاز العقل، فإنه لم يبدِ اهتمامًا بمناقشة لا وعيه الباطن. ورفض نيتشه توصيات بروير- فرويد بشدة. وزعم أنه يعيش حياة خالية من التوتر، بعد أن بدأ يعيش حياة الترحال، وأن كلّ ما يشعر به من يقظة عصبية مفرطة ضرورية لعمله. ورفض نيتشه فكرة المعالجة في المستشفى لأنه لا يريد أن يمضي وقتًا أطول في فيينا الباردة. كما رفض عرض بروير بأن يعالجه دون مقابل، لأن ذلك

سيجعله مدينًا للطبيب.

استخدم بروير كل ما لديه من أساليب لإقناع نيتشه بأن يقبل المساعدة التي سيقدمها له، بما في ذلك اقتباس كلمات الفيلسوف من كتابه «إنسان مفرط في إنسانيته»، «إن الملاحظة النفسية هي من بين الوسائل التي يستطيع المرء من خلالها التخفيف من عبء الحياة». وافق نيتشه على أنه أمضى حياته وهو يجري هذا التشريح النفسي، لكنه لا يريد أن يكون موضوعًا للطبيب. ثم طلب الفيلسوف أن يعرف «ما هو دافعك في مشروع العلاج هذا»؟ فقدّم بروير عدة إجابات مراوغة لم تكن أي منها مرضية. فلم يستطع أن يكشف عن ثلاثة من دوافعه لرغبته في علاج نيتشه: افتتانه بجمال لو سالومي في فينيسيا، وحبّه لموسيقى فاغنر الذي قرأ بريوير رسالته إلى نيتشه دون موافقته، وشغفه بالتحدّي الفكري المتمثّل في الاقتراب من العبقرية. لم يستطع بروير أن يفكّر إلّا في تفسير واحد يمكن أن يوافق عليه نيتشه. مقتبسًا عبارة نيتشه «كن ما أنت عليه»، أكد بروير أن قدره أن يساهم في العلوم الطبية وتخفيف المعاناة. ثم أضاف أن قدر بروير قد يتمثل في مساعدة نيتشه على أن يصبح ما هو عليه. بشكل غير متوقع، رفض نيتشه بازدراء هذا التفسير الذي وجد أن يعمل لخدمة نفسه ومصلحتها. «وإذا كنت، كما تقول، سأصبح عظيمًا، فأنت باعتبارك محفزًا لي، ومخلصي، ستصبح أعظم»، ثم خرج من مكتب بروير المندهش وأنهى العلاج.

استدعى صاحب النُّزل الذي يقيم فيه نيتشه بروير بعد بضعة أيام، وأبلغه أن نيتشه انهار في غرفته من جرعة زائدة من هيدرات الكلورال. تماثل نيتشه للشفاء بمساعدة بروير، لكنه أصرّ على أن يدفع للطبيب مقابل خدماته ويغادر فيينا على الفور. « لم تتغير مشاعري حول الديون وتسديدها». حاول بروير مرة أخرى أن يبقي نيتشه في العلاج، مدركًا أنه لا يستطيع مجاراة ذكاء الفيلسوف. لكن نيتشه رفض أن يغيّر رأيه، ثم اعترف بعد أن لان قليلًا في كلامه، بأنه لم يلتق بطبيب قط مثل بروير. وقال نيتشه إنه إذا كان بروير يريد أن يعرف لماذا فكرة الامتنان مخيفة إلى هذه الدرجة، على الطبيب أن يقرأ

كتبه التي تضرب بجذورها في جوهره، ثم غادر نيتشه، وشعر بروير بأسف شديد.

الامتنان والانتقام

يمكننا أن نقبل دعوة نيتشه لقراءة كتبه وننتقل بإيجاز إلى كتاباته عن الشعور بالامتنان. فلم يخصص كتابًا كاملًا عن هذا الموضوع المثير للقلق، لكنه أشار إلى الامتنان باقتضاب في كتاباته. ويظهر أول ذكر له في كتاب «هو ذا الإنسان» الذي نُشر عندما كان في الرابعة والثلاثين من عمره. «يشعر الرجل القوي بالامتنان للسبب التالي: فمن خلال عمله الصالح، يكون المانح قد انتهك مجال الرجل القوي واخترقه. ومن خلال امتنانه، يجازي الرجل القويّ نفسه بانتهاك مجال المانح. إنه شكل أخف من أشكال الانتقام».

يشير نيتشه إلى أن الامتنان يحدث بدافع رغبة سرّية في كشف واستغلال ضعف شخص آخر بالتأكيد على مكانة دونيته. وفي عالم نيتشه، فإن الذين يقدّمون الامتنان ويتلقونه، الرجل القوي والمانح، على التوالي، منخرطون في صراع على السلطة يقبع تحت القشرة الرقيقة للحضارة، ولا يعترف الخصمان أبدًا بحربهما السرّية. ويميّز الخداع والنفاق هذه العلاقة العدائية التي تحدث من وجهة نظر نيتشه، تحت ستار الأخلاق. فالشيء الذي يبدو «خيرًا» هو في الواقع شر، على الأقل بالنسبة إلى الشخص الذي يكون ضحية الامتنان. ويرى نيتشه نفسه كاشفًا لهذه الحرب السرّية التي يقرّها المجتمع ويسمح بها. إن هجومه على الامتنان يشكّل جزءًا من هجومه الأكبر على المسيحية التي أصبح يربطها «بأخلاق العبيد».

تُثار أسئلة عديدة من وجهة نظر نيتشه الساخرة لامتنان المانح، وهو جزء من تأويله للشك. ألا توجد دوافع أكثر إيثارًا في الامتنان؟ هل الامتنان دائمًا شكل من أشكال الانتقام؟ ماذا يحدث عندما يكون مانح الامتنان ومتلقي الامتنان متساويين في القوة؟ قليلون هم الذين يمكنهم أن يشكّوا في أن الامتنان يمكن أن يصبح في بعض الأحيان عبئًا، لكن لماذا يؤكد نيتشه أن

الامتنان لا تحركه إلّا الأنانية؟

عقد صفقة

رافضًا التخلّي عن فكرة علاج نيتشه، حاول بروير محاولة أخيرة عندما عاد الفيلسوف لفترة قصيرة إلى العيادة الطبية ليسدد الفاتورة المترتبة عليه، واستلام تقريره الطبي. اقترح بروير أن يتبادلا عملًا مهنيًّا فريدًا من نوعه، تبادل مهني لم يحدث في تاريخ الطب - أو حتى في الرواية. يكمن هذا التبادل المهني في صميم رواية يالوم. فيقترح بروير أن يعالج نيتشه لمدة شهر من الصداع النصفي الشديد المتكرر في العيادة دون أن يدفع المريض أي تكاليف، وفي المقابل، يعالج نيتشه بروير، ويقوم بدور الطبيب ليشفي روحه المريضة. مندهشًا، لم يستطع نيتشه أن يتخيّل ما الذي يقصده بروير. ولأول مرة في حياته، كشف بروير عن طبيعة ألمه. لا يبدو شعوره باليأس ظاهرًا على السطح لأنه يبدو أنه يعيش حياة طبيعية جيدة، أما تحت السطح، فاليأس هو الذي يسود:

«إنك تسأل أي نوع من اليأس؟ لنقل إن عقلي ليس عقلي، وإن أفكارًا غريبة وحقيرة تهاجمني وتغزوني. ونتيجة لذلك، يتملكني شعور باحتقار الذات، ويساورني الشك في نزاهتي. فمع أنني أحيط زوجتي وأطفالي بالرعاية، فأنا لا أحبهم في الحقيقة، أشعر بالامتعاض لأنني سجين لهم. إني أفتقر إلى الشجاعة: الشجاعة لتغيير حياتي أو لمواصلة العيش فيها. لم أعد أرى السبب الذي يجعلني أعيش - هذا كل ما في الأمر. إني مهموم من أجل الشيخوخة. وعلى الرغم من أنني أقترب من الموت كل يوم، فإني أشعر بالخوف منه. وفي بعض الأحيان، تتسلل فكرة الانتحار إلى عقلي».

بداية، لم يكن اعتراف بروير إلّا تعبيرًا عن ازدواجيته تجاه زوجته وأطفاله، وهو موضوع لم يكن لدى نيتشه المنزوي الذي لا يوجد لديه أطفال أي معرفة شخصية به، لكن بروير يدرك أن إشارته إلى شعوره بأن «أفكارًا غريبة

وحقيرة» تغزوه لا بد أن تثير فضول نيتشه الذي يعمل على صياغة نظريته عن اللا وعي. ومن المرجح أيضًا أن يثير اعتراف بروير باحتقار ذاته اهتمام نيتشه، وهو موضوع يعرفه حق المعرفة. فما يزال بروير يخجل من الإفصاح عن حبّه الهوسي ببيرثا بابنهايم، لكنه يفصح عما قد يكون بالنسبة إلى يالوم الخوف المركزي في الحياة، الرهبة الوجودية من الاقتراب من الموت.

إلى أي مدى يشكل هوس بروير «بآنا و.» انعكاسًا للهوس الذي يتحدّث عنه يالوم في «جلّاد الحب» عندما صادف امرأة في مؤتمر استأثرت بأفكاره وأحلامه؟ يعترف يالوم بأنه «أحبّ في البداية هذا الهوس واستمتع بمذاقه مرات كثيرة»، لكنه تمكن في النهاية من السيطرة على حياته، وأفسد «الواقع الغني» للوجود. نتذكّر أن هذا الهوس المظلم جعل يالوم يعود إلى العلاج النفسي حتى تمكن من استعادة السيطرة على حياته. ومن المفارقة، أنه بينما كان يتلّقى العلاج على يد معالج نفسي، كان المعالج نفسه مهووسًا بامرأة كانت مهتمة بشخص آخر. هذه هي الحالة في رواية «عندما بكى نيتشه».

الدوافع وراء الاعتراف

ما هو الدافع الكامن وراء اقتراح بروير؟ هل كان صادقًا أم مخادعًا في اقتراحه لهذا التبادل المهني؟ من المسلّم به أن الخطة تنطوي على عنصر من الازدواجية لأنه لا يذكر أن لو سالومي هي التي طلبت منه ذلك، أو أنه مثل نيتشه، وقع تحت تأثير سحرها. وبعد أن رأى تأثير كلماته على نيتشه، هنأ بروير نفسه على الفخ المحكم الذي نصبه. مستغلًّا شكوك نيتشه في الطبيعة البشرية، قال للفيلسوف ما يرغب في سماعه. وكان بروير يعرف أنه إذا أراد أن يُقبل اقتراحه، عليه ألَّا يشدّد على الطبيعة الغيرية لهذا التبادل المهني. «دافعي أنانيٌّ بحت. أحتاج إلى مساعدة. هل أنت قويٌّ بما يكفي لمساعدتي؟»

إن يأس بروير حقيقي، وكذلك إعجابه بنيتشه. يستطيع القارئ أن يلمس بحث الطبيب عن الخلاص من هاجسه الرهيب مع بيرثا بابنهايم.

كما يعرف نيتشه، يعرف يالوم أيضًا أن الدوافع معقدة، مرجل من الدوافع الغيرية والمصلحة الذاتية. ربما أراد بريوير أن يمارس سلطته على نيتشه، لكنه كان يريد أيضًا أن يستفيد من سلطة الفيلسوف. قبل نيتشه عرض بروير، وهكذا هيأ يالوم ببراعة المسرح لعلاج غير مألوف يقوم على الإفصاح المتبادل عن الذات - وهو أمر غير مألوف لبريوير، لكن ليس ليالوم الذي استخدم نسخة منه في كتابه «كل يوم يقترب قليلًا»، الذي كتبه بالاشتراك مع جيني إلكين عندما كان كل واحد منهما يكتب تقريرًا عن كل جلسة علاج، ثم يتبادلانها.

فن العلاج النفسي

لكن الخطر كان يحدق بنيتشه ويالوم معًا. كيف حاول نيتشه أن يطبّق فلسفته الجريئة على طبيب يبحث عن نصيحة عملية حول كيف يمكنه أن يعيش؟ كيف حاول يالوم أن ينقل نيتشه إلى القرّاء دون تدجين الأفكار المعقدة؟ إن المشكلة شاقة ومعقدة لعدة أسباب. كيف يمكن لروائي أن ينقل لغة من الأمثال والمقولات البليغة، المليئة بالغموض والمفارقات والتناقضات دون التضحية بعناصر الرواية الأخرى: رسم الشخصيات، والحبكة، والسخرية، وإبداء وجهة النظر؟ كيف يمكن لأحد أن يصوغ رواية أفكار لا تتسم بالذهنية؟ كيف يتجنب الروائي التلقين؟

تتمثّل إحدى الطرق التي يتجنب بها يالوم مشكلة التجريد في إغراقنا في تفاصيل مدينة فيينا في أواخر القرن التاسع عشر، مهد التحليل النفسي. ويستخدم الروائي ما يطلق عليه عالم الأنثروبولوجيا كليفورد غيرتز اسم «الوصف الكثيف» لإعادة خلق الروح الثقافية والفكرية للحياة في فيينا. ويصف لنا يالوم بالتفصيل العيادة الطبية التي عولج فيها نيتشه من داء الشّقيقة، ويسرد لنا الأدوية التي وُصفت لنيتشه التاريخي. ويصوّر يالوم المقهى حيث يشاركنا بروير تفاصيل عن أستاذه المصاب بالصداع النصفي

الشديد مع فرويد، ثم ينقل الروائي شخصيتيه إلى مقهى ديميل الأسطوري الذي تُباع فيه المعجنات في فيينا والذي أُسس في عام ١٧٨٦ حيث كان بروير يستمتع بتناول تورتة الشوكولاتة ويستمتع فرويد بتناول تورتة الليمون مع شلاغ.

أما الطريقة الأخرى التي تجنب بها يالوم التجريد فهي تأصيل الصراع في الرواية. فقد ارتاب فرويد عندما أخبره بروير عن الصفقة الرائعة التي أبرمها مع الفيلسوف. « لقد أوقعته في الفخ عندما اقترحت عليه أن يبدأ في شفاء الحضارة الغربية وذلك بالبدء بعينة واحدة - وهي أنت؟» قد تبدو هذه الاستراتيجية مثيرة للسخرية، لكن هذا ما حاول أن يفعله بروير التاريخي في دراسته لحالة آنا و. إن خطة العلاج المتطورة التي وضعها بروير المتخيل لإقناع نيتشه لمساعدته بينما يستدرج الفيلسوف ببطء لأن يؤدي دور المريض، تزخر بالمفارقات التي لا يستطيع الطبيب أن يتخيلها بعد.

وثمة طريقة أخرى تجنب فيها يالوم التجريد من خلال تعقيد وصف الشخصيات. فعلى الرغم من رؤيته العميقة في علم النفس، كان فرويد التاريخي يفتقر إلى Menschlichkeit، أي فهم الخصائص التي تجعل المرء، إذا استخدمنا الكلمة الألمانية/ اليديشية، رجلًا. ومثل فرويد التاريخي، يظهر فرويد المتخيل ساذجًا ومتزمتًا من الناحية النفسية عندما يصرّ على أن يخبر خطيبته مارثا كل شيء - وأنه لم يتخيّل قط امرأة أخرى من الناحية الجنسية. يبدو بروير متغطرسًا عندما يتخيّل أن نيتشه سيقع بسهولة في دور المريض المطيع. لم يكن بروير قد أدرك بعد أن حالته في بعض النواحي أكثر بؤسًا من حالة نيتشه. فحالة بروير معقدة لإحساسه الشديد بالنزاهة الذي تعرض للخطر، وربما على نحو قاتل، بسبب تواطئه مع لو سالومي. كيف يمكنه أن يتصرف بشرف في ظل ظروف علاقته مع الفيلسوف؟ ويأتي نيتشه - كما لو كان نيتشه، وهو ما يحسب ليالوم بوصفه روائيًا كبيرًا.

قليلون هم العباقرة في التاريخ الذين عانوا من نقاط عمياء أكثر مما عاناه نيتشه، ويبقى نيتشه نبيلًا في روحه مع أنه معذب. فقد كان «عديم الأخلاق

العظيم»، كما كان يحلو له أن يطلق على نفسه في كتاباته، مهذبًا ومحترمًا في سلوكه مع الآخرين بشكل لا مثيل له، وربما لم يرتكب قط أي تصرف غير أخلاقي.

لقاء العقول

بوصفه طبيبًا، كان بروير متسلطًا وواثقًا من نفسه، وبوصفه مريضًا، كان مرتبكًا ومقاومًا. فلم يحب نهج نيتشه السريري المنهجي، مع أنه كان يتبع النهج الذي وضعه هو. فقد شعر بروير بالاضطراب عندما أراد نيتشه أن يبدأ من المشكلة الأساسية وهي: الخوف من الموت. يدور بروير حول العلاج الذي لم يكن متأكدًا حتى ماذا يُسمّى - «ربما علاج اليأس أو علاج فلسفي، أو اسم لم يُخترع بعد».

في أعقاب ذلك، ابتكر بريوير ونيتشه المتخيّلين شكلًا جديدًا من أشكال العلاج، وهو العلاج النفسي، للتخفيف من حدة الصراع النفسي. وردًّا على سؤال نيتشه إن كان قد عالج مريضًا نفسيًّا، بدأ بروير يسرد قصة آنا و. لكن نيتشه أوقفه وقال إنه لا يريد أن يسمع أي شيء محرج أو مهين. هنا سلّط يالوم الضوء على تناقض صارخ بين شخصية نيتشه شديدة الخصوصية والسرّية وبين كتاباته التي تحثّ جميعها على الصدق والانفتاح. استطاع بروير إقناع نيتشه بضرورة سماع كل التفاصيل عن آنا و. مهما كانت موجعة. فبدأ يلخص استخدامه تقنية «كنس المدخنة» معها. قال بروير لنيتشه إن هذه التقنية ساعدتها على التحسن مؤقتًا، لكن لم يكن له أي تأثير على أعراضها الهستيرية. ثم حكى بروير لينتشه كيف أنه اكتشف علاجًا فعالًا عندما تتبّع كلّ أعراضها إلى ما كان يظن أنه المصدر الأصلي، وهو موت والدها. كان هذا الاكتشاف استثنائيًّا بالنسبة إلى نيتشه، فأوصى بروير بأن يطبّق هذه التقنية على نفسه، لكن بروير رفض ذلك لأنه ادّعى أن الهستيريا مرض نسائي، ولأن التنويم المغناطيسي لن يؤثر عليه كما أثر عليها، ولأنه يعتقد أن تعاسته أقرب إلى القلق أو البؤس البشري الطبيعي.

نقطة تحوّل

عندما حكى بروير عن هوسه الجنوني ببيرثا بابنهايم، ردّ نيتشه بعبارة «ربما... لا يوقظ الرجل المرأة في المرأة إلّا لكونه رجلًا». هل يعني نيتشه هنا حقّ الطبيب في استغلال المرأة جنسيًّا؟ أن يستغل الرجل المرأة جنسيًّا؟ هل يعني أن جميع النساء إناث قاتلات كما يرى لو سالومي؟ تمنح هذه العبارة الغامضة بروير فرصة لتأكيد قسم أبقراط الذي يلتزم به التزامًا راسخًا، ثم يكشف أنه كان منجذبًا جنسيًّا إلى امرأة أخرى، وهي ممرضته السابقة إيفا بيرغر التي كانت مستعدة لتهب نفسها له «لكي تحرّر» رغبته المكبوتة بسبب انجذابه لبيرثا بابنهايم. كان نيتشه الذي بلغت عدم ثقته بالمرأة إلى حد كراهيتهن، ووصف إيفا بيرغر بأنها امرأة «مفترسة»، ورسّخ هذا المشهد مواقف الرجلين المختلفة بشكل لافت تجاه المرأة، وهي اختلافات ظلت بلا حل حتى نهاية الرواية.

وبينما كان بروير يعرّي روحه، ذكر أعراض الصراع العديدة التي يعاني منها، مثل الأفكار غير المرغوب فيها التي تزعجه والمشاعر التي تؤرقه كالغيرة. وطلب من نيتشه الذي يحمل بيده دفتر ملاحظات أن يضيف هذه الرذائل إلى قائمته المتزايدة. يوجد شيء مضحك في قائمة نيتشه التي دوّنها عن عيوب شخصية بروير. فلم يُخفِ الطبيب سوى أشياء قليلة، منها استمتاعه بالسلطة الممنوحة له بحكم مهنته. ومع أن اعتراف بروير كان بدافع رغبته في إقناع نيتشه بأن يعترف، فوجئ الطبيب «بسهولة - لا بل بالإثارة - الكشف عن هذا القدر الهائل». تُمثّل الجلسة نقطة تحول في علاقتهما. ثم دوّن كلّ منهما ملاحظاته عن الآخر، كما فعل يالوم وجيني في كتاب «كل يوم يقترب قليلًا». إذ تكشف ملاحظات العلاج النفسي بين بروير ونيتشه عن وجهات نظر متباينة إلى درجة كبيرة، كما حدث في كتاب «كل يوم يقترب قليلًا». إذ يعلّق بروير على «النقاط العمياء المذهلة» لنيتشه ومشاعره «الهمجية التي لم تكن إنسانية تقريبًا» تجاه المرأة؛ بينما علّق نيتشه

على استعداد بروير «للخوض في ذلك الوحل» عندما تعلّق الأمر بالمرأة. وخُيِّل إلى كل واحد منهما أنه يعرف الآخر - وأن كلًّا منهما سيفاجئ الآخر. وخلال جلستهما التالية، حكى بروير أحلامه المضطربة، واتفق الرجلان على أنهما كلاهما مفتونين بهذا الموضوع. ومضت سنوات قبل أن يصدر فرويد التاريخي مقولته التي يُستشهد بها كثيرًا بأن الأحلام هي الطريق الملكي إلى اللا وعي، لكن بريوير ونيتشه في رواية يالوم يستبقان رؤيته هذه. ويكشف بريوير عن عدد من نقاط ضعفه وإخفاقاته الكثيرة التي دوّنها نيتشه في دفتر ملاحظاته.

بوصفه طبيبًا نفسيًّا متعاطفًا، ذكّر نيتشه بروير بأنه يجب ألّا يكون قاسيًا على نفسه. استمع بروير الذي أُحبط من رفض نيتشه الإفصاح عن مخاوفه، بفارغ الصبر عندما بدأ الفيلسوف يلقي عليه محاضرة حول ضرورة أن يتحلّى المرء بشجاعة قناعاته: «يجب أن يحمل المرء في داخله فوضى وجنونًا لكي يلد نجمًا راقصًا». ربما كان من الممكن أن يذكّر نيتشه أيضًا بروير بأن يتحلّى بالشجاعة لكي يتغلب على قناعاته الخاصة، واعتبر بروير المديح مجردًا إلى درجة كبيرة، لكنه وافق على أن ينظر إلى حياته من منظور مختلف، وهو حجر الزاوية في فلسفة نيتشه الذي قال لبروير لاحقًا: «إن الرؤية الكونية تخفف دائمًا من وطأة المأساة. فإذا صعدنا عاليًّا بما يكفي، فإننا نصل إلى موضع تفقد فيه المأساة طابعها المأساوي».

كان تحوّل نيتشه من فيلسوف إلى عالم نفس سريري أحد انتصارات يالوم الفنية. فقد هتف بروير بإعجاب: «لقد نمت لديك أذنا طبيب. لا يفوتك شيء». ولا شيء يفوت يالوم أيضًا، بما في ذلك تقديم تفسير معقول لتناقض بريوير حول التقدم الذي أحرزه في حياته المهنية. تكهّن بريوير في رواية يالوم بأنه تأخر في كتابة المقالات العلمية ونشرها خوفًا من المنافسة، وخلص بحزن إلى أن إحباط مسيرته الأكاديمية كان «أول جرح للفناء، أول اعتداء على أسطورة الوعد اللا متناهي».

تتمثّل استراتيجية نيتشه في علاج بروير في إرجاع هوسة ببيرثا بابنهايم

إلى المخاوف الوجودية الأساسية: عدم عودة الزمن إلى الوراء، وأوهام الوعد اللا نهائي، واقتراب الموت. وقد قاوم بروير عملية «كنس المدخنة»، وفضّل أن يكون المشرف على عملية كنس المدخنة وليس الكانس. وازداد شعوره باليأس عمقًا، الأمر الذي شكّك في جدوى العلاج بالكلام. وعلى الرغم من ذلك، بدا أن صحة نيتشه بدأت تتحسّن، ربما بسبب دوره الجديد كمعالج، وبدأ الشك يراود بروير في أنه قد تكون لدى نيتشه القدرة على شفائه إذا وثق بروير بسلطة الفيلسوف.

تُجسّد جلسات يالوم العلاجية في رواية «عندما بكى نيتشه» خطاب الفيلسوف الشاعري وتصريحاته المحطمة للأيقونات، وفكاهته الساخرة. لا نشعر قط أن الروائي يضع على لسان شخصيته قائمة من العبارات الشهيرة أو سيئة السمعة التي استمدها من كتب نيتشه. يذكّر بروير العلماني «إذا قتلت الله، يجب أن تغادر أيضًا ملجأ معبدك». وحث بروير قائلًا: «كن صلبًا. فأنت لست بقرة، وأنا لستُ رسولًا يمضغ الضرع». عندما اعترف بروير بأن عشقه لبيرثا بابنهايم دفعه للتفكير بالانتحار، ذكّره نيتشه بأن جميع المفكرين الجادين يفكّرون في الانتحار. «إنها راحة تساعدنا على تجاوز الليل»، وعندما استخدم بروير كلمة النعيم في وصف حبّه الهوسي لبيرثا بابنهايم، أجابه نيتشه بأننا «نحبّ الرغبة أكثر مما نحبّ المرغوب فيه».

نيتشه المعالج

تعكس رواية «عندما بكى نيتشه» أفكار يالوم المركزية حول الطب النفسي الوجودي، وهي أفكار تكون أقرب في بعض الأحيان إلى الفلسفة النيتشوية منها إلى التحليل النفسي الفرويدي. بخلاف فرويد الذي كان يرى أنه يكتشف حقائق ثابتة تنطبق على الجميع، أكدّ نيتشه على أهمية المنظور، إذ إن تغيير المنظور يغيّر الحقيقة. وبسبب عدم ثقته في أي نظام يتبنى الحقيقة الكونية، اعتنق يالوم الذاتية النيتشوية. فقد كانت إحدى العبارات النيتشوية

الأثيرة لدى يالوم هي العبارة الأثيرة لدى فرويد أيضًا، وهي عبارة تنبئ باكتشاف المحلل النفسي للكبت. تقول ذاكرتي: «لقد فعلتُ ذلك. لا يمكن أن أكون قد فعلت ذلك. يقول كبريائي، ويبقى مصرًا على ذلك. وفي النهاية - تستسلم ذاكرتي» (ما وراء الخير والشر). ويؤكد يالوم على المجازفة النيتشوية. فلم يكن أحد أكثر جرأة من نيتشه في التحديق إلى الهاوية - وهو مستعد لقبول العواقب. فهو يقول بجفاف في كتابه «ما وراء الخير والشر»: «من يحارب الوحوش: «يجب أن يحرص على ألّا يصبح هو نفسه وحشًا. وعندما تحدّق طويلًا إلى الهاوية، فإن الهاوية تحدّق إليك أيضًا».

يؤيد يالوم وصية نيتشه بالعيش بلا خوف - والموت بلا خوف. «يموت الكثيرون في وقت متأخر جدًّا، ويموت البعض في وقت مبكر جدًّا، لكن الغريب في الأمر أن نيتشه يقول: «مت في الوقت المناسب» (هكذا تكلّم زرادشت). يعجب يالوم بإراقة الدم النيتشوي: «من بين كل ما هو مكتوب، فإني لا أحبّ إلّا ما كتبه الإنسان بدمه. اكتب بالدم، وستجد أن الدم روح» (هكذا تكلّم زرادشت). وهو معجب برفض نيتشه تأييد الدين الغيبي، ويتفق مع مقولة نيتشه ربما الأكثر اقتباسًا: «كلّ ما لا يقتلني، يجعلني أقوى». وبعكس فرويد الذي وُلد في الوقت المناسب، أدرك نيتشه أنه «وُلد قبل أوانه»، الرجل الذي ظلت أفكاره مثيرة للجدل حتى بعد مرور أكثر من قرن على وفاته. وكما أشار روبرت سولومون، توجد لدى نيتشه قائمتان قصيرتان من الفضائل، إحداهما في كتاب «الفجر» حيث يؤكد على «الصدق والشجاعة والكرم والأدب»، والأخرى في كتابه «ما وراء الخير والشر»، حيث تكون القائمة مختلفة قليلًا: «الشجاعة ونفاذ البصيرة والتعاطف والعزلة». يتفق يالوم مع كلّ هذه الفضائل مع أنه يركّز على العزلة بقدر أقل مما فعل نيتشه. ويغيب عن قائمة نيتشه التعاطف الذي يقدّره سولومون كثيرًا في رواية «عندما بكى نيتشه». وأثنى سولومون على «التخييل التعاطفي الرائع» الذي قدمه لنا يالوم والذي أتاح لنا «المشاعر الحميمة مع نيتشه ومعرفة تفاصيل حياته الحزينة والوحيدة التي لا يستطيع أن يستخلصها المرء

بسهولة من أعماله المنشورة الهلوسية والجدلية».

لم يمنع إعجاب يالوم بنيتشه من رؤية النقاط العمياء الكثيرة لدى الفيلسوف. ويالوم هو أقرب إلى مزاج بروير منه إلى مزاج نيتشه. إذ يظل بروير منفتحًا وودودًا بطبعه، مثل يالوم، بخلاف نيتشه الكتوم والمنعزل الذي لا يستطيع أن يتحمل أن يكون في صحبة الآخرين. ويعترف بريوير بسهولة بأنه ارتكب أخطاء، كما يفعل يالوم، وهي صفة أقل وضوحًا في نيتشه. لا يقلل يالوم من عدم ثقة نيتشه بالمرأة، الذي كاد يخفف من حدته في نهاية القصة. وعلى الرغم من كل جرأته، ظلّ نيتشه متزمتًا من حيث المتعة الجنسية، وهو ما احتفى به يالوم وبروير. ولا يمكن أن تكون طريقة نيتشه الحيادية والبعيدة والمنعزلة في علاقته مع الآخرين أكثر اختلافًا عن موهبة يالوم في العلاقات.

المنظورية

تتمثّل إحدى الاستراتيجيات العلاجية الأولى لنيتشه في مهاجمة حب بروير الهوسي لتغيير وجهة نظره عن بيرثا بابنهايم. وقد أصرّ نيتشه على أن يدوّن بريوير قائمة بعشر إهانات ثم يلقيها عليها. تخيّل أن تعيش مع هذه المعاقة، كما قال له نيتشه، وأن تجلس معها إلى مائدة الإفطار، وساقاها وذراعاها متشنجتان، «حولاء العينين، خرساء، وبكماء، رقبتها مائلة، مهلوسة وتتلعثم». تستند هذه الاستراتيجية العلاجية التي تذكّرنا باستخدام يالوم علاجًا مناقضًا عندما ساعد فيليس على التغلب على رُهاب الخلاء في مجموعة «جلّاد الحب» إلى أحد معتقدات نيتشه الأساسية وهي: الناس ممتلئون بالاستياء (يستخدم الكلمة الفرنسية (ressentiment)، والعداء الناشئ عن الغضب والعدوان الذي لم يعبّر عنه. وعلى الرغم من ذلك، لم تنجح أي تجربة من تجارب نيتشه في «إخراج السحر من صورة بيرثا». يخلص الرجلان إلى أن الهجوم على أعراض بروير باء بفشل ذريع، ويجب

إيجاد وسيلة علاجية أخرى يشعر فيها المريض والمعالج بالارتقاء، وليس الانحطاط.

رسل المعنى

ابتكر طبيبا اليأس في الفصل التالي استراتيجية أكثر نجاحًا. فقد اقترح نيتشه أن فشلهما الأخير كان لأنهما كانا يبحثان عن أصل العَرَض وليس عن معناه. «قد تكون الأعراض رسل معنى ولن تختفي إلَّا عندما تُفهم رسالتها». ثم عاد نيتشه وجلس في كرسيه وراح يشذّب شاربه - وهي لحظة ارتياح هزلية في مشهد مشحون بالطاقة الفكرية. وفي الصفحات القليلة التالية، شرع بروير في كنس المدخنة، وهي عبارة أخرى لاستخدام التداعي الحر، وهي تقنية اكتشفها بروير ونيتشه معًا في رواية يالوم.

يؤدي الفيلسوف دور المحلل بإتقان، مشجعًا صراع بريوير الصعب لفهم معنى التعويذة التي ألقتها عليه بيرثا بابنهايم. فهي تستحضر في ذهن بريوير الرغبة والسحر، والعاطفة الشهوانية، بالإضافة إلى الهروب من فخ الزمن. كيف وقع بروير في الفخ؟ يعترف بأنه يتوق إلى الهرب من حياته الحالية التي يجد أنها خانقة. يتفق الرجلان على أن العيش بأمان أمر خطير - وهي فكرة نيتشوية أساسية. ويعترف بروير بأنه يشعر في حضور جمال بيرثا، في «أحشاء الأرض - في مركز الوجود». يتخيّل شفتيها تغشاهما نصف ابتسامة حنونة، في ردّه على سؤال نيتشه المستبصر، العالم بالغيب، فيذكّره بابتسامة زوجته لابنهما، وبابتسامة فتاة كانت قد ابتسمت له عندما كان مفتونًا بها قبل ثلاثين عامًا. ويسأله نيتشه سؤالين إضافيين، فيجيب عن السؤال الثاني، «ومن غيرها؟ هل نسيت ابتسامة أمك؟ فيذكّر بروير نيتشه بأن أمه ماتت وهي في الثالثة والعشرين من عمرها بعد أن أنجبت شقيقه الأصغر، عندما كان في الثالثة من عمره، وهي معلومة سنكتشفها في الفصل التالي من الرواية. هنا أدرك نيتشه الأهمية الساحقة لفقدان الأم، وهي نظرة ثاقبة لم تدرك حتى

النصف الثاني من القرن العشرين.

خلال هذا المشهد الحاسم، يخاطب الرجلان أحدهما الآخر باسمه الأول، ولأول مرة، يكشف نيتشه كيف أن الصداع النصفي حرّره من منصب الأستاذية الذي كان يرى في سريرته أنه حكم بالإعدام، وهو اعتراف أطلق عليه فرويد لاحقًا اسم «المكسب الثانوي من المرض». ثم أظهر بروير لنيتشه صورة بيرتا بابنهايم وهي في ثياب ركوب الخيل تحمل بيدها سوطًا طويلًا. وفجأة تبادل الرجلان الأدوار، فقال نيتشه: «إنها امرأة رائعة الجمال يا جوزيف»، وأضاف، «إنها فائقة الجمال - لكنّي لا أحبّ النساء اللاتي يحملن سياطًا».

وبقدر أهمية كنس المدخنة، فإن العلاقة بين المريض والمعالج تحظى بأهمية أكبر - وهنا يعبّر بروير ونيتشه عن موضوع يالوم المألوف. إذ يلاحظ بروير أهمية «العلاقة» مع أنه يدرك بحسرة أن مراقبة العلاقة ليست سهلة عندما تكون جزءًا منها. وفجأة ازداد الأمل في حياته. فبدلًا من التنافس مع نيتشه ونصب الفخاخ له، نعم بروير بالدفء الجديد في علاقتهما، واستشعر بروير أيضًا ظاهرة المثالية. «ما الذي يمثّله نيتشه بالنسبة إليّ، كنت أمثّله أنا بالنسبة إلى بيرثا». ويدرك أنه يجب استكشاف هذه المثالية، مع أنه لم يكن مستعدًّا للقيام بذلك بعد. ومن الغريب أن ينسى بروير مضمون مناقشتهما بعد مضي ساعة واحدة من جلسة العلاج. «هل يمكن أن يكون هناك شيء مثل نسيان نشط - نسيان شيء لا لأنه غير مهم، وإنما لأنه في غاية الأهمية؟» وقد ألمح يالوم هنا إلى دور المقاومة، النسيان اللا واعي للحقيقة المؤلمة.

شعر نيتشه أيضًا بالبهجة في جلسة العلاج النفسي. فقد تغيّر اتجاه مناقشاتهما بالكامل. يجب أن ينظر الرجلان إلى معنى العَرَض، وليس إلى أصوله البعيدة. «إن العَرَض ما هو إلّا رسول يحمل الأخبار بأن الغضب ينبثق من العالم الداخلي». كان نيتشه قد أدرك للتو معنى هوس بروير ببيرتا بابنهايم. «إنها المحرّرة العظيمة التي ترجئ حكم الإعدام».

المقبرة

في الفصلين التالين يرافق نيتشه بروير في زيارته الشهرية إلى القسم اليهودي من المقبرة المركزية في فيينا ليقدّم واجب العزاء لوالديه المتوفين، وشقيقه الوحيد الذي توفي منذ ثماني سنوات. وتُعد زيارة المقبرة المكان المثالي حيث يناقش فيها الطبيب والفيلسوف الموت، ولكي يوحي الروائي الحقيقة الوجودية التي تقول إن القلق ينشأ من إدراك فنائنا. واحترامًا لحاجة بروير إلى العزلة، سار نيتشه في درب تصطّف على جانبيه شواهد القبور المصنوعة من الجرانيت والرخام. وبعد بضع دقائق، لحق بروير برفيقه الذي كان يدندن وهو يسلّي نفسه بتأليف قصيدة: «مع أن الأحجار لا تسمع ولا ترى شيئًا/ فكلّ واحدة تبكي بصمت وتقول: تذكروني، تذكروني»، وقال نيتشه إن الماضي لم ينتهِ قط، تمامًا كما يبقى الموتى أحياءً بالنسبة إلى الأحياء. ويُعدُّ هذا الفصل أحد أكثر الفصول تأثيرًا في الرواية، فصل عاطفي مثير للذكريات. ويشرح بروير لنيتشه العادة اليهودية المتمثّلة في وضع حصى على شواهد القبور بمنزلة طقس لتخليد ذكرى الموتى، ثم قدّم تعريفه للحياة، «شرارة بين فراغين متطابقين، ظلام ما قبل الولادة، وظلام ما بعد الموت»، وهي فكرة شوبنهاورية (وأبيقورية) يعود إليها يالوم في رواية لاحقة.

يذكّرنا الحصى الموجود على شاهدة القبر اليهودي الذي يرمز إلى التذكّر بحاشية في كتاب «العلاج النفسي الوجودي» التي يذكر فيها يالوم رواية آلان شارب «شجرة خضراء في غيدي» التي صدرت في عام ١٩٦٥، والتي تصف مقبرة مكسيكية صغيرة تنقسم إلى قسمين، «الأموات» الذين ما تزال قبورهم، على حد تعبير يالوم، «مزدانة بالزهور التي وضعها عليها الأحياء» و«الموتى الحقيقيون» الذين لم يعد أحد يعتني بشواهد قبورهم - «لم تعد تتذكرهم أي روح حية». غالبًا ما يكون التذكر مُخادعًا، حتى لشخص يتمتع بذاكرة رائعة مثل يالوم: فهو يخطئ في كتابة الاسم الأول للروائي والكلمة الأخيرة من العنوان، ويشير إلى نفس الرواية في كتابه «التحديق إلى الشمس»

وقال: «لا بد أنه سيأتي وقت سيموت فيه آخر شخص حيّ يعرفني».

ينتظر «يالوم» حتى يأتي بطلا روايته إلى المقبرة ليكشف عن اسم أم بروير «بيرثا»، وهو نفس اسم إحدى بناته، لا يعتقد الطبيب أن لها علاقة بهوسه ببيرثا بابنهايم، لكن نيتشه لا يوافقه على ذلك. «عرفنا البارحة أن مخيلتك عن بيرثا تحميك من المستقبل، من أهوال الشيخوخة، والموت، والنسيان. وقد أدركت اليوم أن رؤيتك لبيرثا ملوثة أيضًا بأشباح الماضي». ففي حين يرى بروير أن علاقته مع بيرثا بابنهايم تشمل شخصين فقط، يشير نيتشه إلى خلاف ذلك، ويسأل: «كم شخص يوجد في هذه العلاقة؟» ويقترح يالوم أن الأشخاص المهووسين بشخص آخر قد يكونون مسكونين أيضًا بشبح من الماضي. لكن بروير لا يقتنع بذلك، ويصمت الرجلان، ويسرحان في أفكارهما.

طوال مشهد المقبرة، صوّر يالوم بشكل درامي مدّ وجزر أفكار شخصياته والديناميكيات المتغيرة في علاقتهما. ففي لحظة، يشعر كلّ واحد منهما بأنه قريب من الآخر، معتقدًا أنه يفهمه وأن الآخر يفهمه، وفي اللحظة التالية، يتراجع كلّ منهما عاطفيًّا عن الآخر، ويشعر بالعزلة، وسوء الفهم. مثل عازف بيانو بارع، يعرف يالوم كيف يعزف على الصمت، ويشير الصمت بين بروير ونيتشه أحيانًا إلى أنهما غارقان في التفكير، يتأملان أفكارًا لم تخطر لهما من قبل، مثل هل للأحلام معنى، واتفقا كلاهما على هذه المسألة، لكن بينما يحلم بروير بامرأة تنقذه من الموت، يحلم نيتشه بامرأة تقوده إلى الموت. كان صمتهما يشير أحيانًا إلى عدم رغبتهما في إثارة سؤال قد يكون مؤلمًا أو بالغ الصعوبة بالنسبة إلى الآخر، لذلك كان عليهما أن يتعلّما فن معرفة متى يطرحان سؤالًا: متى يتقدّمان، ومتى يتراجعان. ويخفي صمتهما أحيانًا ترددهما في التعبير عن غضبهما أو شكوكهما تجاه الآخر، خوفًا من أن يعرّضا علاقتهما التي بدأت تتطور للخطر.

تنكأ زيارة المقبرة جراح الطفولة المبكّرة لكلا الرجلين، فقدان بروير أمه عندما كان في الثالثة من عمره، وفقدان نيتشه أبيه عندما كان في الخامسة من

عمره. كيف يؤثر فقدان الوالدين المبكّر على الطفل في حياته اللاحقة؟ يقدّم يالوم تكهنات مقنعة حول السيرة الذاتية النفسية. إذ يشير نيتشه المتخيّل إلى أنه قد تكون وفاة أبيه المبكرة، وهو قسّ لوثري، ساعدت على نموه وتطوره كمفكّر. «هل كان بإمكاني، أنا، عدو المسيح، أن أطرد المعتقدات الزائفة وأبحث عن حقائق جديدة مع أب قسيس يمتعض كلما أنجزتُ شيئًا، أب يعتبر حملاتي ضد الوهم هجومًا شخصيًّا عليه؟».

ثم انتقل يالوم إلى فقدان بروير لوالدته عندما كان صغيرًا، مستشهدًا في ملاحظة المؤلف اقتراح جورج بولاك بأن استجابة بروير العاطفية القوية تجاه بيرثا بابنهايم ربما تأثّرت بوفاة أمه التي تحمل نفس الاسم. يكتب بولاك أن «أعمق دوافع بريوير بوصفه باحثًا نفسيًّا وإنسانًا» قد تشكلت من خلال «ارتباطه بأمّ شابة جميلة ماتت في أثناء الولادة عندما كان بين الثالثة والرابعة من عمره، فواجه خسارة كارثية في ذروة فترة أوديب». ويخلص بولاك إلى أنه عندما «هددت ارتباطات بريور الخارجية «بتفجر الصراعات المكبوتة والدفاعات القائمة، حدثت آليات الهروب التي شملت التجنب والانسحاب». ويقدّم يالوم نظرية بولاك باعتبارها تفسيرًا محتملًا لهوس بريوير ببيرثا بابنهايم. وقد أتاحت زيارة المقبرة المؤرقة ليالوم استكشاف مدى تأثير الفقدان المبكّر على حياة بطلي الرواية.

ثم انتقل الفصل إلى أفكار نيتشه عن الموت. إذ يحثّ الفيلسوف على «مت في الوقت المناسب»، وعندما أفزع ذلك بروير، أسهب نيتشه وقال: «عش عندما تعيش! فالموت يفقد رعبه إذا مات المرء عندما يكون قد استكمل حياته! وإذا لم يعش المرء في الوقت المناسب، فلا يمكن للمرء أن يموت في الوقت المناسب». ويثير نيتشه سؤالًا يحبط الرجلين، كما يوحي الحوار: «اسأل نفسك يا جوزيف: هل عشت حياتك بالكامل؟» يستبق سؤال نيتشه أحد موضوعات يالوم المميّزة، وهو الاعتقاد بأن القلق من الموت يتناسب عكسيًّا مع الرضا عن الحياة. إذ يكتب يالوم في مجموعته القصصية «جلّاد الحب»: «يكون الخوف من الموت دائمًا أشدّ لدى أولئك الذين يشعرون بأنهم

لم يعيشوا حياتهم بالكامل».

مرّت لحظات في فصل المقبرة كان فيها نيتشه رقيقًا ودافئًا، وظهر في لحظات أخرى واعظًا غاضبًا يقذف الصواعق. لقد صقل نيتشه التاريخي في كتاباته صوت النبي، في نثر لاذع وأسلوب حاد لا يتناسب دائمًا مع العلاج النفسي، ويعرف يالوم أن مؤلفي المرثيات الطويلة قد لا يدركون أنهم يستحوذون على قرائهم. وشعر نيتشه لاحقًا أنه كان قاسيًا جدًّا مع بروير، لكنه لم يكن متأكدًا إن كان بإمكانه أن يعامله بطريقة مختلفة. استخدم يالوم تشبيهًا ملائمًا لوصف علاقة نيتشه مع بروير: «يجب أن يكون الموجّه سياجًا بجانب السيل، لكن ينبغي ألّا يكون عكازًا». لقد جرفت أسئلة نيتشه المنهمرة كالمطرقة بروير للحظات كالسيل، فشعر بالدوار والإغماء، وأصبح على حافة الانهيار، وهي أعراض يعرفها نيتشه جيدًا. لا يُجمّل يالوم العلاج بالكلام: فهو ليس لضعاف القلوب. إن الاعتراف بالحقائق المؤلمة قد يسلب المرء أنفاسه، كما يكتشف بروير. ومع ذلك، يشير يالوم في هذا الفصل إلى أن المعالجين الفعالين قلما يستخدمون المطارق.

تقبّل بروير أهمية الموت في الوقت المناسب، والعيش حياة مكتملة كوسيلة للتغلب على قلق الموت، لكنه شكّ في فكرة نيتشوية أخرى، وهي فكرة العود الأبدي. وهي فكرة قديمة تُعدُّ حجر الزاوية في الفلسفة الهندية يبدو أن سبينوزا كان يؤمن بها، التكرار الأبدي، أو العود الأبدي، وهي الاعتقاد بأنه بما أن الزمان والمكان لا نهائيان، فإن كل ما سيحدث قد حدث للتو، وسيستمر في الحدوث مرة تلو الأخرى. يعكس بروير تشكيك يالوم في فكرة العود الأبدي. كما أن يالوم لا يبدي اهتمامًا بفكرتين نيتشويتين أخريين هما «إرادة القوة»، وهو عنوان كتاب يستند إلى كتابات نيتشه غير المنشورة التي ربما لم يكن ينوي نشرها، وفكرة الرجل الخارق (السوبرمان). وتظلّ كلتا هاتين الفكرتين النيتشويتين موضع إشكال.

جلسة غيبوبة بروير

مقتنعًا بأنه مدفون في وجود لا حياة فيه، يقول بروير لزوجته في الفصل التالي إنه سيتركها وسيترك أطفاله ومهنته. وبقبوله طلب نيتشه بالقطيعة النظيفة، يواجه بروير حرية مرعبة. من منظور كوني، كما يبرر ذلك، لن يحدث غيابه أي فرق لأي شخص. ويحاول أن يسير على خطى نيتشه، ويقول لنفسه: «من الأفضل أن تكسر الزواج على أن يكسرك». يبدو هذا القول صحيحًا، لكنه يبدو خاطئًا أيضًا. فقد أصرّ نيتشه التاريخي على عدم اتباع خطوات الآخرين من دون وعي، وقال في كتابه «العلم المرح»: «كن رجلًا ولا تتبعني - بل اتبع نفسك! اتبع نفسك». ودون أن يعرف ما الذي يفعله، استقلّ بروير القطار لزيارة بيرثا بابنهايم في مصحة سويسرية، لكنه عندما وصل، رأى أنها نقلت عواطفها إلى طبيب جديد. مذهولًا، رآها بروير تحاول إغواء الطبيب المثار الذي لم يستطيع مقاومة محاولاتها. يبدو أن كل شيء قد ضاع - إلى أن يسمع بروير صوت سيجموند فرويد الذي يحاول إيقاظه من غيبوبة جلسة تنويم مغناطيسي. وبغتة أدرك بروير، كما أدرك القارئ، أن الطبيب كان في غيبوبة بتأثير التنويم المغناطيسي، لا يتخيّل سوى أحداث الصفحات السبع عشرة السابقة. لم يفت الأوان بعد لأن يغيّر بروير حياته.

إذا كان هذا الفصل من رواية «عندما بكى نيتشه» يذكّر القرّاء بشبح عيد الميلاد الذي لم يأتِ بعد، الرؤية القاتمة للمستقبل التي واجهها «سكروج» في رواية «ترنيمة عيد الميلاد»، فإن ذلك يعود إلى إيمان يالوم بأنه يمكن للأدب والعلاج النفسي بطرقهما الخاصة تغيير حياة الشخص. فلدى بروير الوقت والدافع لاستعادة السيطرة على حياته. فحياة الترحال التي عاشها نيتشه والتنقل الخالية من العائلة والأصدقاء لا تناسب بروير، كما أن حياة بروير المنزلية من زواج وأطفال لا تناسب نيتشه. يجب على المرء أن يعتنق بطريقته الخاصة والفريدة من نوعها حبّ نيتشه للقدر الذي اعتبره الفيلسوف معادلة العظمة في الإنسان. فكل شخص سيصل إلى استنتاجات مختلفة حول الأمر «بـأن تصبح ما أنت».

لا يستطيع بريوير أن يتغيّر إلّا في حدود شخصيته، وعلى يالوم أن يعمل في حدود القيود التي تفرضها حياة بريوير الحقيقية. وقد تعلّم بروير الكثير من محادثاته مع نيتشه. فقد تعلّم أن يجعل قدره يحدث بإرادته، وأن يحبّ مصيره. وعندما شعر بدفقة من الحبّ والرغبة تجاه زوجته التي طالما تجاهلها، تعلّم بروير أنها هي أيضًا «مقاتلة في الحرب ضد الزمن». واقترح يالوم أن العدو الحقيقي هو القدر: الزمن، والشيخوخة، والموت. وقد تعلّم بروير أن يفصل صورة بيرثا بابنهايم عن الرموز والأطياف العابرة التي ربطها بها، وحرّر نفسه من الهوس الذي سيطر على أفكاره. وتعلّم أن يؤكد على ما أخفق في تقديره: زوجته وأطفاله وعمله. وتعلّم أن طريقه ليس طريق نيتشه، حياة الرائي الوحيد.

وفي الفصل الأخير، نقل بروير اكتشافه وتعافيه إلى نيتشه المندهش. كان بإمكان يالوم أن يتخيّل استجابة الفيلسوف بطريقة مختلفة. هل سيخيّب أمل نيتشه، أم أنه سيغضب من اختيار الطبيب البقاء في حياته الراهنة؟ هل سيفقد الفيلسوف احترامه للرجل الذي طريقه ليس مثل طريقه؟ هل سيبتعد بمرارة عن بروير كما انصرف عن لو سالومي وبول ريبه، مقتنعًا بأنه تعرّض للخيانة مرة أخرى؟ ربما كان من الممكن أن يتخيّل روائي آخر هذه السيناريوهات، لكن إيمان يالوم بإمكانية التغيير يقودنا إلى نهاية إيجابية أكثر. يقدّم لنا يالوم نيتشه السخي والشهم الذي يثني على المسافة التي قطعها بروير في تحليله لذاته. فكلّ واحد منهما معجب، من دون حسد أو استياء، بقوة الآخر. ويعترف بروير بأنه بخلاف نيتشه، لا يمكنه أن يحدّق طويلًا إلى الشمس، وعلى عكس بروير، يعترف نيتشه بأنه لم يجد الظل. وصادق كلّ منهما على تطلعات الآخر، وأكد على علاقتهما. لقد استوعب بروير حكمة نيتشه، وعندما استشهد بكلمات الفيلسوف - «أعرف أن مفتاح الحياة الجيدة هو أن نحبّ أولًا ما هو ضروري، ثم نحبّ ما هو مطلوب» - فإنه يذكّر الفيلسوف بأهمية حبّ مصيره الذي سيكون موضوع كتابه التالي.

لكن كتاب يالوم نفسه لم ينتهِ بعد، وفي ذروة الرواية العاطفية، اعترف

كل واحد منهما بأنه خان الآخر. وعترف نيتشه بأنه مع أنه كان يبوح في أحيان كثيرة في رسائله بما يجيش في نفسه، فقد كان يبتعد خجلًا عندما يلتقي بالناس وجهًا لوجه، ولم يكن يسمح للآخرين بأن يبوحوا له بأعبائهم. «لم أكن مستعدًّا لتحمّل دين المعاملة بالمثل».

ويعترف نيتشه أيضًا أنه كلما وصف بروير هوسه ببيرثا بابنهايم، كان يفكّر بهوسه بلو سالومي. «كنت أخفي نفسي - مثل امرأة - ثم أزحف إلى الخارج بعد أن تغادر، وأضع قدميَّ فوق آثار قدميك، وأحاول أن أتبع طريقك». لم يتغلّب نيتشه على شكوكه الدائمة المتعلقة بالنساء، وهو تحيّز أخذه معه إلى القبر. ثم كشف بروير عن خيانته: لقاءاته السرّية مع لو سالومي، وتوسلها له من أجل نيتشه، وقراءته الرسالة التي أرسلها فاغنر إلى نيتشه، وطلبها العثور على علاج جديد لمرض نفسي. لم يخفِ بروير شيئًا، بما في ذلك زيارة لو سالومي الأخيرة، مع أنه رفض أن يخبرها بأي شيء عن علاجه لنيتشه.

فتح البوابات الصدئة

تثبت اعترافات بروير أنها مدمرة إلى درجة أنها سرّعت في إصابة نيتشه بصداع نصفي حاد، وهي تفاصيل حبكة بارعة مكّنت الطبيب من استئناف دوره في العلاج، ونزع فتيل غضب مريضه. وأقنع بروير نيتشه أنه بالرغم من أن علاقته بالفيلسوف بدأت بازدواجية، فقد احترم روح العلاقة بينهما. واعترف بروير بأنه كان قاسيًا عندما أشار إلى أن سالومي لم تحبّ نيتشه قط، ولم تكن تعتبره أكثر من صديق، لكنه برّر كلماته القاسية بذكر نصيحة معلم عظيم الذي قال: «قدّم لصديق متألم مكانًا يستريح فيه، لكن احرص على أن يكون سريرًا صلبًا أو سريرًا ميدانيًّا». وقد استمد يالوم هذه العبارة من كتاب «هكذا تكلّم زرادشت»، رواية نيتشه الفلسفية الشهيرة التي نُشرت بين الأعوام ١٨٨٣ و١٨٩١. لقد حرّر هجوم بروير على الأوهام الزائفة التي ربطها نيتشه بسالومي الفيلسوف من هوسه الرهيب. فقاطعه نيتشه

وقال: «أنا اليوم السندان، وكلماتك هي ضربات المطرقة التي تهدم قلعة حبّي». وبروح المعاملة بالمثل، كان كل من الرجلين بمنزلة المطرقة والسندان للآخر، وقد استسلم كل واحد منهما وتلقى من الآخر حقائق مؤلمة لكنها تحويلية.

«العزلة لا توجد إلّا في العزلة»

إن الاستراتيجية التي استخدمها بروير في نهاية رواية «عندما بكى نيتشه»، هي نزع القداسة عن شبح هوس قاتل، ثم طرده، وهي استراتيجية لم يستخدمها المحللون النفسيون حتى القرن العشرين، لكن لن يجد قرّاء يالوم صعوبة في تعليق عدم تصديقهم، ولن يجد القرّاء أيضًا صعوبة في تقبّل تفسير يالوم لأعمق مخاوف الفيلسوف المتخيّل، وهو أنه على الرغم من تبجحه بأنه ولد قبل زمانه، فهو مسكون بالخوف من أن يموت وحيدًا. كان نيتشه الممتلئ باليأس من ضياع آخر أوهامه، ورغبة لو سالومي فيه، محبطًا، لكن بروير عرف كيف يوقظه من أعماق كراهية الذات. لم تكن لو سالومي هي التي أرادها نيتشه، كما أوحى بروير، وإنما شخص مثلها لينقذه من مخالب الزمن. وعندما انفجر نيتشه في البكاء، طلب منه بروير أن يتخيّل تجربة فكرية: أن يعطي صوتًا لدموعه. وبمساعدة طبيبه، وصل الفيلسوف إلى حقيقة بالغة الأهمية، وهي المفارقة، على حد تعبير بروير، وهي أن «العزلة لا توجد إلّا في العزلة. وإذا شارك فيها أحد، تبخرت». ويحرص يالوم على ألّا يبالغ فيما يتعلّمه نيتشه من بروير.

لم تتغير عدم ثقة نيتشه بالمرأة، على الرغم من جهود بروير لإقناعه بأن لو سالومي زميلة له في المعاناة. وتساءل بروير عما إذا كانت كراهية نيتشه للمرأة قد تشكّلت خلال السنوات الأولى من حياته، عندما نشأ في أسرة تهيمن عليها النساء. ومهما كان السبب، ظلّ نيتشه يشعر بارتياب من جميع النساء. ولم يعرب نيتشه أيضًا عن رغبته في تغيير حياته الانفرادية في المنفى.

فقد أمضى زمنًا طويلًا وهو يعيش بمفرده حتى إنه لم يفكّر قط في إمكانية أن يعيش مع شخص آخر. لكن الشيء الذي تغيّر هو شعور نيتشه بالحرية. لو كان بإمكان دموعه أن تتكلم، كما قال لبروير، لقالت: «حرٌّ أخيرًا! مُكبَّلٌ طوال هذه السنوات. هذا الرجل، هذا الرجل المُتزمِّت الجاف، لم يدعني أتدفق من قبل». وقال نيتشه إن عملية كنس المدخنة التي قام بها بروير أسفرت عن تنظيف حقيقي للمنزل، ثم مغيّرًا الاستعارة، أعلن أن الطبيب الفييني قد «فتح البوابة الصدئة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

صداقة فريدة من نوعها

إن إحدى أكثر الإنجازات الفريدة التي حققها يالوم في رواية «عندما بكى نيتشه» هي الرابطة الجديدة بين رجلين ذوي طباع مختلفة إلى درجة كبيرة. فقد كتب نيتشه أشياء كثيرة عن الصداقة، مع أنه لم يكن لديه أصدقاء كثر في حياته - وشعر بالخيانة من بعضهم. لا يوجد هناك شيء متسرّع أو غير حقيقي في صداقة بروير مع نيتشه التي تطورت من عدم الثقة وسوء الفهم إلى صداقة حقيقية. وتنطوي صداقتهما الجديدة على إعادة تقييم نيتشه للتعاطف والشفقة والامتنان. فالفيلسوف والطبيب أذكى من أن ينكرا وجود دوافع أنانية عندما يساعد شخص شخصًا آخر، لكنهما يؤكدان أيضًا على القدرة على الترفع عن المصلحة الذاتية. يتحدّث بروير على لسان يالوم عندما يقول إنه من الممكن أن يصبح شخصان صديقين عزيزين. لقد شارك بروير ونيتشه في «التغلب على الذات» لدى الآخر، مما أدى إلى التعافي من اليأس. وتجنب يالوم المشاعر العاطفية في النهاية، عندما رفض نيتشه بلطف دعوة بروير للبقاء معه ومع عائلته. «لا يا صديقي، إن قدري هو أن أبحث عن الحقيقة في الجانب البعيد من الوحدة. سيكون ابني، زرادشت، ناضجًا بالحكمة، لكن رفيقه الوحيد سيكون نسرًا. سيكون أكثر الرجال وحدة في العالم». وعانق الرجلان أحدهما الآخر، وافترقا إلى الأبد. ويخبرنا يالوم أن بروير سيمارس الطب لمدة ثلاثين سنة أخرى، لكنه سيتخلّى عن العلاج

بالكلام، مما سمح لفرويد أن يتوصل إلى اكتشافات رائدة. وكشف لنا يالوم أن نيتشه سيسافر إلى إيطاليا في موعد مصيري مع أعظم إبداعاته الأدبية، وهي النبي الفارسي «زرادشت»، ليكمل نهايات سيرته الذاتية.

ينهي يالوم روايته بأن بطله حامل بأعظم نسله، لكن الروائي يعرف كما يعرف الجميع أن حياة نيتشه كانت قد انتهت فعليًّا في عام ١٨٨٩، عندما شاهد حصانًا يُجلد بالسوط في تورينو، فألقى بذراعيه حول عنق الحصان ليحميه ثم انهار، ولم يعد كما كان من قبل. يقدّم يالوم هذه المعلومة بإيجاز في ملاحظة المؤلف التي تعتبر بمنزلة حاشية مؤثّرة للقصة. لو كانت هناك عدالة شعرية في الحياة، لتمكّن نيتشه من تطبيق وصيته في كتابه «ما وراء الخير والشر»: «على المرء أن يغادر الحياة كما غادر أوديسيوس ناوسكا - مباركًا لا عاشقًا لها».

لقد وضع يالوم عنوان روايته «عندما بكى نيتشه» للتأكيد على احتفاء الفيلسوف بالبعد الوجداني للحياة الإنسانية. إن الاعتقاد بأن الفلسفة تتعلّق أساسًا بالعقل قديم قدم سقراط، على الأقل، لكن نيتشه أكد على دور العواطف. فقد كان يعتقد أن العقل المفرط يمكن أن يعمينا عن عواطفنا. وحّث نيتشه في رواية يالوم بروير على أن يتفحّص حياته العاطفية، خصوصًا هوسه ببيرثا بابنهايم، وأخيرًا، وتحت ضغط الطبيب، ردّ الفيلسوف بالمثل وتفحّص هوسه هو الآخر بلو سالومي.

إشادة برواية يالوم

لاقت رواية «عندما بكى نيتشه» نجاحًا نقديًّا وشعبيًّا عالميًّا، وتظلّ أكثر روايات يالوم شهرة. فقد أشادت صحيفة «بوسطن غلوب» بها ووصفتها بأنها «رواية ذكية، ومدروسة بعناية، وثرية الخيال». ووصفت صحيفة «شيكاغو تريبيون» الرواية بأنها «أفضل معالجة درامية لفكر مفكّر عظيم منذ رواية سارتر «سيناريو فرويد». ووصفت صحيفة «واشنطن بوست

العالمية للكتاب» الرواية بأنها «ساحرة ومثيرة». واعترف جيمس جول في «صحيفة نيويورك لمراجعة الكتب» بأنه لم يكن متحمسًا للروايات التي تضع شخصيات تاريخية في مواقف لم تكن موجودة من قبل، لكنه أقرّ بأن يالوم «أظهر براعة كبيرة في استخدام معرفته الدقيقة بكتابات نيتشه ووضع كلمات معقولة في فم نيتشه». وأعرب جول عن أمله بأن يكتب يالوم كتابًا آخر يعالج فيه بروير نيتشه، ويمكنّه من إكمال كتاب «إرادة القوة» من دون مساعدة أخته المعادية للسامية. وبالفعل، كاد نيتشه التاريخي وبريوير أن يلتقيا. وإحدى أكبر المفاجآت في حياة يالوم، كما يذكر في كتابه «أن أُصبح نفسي»، حدثت بعد أحد عشر عامًا من نشر رواية «عندما بكى نيتشه»، عندما أرسل له باحث في أرشيف فايمار رسالة اكتُشفت حديثًا كُتبت في عام ١٨٨٠ أرسلها صديق إلى نيتشه يحثّه فيها على أن يستشير الدكتور بروير للمُشكلات الطبية التي يعاني منها الفيلسوف. وقد أقنعت هذه الرسالة يالوم بأنه ظلّ مخلصًا لملاحظة أندريه جيد بأن «الرواية هي تاريخ كان من الممكن أن يحدث».

تتوجّه رواية «عندما بكى نيتشه» إلى القراء المهتمين بتقاطعات الفلسفة وعلم النفس والتاريخ والسيرة الذاتية. وتدور حول موضوع القراءة: قراءة الكتب، وقراءة الناس، وقراءة الذات. ومع أنه لم يكن لدى نيتشه سوى حفنة من القرّاء خلال حياته، فإنه لم يفقد الثقة بأن كتبه ستجذب القرّاء في المستقبل. فقد صرّح في كتابه «هو ذا الإنسان» «أن عالم النفس الذي لا مثيل له يتحدّث من كتاباتي، ربما تكون البصيرة الأولى التي يصل إليها القارئ الجيد - القارئ الذي أستحقه، الذي يقرأني كما يقرأ علماء اللغة القدامى الجيدون هوميروس». كان نيتشه محظوظًا بأن يكون يالوم قارئًا وروائيًّا في آنٍ معًا. فقد نجح يالوم في تجسيد نبل روح نيتشه التاريخي، ونقل نبله هو أيضًا.

الفصل السابع

مستلقيًا على الأريكة:
خطر انتهاك الحدود الجنسية

لم يكن بوسع يالوم أن يختار عنوانًا أكثر سخرية لروايته الثانية عن العلاج النفسي، «مستلقيًا على الأريكة»، حيث يروي الأشخاص الذين تُجْرَى لهم معالجة تحليليّة نفسانيّة المستلقون على الأريكة أحلامهم، ورغباتهم، ومخاوفهم، وأوهامهم. وينطوي العنوان على تورية ثلاثية نادرة، وهي عبارة تحتمل ثلاثة معانٍ مختلفة، تبدأ بالأشخاص الذين يجرون تحليلًا نفسيًّا وهم مستلقون على أريكة المعالج، المكان النموذجي للعلاج بالكلام. (عدد قليل من الناس يعرفون أن فرويد كان يطلب من مرضاه الاستلقاء على الأريكة في مكتبه لأنه يكره أن يحدّق إليه أحد طوال اليوم). وتشير رواية «مستلقيًا على الأريكة» أيضًا إلى غموض قول الحقيقة في العلاج النفسي، وصعوبة تحديد دقة وصحة القصص التي يرويها المرضى وصحتها. كما تستحضر إلى الأذهان أيضًا العلاج النفسي الجنسي، وهو أخطر انتهاك للحدود في العلاج النفسي. ويستكشف يالوم المعاني الثلاثة للاستلقاء على الأريكة في روايته الذكية والماكرة.

قول الحقيقة والكذب على الأريكة

قد تكون قصص المرضى موثوقة أو غير موثوقة، أمثلة على قول الحقيقة أو الكذب. بيد أنه لا يمكن التمييز بين هذه الثنائيات دائمًا. لا يمكن الفصل دائمًا بين الحقيقة السردية والحقيقة التاريخية، كما لاحظ دونالد ب. سبنس في كتاب صدر عام ١٩٨٤ بهذا العنوان. إن معنى حياة المريض يخلقه المريض والمعالج بشكل مشترك، وتبلغ ذروته في قصة إعادة بناء تشكّلت من خلال العملية العلاجية.

في الفصل ما قبل الأخير من كتابه «الكذب واليأس والغيرة والحسد

والجنس والانتحار والمخدرات والحياة الطيبة» الصادر عام ١٩٧٦، يقارن المحلل النفسي ليزلي فاربر بين نوعين مختلفين من الحقيقة، أحدهما «إشكالي، وجزئي، ومتواضع - وما يزال يتنفّس»، والآخر «كاشف»، غالبًا ما «يحضره - بل ويحدده - انفعال ملحوظ يُفهم غالبًا بأنه كان مكبوتًا أو مُنكرًا ويخرج الآن فقط إلى السطح». يهتم فاربر بالنوع الأول من الحقيقة أكثر من اهتمامه بالنوع الثاني. «أظن أن التحدث بصدق بالكامل هو طموح ملائم أكثر من قول الحقيقة». فالحقيقة العادية المجزّأة ليست درامية أو «جمالية» كما هي الحقيقة الموحية، لكنها أكثر صدقًا وديمومة. ويلاحظ فاربر أن المفارقة في التحليل النفسي هي أنه بينما يستند إلى قدرة الشخص على قول الحقيقة، فإن «الأدوات والاستراتيجيات المستخدمة تقليديًّا لتسهيل بحثه عن الحقيقة... يبدو أنها جميعها تشجّع قدرة المريض على التجميل، والتهويل - باختصار، على الكذب». والاستنتاج الذي توصل إليه فاربر هو أن المخيلة، «حليفة الكذب وقول الحقيقة على حد سواء»، ذات حدين: «لها استخداماته وإساءة استخدامها، ميزاتها وعواقبها». ويالوم على دراية جيدة بأعمال فاربر. إذ يذكر بطل رواية يالوم «مستلقيًا على الأريكة»، الطبيب النفسي الوجودي الشاب إرنست لاش أنه قرأ أعمال فاربر عندما كان يحضّر لإلقاء محاضرات عن شلل الإرادة، وهو موضوع كتاب فاربر الأول، «سبل الإرادة».

ويتضمن الإيحاء الذي هو قريب من التجميل والتنميق أيضًا في رواية «مستلقيًا على الأريكة»، حيث يخلق المعالجون، بوعي أو من دون وعي، أو زرع ذكريات في المرضى. كان عقدا الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي عقدين زجّ العلاج النفسي نفسه في جدل حول «الذكريات المستعادة». فقد ادّعى المرضى، بتشجيع من معالجيهم، وأحيانًا بالتلاعب بهم، أنهم يتذكّرون أنهم كانوا ضحايا اعتداء جنسي، بخاصة سِفاح القربى، الذي حدث في وقت ما خلال مرحلة الطفولة المبكرة، وهي الفترة التي لا يستطيع فيها الدماغ تسجيل المعلومات وتخزينها بدقة بحسب معظم الباحثين المعاصرين. وكان الأمر الأكثر إثارة للدهشة، هو تطوّر علاج «الحيوات الماضية»، حيث

ساعد المعالجون المرضى على فهم وجودهم لمئات أو آلاف السنين في الماضي أو المستقبل. وشملت حروب الذاكرة أيضًا «إساءة استخدام الطقوس الشيطانية»، حيث يتذكّر آلاف المرضى أنهم شاركوا في طقوس التضحية بالأطفال، على الرغم من عدم وجود أدلة تؤكد هذه الجرائم. وبتحريض من قصص مثل «وجوه حواء الثلاثة» و«سيبيل»، أصبح الجمهور مفتونًا بانتشار «اضطراب تعدد الشخصية»، حيث يمكن أن يكون للشخص الواحد مئات بل آلاف «الشخصيات الأخرى». وإذا نظرنا إلى الوراء قليلًا، يأخذ عدد قليل من الخبراء حاليًّا هذه البدع على محمل الجد، لكن يالوم كان يكتب في ذروة هذه النزاعات الشرسة، وكان يلقي عليها دائمًا ضوء من الشك. «اعتدنا على أن يدفع لنا المرضى مقابل الاستماع إلى حقيقتهم، حتى أصبحنا نشعر بأننا قد نكون ساذجين بشأن إمكانية الكذب».

وتستحضر عبارة «مستلقيًا على الأريكة» أيضًا معنى إيروتيكيًّا، وهو ممارسة الجنس بين المريض والمعالج الذي ربما يُعدُّ أكثر التجاوزات المحظورة - والأكثر شيوعًا - في العلاج النفسي. وقد شهدت تسعينيات القرن الماضي انفجارًا في دعاوى سوء الممارسة الجنسية ضد بعض أبرز المعالجين النفسيين في البلاد. وكان يالوم من أوائل المعالجين الذين واجهوا مشكلة انتهاكات الحدود الجنسية المتنامية، وهو موضوع لم يحظَ باهتمام كبير في المجلات المهنية. وتتناول رواية يالوم العواقب الكارثية لكل من المرضى والمعالجين الذين يستسلمون للاستلقاء على الأريكة، وهو فعل يمكن إرجاعه إلى عدم واقعية الحبّ الانتقالي والحب المقابل.

سيمور تروتر صورة الفنان بوصفه فنانًا مخادعًا؟

تبدأ رواية «مستلقيًا على الأريكة» بتوطئة من ثلاث وثلاثين صفحة تصف الطبيب النفسي سيمور تروتر البالغ من العمر واحدًا وسبعين عامًا، وهو أحد أفضل إبداعات يالوم الروائية المتخيلة. وهو أب مؤسسة الطبّ

النفسي في سان فرانسيسكو، والرئيس السابق للجمعية الأمريكية للطب النفسي، يتمتع بخبرة واسعة ومعرفة عميقة في الطب النفسي. ويبدو أنه لا يوجد شيء في مهنته لا يعرفه. ولا يكتفي تروتر بالتعبير عن انتقادات يالوم اللاذعة للعلاج النفسي المعاصر، خصوصًا التركيز المتزايد على علم الأدوية النفسية، لكنه يدعو أيضًا إلى ممارسة علاج نفسي وجودي جديد يقوم على الأصالة والعلاقة العلاجية.

يقول تروتر لإرنست إن المبدأ الأول لإجراء مقابلة نفسية هو إقامة علاقة دافئة أساسها الثقة. ويستعيد تروتر مقولة كارل روجرز: «لا تضيّع وقتك في تدريب المعالجين النفسيين - من الأفضل أن تمضي الوقت في اختيارهم». ومثل يالوم، يدعو تروتر إلى الصدق التام في العلاج النفسي، ويدرك حدود البصيرة، ويكرّم تفرّد كلّ مريض. ومثل يالوم، يرى تروتر أن التسميات النفسية تسيئ إلى المرضى، ومثل يالوم، يثني تروتر على كارين هورني، ويخصّ بالذكر كتابها «العُصاب والنمو البشري» لتألقه وعدم وجود مفردة تخصصية واحدة فيه، ومثل يالوم، يعرب تروتر عن أسفه لقصر العمر الافتراضي للنصوص النفسية الرئيسية «مصير كبار المنظّرين في مجال عملنا - إذ تعيش تعاليمهم لجيل واحد تقريبًا». ومثل يالوم، ينشر تروتر كتبًا ومقالات عن العلاج النفسي. وكان تروتر قد كتب قبل سنوات مقالًا يناقش فيه اعتقاد يونغ بضرورة ابتكار واستحداث لغة علاجية جديدة لكل مريض. ويتباهى تروتر بالقول: «لقد ذهبت شأوًا أبعد مما ذهب إليه يونغ، فقد اقترحت أن نبتكر علاجًا جديدًا لكل مريض، وأن نأخذ بجدية فكرة تفرّد كل مريض، ونطوّر علاجًا نفسيًّا فريدًا لكل مريض». ومردّدًا اعتقاد نيتشه بأن اليقين يتناسب عكسيًّا مع المعرفة، يعلّق تروتر ويقول من الأسهل على المعالجين إجراء تشخيص في المرة الأولى التي يرون فيها مريضًا، بينما يكون ذلك أصعب بعد أن يتعلموا أمورًا أخرى عن المريض، وهي رؤية يستشهد بها يالوم في كتابه «جلّاد الحب». مستخدمًا لغة نيتشه، يحثّ تروتر إرنست على أن يحقق مصيره كمعالج. ومثل يالوم، لا يهتم تروتر كثيرًا

بالتشخيص النفسي، بل يبدي اهتمامًا أقل بالبحث في رماد الماضي، معتقدًا أن «تحريك رماد الماضي ليس إلّا ذريعة للتهرّب من المسؤولية الشخصية عن أفعالنا»، كما قالت مريضته بيل فيلليني البالغة من العمر اثنين وثلاثين عامًا. ولا بد أن يالوم قد ابتسم بحسرة على تعليق تروتر التالي: « كانت قد قرأت كتابي عن العلاج النفسي واستشهدت بقولي هذا بالتحديد. أنا لا أحبّ ذلك. عندما يقاوم المرضى بالاستشهاد بكتبك، فإنهم يتغلبون عليك». ومثل يالوم، يزخر تروتر بالرؤى النفسية التي يشاركها بسخاء مع الآخرين. فهو يشير إلى إرنست الذي بدأ حياته المهنية باحثًا في الكيمياء العصبية دون أن تكون له خبرة في العلاج النفسي، «إذا رأيت مريضًا مرتبكًا يرتدي أكمامًا طويلة في الصيف، فكّر دائمًا في جرح الرسغ وحقن المخدرات». ويرى تروتر أن القاعدة الأولى للعلاج النفسي الجيد هي التخلّي عن كل التقنيات، وهذا يعني أن المعالج يجب أن يكون أكثر إنسانية، وأقل تلقائية. ويجادل من أجل الجرأة والإبداع في العلاج النفسي، وهو حازم في جميع أحكامه النفسية.

ربما أكثر ما يستحق الذكر هو أن تروتر يعرف أن زيادة الوعي بالموت التي تحدث عندما يواجه الناس فناءهم، يمكن أن تؤدي إلى زيادة تقديرهم للحياة. ويوضح تروتر لإرنست أنه توجد لدى المرضى الذين ينتظرون نتائج اختبار فيروس نقص المناعة البشرية (الإيدز) فرصة فريدة من نوعها يستطيع المعالج النفسي أن يستغلها بشكل جيد. «إذ يواجه المرضى، لعدة أيام، موتهم وجهًا لوجه، ربما لأول مرة في حياتهم. ويمكنك أن تساعدهم خلال هذه الفترة على فحص أولوياتهم وإعادة ترتيبها، وبناء حياتهم وسلوكهم بناء على الأمور ذات الأهمية الحقيقية».

بتفضيل الحدس على المعرفة الكتابية، والمشاركة العلاجية على الانفصال، والابتكار على التقيّد الصارم، يذكّرنا تروتر بيالوم في كل شيء تقريبًا. وينبغي ألّا نندهش من أن تروتر الذي يبلغ من العمر سبعين عامًا ينقل إلينا روح الدعابة والحكمة والحنكة الدنيوية التي يتمتع بها يالوم الذي كان في الخامسة والستين من عمره عندما صدرت رواية «مستلقيًا على الأريكة». يبدو أن

تروتر قد تصالح مع فنائه، بما في ذلك صحته الجسدية المتدهورة. ينسى تروتر اسم إرنست للحظات، وينقر تروتر على صدغه ويشير بمكر إلى المقالات الأربعة التي نشرها عن مرض الزهايمر: لقد نسيت اسمك. في كل دقيقة، تبعث عشرات الخلايا العصبية القشرية طنينًا مثل ذباب يحتضر. المفارقة هي أنني نشرت أربع ورقات بحثية عن مرض الزهايمر - ومن الطبيعي أن أنسى أين نُشرت، لكنها نُشرت في مجلات علمية رصينة». وهذا أحد الأمثلة العديدة على خفة دمه. إذ يتخلل حديثه بعض الكلمات باللغة اليديشية، كما عندما يقول لإرنست: «اجلس يا فتى (بويتشيك) وسأحكي لك القصة كلها».

لا يشبه تروتر الشخص الذي ابتكره في شيء أكثر من موهبته في سرد القصص. وبالفعل، من بين جميع أبطال يالوم الروائيين، فإن تروتر هو صانع كلمات بارع، ومُستحضر للأوهام والتعاويذ. فهو يستحوذ على انتباه إرنست - والقارئ - طوال «التمهيد». ويتمتع تروتر بالقدرة على قراءة عقل إرنست، وتوقع أسئلته، وشحذ فطنته النفسية، ويوجّهه إلى أبحاث الطب النفسي السابقة والحالية. ومع أن إرنست لم ير تروتر إلّا مرة واحدة، فقد غيّرت كلمات الطبيب النفسي المخضرم وأفعاله حياة الشاب إلى الأبد. كان تروتر عند غروب حياته: فهو يمشي بعكازين، ونعلم أن التجاعيد تكسو وجهه. وعلى الرغم من شيخوخته الجسدية، فقد كان صوته آسرًا، واثقًا من نفسه، ومفعمًا بالحيوية. ويذكّرنا خطابه الساخر بخطاب شاول بيلو الذي تستنطق رواياته، مثل روايات يالوم، من خلال الفكاهة والذكاء الثاقبين التناقضات الداخلية والخارجية للحياة المعاصرة. باختصار، أصاب تروتر إرنست بسحره، سحر لفظي يكاد يتغلب على أي مقاومة قد تنشأ عن الآثار الأكثر قتامة في روايته.

تجمع توطئة رواية «مستلقيًا على الأريكة» بين المحاضرة النفسية، والمونولوج الدرامي، والكوميديا المنفردة، وصرخة من القلب. إنها تحفة تنم عن مهارة عالية. ويشبّه تروتر مقابلته مع إرنست بـ «رسائل ريلكه إلى شاعر

شاب»، لكن قد يتذكّر القارئ أيضًا رواية «شكوى بورتنوي» التي لم يسمح فيها بطل فيليب روث المنهك، المستلقي على الأريكة طوال الرواية الشهيرة، أن يقاطع محلله النفسي اعترافاته الاستمنائية حتى نهاية القصة، عندما قال سبيلفوغل بعد أن أصبح قادرًا أخيرًا على أن يتكلم، «هكذا (قال الطبيب). الآن ربما يمكنك أن تبدأ. صحيح؟»

معالج الملاذ الأخير

يتمثّل أحد الاختلافات الجوهرية بين رواية فيليب روث «شكوى بورتنوي» ورواية «مستلقيًا على الأريكة» في أنه بينما يتصرّف المريض في رواية روث بدافع جنسي، فإن المعالج يتصرّف بهذه الطريقة في «توطئة» رواية يالوم. فقد اتُّهِم تروتر بسوء السلوك الجنسي مع بيل فيليني، ويستخدم الحجة تلو الأخرى ليشرح لإرنست الذي عُيِّن عضوًا في لجنة أخلاقيات مهنة الطب في مستشفى ستانفورد للتحقيق في هذه القضية، لماذا لم يتمكن من مقاومة تلميحاتها الجنسية. لا تقل تبريرات تروتر إثارة، ومثل الدكتور سبيلفوغل، لا يكاد إرنست ينطق بكلمة.

يظهر الجنس بين المريض والمعالج النفسي في عدد لا يحصى من الروايات والمذكّرات، دائمًا تقريبًا بتبرير بأن الأخير يساعد الأول على الشعور بأنه شخص «مميز»، لكن توجد في رواية يالوم المتخيّلة تحولات ساخرة - لا بل عدة تحولات ساخرة. فقد وُلدت بيل في سويسرا لأبوين ثريين، ورأت عشرات المحللين النفسيين، لم يستطع أحد منهم مساعدتها. وبما أنها امرأة مندفعة، تلقائية، ذات منحى عملي، لا تميل إلى التأمل الذاتي أو ضبط النفس، وجذابة إلى درجة كبيرة، تُرسل إلى تروتر، أحد أفضل المحللين في العالم، «معالج الملاذ الأخير»، كما يصف يالوم نفسه في كتاب «جلّاد الحبّ». لكن كيف يمكن أن يساعدها تروتر إذا كانت امرأة مدمّرة للذات، ومقاومة لمراعاة الحدود في العلاج؟ في البداية، كانت تكتفي بعناق وديّ، «مثل عمّ»،

كما يشرح تروتر لإرنست بتعالٍ - لكنها بدأت تطلب المزيد والمزيد. ظلّ تروتر غير مقتنع بحججها، وحازمًا في سلوكه المهني، لكنه اعترف في الوقت نفسه لإرنست بأنه أصبح يجد نفسه مثارًا على نحو متزايد من قبلها. ومقابل كل حجة يستخدمها تروتر لتثبيط اهتمامها الجنسي به، تكون لدى بيل حجة مضادة جاهزة. فقد أجابته عندما قال لها إنه في السبعين من عمره وهي في الرابعة والثلاثين: «شابلن وكيسنجر وبيكاسو وهمبرت همبرت ولوليتا»، ويدل الاسمان الأخيران على أنها قارئة للأدب الجاد، مثله. ربما كانت تشير أيضًا إلى الشاعر البريطاني كيتس: فاسمها يدل على أنها سيدة حسناء لا ترحم.

بعد ما بدا أنه مأزق علاجي، قدّمت بيل عرضًا يصعب أن يرفضه تروتر. فقد قالت: «إذا بقيتُ نظيفة من كل ذلك لمدة سنة - نظيفة تمامًا، لا أتعاطى مخدرات، لا أتقيأ الطعام، لا أرتاد الحانات، لا أجرح نفسي، لا أفعل شيئًا من كل ذلك» هل يكافئها ويأخذها في إجازة إلى هاواي لمدة أسبوع؟ فوجئ تروتر. كان مرتابًا في البداية، لكن بعد أن خلص إلى أنه لا يوجد حلّ آخر لمُشكلاتها، تفاوض معها على صفقة أفضل، وهي أن يصطحبها إلى سان فرانسيسكو لقضاء عطلة نهاية الأسبوع إذا وعدته بأن يبقى سلوكها جيدًا لمدة عامين. وافقت، وأبرما الاتفاق الفاوستي، ووعدته بأنها ستأخذ سرّهما معها إلى القبر. أحرزت تقدمًا مذهلًا خلال الأشهر التالية، لكن تروتر أصيب بالذعر عندما شارفت السنتان على الانتهاء. فلا يوجد شيء يقوله أو يفعله يمكن أن يقلل من رغبتها المفترسة نحوه، بما في ذلك صحته التي أخذت تتدهور بسرعة، ثم أوفى على مضض الجزء المتعلّق به من العقد، فأمضيا عطلة نهاية الأسبوع معًا مثل عاشقين، دون حدوث أي آثار سيئة واضحة. لكن عطلة نهاية الأسبوع هذه دمرّت علاقتهما العلاجية، كما كان يتوقع تروتر - فهو يعرف كل شيء يتعلق بالانتقال الجنسي، لأنه الذي صاغ المبادئ التوجيهية التي تحذّر المعالجين من إقامة علاقات جنسية بعد العلاج.

حلّت الكارثة التي تنبأ تروتر بوقوعها منذ فترة طويلة. فقد رفع زوج بيل

دعوى سوء الممارسة الطبية ضده، وقدّم كدليل على ذلك أربع صور تُظهر زوجته وتروتر في أثناء لقائهما الذي لم يكن سرّيًا جدًّا. فهجرته زوجة تروتر، ودُمِّرت حياته المهنية وسمعته إلى الأبد، وحصلت بيل تعويضًا قدره مليوني دولار، وهو الحد الأقصى لتغطية التأمين لسوء ممارسة تروتر الطبية. وقال تروتر لإرنست إنه لم ير بيل مرة أخرى لأنه مُنع من رؤيتها أو التحدّث إليها بأمر من المحكمة. ووصف نفسه بأنه يعاني من «اكتئاب مناسب»، واعترف لإرنست وقال: «إنني رجل عجوز بائس وحزين ومحبط ووحيد، تغمرني شكوك ذاتية، أُنهي حياتي بالعار».

قصة تحذيرية

هل قصة تروتر التحذيرية ليست سوى مثال آخر على أن العلاقات الجنسية بين المريضة والمعالج تؤدي إلى كارثة متوقعة لكلا الطرفين؟ كان إرنست سيظن ذلك لولا رسالة تلقاها بشكل غير متوقع من تروتر، لا يوجد عليها عنوان مرسل، بعد سنة، يشكر فيها تروتر إرنست على اهتمامه خلال «أيام مطاردة الساحرات الشيطانية تلك» في محاكمة سوء الممارسة المهنية. وقال المحلّل الذي لحق به العار أنه بخير، وأرفق صورة له مع بيل، يظهر فيها منزلها في خلفية الصورة في جزيرة كاريبية محاطة ببحر استوائي. يذكر تروتر في نهاية الرسالة دون تفاصيل أن «بيل حصلت على مبلغ كبير من المال من شركة التأمين». وظهر تروتر في الصورة وهو جالس على كرسي متحرك، ترتسم على وجهه «ابتسامة عريضة، بدت فيها أسنانه»، بينما بدت بيل، الواقفة خلفه، «حزينة ونحيلة».

ماذا؟ ألم يكن علاج تروتر الجنسي لبيل سوى خدعة بارعة للاحتيال على شركة التأمين بمبلغ مليوني دولار؟ أصرّ تروتر على أنه كان يتصرّف تجاه بيل بحسن نية، لكن كل ما قاله أصبح الآن موضع شك. أليس سوى محتال؟ لم يستطع إرنست التوقف عن النظر إلى الصورة. ويشاركه القارئ حيرته

تلك. يبدو من عيني بيل المطرقتين أنها حصلت على أكثر مما كانت تتوقع. هل توطئة الرواية مزحة ماكرة من روائي كشف عن نفسه بأنه مهرج ماكر؟

ترك يالوم مسألة تروتر غامضة كما هو معروف عنه. حتى بعد سنوات، ظلّ إرنست يفكّر في تلك الصورة. متى قرر تروتر وبيل الذهاب إلى الجزيرة معًا؟ هل قرر سيمور في النهاية أن ينقذها؟ أم أنهما تآمرا معًا قبل ذلك بكثير؟ ربما منذ البداية؟» لم يستطع إرنست أن يجيب عن هذه الأسئلة، ونحن كذلك. لكن لا ريب أن إرنست كان يفكّر بأن وصف تروتر لنفسه بأنه معالج الملاذ الأخير يدلّ على الغطرسة. يتضح أن التوطئة ما هي إلّا مسرحية داخل مسرحية، مثل «مقتل غونزاغو» في مسرحية هاملت، المشهد الذي يُنذر بموضوعات النص وأهمية معانيه. يعرّض يالوم إرنست لاش لتجربة مماثلة مع مريضة شديد الإغراء، لكن بعواقب تختلف كثيرًا عن العواقب التي واجهها سيمور تروتر.

يهيمن سرد تروتر بالضمير المتكلم على «التوطئة»، ولا نكتشف إلّا في النهاية أنه كان يخدع إرنست ويخدعنا. إن تروتر هو أحد رواة يالوم القلائل غير الموثوق بهم. وعندما بدأ يالوم الرواية الفعلية، استخدم سرده المعتاد بضمير الغائب، لإتاحة الفرصة لإلقاء نظرة ثاقبة على وعي شخصياته الأخرى. تتنوع شخصيات الرواية. فإرنست هو البطل الرئيسي، وتقدّم في العمر وأصبح أكثر خبرة مما كان في «التوطئة». وتحقق نبوءة تروتر بأن إرنست سيصبح معالجًا ممتازًا، لكنه سيتعرّض لاختبارات صعبة. علّمته تجربته مع تروتر أهمية أن يكون حقيقيًّا، لكن ثمة كلمات قليلة تكون أكثر غموضًا أو إيحاءً، وأن تكون حقيقيًّا في العلاج النفسي يجعلك تواجه تحديات فريدة.

تبدأ الرواية بمفاجأة، تختلف عن تلك التي رأيناها في «التوطئة». فقد عالج إرنست جاستن أستريد لمدة خمس سنوات، ثلاث مرات في الأسبوع، لأنه يحتاج أساسًا إلى مساعدة ليتخلّص من زواج معذّب، وهي إحدى أسوأ الزيجات التي رآها إرنست. أخبره جاستن عَرَضًا بأنه ترك زوجته كارول

التي يصفها بأنها غول أو شيطان، وطفليها الصغيرين. لم يكن العلاج النفسي هو الذي منح جاستن الشجاعة ليترك زوجته، بل صديقته الجديدة الشابة، لورا. قال جاستن، غير مدرك لتأثير كلماته على إرنست، إنه لو رأى لورا قبل سنوات، لما أهدر ثمانين ألف دولار على تكاليف العلاج. احمرّ وجه إرنست غضبًا وتساءل «كيف يمكنه ألّا يأخذ ما سمعه بشكل شخصي؟

استشاطت كارول غضبًا عندما علمت أن زوجها غادر البيت فجأة، فدمّرت وأتلفت كل مقتنياته، بما في ذلك ملابسه، وربطات عنقه الثمينة، ومجموعته من الخنافس المغطاة بالزجاج، وشهاداته الثانوية والجامعية، ومكتبة أشرطة الفيديو الإباحية التي يحتفظ بها. وأقسمت بأنها ستنتقم من زوجها ومن معالجه النفسي. لم تكن قد التقت بإرنست من قبل قط، لكنها تكرهه، وتكره جميع المعالجين النفسيين الآخرين. سرعان ما نكتشف أن لديها سببًا وجيهًا لكراهيتها تلك. فعندما كانت طالبة في جامعة براون، هجرها صديقها بعد صداقة دامت أربع سنوات من أجل امرأة أخرى، وبعد أن دمّرت غرفته في نوبة غضب، ذهبت إلى مركز الصحة النفسية في الجامعة، وعالجها طبيب نفسي يدعى رالف كوك، أقنعها بأن تمارس الجنس معه، وقال لها: «اللمس ضروري لشفائك يا كارول».

مارس كوك الجنس مع كارول طوال خمسة أشهر، ثم قال لها إنها «شُفيت»، وأنهى العلاج، ربما ليبدأ علاقة مع طالبة جامعية أخرى. غاضبة ومُهانة. في تلك اللحظة، قررت كارول أن تصبح محامية. في سنتها الجامعية الأخيرة، عرض عليها أستاذ العلوم السياسية أن يكتب لها رسالة لتمكن من الالتحاق بكلية الحقوق واشترط عليها أن تمارس الجنس معه. وعندما وجدت نفسها مرة أخرى مكتئبة، طلبت مساعدة من معالج في عيادة خاصة، «الدكتور زويزونغ» الذي بدأ، مثل كوك، يلمح إلى ممارسة الجنس معها. «وعرفت كارول هذه المرة ما الذي يجب أن تفعله، وخرجت على الفور من العيادة وهي تصرخ بأعلى صوتها: «أيها الحثالة»، وكانت هذه آخر مرة تطلب فيها

كارول مساعدة من أحد.

الدكتور زويزونغ

قلة من قرّاء رواية «مستلقيًا على الأريكة» يدركون أن الدكتور زويزونغ مستوحى من معالج نفسي حقيقي. فقد كانت الشاعرة الحائزة على جائزة بوليتزر «آن سيكستون» على علاقة جنسية طويلة مع طبيبها النفسي الذي أطلق عليه محررو كتاب «آن سيكستون: صورة ذاتية في رسائل» اسمًا مستعارًا وهو الدكتور صامويل ديتز. بدأت العلاقة في عام ١٩٦٤، عندما غادر طبيب سيكستون الموثوق به، مارتن أورن الذي كان يعالجها لسنوات، بوسطن ليتولى منصبًا في جامعة بنسلفانيا. بدأت تزور طبيبًا نفسيًّا جديدًا سرعان ما حوّل العلاج إلى علاقة جنسية. وبدأت سيكستون تكتب قصائد عن عشيقها الطبيب النفسي نُشرت في المجموعة التي صدرت بعد وفاتها بعنوان «كلمات للدكتور Y»، واستمرت علاقتهما حتى عام ١٩٦٩، عندما أنهى العلاج فجأة. وفي خطوة ألمحت إليها في قصائدها، انتحرت سيكستون في عام ١٩٧٤ قبل فترة قصيرة من عيد ميلادها الخامس والأربعين.

كما ناقشنا أنا وبول موشر في كتاب «السرية ومساوئها: معضلات الخصوصية في العلاج النفسي»، أطلقت كاتبة سيرة سيكستون، ديان وود ميدلبروك، أستاذة اللغة الإنجليزية في جامعة ستانفورد، على المعالج النفسي الذي اعتدى على سيكستون اسم «الدكتور زويزونغ»، وهو اسم مستعار يعني باللغة الألمانية «اللسان المتشعّب» أي «اللسان المخادع». وذكرت ميدلبروك باقتضاب في ملحق سيرتها الذاتية في عام ١٩٩١، «أخفت التفاصيل لحماية هوية المعالج». كانت سيكستون ترى المعالج النفسي مرتين في الأسبوع، وكانت تدفع له لقاء تلك الجلسات. لم يكن هناك أدنى شك في أن المريضة والمعالج كانا يعرفان أن الجنس مدمّر للعلاقة العلاجية. فقد كتبت ميدلبروك: إن عبارة سيكستون الخجولة «الدكتور-الأب» تعبّر عن مدى وعيها بانتهاكها لهذه العلاقة». لكن معظم المتخصصين في الصحة النفسية يلقون كل المسؤولية واللوم على المعالج، وليس على المريضة.

فالمريضة، في النهاية، هي التي تحتاج إلى المساعدة، ولا بد أن حكمتها تتأثر بطبيعة الاضطراب النفسي الذي دفعها إلى العلاج، بالإضافة إلى الانتقال الذي يتلاعب به المعالج الأناني ويتجاوز حدوده.

غضبت سيكستون أخيرًا من المعالج النفسي بسبب وعوده الكثيرة لها التي لم يفِ بها، وبعد إنهاء العلاقة بفترة قصيرة، سقطت من الدرج في بيتها في عيد ميلادها وكُسرت وركها. وفي المستشفى، «انتقمت منه»، كما ذكرت ميدلبروك، عندما كتبت قصيدتين ساخرتين عن علاقتهما. وعبّرت سيكستون لاحقًا عن مشاعرها تجاهه في قصيدة بعنوان «التحدّث بمرارة»، التي تتذكّر فيها الطبيب وهو يقبّل «أطرافها الذاوية» ويعدها بأنه سيهجر زوجته ويهرب معها. «أوه، أتذكّر أمثاله/ يده على حذائي الطويل، ترتفع فوق تنورتي مثل مِثْقاب». (مجموعة القصائد الكاملة).

في مراجعة لسيرة ميدلبروك في صحيفة نيويورك تايمز في ١٥ يوليو (تموز) ١٩٩١، كانت أليساندرا ستانلي أول من كشفت عن هوية معالج سيكستون النفسي، وهو فريدريك ج. دوهل، لكنه رفض أن يتحدّث إلى ستانلي في مقابلة هاتفية حول ما كشفت عنه السيرة، واكتفى بالقول: «إنك تتعاملين مع موضوع حساس. ففي الأساس، يفقد الطبيب الذي يقيم علاقة مع مريضته رخصته كطبيب في ولاية ماساتشوستس». وفي كتابها «البحث عن شارع الرحمة»، وهو سيرة ذاتية عن علاقتها المعقدة مع والدتها، تتذكّر ليندا جراي سيكستون غضبها عندما قرأت المسوّدات الأولى من سيرة ميدلبروك ومعرفتها إلى أي مدى كان سلوك دوهل مدمرًا: «مهما كان الألم والغضب الذي يمكن أن نشعر به نحن الآخرون، فقد تحملت أمي أسوأ الأثر عندما أنهى دوهل علاقته بها وعلاجه لها». وظهرت سيرة ميدلبروك ومراجعة ستانلي في صحيفة نيويورك تايمز قبل خمس سنوات من نشر رواية «مستلقيًا على الأريكة»، لكن من الواضح أن يالوم فضّل أن يستخدم «الدكتور زويزونغ»، اسمًا للمعالج النفسي الذي دعا كارول لممارسة الجنس معه. مات دوهل في عام ٢٠١٠ وهو في الواحدة والثمانين من عمره. ربما منعت أسباب

قانونية يالوم من استخدام اسم دوهل الحقيقي - ولا شك أن الروائي أدرك المفارقة في اسم «اللسان المتشعّب». وربما كان يالوم يعرف تفاصيل كثيرة عن العلاقة الجنسية بين دوهل وسيكستون من ميدلبروك قبل أن تنشر سيرتها الذاتية. فقد كان يالوم وميدلبروك زميلين في جامعة ستانفورد، وقد أعرب عن امتنانه الشديد لمساعدتها في كتابه «عندما بكى نيتشه»، وكتبت تعليقًا رائعًا ظهر على الغلاف الخلفي للطبعة الورقية.

إن فهم العلاقة الجنسية الكارثية بين دوهل وآن سيكستون يساعدنا على تقدير غضب كارول تجاه المعالجين النفسيين اللذين أقحما الجنس في علاجهما، ويمكننا أن نفهم كذلك سبب ازدرائها لجميع المعالجين، بمن فيهم معالج زوجها الذي لم تلتقيه قط. ويمكننا أيضًا أن نفهم غضب يالوم المحق تجاه المعالجين الذين يخونون مهنتهم. ويشعر يالوم بأنه مضطر إلى ذكر المعالجين النفسيين الآخرين الذين تجاوزوا حدودهم المهنية، بمن فيهم روّاد التحليل النفسي الأوائل مثل كارل يونغ، وأوتو رانك، وإرنست جونز.

سقوط معبود آخر: جول ماسرمان

كما يعرف يالوم، فإن الجنس بين المعالج والمريض يظل مشكلة معاصرة خطيرة. إذ يعبّر مارشال سترايدر، المشرف السريري على إرنست، عن رعب يالوم من قضية جول ماسرمان الذي كان، مثل تروتر المتخيّل، رئيسًا سابقًا للجمعية الأمريكية للطبّ النفسي، ورئيسًا سابقًا لعدة منظمات نفسية عالمية أخرى. سأل سترايدر إرنست: «هل يمكنك أن تصدّق ماذا فعل - كان يعطي المريضات بنتوثال الصوديوم ثم يمارس معهن الجنس بعد أن يفقدن وعيهن؟ شيء لا يمكن تصوّره». وُصف ماسرمان، مؤلف كتاب الطب النفسي الأكثر مبيعًا «مبادئ الطب النفسي الديناميكي»، بأنه أبرز طبيب نفسي في العالم، وفي منتصف ثمانينيات القرن الماضي، تقدّمت باربرا نويل وقالت إنه خدّرها واغتصبها طوال ثمانية عشر عامًا تقريبًا عندما كانت تحت

تأثير بنتوثال الصوديوم الذي يسبّب النوم لفترة طويلة. وأيّدت ادعاءات نويل هذه مريضات أخريات كان ماسرمان يعالجهن، وقدّمن أدلة تثبت أنهن كنّ كذلك ضحية لانتهاكاته الجنسية. وتظهر هذه القصة في كتاب «لا بد أنك تحلم» الذي شاركت في تأليفه نويل وكاثرين واترسون. وقد ناقشتُ أنا وبول موشر هذه القضية في المجلد الأول من كتاب «خارج المسار: قصص تحذيرية عن انحراف الرعاية الصحية النفسية» وقد أثارت دعوى نويل المتعلقة بسوء الممارسة المهنية التي أجرت فيها شركة تأمين ماسرمان تسوية خارج المحكمة غضبًا في أنحاء البلاد، لكن أوساط الصحة النفسية ظلت صامتة، ولم تستطع أن تردّ من هول الصدمة وشعورها بالحرج.

كان يالوم أحد المعالجين القلائل الذين أبدوا استيائهم من فضيحة ماسرمان. ويقدّم في روايته «مستلقيًا على الأريكة» عدة أمثلة على «الأصنام الساقطة» يوضح لماذا يجب أن يؤخذ استياء كارول بجدية، ولماذا إرنست محق في قوله إن العلاقة الجنسية بين المريضة والمعالج تقوّض العلاج. وفي مناقشة لاحقة بين إرنست وبول، يشير الأخير إلى أنه قد لا توجد أدلة علمية كافية تثبت أن الجنس في العلاج النفسي مدمّر دائمًا، لكنه سرعان ما أضاف: «إن مسألة الجنس بين المعالج والمريضة مسألة أخلاقية. ومن المستحيل أن يثبت لي العلم أن الشيء اللا أخلاقي هو أخلاقي».

مؤامرة انتقامية

دفعت غرائز كارول إلى أن تقتل زوجها، لكن عندما اعترضت زميلتاها على ذلك، خطرت لها فكرة أكثر إبداعًا. هل هناك وسيلة لتدمير زوجها أفضل من تدمير الطبيب الذي يعالجه، «حلمة» جاستن؟ في الواقع، كانت كارول مستاءة لأنها تدفع تكاليف علاج زوجها الطويل والمكلف. قالت لزميلتيها: «إنكما لا تعرفان الكثير عن العلاج النفسي. يبقيكِ بعض الأطباء النفسيين تأتين لرؤيتهم إلى الأبد». استندت خطة انتقام كارول أستريد إلى

إيقاع المعالج في الفخ، ثم بدأت جلسات علاجية مع إرنست، وبالطبع لم تخبره أنها زوجة جاستن (أطلقت على نفسها اسم «كارولين ليفتمان»). بعد أن أقنعت إرنست بأن ممارسة الجنس مع معالجها النفسي في الجامعة ساهمت في تحريرها وشفائها، بذلت كارول كل ما في وسعها لإقحام الجنس في العلاج حتى يستسلم لخدعتها، ثم تقاضي هذا الوغد بتهمة سوء الممارسة الطبية، وتدمّر حياته ومسيرته المهنية. كانت خطتها ماكرة تشبه خطة تروتر لكن من دون حيله الماكرة. وقد فعلت كارول ذلك في أسوأ وقت يمر به إرنست عندما قرر أن يكون صادقًا وأصيلًا ويكشف عن نفسه قدر ما يستطيع، ويدفع بذلك كشف المعالج عن نفسه إلى أقصى الحدود. إنها تجربة سريرية محفوفة بالمخاطر في أفضل الظروف، وستصبح خطيرة مع مريضة تنوي أن تدمّر طبيبها المعالج. وستجعلها أساليبها العدوانية خصمًا قويًّا في قاعة المحكمة وفي عيادة المحلّل النفسي.

إن السؤال الرئيسي الذي يطرحه يالوم في رواية «مستلقيًا على الأريكة» هو هل يمكن أن تصمد تجربة معالج مبتدئ أن يفصح عن ذاته في وجه محاولات الإغواء المستمرة من مريضة تسعى إلى الانتقام منه. يزيد الروائي من تعقيد المسألة بتصوير معالج نفسي لا يمكنه أن يتوقع التحديات الكامنة وراء هذه التجربة. إذ أن إرنست لاش معالج إنساني، طموح ومجتهد، لم يكن ينوي أن يصبح معالجًا نفسيًّا. فخلال فترة تدريبه في الطب النفسي، ركّز على العلاج الدوائي للأمراض النفسية، مؤمنًا بما تعد به الاكتشافات البيولوجية. كان يرى المرضى لمدة عشرين دقيقة، ويصف لهم أدوية دون علاج بالكلام. لا يمكن أن يكون رفض يالوم للنهج الدوائي المحض في علاج الأمراض النفسية، «استجابة لنداء الطب النفسي البيولوجي»، أكثر وضوحًا. «لكن سيمور تروتر لعب، شيئًا فشيئًا، دورًا في ذلك، وأدرك إرنست أن القيود في علاج جميع المرضى بالأدوية وابتذالها، ضحّى بأربعين في المئة من دخله، وتحوّل إلى ممارسة العلاج النفسي». لكن الحصول على تشجيع من مشرف ومعلّم مثل تروتر أمر محفوف بالسخرية. فما تزال أمام إرنست أشياء كثيرة

يجب أن يتعلّمها كمعالج نفسي، ولا يتوانى مارشال سترايدر عن تذكيره بذلك.

مارشال سترايدر

يستخدم يالوم سترايدر بمنزلة أداة سردية وشخصية تشارك في إحدى الحبكات الفرعية للرواية. وبما أنه أداة سردية، يقدّم سترايدر عمومًا نصائح سريرية جيدة لإرنست، مثل أن يتصرف دائمًا لصالح المريض. ومثل يالوم، فإن سترايدر متشدد جدًّا بأن يتجنب المعالجون ممارسة الجنس مع مريضاتهم الحاليات والسابقات. إن انتقاد سترايدر لإرنست بأنه «لا يستطيع أن يتحكّم بنفسه» من الناحية العلاجية، وسريع في تقديم التفسيرات، يعكس أيضًا حكم الروائي. ويشرف سترايدر على علاج إرنست لمرضاه، بما في ذلك جاستن وكارول. إن سترايدر هو المشرف على إرنست، وليس محلّلة، لكن قد يتداخل الدوران في بعض الأحيان. «يقبع الإشراف في المنطقة المحايدة بين العلاج والتعليم». ومع أن بعض النصائح التي يقدّمها سترايدر لإرنست موضع شكّ، أو على الأقل متحفظة جدًّا كما يراها المعالج الشاب الذي يحرص على الأصالة العلاجية. ينصح سترايدر إرنست بألّا يكشف للمرضى عن مشاعره وتخيلاته المتعلقة بالانتقال المقابل، وهو موقف سيتحدّى إرنست بعد فترة قصيرة. يختبئ سترايدر وراء الحياد التحليلي، رافضًا أن يكشف شيئًا عن نفسه لمرضاه. بإصراره على أن الدور الوحيد للمحلل هو التفسير، يغفل سترايدر أهمية الجانب الأقوى في العلاج النفسي، وهو العلاقة بين المريض والمعالج.

لم يكن علاج إرنست لكارول أمرًا مضحكًا، لكن موهبة يالوم ككاتب ساخر تتجلّى بوضوح عندما يصف تورط سترايدر في سياسة التحليل النفسي. إذ إن سعي سترايدر ليصبح رئيسًا لمعهد غولدن غيت للتحليل النفسي جعله يقوم بانقلاب على محلّله السابق، سيث باندي، أحد عضوين

فقط من الأعضاء المؤسسين الأحياء للمعهد. فقد اتُّهم باندي بالاستغلال الجنسي والمالي للمرضى الذين يعالجهم، لكنه رفض أن يستقيل من منصبه كمدرب في التحليل. إن باندي المعادي للسامية الذي هاجم نظرية فرويد لأنها تكشف عن «الخطأ اليهودي»، مستوحى من المحلل الباكستاني المولد مسعود خان الذي صدمت هجماته المعادية للسامية أوساط التحليل النفسي. (أحد مؤيدي باندي هو محلل باكستاني يدعى ميان خان). وقد طرح باندي الذي يُعدُّ شخصية غير تقليدية نظرية تقول إن لدى الرجال رغبة مثليّة لا شعورية للاندماج مع آبائهم، وندّد سترايدر بنظرية «الرحم-المستقيم» ورأى أنها انحراف عن النظرية التحليلية النفسية المقبولة، ثم اقترح أن يعود مرضى باندي الذكور السابقين الذين لحق بهم ضرر من هذا العلاج لتلقي دورة مجانية في العلاج النفسي. ونشر المعهد إعلانًا رسميًّا «لاستدعاء المرضى النفسيين» في صحيفة سان فرانسيسكو كرونيكل - «أول حالة استدعاء علاج في تاريخ الطب النفسي». لكن سرعان ما ندم سترايدر على توصيته المتسرعة هذه. فقد وجد أحد مرضى باندي السابقين، شيلي ميريمان، الذي خسر أموال أسرته في لعب القمار وخسر زوجته أيضًا (زميلة كارول)، فرصة لاستخدام هذا الاستدعاء للعلاج لكي يستعيد زوجته، ويصقل مهاراته في لعبة البوكر. ذُعر سترايدر عندما اقترح شيلي أنه سيرفع دعوى قضائية ضد المعهد بتهمة سوء الممارسة الطبية التي قد تؤدي إلى إفلاس المعهد، ونهاية أمل سترايدر في أن يصبح الرئيس التالي له. ثم وافق شيلي على أن يسقط الدعوى القضائية إذا ساعده سترايدر على معرفة لماذا يخسر باستمرار في لعب القمار، فوافق المحلل على مساعدته مكرهًا.

لا يوجد ثمة ما يدعو للإعجاب في شخصية مارشال سترايدر كإنسان، فهو شخص فخور ومغرور ومتكبر ومادي، ويحتقر زوجته، وهي امرأة لطيفة خاب أملها في التحليل النفسي وفي زوجها المحلّل النفسي، فراحت تبحث عن الشفاء في «إيكيبانا»، أي فن ترتيب الزهور الياباني القديم. وكان سترايدر البالغ من العمر ثلاثة وستين عامًا مهووسًا بالمال، ويرتكب

انتهاكات خطيرة لتجاوزه حدودًا غير جنسية مع مرضاه. وحذّر سترايدر إرنست من المشاركة العاطفية بإفراط مع المريض، لكنه كان يستثمر تسعين ألف دولار مع محتال ادّعى أنه مريض. وعاد انتهاك الحدود غير الجنسية تطارده. وعندما وقع ضحية عملية احتيال مزدوجة في نهاية القصة تقريبًا، تملكه الغضب والرغبة في الانتقام. ووجد نفسه يبحث عن مشورة قانونية وراحة نفسية من شخص عازم أيضًا على الانتقام يرى فيه نسخة قاتمة من نفسه.

تجربة صادقة للكشف عن الذات من قبل معالج

إذا كان الطابع الشخصي هو القدر، فقد يكون اسم الشخصية كذلك أيضًا. فقد اختار يالوم اسم بطل روايته بعد أن شاهد مسرحية أوسكار وايلد «أهمية أن تكون إرنست في لندن». يقدّم اسم إرنست (Eearnest) (ويعني صادق وجاد) لاش نظرة ثاقبة على مصيره، فالأشخاص الذين يتسمّون بالجدية هم بطبعهم جادون، ووقورون، وذوو شخصية رصينة. وهذا ينطبق إلى درجة كبيرة على إرنست. هل سيكون شخصية تجلد نفسها، أو تعاقبها على أفعال حقيقية أو متخيّلة؟ هل سيحتاج إلى تقييد نفسه بسلسلة العقل مثل أوديسيوس عندما يعالج مريضته الجديدة كارول ليفتمان، كما فعل يالوم عندما عالج بيني في قصة «جلاد الحب»؟ هل سيصمد حبّ إرنست للعلاج النفسي أمام خيبة الأمل؟ هل يضع يالوم شخصيته التي تفتقر أحيانًا إلى الفطنة في موقف لا يمكن إصلاحه، على وشك أن يسقط ويتعرض لخسارة فادحة؟

يشغل إرنست منصب أستاذ مساعد في الطبّ النفسي بجامعة كاليفورنيا في سان فرانسيسكو، وقد ألّف كتابًا جديدًا عن «الفقد والفجيعة»، كتبه بعد وفاة زوجته في حادث سيارة قبل ست سنوات. وكان إرنست يتوق إلى إقامة علاقة جديدة مع امرأة، علاقة تلبّي حاجة عميقة فيه، لكن هذا التوق

أحدث أيضًا رغبة وضعفًا ستحاول كارول استغلالهما. يعكس حديث إرنست عن فقدان الزوج في حفل توقيع كتابه في بالو ألتو وجهة نظر يالوم بكل صدق. يقول إرنست إن فقدان الزوج فرصة لزيادة الوعي الوجودي، ومناسبة لتجديد تقدير قيمة الحياة. وقبل أن يبدأ محاضرته، راح يحدّق إلى امرأة جذابة تبيّن أنها كانت تشارك في مجموعة علاجية كان يقودها قبل عشر سنوات، وتخيّل أنه يقيم معها علاقة جنسية، لكنه سرعان ما وبّخ نفسه لأنه لا يُسمح بممارسة الجنس مع مريضة سابقة. يذكّرنا يالوم بأن «إرنست يكره جانبه المظلم»، يكره العبودية للغرائز الحيوانية، وتبيّن أن مريضته السابقة رفضت اقتراحه بأن يلتقي بها بعد انتهاء المحاضرة، لكن كانت هناك امرأة أخرى بين الحاضرين، كارول، تخطط لأن تقيم معه علاقة.

تبدأ كارول العلاج النفسي عندما قرر إرنست أن يتبع علاجًا نفسيًّا جديدًا تمامًا يقوم على مبدأ المساواة، يعتمد كليًّا على العلاقة الراهنة (هنا والآن) بين المعالج والمريض. ووعد إرنست بأن يكشف عن نفسه تمامًا، ويتجنب الأساليب العلاجية النفسية التقليدية. «لن يحكي عن تاريخ حياته، ولن يقدّم أي تفسيرات من الماضي، أو استكشافات التطور النفسي الجنسي». باتباع هذا العلاج الجديد الجريء، سيتجاهل إرنست ما تعلّمه من أساتذته والمشرفين عليه، بمن فيهم مارشال سترايدر. ويركّز مشروع إرنست البحثي الجديد على «الوسطية» في العلاج، أي الحيّز بين المريض والمعالج، وهو موضوع يزمع أن يكتب عنه مقالًا في إحدى المجلات.

«التحليل المتبادل»

لم يكن إرنست أول من جرّب الكشف عن الذات في العلاج. يتبادل الحديث مع بول ساندور فيرينتزي، المحلل الهنغاري الذي كان أحد أقرب تلاميذ فرويد ومحلليه قبل أن يفقد حظوته لدى مبتكر التحليل النفسي. قال بول لإرنست: «لقد بدأت للتو قراءة يوميات فيرينتزي السريرية الجديدة.

إنها مثيرة للاهتمام. كان فيرينتزي الوحيد من بين المقربين من فرويد الذي امتلك الشجاعة لتطوير علاج أكثر فعالية». وأشار إرنست إلى «يوميات ساندور فيرينتزي السريرية» التي نشرتها مطبعة جامعة هارفارد في عام ١٩٨٨. في كتاب «قارئ يالوم»، يستشهد الروائي «بتجربة الشفافية الجذرية التي أجراها فيرينتزي في عام ١٩٣٢، حيث دفع بكشف المعالج عن ذاته إلى أقصى الحدود». فكّر يالوم بأن يستخدم فيرينتزي شخصية في روايته «مستلقيًا على الأريكة» بحيث تتناوب الأحداث في الرواية بين عام ١٩٣٢ والزمن الحاضر، لكنه تخلّى عن هذه الفكرة لأنه لم يجد أسلوبًا روائيًّا يمكنه أن دمج الزمنين معًا. «في النهاية، دمجتُ فكرة فيرينتزي، وليس شخصيته، في الحبكة، عندما جعلت بطل روايتي يعيد تمثيل تجربة فيرينتزي في العصر الحديث».

كان فيرينتزي شخصية مثيرة للاهتمام في تاريخ التحليل النفسي المبكر، وتغلّب على الشكوك الأولية حول ما سماه «التحليل المتبادل»، وهي فكرة اقترحها عليه مريضه ر. ن. الذي أقنعه بأنه لا يمكن إنقاذ تحليلهما الذي استمر عامين دون أن يسفر عن نتيجة إلّا إذا كان قائمًا على التبادلية. فجرّب فيرينتزي جلسات مزدوجة أو متباينة، يتناوب فيها المريض والمحلل على دور المحلل. «هل يمكن وينبغي للمحلل الذي حُلّل بهذه الطريقة، أن يكون منفتحًا تمامًا منذ البداية؟» سأل في ١٧ يناير (كانون الثاني) ١٩٣٢. لم يستغرق فيرينتزي وقتًا طويلًا ليدرك حدود التحليل المتبادل، وهي حدود أدركها إرنست أيضًا في رواية «مستلقيًا على الأريكة». وتتمثّل إحدى المشكلات في فقدان سرية المحلّل. «سيكون الأمر أشبه بإجراء التحليل والباب مشرعًا»، كما لاحظ فيرينتزي في ١٦ فبراير (شباط). أما المشكلة الأخرى فهي تحديد مقدار الحقيقة التي يجب الكشف عنها للمريض. يتساءل فيرينتزي كيف سيكون شكل التحليل، فقال المحلل: «أساسًا، أجدك مثيرًا للاشمئزاز. لا أستطيع أن أتحمّل رائحتك. وجهك وسلوكك مريعان»، فتخلّى فيرينتزي بحزن عن التحليل المتبادل لأن التجربة بدت شديدة الخطورة، وهي فكرة

اعتبرها كثيرون، كما خلص، «جنونية». يستخدم يالوم فكرة فيرينتزي عن التحليل المتبادل في روايته «عندما بكى نيتشه» حيث يتناوب كلّ من بروير ونيتشه على تحليل الآخر، وتحليل نفسه من قبل الآخر. يجسّد إرنست لاش في رواية «مستلقيًا على الأريكة»، فضول فيرينتزي الفكري الذي لا يهدأ، وصدقه، وحنكته السريرية، ونقده الذاتي، وتعاطفه، ولم يتخلّ إرنست عن فكرة أن يكشف المعالج عن ذاته، لكنه يتعلّم تقدير الحكمة التقليدية. وخلال المئتين وخمسين صفحة التالية، يقارن يالوم بين تصريحات إرنست الحسنة النية، لكن المتزايدة الغضب تجاه كارول، وبين اعتقادها الساخر بأنه يحاول إغوائها لتمارس الجنس معه. وعندما بدأت تغالي في مديحه، وادّعت بأنه المعالج الوحيد الذي يمكنه أن يساعدها، أدرك أنه يجب أن يحدد على الفور اعتقاده الساذج بأن يكشف عن نفسه بالكامل، وصاغ أول مبدأ من عدة مبادئ لكشف المعالج عن ذاته. «لا تكشف عن نفسك إلّا بالقدر الذي يكون مفيدًا للمريض». إن ما يمنع رواية «مستلقيًا على الأريكة» من أن تصبح دراسة تعليمية عن كشف المعالج عن نفسه هي روح الفكاهة الساخرة التي نشأت عن سوء فهم كارول لما يقوله إرنست، وعندما تعاطف مع اعترافها بأنها تعيش زواجًا يخلو من الحبّ، هزّت رأسها موافقة، وقالت لنفسها: « يا له من ذكي، هل يجب أن أنحني احترامًا له؟».

كيف يمكن أن ينجح العلاج عندما تكون أهداف المعالج وأهداف المريض مختلفة، الأول ملتزم بالصدق، والثاني بالازدواجية؟ كيف يمكن أن ينجح العلاج إذا كان أحدهما يسعى إلى التلاعب بالآخر وتدميره؟ كيف يمكن أن ينجح العلاج إذا كانت تقال أكاذيب كثيرة على الأريكة؟ تبرز هذه الأسئلة المسافة المستحيلة بين إرنست وكارول. ولا توجد فجوة بينهما أكبر من الفجوة التي تظهر عندما تؤكد كارول أن ممارسة الجنس مع طبيبها النفسي السابق أنقذت حياتها. كان كلّ ما تعلّمه إرنست في الجامعة واكتشفه في عيادته يمنعه من أن يتفق مع كارول، لكن كيف يمكنه أن يختلف معها دون أن يعارض تجاربها ويبطلها؟ يذكّر نفسه بألّا يصدر أحكامًا مسبقة، وأن

يتجنب أن يكون أخلاقيًا وحاكمًا، وأن يدخل إلى عالم المريض الذاتي الذي قد يكون مختلفًا تمامًا عن عالمه، لكنه لا يستطيع أن يعارض كلّ ما يؤمن به. لا يمكنه أن يهرب من هذه المعضلة، كل ما يمكن أن يقوله بصدق هو أنه لم ير مريضة قط لم يلحق بها ضرر من إقامة علاقة جنسية في أثناء العلاج. عندما لم تصدّق كارول صدقه، ضاعفت جهودها لإغوائه.

في منتصف الرواية، علم إرنست أن إحدى المريضات التي كان يعالجها، إيفا، التي تعلّم الكتابة الإبداعية مصابة بمرحلة متقدمة من سرطان المبيض، على فراش الموت. اعتاد إرنست على العمل مع مرضى يشرفون على الموت، فهرع إلى بيتها ليكون إلى جانبها. يستخدم يالوم هذه القصة ليصف أحد ابتكارات إرنست العلاجية، وابتكاراته هو نفسه. «فقد كان إرنست يستخدم في علاجه مع عدد من المرضى مفهوم الندم، ويطلب منهم أن يتفحّصوا مدى شعورهم بالندم على سلوكهم في الماضي، ويحثّهم على ألّا يشعروا بالندم في المستقبل، ويقول لهم: إن الهدف هو أن تعيش ولا تنظر بعد خمس سنوات إلى تلك السنوات الخمس المليئة بالندم». نتعلّم أن استخدام «الندم المرتَقَب» لا ينجح دائمًا، لكنه عندما ينجح، فإنه يمكّن إيفا من أن تعيش بقوة أكبر «لامتصاص النخاع من عظام الحياة». ومن المثير للاهتمام أن إيفا وإرنست استخدما عيادته للعلاج لمواجهة «رعب نهاية الحياة» عندما بلغت مرحلة شديدة من المرض ولم يعد باستطاعتها أن تأتي إلى عيادته، وكان يكلمها بالهاتف ويزورها في بيتها من حين لآخر، دون أن يتقاضى أجر العلاج. وقد وفى بوعده بأن يكون معها عندما تموت. تجنب يالوم إضفاء طابع عاطفي على الموت عندما غضب إرنست من نفسه عندما شعر بإثارة جنسية عندما استلقى بجانب المريضة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

اتخذت كارول لنفسها شخصية مزيفة في أثناء العلاج لكي لا يعرف إرنست أنها زوجة جاستن، لكن على الرغم من ذلك، فقد كشفت له عن المُشكلات الرئيسية في حياتها كي لا تقع في أي خطأ. لكن ما أثار دهشتها واستيائها، أنها شاركت بشغف في العلاج بالكلام، ورأت أن العملية مغرية.

ومع أنها ظلت تنظر إلى إرنست بعين الريبة، فقد اعترفت لنفسها مكرهة بدقة تفسيراته. وباستخدام تقنية الندم المرتَقَب، ذكّرها إرنست أنه لم يفت الأوان لتغيير حياتها. قال لها بلطف: «إن مواجهة الموت محفّز كبير للتغيير»، وهي فكرة تظهر في جميع كتابات يالوم.

سرعان ما اكتشف إرنست أنه إذا أراد أن تنجح تجربته الثورية في الكشف عن نفسه كمعالج، يجب أن يكون مستعدًّا للكشف عن نفسه أكثر مما يشعر بالراحة في الكشف عنه. وجد يالوم متعة بدفع شخصياته، المعالجين والمرضى على حد سواء، خارج نطاق راحتهم. فعندما سألته كارول هل هو أعزب أم متزوج - «لا يذكر غلاف كتابك شيئًا عن زوجة» - قال لها إنها ماتت منذ ست سنوات. فردّت كارول بتعاطف غير متوقع لكنه صادق، وقالت: «أنا آسفة. لا بد أن ذلك كان أمرًا عسيرًا». بدّل يالوم الأدوار بحذق هنا، فبدت المريضة كما لو أنها معالجة نفسية، وهي نفس التقنية التي استخدمها الروائي في رواية «عندما بكى نيتشه». كان زواج إرنست متعثرًا وربما كان سينتهي بالطلاق لو لم تمت زوجته في حادث سيارة، لكن كيف يمكنه أن يكشف عن تفاصيل زواجه المضطرب دون أن يحوّل التركيز بشكل خطير إلى نفسه؟ لأن ذلك سيكون إساءة للمريضة التي تدفع ثمن علاجها، وليس المعالج.

اكتشف إرنست مشكلة أخرى في كشف المعالج عن ذاته وهي: انتهاك خصوصية المعالج. إن سرّية المريض مضمونة، أما سرّية المعالج فهي ليست كذلك. فقد يصبح كشف المعالج عن ذاته معروفًا لدى الجميع، وقد يؤدي ذلك إلى إحراجهم أو إلحاق الضرر بهم. ومن ناحية أخرى، لا يريد إرنست أن يتخلّى عن تجربته في أن يكشف المعالج عن ذاته بالانسحاب إلى حياد المحلل، وهو موقف يعتبره مناقضًا للعلاج الحقيقي. تساءل ما الذي ينبغي أن يفعله، فتوصل إلى قاعدة جديدة مهمة في كشف المعالج عن ذاته: «اكشف عن نفسك بالقدر الذي يساعد مريضك، لكن إذا كنت تريد أن تستمر في ممارسة مهنتك كمعالج، فاحرص على كيف سيبدو الكشف عن الذات أمام المعالجين الآخرين». إن الرغبة في الشفافية لا تُجبر المعالج على الكشف عن

ذاته بشكل طائش.

يؤيد يالوم جميع استنتاجات إرنست حول كشف المعالج عن ذاته، لكنه يُظهر أيضًا سذاجة بطل روايته المتعلقة بتصرفات كارول. يقول إرنست لبول إن العناق في علاجه لها «يمثّل المحبّة، لا الشهوة». والحقيقة أن عناق كارول لم يكن مثالًا على الحب أو الشهوة، وإنما على الغضب والانتقام. إن سوء فهم إرنست لها ضروري له ليبقى إنسانًا، ليس كليّ المعرفة، كما أن سوء فهمه ضروري لدفع حبكة الرواية. يهتم القرّاء بالبشر غير الكاملين، ولا يهتمون بالشخصيات التي تعرف كل شيء. يعقّد يالوم الحبكة عندما يثير سلوك كارول المغوي إرنست. هل ينبغي للمعالج أن يكشف بأنه استُثير جنسيًّا؟ وإذا كان الأمر كذلك، كيف سيكون تأثير اعترافه على العلاج؟ يصل إلى استنتاج آخر جدير بالملاحظة حول كشف المعالج عن ذاته. «ربما ينبغي للمعالجين ألّا يفصحوا عن أشياء يشعرون بأنها تتعارض معهم بقوة، لذلك، من الأفضل أن يحلّ المعالج أولًا هذه المشكلات بإجراء علاج شخصي، وإلّا فإن المريض يصبح مثقلًا بالعمل على حلّ مُشكلات المعالج».

حدث أول تقدم تحرزه كارول في العلاج عندما يطرح إرنست سؤالًا ملحًّا لم تكن مستعدة للإجابة عليه. إذا كانت، كما ألمحت، تعاستها الزوجية تكرار لموقف أمها اليائس، عندما هجرها زوجها فجأة منذ عقود، وتركها تربي أبناءهما وحدها، فكيف تستطيع كارول أن تكسر هذه الحلقة المفرغة لكي لا يحدث نفس المصير القاتم لابنتها؟ تخرج كارول وهي تبكي من عيادة إرنست مرتبكة. بعيدًا عن إدراكها لأهمية السؤال، وهو مثال على استراتيجية إرنست السريرية المتمثّلة في الندم المرتَقَب، تقول في نفسها: «عليه اللعنة، لقد فعلها مرة أخرى. لماذا أدع هذا اللقيط ينال مني». يثبت سؤال إرنست أنه نقطة تحول في حياتها، وتبدأ كارول دون أن تدرك تتصرف بلطف وشفقة تجاه أبنائها الذين شعروا بالتغيير، وبدأت تفكّر أيضًا في شقيقها الذي قاطعته منذ فترة طويلة. بالإضافة إلى ذلك، لاحظت شابًّا، يدعى جيس، مريض مثلها يعالجه إرنست، لكنه يكنّ للمعالج أعلى درجات الاحترام.

عملية الانتقال الجنسي

لم تكن كارول مستعدة للتخلي عن خطتها للانتقام بعد. فزادت من إغوائها له، وبدأ إرنست الذي درس الأدبيات المنشورة عن الانتقال الجنسي، يشعر بانزعاج متزايد. وبعد أن قرأ إحدى مقالات فرويد عن علاج «النساء ذوات العواطف والانفعالات القوية»، خلص إرنست إلى أن مبتكر التحليل النفسي كان قد تخلّى عن علاج تلك المريضات. «متشائمًا من علاج هذا النوع من المرضى، زعم فرويد أنه لا يوجد أمام المعالج سوى خيارين غير مقبولين، هما: إما أن يبادل المريضة حبّها، وإما أن يصبح هدفًا لغضب تلك المرأة المكبوتة، وقال فرويد إنه في كلتا الحالتين، على المعالج أن يعترف بالفشل وينسحب من الحالة».

غير أن تعليقات إرنست مضللة لأن فرويد لم يكن متشائمًا من جميع حالات الانتقال الجنسي الشديدة، بل من الحالات التي تنتمي إلى نوع معين فقط. لم يشر يالوم إلى مقال فرويد بالاسم، لكنها «ملاحظات حول انتقال الحبّ»، وهي آخر ست مقالات عن التقنية كُتبت بين الأعوام ١٩١١ و١٩١٥. يركّز المقال الذي يتسم بالبصيرة والكتابة البارعة على المريضات اللواتي يعتقدن أنهن أُغرمن بمعالجهن، يقرّ فرويد بأن المحللين لم يرغبوا في الاعتراف بطبيعة هذه المشكلة المحرجة والمربكة. «لكن بما أننا نحن الذين نسخر من أخطاء الآخرين لسنا دائمًا في مأمن منها، فإننا لم نكن حتى الآن في عجلة من أمرنا للقيام بهذه المهمة». كُتبت الورقات الست عن هذه التقنية أساسًا للمحللين النفسيين، وليس للمرضى أو للجمهور العام. كان فرويد يتردد دائمًا في الكتابة عن الانتقال المقابل، خشية الإقرار بأنه قد يمنح مزيدًا من الذخيرة لأعداء التحليل النفسي. وكانت أهم ملاحظة ذكرها فرويد أن على المحلل أن يحذر من الانتقال المقابل المدمّر في أثناء علاج هؤلاء المرضى. «يجب أن يدرك أن حبّ المريضة له ناتج عن البيئة التحليلية وليس إلى سحر شخصيته. لذلك لا يوجد لديه أي سبب لأن يفتخر بمثل هذا «الانتصار»،

كما يمكن أن يُسمى خارج التحليل»، ويضيف فرويد أن «اندفاع العاطفة للحب، هو نتيجة المقاومة إلى درجة كبيرة».

كيف يجب أن يستجيب المحلل النفسي لحبّ مريضة ناجم عن الانتقال؟ يستخدم فرويد أكثر تشبيهاته واستعاراته إثارة للقلق ليقول إن حث المريضة على أن التخلّي عن هذه المشاعر أو كبتها سيكون عديم الفائدة، مثل استخدام الأرواح الماكرة لاستدعاء روح من العالم السفلي، ثم الفشل في معالجة سؤال واحد قد يضيء لغزًا معتمًا. ومن ناحية أخرى، فإن إرضاء رغبة المريضة في الحبّ سيكون كارثيًا على العلاج. لذلك، يجب أن يتنقل المحلل بين أمرَيْن أحلاهما مُرّ. «يجب أن يمسك بقوة بعملية انتقال الحب، بل أن يعاملها باعتبارها شيئًا غير حقيقي، حالة يجب اجتيازها في العلاج وتتبعها إلى أصولها اللا واعية التي يجب أن تساعد على إبراز كل ما هو مخفي بعمق في الحياة الجنسية للمريضة لجلب كلّ ما هو مخفي بعمق في الحياة الجنسية للمريضة إلى وعيها، وبالتالي جعله تحت سيطرتها».

كان فرويد واثقًا من أن المحللين النفسيين يستطيعون علاج معظم المريضات اللاتي يُظهرن مشاعر حبّ انتقال شديدة، لكنه يعترف بوجود «فئة واحدة من النساء» لا يمكن علاجها. وهي الفئة التي يشير إليها إرنست لاش، «النساء ذوات العواطف والانفعالات القوية»، إنهن بنات الطبيعة» اللاتي «يرفضن أن يقبلن الأمور الروحانية ويفضلن عليها الأمور الجسدية» كما يقول فرويد. ولم يكن فرويد يرى أي أمل لهؤلاء المريضات. وليس من الواضح ما هو عدد النساء اللاتي يعتقد فرويد أنهن يندرجن ضمن هذه الفئة. ولم يكتب يالوم قط عن مريضة فشلت في العلاج بنجاح بسبب عملية انتقال شديدة. وقد خشي إرنست أن تكون كارول واحدة من تلك المريضات، لكن يجب أن نشير إلى أنها لم تكن امرأة لها عواطف وانفعالات جامحة، ولم تنجذب إلى محللها أيضًا. فلم يكن الجنس بالنسبة إليها سوى سلاح في ترسانة أسلحتها لتدمير حياة زوجها والطبيب الذي يعالجه.

العلاج الجامح

ممزّق بين الحفاظ على نزاهته المهنية التي تتطلب أن يتجنب إقحام الجنس في العلاج، ومواصلة تجربته في الكشف عن الذات كمعالج والتي ترغمه على أن يردّ بصدق على أسئلة كارول الشخصية المتزايدة حول ما إذا كان منجذبًا إليها، يجد إرنست نفسه في مأزق. كيف يمكنه أن يخبرها بأنه يفضّل أن يكون عشيقها وليس معالجها؟ وأنه يرتدي أفضل ثيابه عندما يأتي إلى جلسات العلاج معها؟ وأنها غزت حياته في اليقظة والنوم؟ إن ما يزعج إرنست كثيرًا المقالات التي يقرأها عن انتهاكات الحدود الجنسية والتي تحذّر من التواطؤ اللا واعي بين المعالج والمريضة المغوية، حتى إنه يستأنف علاقته مع «صديقة قديمة كان بينهما ترتيب غير عاطفي لكنه مرضٍ جنسيًّا، في محاولة ليُخرج كارول من تفكيره. يقول يالوم في كتابه «هبة العلاج» أن «أي خيار، بما في ذلك الذهاب إلى عاهرة، أفضل من الخيار الكارثي المتمثّل في إقامة علاقة جنسية مع مريضة». ولا يتردّد إرنست أبدًا في اعتقاده بأن الرغبة في معرفة الحقيقة هي التي سببت مأزقه مع كارول، لكن الرغبة نفسها في معرفة الحقيقة ستساعده على إيجاد حلّ لهذا المأزق. وقد أقنعها أحد أحلامها، وهو قرفها واشمئزازها من أن تنام مع «بيبي دوك»، ابن الدكتاتور الهايتي السابق دوفالييه، الذي يمثّل رغبتها في ألّا تنام مع محللها النفسي.

عندما بدأ الشك يراود كارول بأن إرنست رجل أخلاقي أكثر مما كانت تظن، أصبح المارشال سترايدر أحد زبائنها. ينسج يالوم خيوط قصته الرئيسية التي تدور حول جهود كارول لإغواء مريضها لانتهاك الحدود الجنسية، والخيط الفرعي الذي يدور حول جهود سترايدر للكشف عن المحتال الذي قاده إلى انتهاك حدود غير جنسية. استشار سترايدر مريضه السابق، جوليوس جارندايس، الشريك الأقدم في أحد مكاتب المحاماة في سان فرانسيسكو. يذكّرنا اسمه بالقضية القضائية الشهيرة «جارندايس وجارندايس» في رواية ديكنز «بيت الكآبة» عام ١٨٥٣. كان سترايدر

مضطربًا حتى إنه لم يستطع أن ينتظر أسبوعًا ليرى مريضه السابق، وتوجّه بسرعة إلى كارول التي أفضى إليها بأسراره، واعترف بجميع تفاصيل عملية الاحتيال التي تعرّض لها، ما عدا قلقه حول الأخلاقيات المهنية التي يخجل من الكشف عنها. وعندما ضغطت كارول عليه بشأن الأخلاقيات المتعلقة بالحدود المالية بين المعالج والمريض، اعترف بأن «هذه القواعد لا تحمي المريض فقط، وإنما المعالج أيضًا». وعندما أدركت كارول أن موكلها سترايدر يمر في حالة ذعر، نصحته بأن يتحدّث إلى شخص يثق به، سواء أكان صديقًا أو معالجًا. وعلى الرغم من أنه معالج نفسي، لم يكن لديه أصدقاء، ولم يكن يثق بالمعالجين الآخرين، دخل في علاقة شبه علاجية مع كارول التي سرعان ما خَمَّنت أنه معالج جيس السابق والمشرف السابق على إرنست، وهو اكتشاف لا تستطيع أن تبوح به لأي شخص لالتزامها بقواعد السرية المهنية. بذلت كارول محاولة فاترة أخيرة لإغواء إرنست، فأجابها بصراحة قاسية، «سوف تتجمّد جهنم قبل أن أتورط في عمل جنسي معك، أو مع أي مريضة أعالجها». عندما تأكدت من أنه يتصرّف لمصلحته الشخصية، تخلّت عن خطتها للانتقام منه. إن دافع المصلحة الشخصية غالبًا ما يثبت فعاليته في عالم يالوم: تذكّر أن بروير استخدم هذا الدافع لإقناع نيتشه بأن يقبل اقتراحه بالعلاج المتبادل. الغريب أن إرنست لم يفكر قط في سؤال كارول إن كانت ستنتهك حظر مهنتها على العلاقات الجنسية بين المحامي وموكلته. فالعلاقة الجنسية بين المحامي وموكلته، مثلها مثل العلاقة الجنسية بين المعالج والمريضة، غير أخلاقية، ويعود ذلك أساسًا إلى عدم المساواة في القوة في العلاقة، وهو عدم مساواة يجعل من المستحيل أن يمنح الموكلة الضعيفة، مثل المريضة الضعيفة، موافقة حقيقية. لا يتوقع القارئ أن يتخيّل أن كارول التي يدفعها الغضب في حياتها الشخصية، لكنها تتصرّف دائمًا وفق المبادئ في حياتها المهنية، أن تفعل شيئًا ينتهك أخلاقيات عملها.

حدثت عدة تطورات غير متوقعة في الجلسة قبل الأخيرة بين كارول وإرنست. أصرّ إرنست على أن يتحدّث أولًا، وقد جعل ذلك كارول تهمهم

لنفسها متذمرة: «لمن هذا العلاج، على أي حال؟» قال إنه لم يكن معالجًا جيدًا بالنسبة إليها، فقد جاء كشفه عن إثارته الجنسية بنتائج عكسية على العلاج. وأضاف أنه كان يجب أن يخبرها مسبقًا عن علاجه التجريبي الذي يعتقد الآن أنه فشل. اعترضت كارول على انتقاد إرنست لنفسه، وتحدّثت بوصفها محامية ومريضة، وردّت على حججه. لم تكن مستعدة بعد للكشف عن هويتها وخطة الانتقام الفاشلة، لكنها قالت له إنها ربما كانت تختبره دون وعي منها طوال فترة العلاج، وأكدت له أنه اجتاز الاختبار. ومن دون أن تنتهك السرّية، طلبت مشورته لعلاج موكلها-معالجها الجديد الذي يعاني من مشاعر الغطرسة والوحدة والمرارة. قبل إرنست التحدّي وشجّعها على مساعدته في البحث عن منظور كوني نيتشوي. وأوصى أيضًا بعلاج صدمة وجودي: يجب على مريض كارول أن يتخيّل نفسه في المستقبل، في لحظة موته وجنازته، وأن يتخيّل ماذا يريد أن يُكتب على شاهدة قبره. وتنبأ إرنست بأن احتيال مريضها قد يكون خلاصه، وانتهى هذا الفصل الدقيق بأن طلبت كارول مرة أخيرة أن يعانقها عناقًا أبويًّا.

المعالج الجريح

كانت كارول»معالجة» فعّالة لسترايدر، لكنها لم تستطع أن تهدئ غضبه الشديد، فقد خدعه بيتر ماكوندو بمبلغ آخر قدره أربعة وعشرون ألف دولار. لكن كارول لم تتوقف عن مساعدة سترايدر، كما لم يتوقف إرنست عن معالجتها. فعقدت عدة جلسات «علاج نفسي» مع سترايدر أثبتت قيمتها النفسية لكليهما. وبمساعدة توصيات إرنست، عملت كارول طبيبة نفسية لسترايدر، وبتحفيز شفاء سترايدر، عجّلت في شفائها هي نفسها.

في بداية رواية «مستلقيًا على الأريكة»، يناقش إرنست وبول كتاب سيرة يونغ الذاتية «ذكريات وأحلام وتأملات» ويرفضان كلاهما مفهوم يونغ عن المعالج الجريح. يصف إرنست سيرة يونغ الذاتية بأنها «غريبة» و»غير

صادقة»، وسأل باستغراب: «المريض يعالج جرح المعالج؟» فردّ بول: «تمامًا، تخيّل فقط الآثار الناجمة عن ذلك». يستطيع القارئ أن يستنتج بشكل منطقي أن إرنست وبول يمثّلان وجهة نظر يالوم. لكن إذا قرأ المرء كلمات يونغ بعناية، فإن فكرة المعالج الجريح تصبح أكثر إقناعًا، خاصة عندما يعترف بأن المريض غالبًا «هو تمامًا الجص المناسب لمكان الألم لدى الطبيب» (يونغ). ومن المؤكد أن كارول مريضة جريحة، لكن بمساعدتها سترايدر فهي تعمل بمنزلة معالجة جريحة. يعيد يالوم في رواية «عندما بكى نيتشه» إلى الحياة معالجين جريحين، طبيب وفيلسوف، يعالج كلّ منهما جراح الآخر النفسية.

نهاية الرواية

ينسج يالوم خيوط الرواية المختلفة في الفصل الأخير الذي يضم مفاجأة. يشرح سترايدر لكارول قلقه الدائم المتعلق بالمال، ويتذكّر طفولته الفقيرة، عندما كان والده يكافح من أجل كسب رزقه. « كان لديه محلّ بقالة صغير بين الشارع الخامس وشارع آر في واشنطن. كنا نسكن فوق المحلّ». وهذا نفس الوصف الذي يقدّمه لنا يالوم في «سيرته الذاتية» عن حياة أسرته المهاجرة الصعبة في حيّ فقير في واشنطن العاصمة. هل قلق سترايدر المتعلق بالمال هو انعكاس لقلق مؤلفه؟ لا يمكننا الإجابة عن هذا السؤال استنادًا إلى رواية «مستلقيًا على الأريكة» وحدها، ولكي لا يكون هناك أي شك في الصلة بينه وبين السيرة الذاتية، يروي سترايدر كيف جاء زبون ذات يوم إلى دكان أبيه وطلب زوجًا من قفازات عمل، فأشار أبوه إلى الباب الخلفي، وقال له إنه يجب أن يُحضرهما من الغرفة الخلفية، وأن ذلك سيستغرق بضع دقائق. لكن لم تكن هناك غرفة خلفية، وكان الباب الخلفي يُفتح على زقاق. «ركض أبي في الزقاق المؤدي إلى السوق المفتوحة على بعد شارعين، واشترى زوجًا من القفازات باثني عشر سنتًا، وعاد بسرعة وباعها للزبون بخمسة عشر سنتًا». ظهرت هذه الحكاية ذاتها في «حديث مع إرفين د. يالوم» في نهاية رواية «علاج شوبنهاور». يشكّل اهتمام سترايدر الشديد بالنقود والمكانة

الاجتماعية الجانب المظلم في شخصية يالوم، وهي رؤية تساعدنا على فهم قدرة الروائي على التعاطف مع جميع شخصياته، بمن فيهم الشخصيات الأقل إثارة للشفقة. وفي كتاب «أن أُصبح نفسي»، يكشف يالوم عن مصادر أخرى ذاتية لرواية «مستلقيًا على الأريكة»، بما في ذلك تعرّضه لعملية احتيال بمبلغ كبير لاستثماره في شركة لا وجود لها.

استفادت كارول من العلاج النفسي بطريقتين، الأولى بوصفها مريضة يعالجها إرنست، والثانية «بوصفها معالجة لسترايدر. وأصبحت شخصًا مختلفًا في نهاية الرواية. ممتنة لتحررها من زواج سيئ، دخلت في علاقة رومانسية واعدة مع رجل جديد يُدعى جيس. هل ستتوّج العلاقة بالزواج مرة أخرى؟ لا يقدّم لنا يالوم أي إشارة إلى ذلك، بل يترك للقرّاء التوصل إلى استنتاجاتهم الخاصة. وفي مشهد الرواية الأخير، أصبحت كارول أخيرًا مستعدة للاعتراف لإرنست. ومثل بروير في نهاية رواية «عندما بكى نيتشه»، كانت تخفي سرًّا فظيعًا. «إرنست الذي كان يشكّ دائمًا في أنها تخفي عنه شيئًا مهمًّا، يبتسم بشيء من التكبر» عندما قالت له إنها تريد أن تعترف له بشيء، أجاب في الكلمات الأخيرة من الرواية: «مستعد دائمًا للحقيقة». أثبتت تجربة إرنست للكشف عن ذاته كمعالج نفسي نجاحًا باهرًا في نهاية رواية «مستلقيًا على الأريكة»، فقد زاد حبّه للعلاج النفسي، وامتنانه له أيضًا. فقد اتبّع بإخلاص نصيحة تروتر في مطلع الرواية بأن يكون قناة مفتوحة «لظلّه»، وهو مصطلح يونغ للجانب المظلم من الذات. وتعلّمت كارول الثقة من علاجها مع إرنست، وتعلّم هو منها كيف يعيش مع ظلّه.

طبيب الرغبة

ينبغي أن يذكر أي نقاش حول رواية «مستلقيًا على الأريكة» على الأقل بإيجاز «طبيب الرغبة»، الرواية التي كتبها المحلل النفسي المتميّز والكاتب المبدع ألين ويليس عام ١٩٨٧. مثل» مستلقيًا على الأريكة»، يستكشف

طبيب الرغبة العواقب الكارثية للعلاج الذي يتسرب إليه الجنس، مع أن الرواية الأخيرة أكثر قتامة من الرواية الأولى. فقد استكشف ويليس بصدق وشجاعة لا يتزعزعان ضعف المحلل النفسي أمام الرغبة الجنسية المنتهكة، والشك الفكري المدمّر، والإصابة بمرض النرجسية، والوحدة والعزلة، والملل. قلة قليلة من زملاء ويليس تجرؤوا على الاعتراف علنًا بمخاطر مهنة المحلّل النفسي. فقد كتبت دافني ميركين في نعيها الذي أشاد بألين ويليس والذي نُشر في مجلة نيويورك تايمز في ٣٠ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠٧: «بما أن الكلمات هي ركيزة التحليل النفسي، فقد يبدو غريبًا في ظاهره أن حفنة قليلة من الممارسين كتبوا نثرًا أنيقًا أو حتى واضحًا». واستشهدت ميركين بحفنة من المحللين النفسيين الذين برزوا في هذا «المجال المهمل»، بمن فيهم إرفين يالوم.

تجربة يالوم الروائية

لم تحظ رواية «مستلقيًا على الأريكة» بنفس القدر من المراجعات التي حظيت بها رواية «عندما بكى نيتشه»، لكن النقاد أشادوا بذكائها وروحها الساخرة. ووصفتها مجلة «كيركوس ريفيوز» بأنها «دراسة رائعة حول كيف يفكّر الأطباء النفسيون، تبني رؤية لمجتمع صحي وناضج بما يكفي لمواجهة مخاوفه الأعمق والأكثر استمرارًا». وعلّق الناقد في مجلة «الناشرون الأسبوعية» بالقول: بقدر ما هي رواية ممتعة، فإنها تعرض الأخطاء الأخلاقية أو المهنية التي يرتكبها المحللون النفسيون باعتبارها الثمن المقبول لممارسة المهنة»، وهي قراءة خاطئة تمامًا مثل تهجئة اسم الروائي «أرفين د. يالوم». ويختتم جوناثان كيرش مراجعته في صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» بتنويه خجول: «إن القاعدة السرية التي تنطبق على مراجعي الكتب لا تقلّ عن تلك التي تنطبق على المعالجين النفسيين التي تمنعني من الكشف عن الطريقة التي يعمل بها يالوم على حبكات الرواية وحبكاتها الفرعية. لكنه يفعل ذلك بذكاء شديد إلى درجة أن جميع حيله، بوصفه روائيًا وطبيبًا نفسيًا، ستُغفر

له». وبفضل روح الدعابة الساخرة، والفطنة النفسية، والخبرة في سرد القصص، تبرهن رواية «مستلقيًا على الأريكة» على قدرة الفن على التعليم والتسلية. تقول روثيلين جوسيلسون أن رواية «مستلقيًا على الأريكة» هي أكثر روايات يالوم «تعقيدًا من حيث الحبكة، وأقلّها تعليمًا بشكل صريح، لكن أي طالب علم نفس يجد فيها أمورًا كثيرة تثير تفكيره حول العملية». قصة انتقام، دراسة حالة نفسية، حكاية وجودية، ومثال أخلاقي، فإن «مستلقيًا على الأريكة» هي قبل كل شيء قصة حبّ عن إخلاص معالج نفسي وامتنانه لمهنته، وتستحق الرواية قراءة مرات عديدة، فهي لا تجذب المعالجين النفسيين الشباب فقط الذين هم الجمهور المستهدف أساسًا، بل تستهدف أيضًا المرضى والطلاب والمعلمين والقراء غير العاديين. يمكن قراءتها في أي مكان: في فصل دراسي جامعي عن الأدب أو علم النفس أو الأخلاق، أو في برنامج دراسات عليا في العلاج النفسي، أو في المنزل أو في المكتب وأنت مستلق على الأريكة.

الفصل الثامن

أمي ومعنى الحياة:
« كومة سماد داخلية متقدة»
من الإبداع

بعد عشر سنوات من صدور مجموعة «جلّاد الحبّ»، تعود «أمي ومعنى الحياة» التي صدرت في عام ١٩٩٩ إلى «حكايات العلاج النفسي» لكن بشيء من الاختلاف. فالمجموعة الجديدة التي تتألف من ست قصص، أكثر قتامة وحدّة، مليئة بتأنيب الذات الحزين، ربما لأن يالوم تقدم في العمر عشر سنوات، وأصبح أكثر وعيًا بخيبة الأمل الحتمية في الحياة. ومثل المجموعة السابقة، تتميّز هذه القصص والحكايات بالسخرية والغموض. ولا يستخدم يالوم صيغة محددة في قصصه عن العلاج النفسي، لكنه يبدو كما عادته متواضعًا أو حتى قاسيًا على نفسه، ويكاد يُفاجأ في أحيان كثيرة، كما يُفاجأ القارئ نفسه. تكشف القصص عن شعوره بالذنب لأنه متفوق، كما يعترف في كتابه «التحديق إلى الشمس» على حساب التزامه تجاه أسرته وأصدقائه والمرضى الذين يعالجهم. تُلقي بعض القصص التي تؤكد على الحياة، لكنها ليست دافئة دائمًا، مزيدًا من الضوء على أعماله السابقة واللاحقة، وتقدّم قصصًا خلفية رائعة أو تتنبأ بالموضوعات التي سيتناولها في أعماله اللاحقة. إن القصص الواردة في هذه المجموعة التي تزخر بالرؤى العلاجية القيّمة، جديرة بقراءة واسعة. إذ يقدّم يالوم معضلات إنسانية مربكة ومثيرة للاهتمام لا يمكن حلّها بالرغم من ذخيرته من الحكمة السريرية. ومن المفارقة يبدو أنه مهتم بفشله أكثر من اهتمامه بنجاحه، ربما لأن الأول يمثّل قصصًا تحذيرية محفوفة بالغموض الأخلاقي.

حلم من؟

«أمي ومعنى الحياة»

تبدأ القصة التي تحمل نفس العنوان بالحلم نفسه. يجد الشخص الذي يروي القصة بضمير المتكلم نفسه في المستشفى، يقفز من السرير، ويغادر المستشفى، ويجد نفسه في منتزه للألعاب، ويدخل «بيت الرعب». يرى أمه

في وسط جمع من الناس الواقفين، يلوّح لها بذراعيه، وقبل أن يبتلعه الظلام، ناداها مرة أخرى: «ماما، ماما، ماذا يجب أن أفعل؟ ماذا أفعل؟».

عندما استيقظ يالوم من الحلم، عاد بذاكرته إلى أيام طفولته في واشنطن العاصمة، وتأمل في علاقته المضطربة مع أمه التي ماتت منذ عشر سنوات. يواصل الابن التوق إلى رضا أمه رغم انزعاجه الشديد منها، فقد كانت امرأة مغرورة، مسيطرة، طفيلية، مرتابة، حقودة، معتدَّة برأيها، وجاهلة إلى درجة كبيرة (لكنها ذكية - حتى لو لم يكن بإمكاني أن أرى ذلك). «لا أذكر أبدًا، ولا مرة واحدة، أنني شاركتها لحظة دافئة واحدة، ولم أفتخر بها قط، ولم أشعر بالسعادة لأنها أمّي. فلسانها ينفث سمًّا وكلّ كلمة تقولها عن الآخرين مليئة بالغلّ والحقد - ما عدا أبي وأختي».

الأسئلة كثيرة جدًّا. إذا كان يالوم راويًا موثوقًا، وإذا كانت علاقته بأمه التي رعته واعتنت به طوال حياتها، مضطربة، فكيف استطاع أن يقيم علاقات أكثر إيجابية مع النساء اللاتي عرفهن في حياته؟ كيف استطاع أن ينمّي مشاعره الوجدانية وتفاؤله الاستثنائيين مع أن أمه لم تكن تلك الأم الجيدة؟ لماذا يناديها «أمي» في حين كانت العلاقة بينهما تفتقر إلى حبّ حقيقي؟ شعور يالوم بالمرارة تجاه أمه - « كم مرة صلّيت في نفسي وقلت: أرجوك يا أبي، أرجوك، هذه المرة فقط، اضربها الضربة القاضية»، تذكّرنا بمناشدة أبيه أن «يضربها» في مجموعة «جلّاد الحبّ». كيف استطاع يالوم ألّا يصبح مثل أمه؟

استعارة عن إبداع يالوم

تكشف مجموعة «ماما ومعنى الحياة» أكثر مما يكشفه أي كتاب من كتبه الروائية وغير الروائية السابقة، عن عزم يالوم بأن يصبح كاتبًا، ويشيد بالفيلسوف الذي كان له أكبر تأثير عليه. «يقول نيتشه: نحتاج إلى الفن لكي لا تهلكنا الحقيقة. لذلك، فإني أعتبر أن الإبداع هو المسار الذهبي الذي حوّل

حياتي كلّها، وكلّ تجاربي، وكلّ تصوراتي، إلى كومة من السماد الذي يشتعل في داخلي والذي أحاول أن أصمم منه، بين الحين والآخر، شيئًا جديدًا وجميلًا». لكننا نرى هنا مفارقة مثيرة للقلق. إذ تصف القصة الأخيرة في مجموعة «جلّاد الحب» جهود يالوم لدمج مارفن الإنسان في عالم أحلامه السفلي، لكن مسافة أكبر بين الذات الواعية واللا واعية تظهر في قصة «أمي ومعنى الحياة». فقد كرّس يالوم حياته برمتها، بوصفه معالجًا وكاتبًا، ليكون مُصلح أحلام. «تعلّمت كيف أروّض أحلامي وأفككها ثم أعيدها وأجمعها معًا. تعلّمت كيف أستخرج أسرار الأحلام»، لكن أحلام يالوم نفسه تشير إلى أنه كرّس نفسه دون وعي منه لهدف مختلف «وهو أن أحظى بموافقة أمّي التي ماتت منذ سنوات». ويالوم خبير في دمج العالمين الخارجي والداخلي للمرضى الذين يعالجهم، لكنه هو نفسه بحاجة إلى التكامل الذاتي. سيُفاجأ هؤلاء المرضى عندما يكتشفون أن حديثه ينبع من تجربة شخصية مؤلمة عندما يقول «أن الأطفال الذين تعرّضوا للقسوة يجدون في غالب الأحيان صعوبة في أن ينفصلوا عن أسرهم المفككة».

ترد مفارقات أخرى في القصة. فلم تستطع روث يالوم التي لم تتلق أي درجة من التعليم، أن تفهم الكتب التي ألّفها ابنها، مع أنها تقدّرها وتعتبرها أشياء مادية مثل أبنائها. ومع أنها فقدت بصرها مع تقدمها في العمر، ظلت تحمل كتبه في حقيبة تسوّق، ثم تُخرجها برفق وتمرر أصابعها عليها. الأم الفخورة تجعل من الكتب التي ألّفها ابنها مقامًا مقدسًا. تحدث المفارقة الأخيرة في نهاية القصة عندما تقول له أمه إنه أخطأ في فهم الحلم الذي يسألها فيه عن كيف كان أداؤه في الحياة، وهو نفس الحلم الذي تبدأ به القصة. كيف يمكنها أن تشكك في حلمه، يتساءل يالوم بغضب. لكن لها الكلمة الأخيرة في القصة: «لم يكن ذلك الحلم حلمك يا بني. وإنما حلمي أنا. فللأمهات أحلامهن أيضًا». لم يتخيّل يالوم قط أنه توجد لدى أمه أيضًا أحلام لم تتحقق؟ وأن الكاتب يستغل أحلام وقصص الآخرين؟ تشكّل هذه الأسئلة جزءًا من كومة السماد الداخلي المتقدة التي يصنع منها الكاتب شيئًا

جديدًا وجميلًا.

تجادل نانسي أندرياسن التي حصلت على درجة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي، وكانت أستاذة اللغة الإنجليزية في جامعة أيوا لمدة خمس سنوات قبل أن تغيّر مسارها المهني وتصبح طبيبة نفسية عصبية، في كتابها الصادر عام ٢٠٠٥ بعنوان «الدماغ المبدع: علم الأعصاب والعبقرية» أن الإبداع شيء بديهي إلى درجة كبيرة، ينشأ غالبًا من حالات ذهنية لا شعورية أو شبيهة بالحلم». ويتوافق رأي أندرياسن مع رأي يالوم. فكومة السماد الداخلية المتقدة استعارة حيّة لإبداع يالوم، وقدرته على الاستفادة من القلق والمخاوف والرغبات المبكرة على المستويين الواعي واللا واعي التي يحوّلها بعد ذلك إلى قصص فنية بارعة. إن الحاجة إلى موافقة الأم في هذه المجموعة من قصص العلاج النفسي ترغمه على الاعتراف بحقائق تتعارض مع جهوده طوال حياته لينأى بنفسه عن الشخص الذي قدّم له الرعاية الأساسية. ومثل بورتنوي في رواية فيليب روث، يعترف يالوم أن أمه التي كان يعتقد دائمًا أنها كانت مخطئة في أحكامها، كانت في معظم الأحيان محقة - وأنها، في الواقع، جزء أساسي من وجوده.

السقوط من النعمة: «رحلات مع باولا»

تبدأ قصة «رحلات مع باولا» بعبارة كان جون وايتهورن، أستاذ يالوم في جامعة جونز هوبكنز، يرددها: «أنصت إلى المرضى، ودعهم يعلمونك. فلكي تصبح حكيمًا، يجب أن تظل طالبًا»، ثم يصف يالوم جهوده طوال حياته لاتباع هذه النصيحة. كانت باولا ويست المصابة بسرطان في مراحله المتقدمة، مريضة ومعلمة استثنائية، المرأة التي ألهمت يالوم إنشاء مجموعة علاج نفسي للمرضى المحتضرين. أصبحت هذه الفكرة راسخة الآن، لكنها كانت فكرة مبتكرة في عام ١٩٧٣. وقد حققت المجموعة نجاحًا ملحوظًا، وأثبتت أن العلاج جعل حياة مريضات السرطان اللاتي في آخر مرحلة من

حياتهن أفضل بكثير. ونجحت المجموعة بتوفير «الحضور» للمريضات اللاتي في أواخر مرحلة في حياتهن، وأتاح لهن ذلك التواصل مع المريضات الآخريات. وقد أثّر كرم باولا وسخائها على حياة يالوم، لكن علاقتهما ساءت بعد ذلك، وسقط من النعمة، فأصبح حزينًا، وترك القارئ يتساءل إن كان محقًا في الاستنتاج بأنه تصرّف بسوء نية تجاهها.

يلتقط يالوم رؤى باولا الخاصة وشجاعتها، بدءًا من كلماتها الأولى له: «اسمي باولا ويست، مصابة بسرطان عضال، لكنني لست مريضة». تحدّثا كلاهما عن الحياة والموت والروحانية والسلام والتسامي. لاحظ يالوم أنهما كانا يتحدّثان في معظم الأحيان عن الموت، ثم قال جملة مثيرة للاهتمام: « كنا نلتقي كلّ أسبوع، نحن الأربعة، لا الاثنان، في مكتبي - أنا وباولا وموتها وموتي «. يعزو يالوم الفضل إليها في تعلّمه كيف يقيم صداقة مع الموت ويزيل الأسطورة عنه، وعلّمته أن أكثر ما يخشاه المرضى ليس الموت بل العزلة التي ترافقه. ومن بين رؤاها العديدة أن الأطباء لا يفهمون أهمية التواصل مع مرضاهم المحتضرين. «لماذا لا يفهمون أنهم عندما لا يعود لديهم شيء يقدّمونه للمريض هي اللحظة التي يكون فيها المريض في أمسّ الحاجة إليهم؟».

وعلّمت باولا يالوم أيضًا كيف أن إيمانها الديني العميق ساعدها على أن تتعايش مع السرطان. فقد ساعدها قسيس من الكنيسة الأسقفية على التخلّص من اليأس وعلى تأكيد هدف جديد في الحياة. «كان يعرف جيدًا عبارة نيتشه في كتابه نقيض المسيح، «من يوجد لديه سبب يعيش من أجله، يستطيع أن يتحمّل أي شيء»، وعبّر القسّ عن معاناتها عندما قال لها: «إن السرطان الذي أصابك هو رسالتك المقدّسة. ألمك هو رسالتك المقدّسة». قبل يالوم دون اعتراض الدور الذي عُهد إليه، وبذل كل ما في وسعه لكي يتعلّمه، حتى لو لم يكن بإمكانه مشاركتها إيمانها الديني. فلم تحوّل روحانية باولا الشديدة يالوم إلى شخص مؤمن، لكنه أُعجب بإيمانها بضرورة الاستعداد للموت. وعندما علمت أن السرطان انتشر إلى عمودها الفقري،

ولم يتبق لها سوى القليل من الوقت لتعيش، كتبت رسالة وداع إلى ابنها البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، حركت فيها مشاعر يالوم حتى البكاء. وفي فقرتها الأخيرة ن الرسالة، ذكّرته بأن رئتيْ الجنين البشري لا تتنفّسان، وعيناه لا تريان. لذلك، يُهيئ الجنين لوجود لم يكن بإمكانه أن يتخيّله. واقترحت باولا على ابنها: «ألسنا نحن أيضا، مهيئين لوجود خارج نطاق عقلنا، يتجاوز حتى أحلامنا؟».

إلى جانب يالوم، كانت باولا القوة الدافعة وراء إنشاء مجموعة العلاج النفسي التي أطلقت عليها اسم «مجموعة»، وعيّنت نفسها مستشارة روحية للمجموعة. وبادرت بتقديم طقوس مهمة، مثل إنهاء كلّ جلسة بالتحديق بصمت في شمعة. «لنقترب من أحدنا الآخر»، وتمدّ كلتا يديها إلى العضوين الواقفين على جانبيها، وتضيف: «انظروا إلى الشمعة وتأملوا لبضع لحظات بصمت». وأشار يالوم إلى أنه وباولا كانا بحاجة إلى أحدهما الآخر بطرق تتجاوز العلاقة المهنية. يتذكّر قائلًا: «ملأتني بالنور... كنت صخرتها، الملاذ الذي كانت تبحث عنه قبل أن نكون محظوظين لأن يجد أحدنا الآخر».

في حاشية في كتابه الدراسي الصادر عام ١٩٨٠ بعنوان «العلاج النفسي الوجودي»، يذكر يالوم أن مريضًا بالسرطان لاحظ مؤخرًا أن نظرية إليزابيث كوبلر-روس حول مراحل الموت «تنحرف نحو المرضى المصابين بالهزال في المستشفيات وتغفل «الفترة الذهبية» التي تحدث إذا كان لدى المريض الوقت الكافي لاستيعاب مواجهته للموت». يكشف يالوم في كتابه «أمي ومعنى الحياة» أن المريضة هي باولا. « كانت تنتقد بشدة إليزابيث كوبلر - روس، كاهنة الموت العليا في الطب التي لم تتمكن من التعرّف على المرحلة الذهبية، واستنبطت منهجًا سريريًّا سلبيًّا. فلم تتمكن «مراحل» احتضار كوبلر - روس: الغضب، الإنكار، المساومة، الاكتئاب، القبول من إثارة غضب باولا التي أصرّت، وأنا متيقن من أنها على حق، على أن هذا التصنيف الصارم للاستجابات العاطفية يؤدي إلى تجريد المريض والطبيب من إنسانيتهما».

أثار يالوم أيضًا غضب باولا، وإن كان لأسباب مختلفة. فمع ازدياد شهرة مجموعة العلاج النفسي لمرضى سرطان الثدي في مراحله المتأخرة في أوساط جامعة ستانفورد، لم يعد بإمكان يالوم أن يمضي الوقت مع باولا كما كان يفعل. لام يالوم نفسه لشعورها بخيبة الأمل، وشرح ذلك بالقول: «كان كلّ همي أن أحقق نجاحًا في العالم الأكاديمي، وقد أدّى جدول أبحاثي المحموم، وطلبات المنح، والمحاضرات، والتدريس، والكتابة إلى تقييد تواصلي مع باولا. هل كنت أخشى أن أقترب منها كثيرًا؟» قد يجيب القارئ بأن هذا ليس بالضرورة، لكن يالوم لم يكن حريصًا على أن يبرئ نفسه من الذنب. ففي إحدى عباراته الأكثر إيجازًا، اعترف بأن نجاح المجموعة كان مرتبطًا بنجاحه المهني. «باختصار، حان الوقت للترويج لها والحصول على ترقية». شعرت باولا بخيبة أمل من يالوم عندما تقدّم بطلب للحصول على منحة لتقييم فعالية نهجه مع مريضات سرطان الثدي اللاتي في المرحلة النهائية من حياتهن. لكنه سارع وأدان نفسه، ولفت الانتباه إلى استخدامه ضمائر المتكلم لوصف مشروع مستوحى من باولا. ومع أنه أقرّ بفضلها بالكامل لمشاركتها في المجموعة، وكان حريصًا على أن يعوضها عن كل ذلك، فقد أفسدت جهوده الرامية إلى إنشاء مجموعة العلاج النفسي كمشروع بحثي.

ساهمت معالجة متدربة جديدة عديمة الخبرة لا تحبها باولا في زيادة تآكل الحبّ بينهما. بالإضافة إلى ذلك، استاءت باولا من أخصائي سرطان استخف بتعليقها الذي عبّرت عنه خلال ورشة عمل استمرت يومين نُظّمت للحصول على تمويل فيدرالي لمشاريع بحثية، بأن «الشجاعة» و«العمق الروحي» مؤشران دقيقان للتكيّف النفسي للشخص المصاب بالسرطان، فوجد يالوم نفسه في مأزق مستحيل، وأُرغم على الاختيار بين مريضة ملهمة لكنها لا تقبل المساومة من ناحية، وزملائه المحترمين من ناحية أخرى. واتهمت باولا يالوم بأنه «باع نفسه للبيروقراطية»، وسرعان ما اختفت من المجموعة ومن حياته.

لكن يالوم لم يستطع أن يتوقف عن التفكير في باولا، وتساءل إن كان

بإمكانه أن يفعل شيئًا لإعادة علاقتهما إلى سابق عهدها. وخبأ يالوم عدة مفاجآت للقارئ قبل أن يُنهي القصة، منها أن باولا عاشت فترة أطول من جميع أعضاء مجموعة بريدج التجريبية الثلاثين، وجميع أعضاء مجموعة المقارنة الستة والثمانين. وبعد بضع سنوات، اكتشف يالوم أنها ما تزال على قيد الحياة لكنها تعاني من مرض الذئبة، اتصل بها بالهاتف، ودعته لتناول الغداء في منزلها. وفيّة لشخصيتها، كانت تقود حينذاك مجموعة مساعدة ذاتية للمصابين بمرض الذئبة. وفي وسط ذكرياتها عن الأشهر الأولى في مجموعة العلاج التي كانت فترة ذهبية لكليهما، انزعج يالوم كثيرًا عندما سمع أنها أُدرجت في «القائمة السوداء لدى الأطباء» بسبب اعتقادها أن جميع أطباء السرطان الذين عالجوها لم يكونوا أكفاء، وكانت على قناعة تامة بأن الدواء الذي وصفه لها أطباء السرطان هو المسؤول عن إصابتها بمرض الذئبة، وهددت بأنها سترفع دعاوى سوء ممارسة مهنية على جميع أطباء السرطان الذين عالجوها.

لم يستطع يالوم أن يصدّق اتهاماتها تلك التي بدا له أنها تشير إلى إصابتها بالبارانويا، وجد يالوم نفسه مرة أخرى في موقف مستحيل، وشعر بأنه مجبر على أن يختار بين معتقداتها القوية ومعتقداته الخاصة. متعاطفًا مع مشكلتها، حثّها على أن تكتب رسالة «أخف وطأة» إلى المجلس الطبي، «صادقة لكنها أكثر ليونة»، عندها سيتلقى الأطباء توبيخًا ولن تُعلَّق رخصهم وشهاداتهم. «بالطبع كان كل ذلك بسوء نية. فلن يأخذ أي مجلس طبي في العالم رسالتها على محمل الجد، ولن يصدّق أحد أن جميع الأطباء في المركز يتآمرون عليها. فشكرته على نصيحته الجيدة، لكنه صُدم من التناقض بأنه كان يتصرف بسوء نية. قد يختلف قرّاء يالوم مع هذا الرأي. فقد كانت نصيحته لها صادرة عن حسنة نية بهدف الحفاظ على كرامة باولا، وألَّا تُلحق ضررًا بالآخرين.

في ختام استنتاجه بأنه لم ير سوى طريقة واحدة للردّ على باولا، «أن اعتبرها امرأة مضطربة كثيرًا وأعاملها - «أتعامل» بالمعنى الزائف والقاتم للكلمة، بمعنى «التعامل» - أدرك يالوم أنه كان يعامل أمه بهذه الطريقة.

«على الرغم من أننا كنا نحبّ بعضنا كثيرًا، لم يدر بيني وبين أمي حديث مباشر، من القلب إلى القلب، مثل شخصين يتواصلان بعقلين صافيين. فقد كان كل واحد منا «يعامل» الآخر، ونتحدّث ويظن أحدنا أن الآخر يفهمه، وكان أحدنا يخشى الآخر، ويسيطر عليه، ويخدعه».

تذكّرنا علاقة يالوم بباولا بالعلاقة بين الطبيب والفيلسوف في رواية «عندما بكى نيتشه». مثل نيتشه المتخيّل في رواية يالوم، لم يكن باستطاعة باولا أن تتنازل. فقد كانت رؤاها حول الموت مذهلة، تكاد تكون نيتشوية، لكنها تعاني من نقاط عمياء عديدة. كان يالوم يكنّ لها إعجابًا شديدًا، لكن كان عليه في الوقت نفسه أن يتصرّف بحذر تجاهها. تبادل يالوم وباولا الأدوار والشفاء، كما نرى في رواية «عندما بكى نيتشه»، وأهمية العلاقة السريرية، لكن توجد لدى كل من المعالج والمريض أجندات مختلفة. بذل كل منهما قصارى جهده لتقريب المسافة بينهما، لكنهما كانا يشعران بالخيانة وسوء الفهم من أحدهما الآخر، كما في حالة بروير ونيتشه. فقد كانت جميع الشخصيات الأربعة تتكلّم لكن لا يستمع أحدها للآخر. لكن يالوم وباولا يُحدثان فرقًا في حياة بعضهما بشكل إيجابي أكثر، كما فعل بروير ونيتشه المتخيلين. يخيّل إلى المرء لو أن باولا قرأت القصة، لوافقت على أن يالوم كان منصفًا في وصف وجهة نظرها كما كان منصفًا في وصف وجهة نظره. ومن خلال حضورها وإشراقتها، يظهر يالوم، كما حثّه معلّمه جون وايتهورن، قدرته على أن يتعلّم من المريض.

«عمل أشياء كثيرة من لا شيء»: «الراحة الجنوبية»

بروح تتسم بالدعابة في كتابه «العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين»، ذكر يالوم أن عددًا من الذين قرؤوا كتابه فهموا أن عنوان الكتاب هو «العلاج الجماعي لنفاد الصبر»[٣] وليس «للمرضى الداخليين».

---

٣ تعني كلمة (patient) بالإنجليزية مريض وصبور.

نرى نفاد صبر يالوم نفسه في قصة «الراحة الجنوبية»، القصة التي تنقل حدود العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين ومخاطر الغطرسة العلاجية. ونرى كذلك قدرته الرائعة، بوصفه معالجًا وقاصًّا، على «عمل أشياء كثيرة من لا شيء»، بكلمات معبّرة تقولها مغنوليا، المرأة السوداء، الشعثاء، البدينة، التي تبلغ من العمر سبعين عامًا والتي تظهر في هذه القصة القصيرة والتي توضح فكرة يالوم بأن كل شيء هو مادة خام في طاحونة المعالج النفسي، حيث تتحول العصافة التي يغربلها العلاج النفسي إلى قمح أدبي.

يحدّد يالوم نبرة ومزاج «الراحة الجنوبية» في الجمل الافتتاحية للقصة. «كرّستُ كلّ وقتي. خمس سنوات»، كلمات توحي بأنه كان في السجن، إما سجينًا أو حارس أمن، لكن في الجملة الثالثة ندرك بأنه يصف بيئة المستشفى. « خمس سنوات كاملة، في إدارة علاج مجموعة كلّ يوم في جناح الأمراض النفسية». لا يمكن أن يتخيّل المرء أن مؤلف كتاب دراسي مرموق عن العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين يعبّر عن حكم أكثر سخرية. إن ما يضفي مصداقية على القصة هو أنه يقدّم وجهة نظر من الداخل. لماذا يُخضع المعالجون أنفسهم للمشهد الكابوسي للمجموعات الداخلية – «التغيير السريع والمستمر للمرضى، والنوبات الذّهانية المتكررة، ومرضى مخادعون أنهكتهم عشرون سنة من الاكتئاب أو الفصام ولم يشهدوا أي تحسن، بالإضافة إلى مستوى اليأس الذي يسود الغرفة». يحتفظ يالوم بالأسوأ للنهاية. «أما القاتل الحقيقي في هذا العمل فهو البيروقراطية التي تسود المستشفيات وشركات التأمين». وبعد أن أثبت استحالة الوضع السريري، تساءل يالوم كيف يحافظ المعالجون على سلامتهم العقلية. يجيب ببساطة: «أن نتعلّم كيف نزرع النفاق».

ليست «الراحة الجنوبية» قصة علاج نفسي مبهجة، وليست قصة تُطمئن مريضًا سيدخل إلى المستشفى لعلاج اضطراب نفسي. فإذا كان يالوم قد عرّف نفسه مجازيًّا في مجموعته الأولى من قصص العلاج النفسي بأنه جلّاد الحبّ، فهو يبدو مستعدًّا في مجموعته الثانية لأن يستخدم فأسًا حقيقية ويقطع

رؤوس كلّ من له صلة بالعلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين، بمن فيهم هو نفسه. إن ما دفع يالوم إلى اتخاذ قرار التخلي عن العلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين هو الملل، وليس الغضب. لكنه لم يتخلّ عنه تمامًا، فقد كان كل ثلاثة أشهر، عندما يأتي طلاب مقيمون جدد في الطب النفسي، يركب دراجته الهوائية من مكتبه المريح المليء بالكتب في كلية الطب بجامعة ستانفورد إلى المستشفى الذي يشبه بيت رعب دانتي، وينقل خبرته السريرية إلى مجموعة جديدة من الطلاب لبضعة أيام.

يكمن التحدي الأدبي الذي يواجه يالوم في تصوير القصص الإنسانية للعلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين بطريقة حيّة ومدروسة وصادقة. وبعد أن لاحظ استحالة الموقف تقريبًا، قدّم للقارئ خمسة مرضى، وصف كل واحد منهم بجمل وصفية دقيقة. فمارتن رجل مسن مقيّد بكرسي متحرك بسبب مرض هزال العضلات. ودوروثي مصابة بشلل نصفي لأنها حاولت الانتحار ذات يوم وقفزت من نافذة في الطابق الثالث. وماغنوليا لا تستطيع أن تحرّك ساقيها لأسباب ما تزال لغزًا طبيًّا. وروزا وكارول شابتان تعانيان من فقدان الشهية تشبهان ضحايا معسكرات الاعتقال. وتركّز القصة على جلسة علاجية واحدة. يُبلغ يالوم المرضى أن الهدف العلاجي يكمن في مساعدتهم على تحديد جوانب حياتهم التي يرغبون في تغييرها، وسيكون التركيز في العلاج على «هنا والآن»، الطريقة المثلى للعلاج الجماعي. وظل يالوم يذكّر نفسه بمنارته التي سينساها قريبًا: «أن الصغير جميل - اكتفِ بأهداف الصغيرة، نجاحات صغيرة».

انصبّ تركيز يالوم الرئيسي على ماغنوليا. «دُهشتُ عندما قدّمت نفسها بالطريقة التي نظرت فيها إليَّ بعينيها البنيتين الكريمتين المليئتين بالكرامة بسحرهما الجنوبي». من الواضح أن عنوان القصة يشير إلى ماغنوليا، لكننا نعرف أن يالوم ساخر، لذلك، لا يمكننا أن نتأكد إن كان العلاج سيكون مريحًا لها أم لا. ولا نستطيع أن نتنبأ أيضًا بطبيعة علاقة يالوم بها. إلى أي مدى سيشعر بالراحة الجنوبية؟ تشير التفاصيل القليلة التي نعرفها عن ماغنوليا

إلى أنها مسيحية متدينة ذات قلب وروح كبيرين تفضّل مساعدة الآخرين ولا تطلب المساعدة لنفسها. أخبر الممرضات يالوم بأنه على الرغم من أنها هادئة وصبورة، فإنها تصبح في أحيان كثيرة شديدة الهياج والاضطراب، وتقتل حشرات متخيّلة تزحف على جلدها. وعندما سألها يالوم ما الذي تريد أن تتعلّمه من المجموعة، أجابت أنها تريد «أن تتعلّم كيف تستمع إلى الآخرين»، مع أنها في الواقع مستمعة جيدة. كانت ماغنوليا متواضعة إلى حد كبير، وترفض جميع الإطراءات التي توجّه إليها.

أدهشت ماغنوليا يالوم، وأثارت فيه مشاعر أمومية - مشاعر إيجابية أكثر مما يمكن أن يتوقعه المرء بعد أن يقرأ قصة «أمي ومعنى الحياة». يغلب موضوع فقدان الأم على قصة «الراحة الجنوبية»: فقد ماتت أمه قبل جلسة العلاج بثلاثة أسابيع، وأخبرت ماغنوليا أعضاء المجموعة أن يوم غد يصادف مرور سنة على وفاة أمها. وجد يالوم أنه يحتاج إلى «راحة ماغنوليا»، وتذكّر لازمة أغنية قديمة تغنيها جودي كولينز: «أوقات حزينة كثيرة... أوقات سيئة كثيرة... لكن إذا استطعت... احزم أحزانك كلها واعطها لي... لأنك ستفقدها... وأنا أعرف كيف أستخدمها... أعطها لي كلّها»، وهو عرض وجده مريحًا. لكننا نتساءل فجأة، مَنْ أراح مَنْ في جلسة العلاج هذه؟

مثل قصة «رحلات مع باولا» تؤكد رحلة «الراحة الجنوبية» الحاجة إلى الشفاء المتبادل، حيث يشارك المعالجون والمرضى في عملية علاجية متبادلة. إن يالوم ليس معالجًا جريحًا، لكن موت أمه جعله حزينًا، كما تشير حاجته إلى راحة ماغنوليا. لقد أضفى عليها طابعًا أسطوريًّا وجعلها أم الأرض يستدعيها من أجل الحماية والراحة. لكنه يدرك مشكلة الانتقال المقابل هذه، وهذا يجعلنا نفترض أن هذا الإدراك سيجعله يتحكم في احتياجاته الخاصة خلال حضوره الجلسة الجماعية.

كرّست ماغنوليا حياتها كلها لمساعدة الآخرين، وكان التحدي الذي

يواجه يالوم إيجاد طريقة لكي تساعدها المجموعة، فقد ربّت ابنها وخمسة عشر طفلًا بالتبنّي دون مساعدة أحد. ربما استطاع المرضى الآخرون مساعدة ماغنوليا على أن تتعلّم كيف تشكو، كما قال يالوم للمجموعة. لكن ماغنوليا قاومت توصيته مع أنها أقرّت بأن أمها كانت ترى أيضًا أنها، أي ماغنوليا، تضع نفسها دائمًا في المرتبة الأخيرة. حثّها يالوم على أن تشتكي وتعبّر له عن خيبة أملها المريرة لأنها لم تتمكن من أن تصبح معلّمة. شاركها أعضاء المجموعة الآخرون الرأي، وأشاروا إلى أنه مع أنه لم تحصل ماغنوليا على فرصة لتتعلّم فقد ربّت سبعة أشقاء وأخوات وحدها تقريبًا، وهكذا فقد أصبحت معلّمة لابنها وأطفالها بالتبني. قدّرت ماغنوليا دعم المجموعة لها، وأضاف يالوم أنها أصبحت حقًّا معلّمة، ثم نظر بفخر إلى طلاب الطب النفسي المقيمين، سعيدًا بالتعليق الذي قاله والذي كان بمنزلة «جوهرة». نظن أن الكبرياء يسبق السقوط، ثم تقع الكارثة.

أدى إصرار يالوم لأن تكشف ماغنوليا عن نفسها إلى فتح صندوق باندورا من الشكاوى المؤلمة، وإطلاق العنان لجميع شياطينها. فقد أطلقت العنان لسلسلة من الاستياءات والانتقادات، وتكلّمت ولأول مرة انتقدت زوجها الذي هجرها بطريقة سلبية. شعر يالوم بالارتباك والقلق من بكائها وحكّ حشرات غير مرئية على بشرتها. وقال إنه كشف عن مُشكلات ماغنوليا، «لكن لمرة واحدة لم أشأ أن أنظر إلى الداخل». وانتهت الجلسة بشكل إيجابي وأثنى يالوم على عمل أعضاء المجموعة الجاد الذين فعلوا ما كان يريد يالوم أن يفعلوه، فقد شاركوا في المناقشة، وقدّموا تعليقات داعمة لأحدهم الآخر. وأثنى يالوم على عمل ماغنوليا الجاد، وقبلت إطراءه، وقالت له: «أفهم يا دكتور. أفهم جيدًا».

لكن يالوم شعر بالذنب والخداع لأنه، بعد أن كاد يفقد السيطرة على الجلسة، اضطر إلى أن يرتجل، وشكّ في أن تساعدها نصيحته بتشجيع ماغنوليا على أن تشتكي. «فقد كانت أعراضها - شلل ساقيها الذي لا

يمكن تفسيره، وهلوستها بوجود حشرات تتغلغل في جلدها، وتوهمها بأنه توجد مؤامرة وراء انتشار الحشرات في بيتها - خطيرة وخارج نطاق العلاج النفسي». وشعر بالذنب لأنه انتهك قاعدة أساسية في العلاج النفسي: «لا تجرّد المرضى من دفاعاتهم أبدًا إذا لم تكن قادرًا على تقديم شيء إيجابي أكثر لهم». وخلص إلى أن ماغنوليا كانت ضحية غروره، وعزى ذلك أساسًا إلى رغبته في أن تكون أمه. لقد أدى غروره العلاجي، وخياله المتكبر بإنقاذها، ورغبته في الحصول على الدعم الأمومي، إلى رفضه «لأن أواجه ماغنوليا مواجهة حقيقية - ماغنوليا، الشخص المخلوق من لحم ودم، وليس الصورة التي فرضتها عليها».

نُظهر قصة «الراحة الجنوبية» موهبة يالوم في عمل أشياء كثيرة من لا شيء. يتعاطف القراء مع محنة المعالج الذي يبذل جهودًا كبيرة في ظروف صعبة، وينتقد نفسه أكثر مما ينتقد معظم المتخصصين في الصحة النفسية الذين يكونون في موقفه. واعترف بسلسلة من العيوب - التوق إلى القبول، والشعور بالذعر عندما رفضت ماغنوليا أن تستجيب إلى طلبه بأن تنفتح على الآخرين، ثم شعر بالارتباك عندما بدأت تبكي وتخدش جلدها. أدرك يالوم تعقيد الدوافع، بما فيها الطرق التي قد يكون اعتراف الشخص من خلال الغرور تلاعبًا خفيًّا بتعاطف القارئ. فقد أبرز فردانية أعضاء المجموعة الخمسة، وعبّر عن ضعفهم وكرامتهم. وكشف لنا أن المرضى هم دائمًا بشر وليسوا مجموعة من الأعرّاض التي نقرأها في الكتب. إن التباين بين حوار يالوم الخارجي مع المرضى وأطباء الطب النفسي المقيمين وحواره الداخلي مع القراء يبرز المأساة العامة والخاصة للعلاج النفسي الجماعي للمرضى الداخليين. وجسّد العنوان المثير للذكريات في القصة لهجة ماغنوليا الجنوبية الناعمة، وسحرها وتأثيرها على يالوم، ودعمها للمجموعة، وربما المشروب الكحولي الجنوبي الأسطوري - مع أن مشروب «الجين»، وليس «الراحة الجنوبية»، هو الذي دمّر زواج ماغنوليا.

العقل مقابل الخيانة؟

«سبعة دروس متقدمة في علاج الحزن»

تُعدُّ «سبعة دروس متقدمة في علاج الحزن» أطول قصة وأكثرها عاطفية في مجموعة «ماما ومعنى الحياة»، كما يشير يالوم في خاتمة الطبعة الأخيرة «وصف دقيق للعلاج (ما عدا حذف التفاصيل المملة وإخفاء الهوية) يحتوي على عدد لا يحصى من موضوعات العلاج النفسي. المعالج بوصفه طالبًا، والعكس، المريض بوصفه معلّمًا، موضوع قُدِّم في قصة «رحلات مع باولا» تم تطويره على نحو أوفى في هذه القصة». إنها القصة الأكثر كشفًا عن يالوم في هذه المجموعة القصصية. بالنسبة إلى القرّاء الذين فقدوا زوجًا أو زوجة محبوبين، قد تكون قصة «سبعة دروس متقدمة في علاج الحزن» القصة الوحيدة التي تتعارض مع تجاربهم الخاصة في الحزن.

إيرين طبيبة جرّاحة لا تحترم الطب النفسي كثيرًا، لكن بعد أن اكتشفت أن زوجها جاك مصاب بورم خبيث في الدماغ، لا يمكن إجراء عملية جراحية له، طلبت أن تبدأ العلاج النفسي مع يالوم الذي لم يكن متحمسًا لعلاجها، لأنها صديقة مقرّبة لصديقين عزيزين له، وهو يعرف أن الحدود لن تكون واضحة المعالم. قبل يالوم علاجها بحذر لأنه كان قد أنهى مع زميل آخر مؤخرًا بحثًا تجريبيًّا لمدة ثلاث سنوات حول فقد الزوج. يقول يالوم ساخرًا: «بما أنني درست فجيعة الفقد، كيف يمكنني، بضمير سليم، أن أُحجم عن معالجة إيرين؟» وازداد غروره عندما قالت له إنه الشخص الذكي الوحيد الذي يمكنه معالجتها. «القابس المثالي لمقبس غروري».

تضم قصة «سبعة دروس متقدمة في علاج الحزن» الطويلة عددًا من الأفكار السريرية والسيرة الذاتية المثيرة للاهتمام تجعل كتابة تعليق يبلغ ضعف طول القصة بسهولة. إن شدة غضب المريضة ومرارة شعورها بالذنب أشدّ من أي قصة سابقة، وقال يالوم لو لم يكن لديها ابنة صغيرة

تعتني بها، لانتحرت.

إن العلاقة بين المعالج والمريضة مشحونة عاطفيًّا، وتتغير باستمرار في أثناء فترة العلاج التي دامت خمس سنوات، جلستان كل أسبوع.

كانت إيرين قد قطعت على نفسها عهدًا بألَّا ترتبط بأي رجل بعد وفاة أخيها عندما كانت في العشرين من عمرها، لكي لا تحزن مرة أخرى، لكنها لم تلتزم بعهدها وتزوجت جاك، صديق طفولتها. وبعد وفاته في نهاية السنة الأولى من العلاج، عندما كانت في منتصف الأربعينيات من عمرها، أقسمت مرة أخرى بأنها لن تقيم أي علاقة عاطفية، حتى إنها لم تشأ أن تقيم أيضًا صلة عاطفية مع يالوم لأنه قد يموت هو أيضًا في أثناء فترة علاجه لها، ويتركها وحيدة مرة أخرى.

قسّم يالوم قصته إلى سبعة دروس، كل درس فيها يوضح رؤية سريرية، وتحتوي هذه الدروس على رؤى متعددة، بعضها متقدّم، وبعضها الآخر أساسي، لكنها جديرة بالتكرار. يؤكد الدرس الأول على ضرورة أن يجسّد المعالج صوت العقل. وقد واجه يالوم طوال فترة العلاج عدم عقلانية إيرين، مبديًا استغرابه من «طبيعتها المزدوجة، ووضوحها الاستثنائي الذي تحيط به لاعقلانية مستحيلة». ويستكشف الدرس الثاني اعتقاد إيرين بأن الشخص الذي عانى الفقد هو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يعالج الفقد، وهي فكرة يرفضها يالوم. ويركّز الدرس الثالث على غضب إيرين من يالوم لمحاولته أن يفصلها عن جاك. وينظر الدرس الرابع إلى «القار الأسود»، وهو استعارة تستخدمها إيرين للتعبير عن الحزن والغضب. وكانت إيرين مقتنعة بأن يالوم سيتخلّى عنها أو أنه سيموت كلما اقترب من القار الأسود. ولكي يثبت لها أن القار الأسود لن يدمره أو يدمر علاقتهما، وضع يالوم قاعدة علاجية جديدة: فكلما انفجرت إيرين في وجهه، كانا يحددان تلقائيًّا جلسة إضافية في ذلك الأسبوع. أما الدرس الخامس الذي تلخصه عبارة «العقل إزاء الخيانة» فإنه يعود بدقة إلى مسألة الحبّ والفقد. «ما كنت أدعوه العقل والمنطق، تسمّيه إيرين خيانة، وما أدعوه العودة إلى الحياة، تصفه بأنه خيانة

للحبّ، وما أدعوه فكّ علاقتها بالموتى، تصفه بأنه تخلٍّ عن حبّها له». أما الدرس السادس الذي يبشّر بمرحلة جديدة من العلاج الذي يحدث خلال السنة الرابعة من العلاج، فإنه يؤكد على أن المعالج والمريض رفيقان في رحلة الحياة نفسها. ويتضمن الدرس السابع عملية التخلّي التي قد تكون صعبة بخاصة عندما يكون المعالج والمريض قد عملا معًا عن كثب لعدة سنوات.

تحدث نقطة تحول عندما تطلب منه إيرين التي تشعر بالضيق لأن يالوم لم يفهم حقيقة حزنها، أن يقرأ مقالًا للشاعر الروسي جوزيف برودسكي بعنوان «حول الحزن والعقل» نُشر في مجلة «نيويوركر» الذي يجادل فيه برودسكي بأن روبرت فروست شاعر كئيب أكثر مما يدرك معظم القراء، ويناقش برودسكي قصيدة سردية طويلة بعنوان «دفن البيت» تحكي قصة مزارع وزوجته يحزن كل منهما على وفاة ابنهما بطريقة مختلفة. إذ يوبّخ الأب زوجته لتمسكّها بالحزن الذي لا عزاء له. وقال لها بتعالٍ: حان الوقت لإنهاء الحزن. مفتونًا بالقصيدة التي أدرك يالوم أنها المفتاح للولوج إلى حياة إيرين الداخلية، خلص إلى أن القصيدة تصوّر الصدام المرير بين الوالدين الذي لا بد أنه حدث في بيت إيرين بعد وفاة شقيقها. لكن سوء فهم يالوم أثار غضب إيرين. «كانت نظرتها المندهشة تشبه نظرة معلّمة أمام تلميذ غبي وهي تتساءل كيف نجح وجاء إلى فصلها الدراسي». كانت مذهولة حتى إنها لم تستطع أن تتكلّم، همهمت أخيرًا من بين أسنانها المطبقة وقالت: «إن المزارع وزوجته في هذه القصيدة ليسا أمي وأبي، بل نحن – أنت وأنا». بعد أن أدرك يالوم خطأه، استدرك بسرعة وسألها، «أنا الذي وبخك لأنك لم تتخلّي عن الحزن وما تزالين تتمسكين به؟ أنا الذي قال إنك تبالغين في حزنك، والذي سأل: « لماذا تبقينه بيننا ذكراه يجب أن تكون قد انتهت الآن؟» أنا الذي حفر القبر بسرعة حتى بدأ الحصى يقفز في الهواء؟ أنا الذي تشي كلماته بالإساءة باستمرار؟ وأنا الذي حاول أن يحول بينك وبين حزنك؟ وبالتأكيد أنا الذي سدّ الطريق عند الباب وحاول أن يجعلك تبلعين دواء الحزن بالقوة؟» هزّت إيرين رأسها، وأجهشت في البكاء. «كانت هذه أول مرة خلال سنوات

اليأس الثلاثة بكت فيها في وجودي. أعطيتها منديلًا ورقيًّا، وتناولتُ منديلًا لي. مدّت يدها إليَّ. عدنا معًا مرة أخرى».

يجب أن نلاحظ أن هذا الإنجاز العلاجي كان بسبب قصيدة. وبما أن يالوم على معرفة عميقة بعالم الأدب بقدر درايته بعالم العلاج، فقد تذكّر على الفور قصيدة لتوماس هاردي استشهد بها سابقًا في أعماله: «إذا كان هناك طريق إلى الأفضل، فإنه يتطلب إلقاء نظرة شاملة إلى الأسوأ». تقدّم قصة «سبعة دروس متقدّمة في علاج الحزن» نظرة يالوم الكاملة إلى الأسوأ، وهو الشعور بالشلل الناجم عن القلق من الموت الذي يدفع المكلومين إلى الابتعاد عن الحياة. يستشهد يالوم كثيرًا بشعراء وكتاب روائيين ورسامين ونحاتين لتوضيح رؤاه السريرية. وتُعدُّ هذه المراجع طبيعة ثانية بالنسبة إلى يالوم، يعبّر عنها بسهولة وعفوية. لا يوجد أدنى شك في موقف يالوم من مسألة العقل مقابل الخيانة. تعلّمت إيرين ببطء أن تقبل نصيحته، وفصلت نفسها عن زوجها المتوفى، وفي نهاية القصة، أُغرمت برجل آخر يدعى كيفن مات منذ سنة. كل شيء في قصة «سبعة دروس متقدمة في علاج الحزن» يتبنى هذا الموقف المعقول تجاه الحزن. لا يشير يالوم إلى نفسه في هذه القصة إلى أنه جلّاد الحب أو محطم الأوهام، ربما لأنه لم يشأ أن يكرر نفسه، بل يذكّرنا بأبحاثه التجريبية حول الفقد والفجيعة. «كنت أتخذ موقفًا راسخًا وسليمًا، وهو أن التفجُّع يتكون من أن يفصل المرء نفسه تدريجيًّا عن الشخص الذي فقده، ويعيد توجيه طاقته نحو الآخرين».

لمزيد من الدعم، يستشهد يالوم بمقال فرويد الذي نشره في عام ١٩١٧ «الحزن والكآبة»، الذي ما يزال يُعدُّ بعد مضي قرن من أكثر البيانات النظرية تأثيرًا حول حاجة الشخص الحزين إلى أن يفصل نفسه عن عالم الموتى ويعيد توجيه انتباهه إلى عالم الأحياء. كتب فرويد في إحدى أشهر عباراته: «أثبت اختبار الواقع أن الكائن المحبوب لم يعد موجودًا، ويطالب بسحب كل الغريزة الجنسية [إزالة الانجذاب] من ارتباطه بهذا الكائن».

لا تكمن المشكلة في الثنائية «العقل مقابل الخيانة» في أن الحزن لا ينتهي

أبدًا - فالحزن يخفّ مع مرور الزمن لدى معظم الناس - لكنها لا تشير إلى أن الفاقد قد يجد سبلًا للبقاء على تواصل مع المتوفى بينما يقيم روابط جديدة مع الأحياء. ويلاحظ ج. ويليام ووردن في الطبعة الثالثة من كتابه «إرشادات حول الحزن وعلاجه»، «لا ينفصل الشخص عن المتوفى، بل يجد سبلًا لإقامة «روابط مستمرة» معهم». ويضيف ووردن أن إحدى مهام الحزن «إيجاد مكان للمتوفى يمكّن الشخص الحزين من البقاء على تواصل معه، لكن بطريقة لا تمنعه من المضي قدمًا في حياته. إننا بحاجة إلى إيجاد سبل لتخليد ذكرى الموتى، أي تذكّر أحبائنا المتوفين - وإبقائهم معنا لكننا نواصل حياتنا».

ينطبق نهج «الروابط المستمرة» في التعامل مع الحزن على حياتي أنا شخصيًّا. فبعد وفاة زوجتي الأولى في عام ٢٠٠٤، بدأت أدرّس مقررات دراسية وأكتب كتبًا عن الحب والفقد، والتثقيف حول الموت، ومذكرات نهاية الحياة، ومذكرات فقدان الزوج أو الزوجة. لم أكن أتوقع أن أفعل ذلك عندما كانت باربرا على فراش الموت، لكن التدريس والكتابة عن الموت أصبحا وسيلتي الرئيسية للتعامل مع الفقد. وبعد وفاتها بخمس سنوات، بدأت أتعرّف على نساء أخريات، وفي عام ٢٠١١ تزوجت امرأة جميلة كنت أعرفها منذ عدة سنوات، اسمها جولي. ما تزال صور باربرا وجولي تحيط بي في مكتبي في الجامعة وفي البيت. وكان جزء من بيتنا مخصص للذين رحلوا، والدا باربرا وجولي، لكننا لم نحاول أنا وجولي تجميد الزمن، كما يذكر يالوم عن السيدة هافيشام في رواية «توقعات عظيمة».

أعتقد أن إيرين كانت ستقدّر ما قاله فيليس ر. سيلفرمان حول التناقض الأساسي في الفجيعة: «لا يمكننا أن نعيش في الماضي أو نواصل حياتنا كما لو أن المتوفى ما يزال جزءًا من حياتنا، لكن لا يمكننا أيضًا أن نتخلّى عن العلاقة، بمعنى أن نحاول أن نتصرف كما لو أن الماضي لم يكن موجودًا. يجد المفجوعون سبلًا لإقامة روابط مع أحبائهم المتوفين تكون مريحة وداعمة لهم في الوقت نفسه». وستقدّر إيرين أيضًا عبارة للكاتب المسرحي روبرت

أندرسون اقتبسته في كتابي «الكتابة عن الترّمل»: «الموت يُنهي الحياة، لكنه لا يُنهي العلاقة التي تكافح من أجل التوصل إلى حل لا تجده أبدًا». وكما ذكرتُ «يواصل كتّاب مذكّرات الترمل علاقاتهم مع الموتى ويقيمون في الوقت نفسه علاقات جديدة مع الأحياء». وتساعد الروابط المستمرة أيضًا في تفسير، كما اقترحت في كتابي «الموت بكرامة» سبب شعور المؤلفين الذين يحتضرون الحاجة إلى كتابة مذكراتهم في نهاية الحياة: يشعر الكتّاب الذين يشرفون على الموت الحاجة إلى إقامة علاقة مع القرّاء تستمر حتى بعد وفاة الكاتب. في الواقع، تخبر إيرين يالوم في نهاية «سبعة دروس متقدمة في علاج الحزن» أنها تريد أن يكتب عن علاجهما معًا، وقالت: « لقد تعلّمت من عملنا معًا، تعلّمت أشياء كثيرة، ولا أريد أن ينتهي ذلك بك». عندما لاحظت إيرين ارتفاع حاجبيّ يالوم، أضافت: «نعم، نعم، لقد فهمتها أخيرًا. استوعبتها تمامًا. فلن تبقى معي إلى الأبد». فالكتابة تلتقط الحضور بين المعالج والمريض، تمامًا كما تفعل مع مؤلفي مذكرات نهاية الحياة.

مثل القصص الأخرى في مجموعة «أمي ومعنى الحياة»، تثير قصة «سبعة دروس متقدمة في علاج الحزن» عدة أسئلة. هل كان علاج إيرين سيصبح أقل اضطرابًا لو أن يالوم أكد على نهج الروابط المستمرة في تعاملها مع حزنها؟ هل كان سيقبل هذا النهج لو أنه فقد زوجته الحبيبة وحاول أن يبقى على تواصل معها ويقيم روابط جديدة؟ لا تقلل هذه الأسئلة من قوة القصة. يكشف يالوم عن الفخاخ والاختبارات والمناطق الخطرة في أثناء علاج الثكالى، بالإضافة إلى القار الأسود الذي قد يلطخ المريض والمعالج على حد سواء. ينجح يالوم في المقارنة بين شخصيته، كعقلاني وجودي، وشخصية إيرين، الرومانسية الحزينة. كانت جلسات العلاج تشبه في أحيان كثيرة مباراة مصارعة، لكنهما كانا كلاهما ينتصران في النهاية، كما انتصر العلاج الفريد القائم على علاقة متساوية وشفافة للطرفين. وبخلاف قصة «الراحة الجنوبية» عندما شعر يالوم بالخداع لأنه ارتجل في العلاج، أقنعته إيرين أن استعداده للارتجال ساعدها كثيرًا. «وجدت نفسي فيما بعد أقول: «يجب على

المعالج الجيد أن يخلق علاجًا جديدًا لكل مريض». إنه موقف متطرف، أكثر تطرفًا من اقتراح يونغ منذ سنوات طويلة بأننا نبتكر لغة علاجية جديدة لكل مريض. لكن يجب أن نبتكر مواقف جذرية لهذه الأوقات العصيبة».

الانتقال المقابل الشديد: «التعرية المزدوجة»

بعد العاصفة والتوتر في قصة «سبعة دروس متقدمة في علاج الحزن»، يختتم يالوم مجموعة «أمي ومعنى الحياة» بقصتين خياليتين خفيفتين تتعلقان بإرنست لاش، المعالج الذي ظهر لأول مرة في رواية «مستلقيًا على الأريكة». يحيي يالوم شخصية إرنست لأنها شخصية جذابة، طبيب نفسي وجودي متمرّد مثله، ملتزم بعلاقة علاجية حقيقية وشفافة بين المعالج والمريض. ويواصل إرنست البحث عن نفسه في مواقف محرجة تكشف المفارقات والغموض في نهج يالوم للعلاج.

يصف يالوم قصة «التعرية المزدوجة» بأنها «قصة ماذا لو». وكما يشرح في الخاتمة، فقد كان يالوم قبل سنوات يسجّل دائمًا جلسات علاج مريضة تقطع مسافة ساعتين حتى تصل إلى عيادته. وكانت المريضة تأخذ الشريط في نهاية كل جلسة وتستمع إليه وهي في طريقها إلى الجلسة التالية. ذات مرة، نسي أن يعطيها الشريط، وعندما عادت بعد خمس عشرة دقيقة لتأخذ الشريط، كان التسجيل يحتوي بالخطأ ما دوّنه خلال جلسة العلاج التي استمرت مدة ساعة. لم يكن يوجد فيما دوّنه يالوم شيئًا يثير القلق، لكن ماذا لو كان قد كشف عن أمور مزعجة تتعلق بالانتقال المقابل الذي لا يريد المعالج أن يكشف عنه للمريضة؟ ««ماذا لو» هذه هي الهيكل الخيالي الذي ترتكز عليه أحداث وأحلام هذه القصة».

لعل الانتقال المقابل يظل المشكلة الأصعب في العلاج النفسي الديناميكي، خصوصًا للمعالجين الذين قد يواجهون صعوبة في التعاطف مع المريض. يجد إرنست نفسه في هذه الحالة في «التعرية المزدوجة». فهو يعالج ميرنا منذ

أربعة أشهر، لكنه شعر بالإحباط لأنه لم يحرز أي تقدم في علاجها، وانتابها هي أيضًا نفس الشعور بالإحباط. بعكس معالجيها السابقين اللذين كانا يستمعان إليها في صمت شديد، بعيدين وغير مكترثين، يتفاعل إرنست معها بحيوية، لكنها تقاوم جهوده للتركيز على «هنا والآن». تشعر باليأس من حياتها، وتمرّ بأزمة منتصف العمر وهي في الخامسة والثلاثين، تستغلّ ساعة العلاج للتذمر من وجودها، بالإضافة إلى أتعاب كل جلسة علاجية التي تبلغ ١٥٠ دولارًا. لا ترضيها إجابة إرنست على أسئلتها المتكررة حول كيف يمكنها أن تعثر على رجل مناسب يمكنها أن تواعده، قال لها بتهور عبارة قاسية غير لائقة: «هل ترين على قميصي عبارة «مكتب مواعدة»؟» تحوّل إحباط ميرنا إلى غضب عندما سمعت تعليقاته المسجلة. «إني أشعر بالمهانة»، يقول إرنست في التسجيل، «لا يوجد شيء جيد أفعله لها. إنها تضغط على العديد من أزراري وبدأت أظن أنه يوجد فيها شيء من أمي. كلما سألتها عن علاقتنا العلاجية، تنظر إليَّ تلك النظرة الحذرة كما لو أنني أراودها عن نفسها. هل أفعل ذلك حقًّا؟ ولا ذرة من ذلك عندما أدقق في مشاعري». ثم يناقض نفسه عندما يشير إلى «صدرها الرائع»، ويتخيّل أن «تلك الأزرار تكاد أن تنفجر»، لكنه يقول بعد ذلك « أشعر بالقلق عندما أحدّق إلى هذين الثديين». ويكشف أيضًا عن مشاعر أخرى تثير غضب ميرنا، لا سيما ميلها إلى التذمر والتأفف وافتقارها إلى الرقة واللطف.

سجّل إرنست هذه التعليقات ليقدّمها في الندوة حول الانتقال المقابل التي يسخر يالوم خلالها من الآراء الكلاسيكية والمعاصرة المتناقضة حول هذا الموضوع المهم. ففي أحد طرفيْ الطيف يوجد فريتز فيرنر، المحلل النفسي المتقدّم في العمر الذي عُيِّن لرئاسة جلسات الندوة التي لم يكن يرأسها أحد من قبل، وأصبحت مؤخرًا موضع خلاف. يحتفظ يالوم ببعض انتقاداته اللاذعة لفيرنر الذي ينظر إليه المعالجون الأصغر سنًّا بأنه متعجرف ونخبوي، وبعيد عن واقع العلاج المعاصر. وبعكس المعالجين الآخرين المشاركين في الندوة، يعالج فيرنر مرضى أثرياء منذ سنوات عديدة، ولا يقبل المرضى ذوي التأمين

الصحي. بكلمات إرنست اللبقة، حافظ فيرنر على الموقف القديم المتمثل في «الإدراك النقي»، وهو الإيمان بالموضوعية الكاملة للمحلل.

يقع إرنست في الطرف الآخر من طيف الانتقال المقابل. « الصدق قبل كل شيء». كان إرنست متشككًا كثيرًا في جميع الأمور الأخرى. فقد كان يؤمن بحماسة بالصدق في العلاج. فقد كان تعليمه المسيحي يدعو إلى الصدق، لكنه صدق مُلَطَّف وانتقائي». رافضًا الموقف الكلاسيكي للموضوعية والتحيز التحليلي، يستشهد إرنست بفيلسوف يالوم المفضّل. «كل شيء تفسير، كما عرف نيتشه قبل قرن». مُستحضرًا كتاب فرويد «الطوطم والتابو»، العالم الذي يثور فيه الأبناء المتمردون على الأب الأوديبي، يقترح يالوم أن تاريخ التحليل النفسي هو تاريخ حرب لا هوادة فيها. لمعت عينا فيرنر، وأظهر البريق في عينيه الزرقاوين أنه يستمتع بهذه المناقشة، مشهد الأشقاء البالغين الذين أوقفوا تنافسهم واتّحدوا في حملة مشتركة لقتل الأب. قد يكون فيرنر وإرنست على طرفيْ نقيض من طيف الانتقال المقابل، لكن يالوم لا يقلل من شأن أي منهما. كانت انتقادات فيرنر لإرنست دقيقة إلى حد كبير. فقد ارتكب إرنست خطأً علاجيًّا فادحًا، خطأ يمكن أن يدمر العلاج إذا لم يُصحّح مساره. لم ينتقد فيرنر إرنست لأنه يشعر بالغضب، بل «لأنه لم يستطع التحكّم بنفسه في العلاج»، خصوصًا تعليقه الساخر المتعلق بالقميص.

وجد إرنست نفسه في موقف حرج عندما سمعت ميرنا في الشريط مشاعره الصادقة تجاهها عندما كانت تقود سيارتها في طريقها إلى جلستها العلاجية التالية، صاحت: «أحمق». يعكس غضب ميرنا مشاعرها تجاه زوجها السابق. ومثل كارول أستريد في رواية «مستلقيًا على الأريكة» رسمت ميرنا خططًا لتدمير معالجها، وقالت لنفسها: «الوغد». ومن اللافت أن أربعًا من مريضات يالوم - كارول، وإيرين في « سبعة دروس متقدّمة في علاج الحزن» وميرنا في «التعرية المزدوجة»، وكما سنرى، بام في رواية «علاج شوبنهاور، غاضبات، خاصة تجاه معالجيهم. لا أحد يصوّر «الغضب» أفضل مما يصوّره يالوم - ولا يوجد كاتب يمكنه أن يصوّر بشكل كوميدي مريضة

تنتقم من معالج ذكر جاهل أكثر منه.

تنبع الفكاهة في «التعرية المزدوجة» من قرار ميرنا بأن تعيد في العلاج ذكر مشاعر إرنست حول الانتقال المقابل دون أن تذكر من أين عرفت ذلك. وفجأة، اكتسبت ثقة قوية بنفسها وصراحة جديدة، وبدأت تطرح أسئلة جريئة على إرنست بدا كما لو أنها لكمات توجهها على بطنه. «إنك لا تحبني، أليس كذلك؟» وإصرارًا منها على الصدق المتبادل، سألته إن كان يرى أنها مملة. ثم أرادت أن تعرف هل يرى أنها امرأة متذمرة، الكلمة التي سمعتها في الشريط. واستمرت جرأة ميرنا في الجلسة التالية. أثنى إرنست على تقدّمها في العلاج، لكنه وجد نفسه في موقف دفاعي عندما سألته إن كان يرى أنها جذابة. «إني أُصلب»، همهم إرنست لنفسه، «هذا أسوأ كابوس يحدث له حول «الآن وهنا». وجد إرنست نفسه في نفس المأزق تجاه ميرنا الذي وجد نفسه فيه نظيره الأصغر في رواية «مستلقيًا على الأريكة». مرغمًا على الاعتراف بمشاعره الجنسية تجاه مريضة تحاول النيل منه. لكن في هذه الحالة، كان إرنست المسؤول الوحيد عن ذلك. وجدت ميرنا متعة في رؤية إرنست وهو يدافع عن نفسه، في مأزق، بتأثير كلامها، لكنها أقرّت مكرهة بأنه يبذل قصارى جهده ليحافظ على علاقة حقيقية معها. لم تكشف له قط سرّ الشريط المسجّل، لكن سماعها عن انتقاله المقابل كان نقطة تحول في علاجها، وأدى ذلك إلى إحداث تغييرات مهمة في حياتها.

«لعنة القطة الهنغارية» «Geh Gesunter Heit»

تبدأ القصة النفسية الأخيرة في مجموعة «أمي ومعنى الحياة» بعنوان «لعنة القطة الهنغارية» التي تُعدُّ أكثر أعمال يالوم خيالية، بأحداث واقعية، عندما حاول إرنست لاش إقناع مريضه بألّا ينهي العلاج، ثم تنتقل من حلم إلى حلم، حتى امتزج الواقع والوهم معًا ولم يعد بالإمكان الفصل بينهما. لم يحبّ إرنست هالستون، أحد أحفاد العبيد الهاربين في ترينيداد، لكنه شعر بجرح

في نرجسيته عندما قال له المريض بعد أربع جلسات علاجية فقط إنه سينُهي العلاج. همس إرنست لنفسه عبارة كانت أمه ترددها باللغة اليديشية وهي «Geh Gesunter Heit» وتعني بمحبة، «اذهب بصحة جيدة»، لكن أمه كانت تستخدمها بطريقة ساخرة تقصد بها: «اذهب وابق بعيدًا»، أو «أرجو من الله أن يمرّ وقت طويل قبل أن أراك مرة أخرى». وكما في قصة «التعرية المزدوجة» يربط يالوم بين إرنست في قصة «لعنة القطة الهنغارية» بأمه في بداية القصة.

من أجل فهم السبب الذي جعل إرنست يشعر بالملل من مريضه هالستون، طلب منه إرنست أن يصف له بالتفصيل الأحداث التي أدت إلى إصابته بنوبة الهلع ونقله على إثرها إلى قسم الطوارئ في المستشفى. أغمض هالستون عينيه، وبعد دقائق من الصمت، بدأ يتحدث، كما لو أنه في نشوة، عن لقائه بامرأة تدعى أرتميس، إلهة العفة والعذرية والصيد، وأرتميس أيضًا، مثل شقيقها التوأم أبولو، تجلب الموت المفاجئ والمرض. ضاجع هالستون أرتميس، لكنها ألقت عليه تعويذة، فحلم بأن قطة شريرة، ضخمة بحجم أسد. ثم تحوّلت أرتميس إلى روبوت ذي ثديين ضخمين يتدفق منهما سائلٌ مشعٌّ متوهج، مادة أكّالة تنهش قدميه وساقيه - لا يختلف عن القار الأسود في قصة «التعرية المزدوجة». استيقظ هالستون هلعًا، وقفز من السرير، وترك أرتميس نائمة، وهرع إلى قسم الطوارئ في المستشفى. ماذا يعني هذا الحلم؟ لماذا أحدث كلّ هذا التأثير على هالستون وإرنست؟ الغريب في الأمر أن إرنست مرّ بتجربة مماثلة قبل خمسة عشر عامًا عندما أمضى أمسية جميلة مع صديقته القديمة جودي التي هجرته لسبب غامض في صباح اليوم التالي ولم يعد لها أي أثر. «كان محطمًا. لم يمح العلاج النفسي ألمه تمامًا، وبعد كل هذه السنوات، ما تزال الذكرى تؤلمه حتى الآن». مهووسًا بأرتميس التي رأى أنها تجسيد لجودي، بدأ إرنست يبحث عن المرأة التي حوّلت حلم هالستون إلى كابوس، ووجدها في مكتبة ومقهى في آن معًا، ودار بينهما حديث طويل حول الأدب الألماني في القرن العشرين. عندما حكى لأرتيميس عن تجربته

المزعجة مع جودي، حكت له عن تجربة مشابهة حدثت لها، فأجابها إرنست، «حقًّا؟ من المدهش أنه توجد لدينا أشياء مشتركة كثيرة. ألا ينبغي أن يحاول أحدنا أن يشفي الآخر؟» استغّل يالوم الفكاهة السوداء في موقف معالجه المضلّل. «ماذا تفعل؟» تساءل إرنست. أدرك أنه يتصرف بطريقة لا أخلاقية لأنه أقام علاقة مع أرتيميس، متجاوزًا الحدود المعهودة لأنه يلاحق المرأة التي كانت على علاقة بالمريضة التي كان يعالجها. استطاع إرنست أن يتخيّل الحكم الذي سيطلقه المشرف السريري عليه، مارشال سترايدر. «الدكتور لاش طبيب جيد وأخلاقي ما عدا عندما ينجرف أحيانًا وراء عاطفته، ويفكّر برأسه الصغير». تزداد القصة سريالية عندما يعيش إرنست نفس التجربة التي عاشها هالستون مع أرتميس. هل التاريخ يعيد نفسه؟ غمرت إرنست أفكار الماضي في بداية المساء، وغاص في أحلام يقظة، وتذكّر خيالاته الجنسية المبكّرة التي شملت ممارسة الحب مع عمته هانا، وركوب الرولر كوستر في منتزه غلين إيكو، ولعب الشطرنج مع أبيه. يبدو أن «لعنة القطة الهنغارية» نسخة أخرى من «بيت الرعب» الذي وصفه يالوم في قصة «أمي ومعنى الحياة»، وهذا يعني أن المجموعة قد اكتملت. ضاجع إرنست أرتميس الساحرة، وعندما غطّ في النوم، داهمه نفس الكابوس الذي داهم هالستون، ورأى قطة عملاقة بحجم الأسد، ووقع ضحية سائل سام يتدفق من ثديي أرتميس الوحشيين. حاول أن يصرخ، «أمي! أمي! ساعديني يا أمي»، لكن الكلمات لم تخرج من فمه، ثم استيقظ وترك أرتميس وحدها، كما فعل هالستون. ثم يقدّم يالوم الشخصية الأكثر إلهامًا في القصة، وهي القطة الجشعة ميرغيس التي يعني اسمها باللغة الهنغارية «الغاضب». تذكّرنا جهود إرنست لتهدئة غضب ميرغيس القاتل، وإقناعها بأن تتخلّى عن انتقامها من امرأة أغرقته في حياة سابقة بعلاقة مماثلة بين المعالج وكارول في رواية «مستلقيًا على الأريكة»، وتنتهي القصة بأن تبارك القطة ميرغيس كلًّا من إرنست وأرتميس على نحو غير متوقع، وحثتهما على أن يستفيدا بقدر استطاعتهما من حياتهما. تُعدّ قصة «لعنة القطة الهنغارية» أكثر قصص يالوم

القصيرة تجريبية، يستحضر فيها عناصر من قصص الأخوين جريم الخيالية، والأساطير، والواقعية السحرية. يعتبر يالوم هذه القصة أكثر أعماله إبداعًا التي تتخللها روح كوميدية، فهي تجمع بين جميع الموضوعات التي تناولها يالوم في مجموعته «أمي ومعنى الحياة». وكما يقول يالوم في الخاتمة، «بما في ذلك فرحة المعالج عندما يقرر مريض مرهق وغير سار إنهاء العلاج، ومللله من مريض معين، واستخدامه لهذا الملل بمنزلة دليل في العلاج، واستياء المعالج من الضرر الذي ألحقه مريضه بشخص آخر، وتوقه إلى تصحيح هذا الخطأ، والهفوات التي يفقد فيها رؤية مصلحة مريضه، وأوهامه الكبيرة بأنه منقذ، وافتتانه الشهواني بشخصية في حياة المريض». ويضيف يالوم أن كل هذه النقاط الضعيفة وغيرها مستمدة من تجربته الشخصية.

إشادة نقدية

لم تحقق مجموعة «أمي ومعنى الحياة» نجاحًا كبيرًا، مثل مجموعة «جلّاد الحب»، لكنها حظيت بإشادة واسعة. فقد اعتبرت مجلة «كيركس ريفيوز» أن المجموعة «تكملة جديرة بالاهتمام» لمجموعة «جلّاد الحب»، وهو رأي شاركته فيه مجلة «قائمة الكتب»، «يحكي يالوم بشكل مثير للاهتمام عن المرونة التي يبديها بعض المرضى في مهمة شفاء أنفسهم». وأشاد ملحق التايمز الأدبي (لندن) بالمزايا الأدبية والنفسية للمجموعة القصصية. «بخلاف معظم المعالجين النفسيين، يستطيع يالوم أن يسرد القصة ببراعة حتى إنه يسهل نسيان أن ما تقرأه خلاصة أسابيع وشهور وحتى سنوات من العمل العلاجي. ويفعل يالوم ذلك بأسلوب وصراحة يُحسد عليهما».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل التاسع

هبة العلاج:
مخاطر وامتيازات
أن تكون معالجًا

«يشعر المرضى الذين أعالجهم بالقلق على صحتي»، يعترف يالوم في بداية كتابه «هبة العلاج». «هل سأكون موجودًا طوال فترة العلاج الطويلة؟ عندما أذهب في إجازة، ينتابهم الخوف من ألَّا أعود. يتخيّلون جنازتي أو زيارة قبري». إنها طريقة غير معتادة لبدء كتاب، لا سيما كتاب يتناول العلاج النفسي. إن إبداء المرضى الذين يعالجهم قلقهم على موته يكشف عن قلقه عن موته هو نفسه. يشعر المرء أن المعالج معالج جريح، جريح مثل الجميع، من اقتراب الموت. لقد أمضى يالوم حياته في الكتابة عن قلق الموت، ومن المناسب أن يذكر مخاوف الذين يعالجهم من موته بعد أن بلغ السبعين من العمر.

صدر كتاب «هبة العلاج» في عام ٢٠٠٢ عندما كان يالوم في الحادية والسبعين من عمره، وهو أحد أكثر أعماله شهرة بالإضافة إلى مجموعته القصصية «جلّاد الحب» وروايته «عندما بكى نيتشه». يبدأ الكتاب بنبرة حزينة عندما يتذكّر مسيرته المهنية كمعالج نفسي التي استمرت خمسة وأربعين عامًا، وكيف أن تغييرًا جذريًّا طرأ على مهنته خلال هذه السنوات. ويبدي أسفه لأن العديد من هذه التغييرات لا تبشّر بالخير للمستقبل. إذ يواجه العلاج النفسي أزمة في الوقت الحالي نتيجة تدخل الرعاية الموجهة (المُدَارَة)، وجاذبية علم الأدوية النفسية، والاعتقاد الخاطئ بأن العلاج التجريبي الذي ثبتت فعاليته هو العلاج القانوني الوحيد. إن يالوم محق في شعوره بالقلق على مستقبل العلاج النفسي «واحتمال تشويهه نتيجة الضغوط الاقتصادية، وتدهورها بسبب برامج التدريب المختصرة كثيرًا». وللكتاب عنوان فرعي هو «رسالة مفتوحة إلى جيل جديد من المعالجين ومرضاهم»، ويُعدُّ في جزء منه كتابًا إرشاديًّا للمعالجين، وفي جزء آخر خلاصة للموضوعات الرئيسية التي تناولها في أعماله السابقة. وينقل الكتاب إيمان يالوم الشديد بقوة العلاج النفسي الشافية، وأمله في أن تتغلب مهنته المحببة على العاصفة الراهنة.

يتذكّر يالوم في مقدمة الكتاب اللحظة التي بدأ فيها كتابة هذا الكتاب.

فعندما كان يتجوّل في معرض مكتبة هنتنغتون لأفضل الكتب مبيعًا في عصر النهضة في بريطانيا العظمى، لاحظ أن ثلاثة مجلدات تحتوي على «نصائح» مرقمّة - توصيات «جذبت انتباه الكثيرين»، مثل نصائح تتعلق بتربية الحيوانات، والخياطة، وزراعة الحدائق. فجأة، بدت فكرة كتابة كتاب يضم نصائح جذابة، وكان قد قرأ قبل ذلك بفترة قصيرة، كتاب «رسائل إلى شاعر شاب» لراينر ماريا ريلكه مرة أخرى، وشعر يالوم بروح ريلكه تحوم فوقه، فحاول بوعي أن يرتقي إلى مستوى ريلكه في «الصدق والشمولية وسخاء الروح».

تغطي أقسام كتاب «هبة العلاج» الخمسة مجموعة واسعة من الموضوعات، بدءًا من العلاقة بين المعالج والمريض التي تشكّل أربعين فصلًا من أصل خمسة وثمانين فصلًا قصيرًا. (يبلغ متوسط طول كلّ فصل ثلاث صفحات، لكن بعضها لا يتجاوز صفحة واحدة). ومن بين الموضوعات التي تتناولها العلاقة بين المعالج والمريض تجنب التشخيص (ما عدا من أجل التأمين)، والنظر إلى المعالج والمريض باعتبارهما رفيقين في رحلة، وتعليم المواجدة، والاعتراف بالأخطاء، والتأكيد على هنا والآن، وتقديم الملاحظات. وينتقل القسم الثاني من عملية العلاج إلى المحتوى الذي يشمل الموت، والمعنى في الحياة (وليس معنى الحياة)، والحرية. ويتناول القسم الثالث مجموعة متنوعة من القضايا، مثل تدوين الملاحظات، وبكاء المرضى، والزيارات المنزلية، ولمس المرضى بطريقة غير جنسية، واستكشاف العلاجات السابقة. ويتناول القسم الرابع الأحلام في العلاج، بما في ذلك استخدام الأحلام بطريقة عملية، والاهتمام بأول حلم يراه المريض، والاهتمام بعناية بالأحلام المتعلقة بالمعالج. ويركّز القسم الأخير على «مخاطر وامتيازات» كونك معالجًا. وتسلّط معظم الفصول الضوء على جوانب العلاج التي درسها يالوم في كتاباته السابقة، لكنه يتناول موضوعات أخرى لأول مرة. ففي الفصل المعنون «لم يكن فرويد على خطأ دائمًا»، يناقش يالوم علاقته المتغيرة بالتحليل النفسي، ويقدّم معلومات مفصلة عن موضوع قلما يُناقش، وهو تجربة المعالج نفسه في

العلاج. ويناقش يالوم أيضًا كيف استجاب المرضى لكتاباته، وهو موضوع يتناوله بتفصيل أكبر، في كتابه التالي غير الروائي «التحديق إلى الشمس».

يشعر الكتّاب المسنّون، مهما كانت مجالاتهم الأكاديمية أو تخصصاتهم، بالقلق حول ما إذا كانت كتبهم ستُقرأ بعد وفاتهم، ويالوم ليس استثناء. إذ يشير في مطلع كتاب «هبة العلاج»، إلى الكاتبة الرائدة في مجال التحليل النفسي كارين هورني. «لم يسمع معظم المعالجين الشباب باسمها. وبما أن مدة صلاحية المنظّرين البارزين في مجال اختصاصنا أصبحت قصيرة جدًّا، فإني سأصبح ذات يوم ضربًا من الماضي»، لكنه التزم الصمت حول ما إذا كانت كتبه ستبقى لفترة طويلة بعد وفاته. ومن المثير للاهتمام أن يالوم يبذل قصارى جهده لإحياء المعالجين النفسيين الذين قد يكونون غير مألوفين لدى قرائه: كارين هورني، إريك فروم، كارل روجرز، د. و. وينيكوت، ساندور فيرينتزي، رولو ماي، هاري ستاك سوليفان، ميلاني كلاين، وألين ويلز.

تقييم الأداء

يستخدم يالوم كلمة «تقييم الأداء» وليس كلمة «النقد» لمساعدة المرضى على معرفة المزيد عن أنفسهم. «يتمثّل هدف العلاج في زيادة اختبار الواقع ومساعدة الأفراد على رؤية أنفسهم كما يراهم الآخرون. ومن خلال تقييم الأداء والانطباعات، تصبح الذات العمياء أصغر بشكل ملحوظ».

ولكي يكون تقييم الأداء فعالًا، يجب تطبيقه بلطف دائمًا. وأحد التعبيرات المفضّلة لدى يالوم هو «اضرب الحديد وهو بارد»، أي تقييم الأداء عندما يكون المريض مستعدًّا لتلقيه بحماسة. وقد يتضمن تقييم الأداء أيضًا اعتراف المعالج بأخطائه: «إن الاعتراف الصريح بالخطأ نموذج جيد للمريض ودلالة أخرى بأنك تبدي اهتمامًا به». وتُعدُّ «الحالة العمرية» تقنية أخرى لتقييم الأداء، «في بعض الأحيان، أرى المريض في حالة عمرية معينة، وأراه أحيانًا أخرى في حالة عمرية أخرى، وأحاول أن أجد طريقة مقبولة

لمشاركة ذلك مع المريض، وأعلق عادة على ذلك عندما أرى المريض في حالة مناسبة لعمره».

يقدّم يالوم أربع توصيات حول تقييم الأداء يضفي عليها طابعا دراميًّا في روايته عن العلاج النفسي الجماعي «علاج شوبنهاور»، (١) «تتبع من ملاحظات هنا والآن»، (٢) «تتبع الحدث المولّد بأكبر قدر ممكن»، (٣) « تركّز على الملاحظات والمشاعر المحددة التي تولد في ذهن المستمع بدلًا من التخمينات أو التفسيرات حول دوافع المتحدث»، (٤) «يتحقق المتلقي من أداء التقييم والملاحظات مع الأعضاء الآخرين للحصول على موافقة جماعية».

كشف المعالج عن ذاته

قد يُفاجأ بعض القرّاء الجدد لكتاب يالوم «هبة العلاج» من تصريحه في أحد الفصول حول الحاجة إلى توخي الحذر عندما يكشف المعالجون عن جوانب من حياتهم للمرضى - وقد يفاجؤون بالعبارة الثانية أكثر من العبارة الأولى. «إذا كان تقييم إفصاح المعالج عن نفسه يجري على مقياس متواصل، فأنا متأكد من أنني سأكون في أعلى درجاته، مع أنني لم أفصح عن نفسي أكثر مما ينبغي، بل على العكس، كنتُ أسهّل عملية العلاج كلما شاركت المريض في بعض جوانب شخصيتي». لم يندم يالوم قط لأنه أفصح عن نفسه خلال العلاج، لا لأن المرضى يستجيبون دائمًا بشكل إيجابي لمعرفة أحد جوانب حياته الشخصية، وإنما لأن استجابة المريض السلبية قد تكون مفيدة إذا ركّز المعالج على هنا والآن. يجب أن يجتاز كل إفصاح عن الذات من قبل المعالج اختبارًا واحدًا وهو: «هل يكون هذا الإفصاح في مصلحة المريض؟».

على سبيل المثال، يستشهد يالوم بأنه أفصح منذ بضع سنوات لمجموعة علاج خارجية عن علاقته المتضاربة مع أمه التي توفيت مؤخرًا. أراد بعض المرضى أن يعرفوا تفاصيل عن وفاتها وجنازتها. «أجبتُ عن جميع أسئلتهم

بصراحة شديدة وحدثتهم، مثلًا، عن علاقتي المتوترة مع أمي، وكيف أنني اخترت أن أعيش في كاليفورنيا لكي أضع مسافة ثلاثة آلاف ميل بيني وبينها. فقد كانت أمي امرأة متسلطة في نواحٍ عديدة، لكنها فقدت أنيابها عندما تقدمت في السن، وفي السنوات القليلة الماضية، ازدادت علاقتنا قربًا وأصبحتُ ابنًا بارًّا». ذكر يالوم هذه العلاقة المثيرة للجدل في القصة المعنونة «أمي ومعنى الحياة»، لكنه يكشف في كتابه «هبة العلاج» عن معلومات جديدة حول القيمة العلاجية للكتابة عن أمه. «لقد دفعتني أزمة المعنى التي صوّرها الحلم (عن بيت الرعب) إلى استكشاف حياتي بطريقة مختلفة. ففي قصة كتبتها بعد الحلم مباشرة، دار حديث بيني وبين شبح أمي لرأب الخلاف بيننا، وفهم كيف تتشابك معاني حياتنا وتتعارض مع بعضها بعضًا».

لكي نقدّر مدى التقدم الذي أحرزه يالوم في موقفه تجاه البوح عن ذاته في العلاج النفسي، يجب أن ننظر إلى حلمه الأول في العلاج الذي ما يزال ماثلًا في ذهنه بعد أربعين عامًا. وهو لا يستشهد بهذا الحلم لتوضيح تغير موقفه تجاه الكشف عن الذات بشكل رئيسي، وإنما لإظهار الأهمية غير العادية لأول حلم يراود المريض في العلاج، قبل أن يصبح «صانع الأحلام» داخل لاوعي المريض حذرًا جدًّا نتيجة التحقيق التحليلي. «أنا مستلقٍ على طاولة فحص الطبيب. الملاءة صغيرة جدًّا لا تغطي جسدي بما يكفي. أرى ممرضة تُدخل إبرة في ساقي، في عظم الساق. فجأة، أسمع هسهسة قوية، صوت غرغرة، صوت «ووووش». ثم يفسّر لنا الحلم. «كان معنى الحلم - الصوت العالي - جليًّا لي على الفور». فعندما كان يالوم صبيًّا، كان يعاني من التهاب جيوب أنفية مزمن، وفي كل شتاء كانت أمه تأخذه إلى طبيب يصرّف السائل من جيوبه الأنفية ويغسلها. كان يالوم يكره هذه العملية. «أذكر أنني كنت أراقب محتويات وعاء التصريف نصف الدائري المطلي بالكروم وهي ترتجف مثيرة للاشمئزاز، ويخطر لي أن جزءًا من دماغي قد غُسل وسال مع ذلك القيح والمخاط». لقد كشف الحلم عن كلّ مخاوف يالوم من أن يُكشف ويُخترق في التحليل التالي. كان يخشى كثيرًا أن يفقد» صوابه، ويُغسل دماغه،

ويعاني من إصابة خطيرة في جزء طويل وثابت من جسده (يُصوَّر بأنه عظم الساق).

لمس الأيدي

يكشف يالوم في كتابه «هبة العلاج» عن تفصيل مهم حُذف من قصة «رحلات مع باولا» في مجموعة «أمي ومعنى الحياة». فقد فاجأته باولا في نهاية إحدى جلسات العلاج وقالت له: «لنقترب من أحدنا الآخر»، ثم طلبت من الجميع أن يمسك أحدهم بيد الآخر وينظرون إلى شمعة مشتعلة ويتأملون في صمت لبضع لحظات.

كان اقتراح باولا يتعارض مع تدريب يالوم الطبي، فشعر بعدم الارتياح، لكنه سرعان ما أدرك أنه تصرف مهم. وشرح ذلك بالتفصيل في كتابه «هبة العلاج»، وقال إنه لم يمسك يد مريض من قبل قط، لكن لم يكن لديه خيار في ألَّا يفعل ذلك. «فشاركتهم وشعرتُ على الفور، مثل الأعضاء الآخرين، أنها طريقة ملهمة لإنهاء جلساتنا، وظللنا ننهي كل جلسة بهذه الطريقة لسنوات عديدة».

يذكّر لمس الأيدي بالممارسة المسيحية المتمثّلة في وضع اليدين المرتبطة بتلقي الروح القدس. بالنسبة إلى يالوم، فإن هذا الفعل مقدّس كما هو علماني، ما يعني أن التواصل البشري قوة علاجية ضد الخوف والعزلة. ويرمز لمس الأيدي إلى العلاقة الحميمة بين المعالج والمريض، والثقة التي لا يمكن انتهاكها والتي تنشأ من إعطاء وتلقي هبة العلاج. إن اقتراح باولا بالتقارب أقنع يالوم بإنهاء كل جلسة علاجية بمصافحة المريض أو وضع يده على كتفه.

علاج المعالج

يشرح كتاب «هبة العلاج» كتابات سابقة، ويملأ تفاصيل القصص التي سردها من قبل، لكن موضوعًا واحدًا يتطرق إليه يالوم بعمق أكثر مما تطرق إليه سابقًا وهو: أنواع العلاج المختلفة التي جرّبها خلال مراحل مختلفة من حياته:

تسير تجربتي الشخصية مع العلاج في مسيرتي المهنية خلال خمسة وأربعين عامًا على النحو التالي: ٧٥٠ ساعة، خمس مرات في الأسبوع من التحليل النفسي الفرويدي التقليدي خلال فترة تدريبي في الطب النفسي (مع مدرّب في التحليل في كلية بالتيمور واشنطن المحافظة)، وتحليل لمدة عام مع تشارلز ريكروفت (محلل في «المدرسة المتوسطة» في المعهد البريطاني للتحليل النفسي)، وسنتان مع بات باومغارتنر (معالج جشطالت)، وثلاث سنوات من العلاج النفسي مع رولو ماي (محلل ذو توجّه شخصي ووجودي من معهد ويليام ألانسون وايت)، وفترات قصيرة عديدة مع معالجين من تخصصات مختلفة، بما فيها العلاج السلوكي، والطاقة الحيوية، ورولفينغ، والعمل مع الأزواج، ومجموعة دعم مستمرة منذ عشر سنوات (حتى وقت كتابة هذا المقال) من المعالجين الذكور، وفي ستينيات القرن الماضي، مجموعات لقاء متنوعة جدًّا، بما فيها مجموعة ماراثون عارية.

يلاحظ يالوم في كتابه «هبة العلاج» أن عدم اختياره الالتحاق بمعهد للتحليل النفسي كان أحد أفضل القرارات التي اتخذها في مسيرته المهنية، لكنه يعترف بأن مشاعره تجاه التحليل النفسي قد تغيّرت بشكل جذري. «ربما بالغتُ في التخوف، لكن يبدو لي أنه في هذه الأيام التي تشهد هجومًا لا هوادة فيه على العلاج النفسي، قد تصبح معاهد التحليل النفسي آخر معقل، ومستودعًا للحكمة التحليلية النفسية المجمعة، كما كانت الكنيسة لقرون مستودعًا للحكمة الفلسفية والمجال الوحيد الذي نوقشت فيه الأسئلة

الوجودية الجادة - هدف الحياة، القيم، الأخلاق، المسؤولية، الحرية، الموت، المجتمع، الترابط». كان من أكثر التطورات إيجابية في التحليل النفسي الحديث التركيز على التفاعل بين الأشخاص وعلم النفس الثنائي، وهما تطوران دافع عنهما يالوم لفترة طويلة قبل أن يتم قبولهما في أماكن أخرى. وأكد على دور التعاطف في العلاج، بالإضافة إلى توضيح فكرة يونغ عن المعالج الجريح.

لا يلمح يالوم أبدًا إلى أنه يجب أن يطلب المعالج العلاج من المريض، لكنه يعترف بأن جزءًا من المكافأة غير المتوقعة للعلاج يكمن في الطبيعة العلاجية لمساعدة الآخرين. «أعرف أنني بدأت، مرات لا حصر لها، ساعة العلاج وأنا أشعر بقلق، وانتهيت من الجلسة وقد تحسّنتُ كثيرًا من دون أن أعلّق صراحة على حالتي الداخلية». لا يقدّم يالوم مثالًا على أنه كان يشعر بالقلق في بداية الجلسة، وأصبح يشعر بتحسّن كبير في نهاية الجلسة، لكن يمكننا تقديم مثال بسهولة. تخيّل طبيبًا نفسيًا وجوديًا يموت من السرطان ويريد أن يمضي الشهور المتبقية من حياته في عمل ما كان يعمله دائمًا، وهو مساعدة المرضى. تخيّل المعالج وهو يفكّر في نجاحاته وإخفاقاته، ساعيًا إلى فهم نهائي لغموض العلاج. تخيّل يالوم هذه الحالة في روايته التالية، «علاج شوبنهاور»، وهي رواية خيالية من هبة العلاج.

الفصل العاشر

علاج شوبنهاور:
البحث عن ترياق

لم تكن نقطة انطلاق يالوم في روايته «علاج شوبنهاور» في عام ٢٠٠٥ استنبطا حبكة أو شخصية أو مكان معين، وإنما مجموعة من الأفكار التي تركّز على أربعة موضوعات هي: «(١) كيف يعمل العلاج الجماعي؛ (٢) كيف يمكن أن تؤثّر الفلسفة بصورة عامة، وفلسفة آرثر شوبنهاور بصورة خاصة، على ممارسة العلاج النفسي؛ (٣) كيف أثّرت حياة شوبنهاور الغريبة ومرضه الشخصي الخطير على استنتاجاته الفلسفية؛ (٤) كيف يؤثّر الوعي بالموت على سلوك المرء في الحياة» («كتابة علاج شوبنهاور»). من الصعب استكشاف أحد هذه الموضوعات في رواية، ويُعدُّ استكشاف جميع الموضوعات الأربعة أمرًا شاقًّا.

ما يزيد تعقيد قصة يالوم هو أن شوبنهاور كان أحد أكثر الفلاسفة كراهية للبشر في العالم. وقد اشتُهر بفلسفته المتشائمة، وتعليقاته اللاذعة عن النساء، وشكوكه الشديدة في العلاقات الإنسانية. ربما كان شوبنهاور أكثر المفكرين كُرهًا على مر العصور. ففي إحدى استعاراته الشهيرة، وصف البشر، أو «ذوات القدمين»، كما كان يطلق عليهم بازدراء، بأنهم ليسوا أكثر من قنافذ تتجمع معًا لاتقاء البرد، ولا يسعهم إلَّا أن يغرسوا أشواكهم الحادة في أحدهم الآخر. وكان الفيلسوف الألماني الشائك في أوائل القرن التاسع عشر أحد أشدّ المتشائمين صرامة في العالم، رجل كان يفضّل ألَّا يكون موجودًا في هذا العالم لو أُتيحت له الفرصة. بالمقارنة مع شوبنهاور، كان نيتشه، على الرغم من كونه أعظم تلاميذه، متفائلًا على نحو غامض.

تخيّل إذًا خلق شخصية خيالية، فيليب سليت، على غرار شوبنهاور، يزدري الجميع. كيف يمكن لشخص كهذا أن يطمح لأن يصبح فيلسوفًا

سريريًّا؟ كيف يمكن أن يتحمّله أعضاء المجموعة المشاركة في العلاج، خصوصًا امرأة أغواها عندما كانت طالبة في السنة الأولى في الجامعة، ثم تخلّص منها عندما أصبح أستاذًا مساعدًا؟ هل يمكن لشخصية بغيضة كهذه أن تغيّر رأيها بشكل مقنع؟ لماذا عنون يالوم الرواية «علاج شوبنهاور» بينما تشوب العلاج نفسه عيوب كثيرة؟ هل يستطيع طبيب نفسي وجودي، جوليوس هيرتزفيلد، أن يقدّم بمساعدة أعضاء مجموعته العلاجية، ترياقًا منقذًا للحياة لعلاج فلسفي تشوبه عيوب؟

يصف يالوم رواية «علاج شوبنهاور» بأنها «مزيج غريب من المخيّلة والسيرة الذاتية النفسية وعلم العلاج النفسي». لكن هذا الوصف لا يفي الرواية حقها. إذ تجمع «علاج شوبنهاور» بين علم النفس والفلسفة والسيرة الذاتية ودراسة ظواهر الموت، وتقدّم دروسًا في الحياة في شكل قصة مثيرة.

طبيب نفسي وجودي

يذكّرنا لقاء جوليوس هيرتزفيلد بإرنست لاش في رواية «مستلقيًا على الأريكة». جوليوس أكبر سنًّا من إرنست بعشرين عامًا، وأكثر خبرة من الناحية السريرية، عركته مصاعب الحياة، لكنه في الأساس هو الشخص نفسه. فقد «هيمن جوليوس على أوساط الطب النفسي طوال ثلاثين سنة. ولكونه أستاذًا في طبّ الأمراض النفسية في جامعة كاليفورنيا، فقد درّب وخرّج أعدادًا كبيرة من الطلاب، فضلًا عن أنه كان رئيس الجمعية النفسية الأمريكية قبل خمس سنوات». استبدل جامعة كاليفورنيا بجامعة ستانفورد، واحذف رئاسة الجمعية الأمريكية للطب النفسي - لا يبدي يالوم اهتمامًا بالسياسات المهنية - فإنك ستحصل على صورة لإرنست لاش الأكبر سنًّا - وللروائي الذي ابتكر كلا الشخصيتين.

مثل إرنست ويالوم، يحبّ جوليوس مهنته. «إني أعتبر دائمًا العلاج النفسي رسالة أكثر منه مهنة. أسلوب في الحياة للأشخاص الذين يبدون

اهتمامًا بالآخرين»، يقول لفيليب في بداية الرواية. يؤكد جوليوس مرارًا وتكرارًا التزامه تجاه أعضاء مجموعته العلاجية - تجاه كلّ مجموعة درّسها خلال ربع القرن الماضي. «فقد كانت المجموعة بالنسبة إليه أكثر من كونها مجموعة من الأشخاص، لدى كلّ واحد منهم حياته الخاصة، وله شخصيته التي تميّزه». يشعر جوليوس بحب لا يتجاوز حدوده لأعضاء المجموعة، ويحترم شخصية كل فرد.

مثل يالوم، يدرك جوليوس أن مهنته العزيزة تتعرض للهجوم من جميع الجهات. لكن هذه التهديدات الخارجية والشكوك الداخلية لا تمنع جوليوس من أداء عمله على أكمل وجه. فهو يتمتع بسمعة «الكلام غير التافه من طبيب لطبيب. معالج الملاذ الأخير، معالج حكيم مستعد لعمل أيّ شيء عليه أن يفعله لمساعدة مريضه». كان سيمور تروتر معروفًا أيضًا بأنه معالج الملاذ الأخير، وتوجد لدى هذين الطبيبين النفسيين كثير من القواسم المشتركة. فقد ولد جوليوس في حيّ البرونكس في نيويورك، وكان القمار يجذبه أكثر مما تجذبه نشاطات المدرسة الأخرى. فقد فشل في إثبات نفسه، وتورط في مُشكلات عديدة، وفقد مكانته، ووجد نفسه «محصورًا في دور واحد»، وهي ظاهرة لا يستطيع فيها أحد تقدير الشخص الجديد أو التعاطف معه. وعندما كان الخامسة عشرة من عمره، انتقل جوليوس مع أسرته إلى واشنطن العاصمة حيث كان والده يكافح من أجل كسب رزقه، واخترع جوليوس نفسه من جديد عندما كاد أن يُنتخب رئيسًا لصفّه في المدرسة الثانوية بفضل «جرأته الفطرية». لم يشكّ جوليوس قط في الحكمة بأنه سيصبح طبيبًا أولًا، ثم طبيبًا نفسيًّا. ومثل سقراط، كان يؤمن بأن الأشخاص الأكثر حكمة هم الذين يعترفون بتواضع بحدود معرفتهم. ويحترم أيضًا الحدود المهنية، بخلاف معالج يالوم السابق الذي كان الملاذ الأخير.

مثل يالوم، يحبّ جوليوس العمل السريري، لكن شغفه الأكبر الذي لم يتحقق بعد، هو أن يصبح كاتبًا مبدعًا. فقد حقق نجاحًا متواضعًا كباحث نفسي وطبيب سريري. «كان كاتبًا مساهمًا محترفًا جيدًا (فقد نشر كتابين ومئة مقالة في أدبيات العلاج النفسي)، لكن جوليوس كان يتوق لكتابة الأدب، وعلى مدى عقود جمع حبكات لقصص قصيرة من مخيلته ومن ممارسته. ومع أنه كان قد بدأ بكتابة العديد منها، فإنه لم يجد الوقت ولا الشجاعة الكافيتين لإنهاء قصّة وإرسالها للنشر». لن يُفاجأ الكتّاب المبدعون باستخدام يالوم كلمة «شجاعة» هنا: فقد تسبّب الصفحة الفارغة الشلل. كان قرار جوليوس بعدم تنفيذ «المشروع الكبير الذي لم يتحقق في حياته: أن يصبح كاتبًا حقيقيًّا» هو إخفاقه الوحيد في التحلّي بالشجاعة. مكتبة سُر مَن قرأ

لكن عدم تمكّن جوليوس من كتابة روايات لم يمنعه من الكتابة عن الموضوع الذي يتقنه، وهو الطبّ النفسي. فهو يعرف أن الكتابة الجيدة يمكن أن تنشأ حتى من فشل التجربة. الكاتب انتهازي: فكل شيء مادة خام بالنسبة إلى الكاتب، بما في ذلك الفشل. لم يكن علاج جوليوس لفيليب طوال ثلاث سنوات قبل عشرين عامًا ناجحًا، لكنه «سهّل بشكل رائع قدرة جوليوس على الكتابة، ووجدت أفكار عديدة من تلك الجلسات طريقها إلى مقالته الشهيرة «المُعالج النفساني والإرادة «وإلى كتابه «التمنّي والإرادة والعمل».

ما أنواع الحبكات التي يتخيّلها جوليوس من أجل كتابة رواية؟ شغّل جوليوس كمبيوتره وفتح ملفًا بعنوان «حبكات قصص قصيرة» - ملّف يضم المشروع العظيم غير المنجز في حياته: أن يكون كاتبًا حقيقيًّا. نقر على مقالة بعنوان (ضحايا يواجهون أعداءهم» وقرأ فكرتين كان قد دوّنهما. فقد حدثت المواجهة الأولى على متن سفينة على متنها أثرياء أبحرت من الساحل التركي. طبيب نفساني يدخل إلى كازينو السفينة ويرى عبر الدخان الذي يغشى الغرفة أحد مرضاه السابقين، رجل مخادع كان قد سلبه خمسة وسبعين ألف دولار». الحبكة، كما سيلاحظ بسرعة قرّاء رواية «مستلقيًا على الأريكة»

استمرار جهود مارشال سترايدر للانتقام من مريضه السابق الذي خدعه وسلبه عشرات آلاف الدولارات. أما حبكة القصة الثانية فهي عن محامية «كُلِّفت بالدفاع عن متّهم مغتصب. وفي أول مقابلة لها معه في السجن، تساورهما الشكوك في أنه نفس الرجل الذي اغتصبها قبل عشر سنوات». تذكّرنا هذه الحبكة بشخصية أخرى في رواية «مستلقيًا على الأريكة»، وهي كارول أستريد، المحامية التي لا يتجاوز غضبها سوى رغبتها في تحقيق العدالة. ومن بين حبكتين للانتقام، يستخدم يالوم الحبكة الثانية «علاج شوبنهاور» التي تُظهر كيف تواجه أستاذة الأدب في بيركلي بام سوانفيل غضبها الشديد عندما تكتشف برعب أن فيليب، أستاذها السابق، قد انضم إلى مجموعة العلاج.

ومن يقرأ أيضًا

قد لا يكون جوليوس روائيًّا مثل يالوم، لكنه يحبّ الأدب والفلسفة. تكشف الفقرة الافتتاحية في رواية «علاج شوبنهاور» عن إلمام جوليوس بخطب ومواعظ الفلاسفة قبل سقراط المتعلقة بالحياة والموت. كان «يتفق مع الرواقيين الذين يقولون: «ما إن نولد حتى نبدأ نموت»، ومع الأبيقوريين الذين يقولون: «حيث أكون، لا يكون الموت، وحيث يكون الموت، لا أكون أنا. فلمَ الخوف من الموت إذًا؟»» كان جوليوس يدمدم هذه السلوى في آذان المحتضرين، وها هو يطبقها حاليًّا على حياته الخاصة.

لا عجب أن الفيلسوف المفضّل لدى جوليوس هو نيتشه الذي يقتبس كتاباته بسلطة أكاديمية. فلا يعرف جوليوس كلمات نيتشه فحسب، وإنما يعرف غموضها أيضًا. سلّط جوليوس الضوء على فقرتين من نسخته المهترئة من كتاب «هكذا تكلم زرادشت»، الكتاب الذي استخدمه قبل عقود عندما كان يكتب مقالًا عن تأثير نيتشه غير المعترف به على فرويد. كانت إحدى الفقرتين «أكمل حياتك» و«لتمت في الوقت المناسب». يعرف جوليوس

أن لغة نيتشه الغامضة قابلة لتفسيرات متعددة. «كان جوليوس يشبّه غالبًا كلمات نيتشه باختبار رورسكهش الذي تُقدّم فيه آراء عديدة متباينة تحدّد حالة القارئ العقلية وماذا يمكنه أن يستمّد منها. يعود جوليوس إلى نيتشه في نهاية الرواية تقريبًا، متأملًا أوجه الشبه بين نيتشه وزرادشت. «وباتباعه نهج زرادشت، فقد تقاسم نضجه، وتفوق على نفسه بمساعدة الآخرين، وعاش حياته وهو مستعد لتكرارها دائمًا إلى الأبد».

تؤكد تفاصيل أخرى حبّ جوليوس للأدب. توجد على طاولته بجانب السرير كدسة من الروايات التي لم يقرأها بعد، والتي للأسف لن يجد الوقت لقراءتها. فقد أعطته بام منذ عدة سنوات، نسخة من رواية جون غاردنر «غريندل»، وهي رواية قرأها وقرأ منها فقرات لمريضة أخرى اسمها ريبيكا أخبرته لاحقًا كم كانت هذه القصة مهمة في حياتها. وفيليب أيضًا قارئ نهم للأدب والفلسفة، لكنه بعكس جوليوس، فإنه يتباهى بمعرفته. يشير فيليب بتكلّف إلى أن هايدغر ذكر قبل غاردنر بفترة طويلة أن الموت»استحالة إمكانية أخرى». تذكّر جوليوس أنه استمع منذ أربعين عامًا، عندما كان طالبًا، إلى محاضرة ألقاها إريك فروم استشهد فيها بحكمة كتبها تيرينس منذ أكثر من ألفيْ سنة: «أنا إنسان، ولا يوجد شيء إنساني غريب عليّ». الكتّاب المفضّلون لدى جوليوس هم الكتّاب الذين، بعكس شوبنهاور، يؤكدون على الترابط والمشاركة، مثل كامو وسارتر. ومن المثير للاهتمام أن ابنة جوليوس، أستاذة مادة الأدب، وابنه باحث في علم الأعصاب في جامعة جونز هوبكنز، مما يشير إلى التزام الأسرة بالفنون والعلوم، وهما شغف يالوم المزدوج.

صفات المؤلف الأخرى

يجسّد جوليوس عدم ثقة يالوم بالدين وازدراءه «للأدوات التي تستخدمها الأديان لإغواء أتباعها وسلبهم عقولهم وحريتهم». يعترف

جوليوس لأعضاء المجموعة بأنه يحسد قوة كاهن الاعتراف الذي يمنح المغفرة للمؤمنين، ويطمئن نفسه بأنه يعيش «وفق مبادئ العقل» ولا يعامل المرضى الذين يعالجهم مثل الأطفال يصوّر لهم الأساطير على أنها حقيقة». لكن، على الرغم من رفضه للدين الغيبي، لا يخشى جوليوس الاعتراف بالدروس المستفادة من الكتب المقدسة، فقد كانت تراوده العبارة الواردة في التلمود: «إن إنقاذ شخص واحد يعني إنقاذ العالم كله»، وهو أمر يمثّل سبب وجوده كمعالج.

إن وعي جوليوس الراسخ بالموت يزيد من تقديره للحياة. «العيش في يأس لأن الحياة محدودة أو لأنه لا يوجد للحياة هدف أسمى. إنه يعتنق حلّ سبينوزا وأينشتاين عن الموت: «أن يخفض المرء رأسه، ويرفع قبعته أمام القوانين الرائعة ولغز الطبيعة، ويواصل العيش». الموت عكس الحياة، لكن الموت ليس عكس العيش: إنه جزء من الحياة. يشبه مزاج جوليوس مزاج يالوم. «كان جوليوس يثق بمرضاه بشكل فطري. كان أحد تلك الأرواح المتفائلة التي زعزعتها الازدواجية كثيرًا». التفاؤل ليس سذاجة ولا سطحية. جوليوس واثق لكنه ليس أحمق. إنه شخص منضبط، يركض ثلاثة أميال كل يوم ليحافظ على لياقته البدنية، ويؤمن بالاعتدال، مثل الإغريق القدماء، ويوازن بين العمل والمتعة. « نفتقد الكثير مما تقدّمه لنا الحياة إذا لم نخلع معاطفنا قط ونشارك في المرح».

معالج نفسي جماعي

تطبّق رواية» علاج شوبنهاور» عددًا من التوصيات الرئيسية التي يقدّمها يالوم في كتابه «نظرية وممارسة العلاج النفسي الجماعي». فالدرس الأول الذي يعلّمه جوليوس لفيليب هو أن المرضى يقدّرون العلاقة العلاجية أكثر من أي شيء آخر.» قلما يتذكّرون فكرة مهمة كان قد قدّمها لهم المعالج، بل يتذكّرون عادة وبمودة علاقتهم الشخصية مع المعالج». يصرّ جوليوس على

ثلاث قواعد أساسية لأعضاء المجموعة هي:

(١) السرّية - عدم التحدّث مع أي شخص عن أعضاء المجموعة؛

(٢) الكشف عن الذات - السعي إلى الكشف عن أكبر قدر ممكن عن الذات لأعضاء المجموعة الآخرين؛

(٣) تماسك المجموعة - إبلاغ المجموعة بأي تواصل يجري بين الأعضاء خارج جلسة العلاج النفسي التي تستغرق تسعين دقيقة.

إحدى الافتراضات الأساسية لجوليوس هي أن المعالج الجماعي الجيد يمكنه أن يوضح كيف تكشف صراعات المريض الحالية «هنا والآن» عن مُشكلات في حياة المريض الماضية أو الراهنة. يقول لفيليب: «أفترض أن يبدي الأعضاء نفس السلوك في داخل المجموعة الذي سبّب لهم مُشكلات في حياتهم الاجتماعية. وأفترض كذلك بأنهم في النهاية سيعمّمون ما يتعلّمونه عن علاقات مجموعتهم على علاقاتهم في الخارج». بالإضافة إلى ذلك، ينصح جوليوس فيليب بتجنب العلاقات المزدوجة مع المرضى، بما في ذلك العلاقات الرومانسية والعملية. ويطبّق جوليوس هذه التوصيات عمليًّا. وكما يفعل يالوم في كتبه الدراسية، يشرح الفرق بين الكشف عن الذات بشكل عمودي وأفقي، ويوضح أنه ينبغي التشجيع على المخاطرة في الكشف عن الذات. يقول إن العلاج، سواء كان فرديًّا أم جماعيًّا، فإنه ينطوي دائمًا على التبادلية. ويستشهد جوليوس بعلاقة «أنا-أنت» التي طرحها مارتن بوبر باعتبارها علاقة تتيح الكشف عن الذات بشكل حميمي وتبادلي.

يمنح يالوم طبيبه النفسي المتخيّل العديد من خبراته المهنية. مثل يالوم، قاد جوليوس في بداية حياته المهنية مجموعة علاجية لمريضات سرطان الثدي، وهي تجربة تبين أنها أحدثت تغييرًا كبيرًا له ولهن. لكن للأسف، لم تتعلّم المريضات كيف يعشن إلّا بعد أن أنهك السرطان أجسادهن».

يوم اكتشاف الموت

يتلّقى جوليوس حكم إعدامه في بداية الرواية عندما أبلغه طبيب الأمراض الجلدية أنه مصاب بسرطان الجلد المتقرّح، وأنه ربما لم يتبق له سوى عام واحد من العيش بصحة جيدة. تتجلّى لغة يالوم بشكل متناقض عند التفكير في السرطان الذي يلتهم جسد شخصيته. «كم كان من المروع أنه أدرك فجأة أنه لم يعد شكلًا من أشكال الحياة الأسمى، وإنما أصبح مضيّفًا؛ طعامًا، غذاءً، لكائن حي أقوى يقسّم خلاياه ويلتهمها بسرعة مدهشة، كائن حيّ يهاجم بسرعة خاطفة ويضمّ البروتوبلازما المجاورة ويجهّز الآن بلا شك عناقيد من الخلايا حتى تجري في مجرى الدم وتستعمر أعضاء الجسد البعيدة؛ ربما أرضيات هشّة حلوة يتغذّى عليها من كبده أو من مروج رئتيه المعشوشبة الإسفنجية». مهما بدت فكرة الموت مرعبة ليالوم، فإن القدرة على التعبير بلغة مجازية عن عملية الانتشار القاتلة تتيح له قدرًا من المتعة الجمالية، وكما تُظهر لغته، يظل الموت مصدر إلهام له.

الموت ليس غريبًا على جوليوس، فقد ماتت زوجته المحبوبة ميريام التي كان يعرفها منذ المدرسة الثانوية في حادث سيارة منذ عشر سنوات. من المهم أن نلاحظ أن الطبيبين النفسيين الرئيسيين في روايتَيْ «مستلقيًا على الأريكة» و«علاج شوبنهاور» كانا كلاهما أرملين. كان يالوم محظوظًا بزواج طويل وسعيد، لكنه يستطيع أن يتخيّل كيف يشعر رجل يمرّ في حالة جوليوس بعد أن فقد زوجته. يقدّم لنا يالوم ملاحظتين تنطويان على حقيقة واضحة. «فمع أنه أحبّ ميريام منذ اللحظة التي وقعت عيناه عليها عندما كان في الصفّ العاشر، سرعان ما اعتبرها عقبة تحول دون أن يتقرّب من النساء الكثيرات اللاتي كان يشعر بأن من حقّه الاستمتاع بهن». من المرجح أن يفهم الزوج أو الزوجة الأكثر سعادة في زواجهما حقيقة هذه الملاحظة. ويدرك يالوم أيضًا عنصر المثالية الذي يحيط بالموتى. «ففي السنوات العشر منذ أن سلبها منه حادث اصطدام السيارة، ازداد حبّه لها أكثر مما كان يحبّها عندما كانت على قيد الحياة».

بعد أن اكتشف إصابته بسرطان الجلد في مرحلة متأخرة، يفكّر جوليوس

في أن يكتب مقالة لمجلّة الجمعية النفسية الأمريكية عن «طبيب نفساني في مواجهة الموت»، أو ربما مقالة عامة لمجلة الصنداي تايمز، أو شيئًا يشبه «سيرة ذاتية للموت». يدرك جوليوس أن جزءًا من سبب كتابة مقال كهذا يكمن في الدافع المضاد للرُهاب. لكنه لم يكتب المقال أو الكتاب قط إما لضيق الوقت، أو ربما لافتقاره إلى الشجاعة، لكن المرء يشعر بأن يالوم قد وجد الوقت والشجاعة للكتابة.

بدءًا من اليوم الذي اكتشف فيه أنه سيموت، ألقى جوليوس بنفسه في عمله، في مجموعة العلاج التي يقودها. كان العمل دائمًا متعة جوليوس القصوى. فالعمل ليس علاجًا بالنسبة إلى جوليوس فحسب، وإنما هو خلاص له أيضًا. لا نجد في قصص يالوم مثالًا أكثر وضوحًا من هذا على المعالج الجريح. «لقد انهمك تمامًا في دراما هذه الجلسة ونسي محنته لمدة ساعة ونصف. لم يكن ذلك أمرًا غير عادي. إن جميع أطباء العلاج الجماعي يعرفون المزايا الشافية الرائعة المتأصّلة في أجواء المجموعة النشيطة». فقرر جوليوس أن يستفيد من الوقت المتبقي له إلى أقصى حد بالانهماك في عمله، معتقدًا أنه سيساعد نفسه من خلال مساعدة الآخرين. فالعمل هو حياته كلها، ولم يفكّر للحظة واحدة بأن يتخلى عن المرضى الذين يعالجهم. يعتزم أن يموت وهو يعمل، مكرّسًا نفسه للآخرين حتى النهاية. إن جزءًا من التحدّي الذي يواجهه كمعالج أن يكون صادقًا في مشاعره تجاه اقتراب الموت دون أن يثقل كاهل مرضاه بمخاوفه، ويفسد ذلك علاجهم. وبدلًا من أن يشعر بالرضا عن المرضى الذين ساعدهم، فكّر جوليوس في المرضى الذين لم يتمكن من مساعدتهم مع أنه بذل كلّ ما في وسعه، فقرّر أن يتواصل مع أشدّ حالات فشله بروزًا.

ثنائي القدمين حادّ الطباع

تحرّك مكالمة جوليوس الهاتفية لفيليب سليت بعد اثنين وعشرين عامًا

أحداث الرواية. فما يزال فيليب مزعجًا كما يتذكّره جوليوس. عندما دعاه فيليب إلى مكتبه، دُهش جوليوس عندما عرف أن مريضه السابق أصبح حاليًّا فيلسوفًا سريريًّا. كيف يمكن لشخص لا يمتلك مهارات التعامل مع الآخرين أن يكون معالجًا؟ ازدادت دهشة جوليوس عندما طلب منه فيليب أن يصبح مشرفًا عليه. لم ير فيليب مشكلة في أن يشرف عليه معالج لم ينجح في مساعدته في العلاج الفردي. «إذ تبيّن الأبحاث بأنّ العلاج، مهما بلغت قدرة المعالج، لا ينجح لدى نحو ثلث المرضى. بالإضافة إلى ذلك، لا يوجد أدنى شكّ بأنني أديتُ دورًا هامًّا في هذا الفشل - عنادي، صلابتي. كان خطأك الوحيد هو أنك لم تختر نوع العلاج الذي يصلح لي، ثم واصلتَ العمل به لمدة طويلة». يكلّم فيليب جوليوس هنا وفي أماكن أخرى بنبرة متعالية، غالبًا ما تكون متكبرة، نائيًا بنفسه عن معالجه السابق قدر الإمكان. كيف استطاع جوليوس أن يتواصل مع شخص تتطلّب حياته كلّها الانفصال وعدم التواصل مع الآخرين؟

فيليب سليت رجل صلب، بارد، عديم المشاعر إنه صفحة بيضاء يخلو من المشاعر. صخرة متحوّلة مكوّنة من طين أو رماد بركاني، تُستخدم غالبًا كشاهدة قبر. إن مشاعر فيليب مدفونة في مظهره الخارجي الصلب والهش. يختار يالوم أسماء بطلَيْ روايته بعناية. يدرك فيليب أن اسمه ملائم. يقول في نهاية الرواية، «قد لا يكون هناك أمل بالنسبة إليَّ. فسجل علاقاتي، السابقة والحالية، فارغ». قد تكون صفحة علاقات فيليب فارغة، لكنه ليس صفحة بيضاء ناصعة، كما يقول الفيلسوف والروائي السويسري جان جاك روسو في القرن الثامن عشر. يواصل فيليب صراعه ضد قوة الحياة الغريزية التي تبعده عن أي تواصل بشري. واسم جوليوس هيرتزفيلد مثير للانتباه أيضًا، إذ تبدو كلمة «هيرتز» مثل كلمة «هيرز» (Herz) التي تعني «القلب» باللغة الألمانية. وهيرتز أيضًا مرادف لكلمة «يؤلم» (hurts) الأمر الذي يشير إلى الألم الوجودي الناجم عن مرض جوليوس المميت.

لا يبحث جوليوس عن الشفقة عندما يقول على الهاتف إنه يعاني من

مُشكلات صحية، وإنه يفكّر في أن يتقاعد، لكن فيليب لا يعبّر له عن تعاطفه أو قلقه أبدًا، ولا حتى عندما يلتقي الرجلان وجهًا لوجه بعد ذلك. إلى هذه الدرجة، يشبه فيليب إيرين في بداية علاجها في مجموعة «أمي ومعنى الحياة» الذي لا يريد أن يرى يالوم شخصًا حقيقيًّا له قصة. عندما عاد إلى ملاحظاته العلاجية في عام ١٩٨٠، عندما بدأ فيليب العلاج لأول مرة، تذكّر جوليوس شكوى مريضه الرئيسية: «تدفعني دوافع جنسية ضد إرادتي». يستخدم يالوم سردًا مقتضبًا بدلًا من السرد المشهدي لوصف «شكوى» فيليب، وهي كلمة لا تفي حقًّا إدمانه الجنسي. كان فيليب في السادسة والعشرين من عمره عندما بدأ العلاج، ولم يحاول إنكار صراعاته، كما تُظهر ملاحظات جوليوس السريرية عن الجلسة الأولى: «المرض الحالي - دافع جنسي قوي يوجّهه منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره - استمناء قهري طوال فترة المراهقة حتى الآن - أحيانًا أربع أو خمس مرات يوميًّا - مهووس بالجنس باستمرار، يستمني حتى يشعر بالسكينة. جزء كبير من حياته أمضاه مهووسًا بالجنس - يقول: «إن الوقت الذي هدرته في ملاحقة النساء - كان يمكن أن أحصل خلاله على درجة الدكتوراه بلغة مندرين الصينية والفيزياء الفلكية».

أحد التفاصيل القليلة التي يتذكّرها فيليب عن علاجه سؤال طرحه عليه جوليوس، السؤال الذي يطرحه جوليوس عادة عندما يصل إلى طريق مسدود مع المرضى: ما هي عبارة الرثاء التي تريد أن تُكتب على شاهدة قبرك؟ لكن صمت فيليب دفع جوليوس إلى أن يجيب: «إنه يريد أن ينيك كثيرًا». لم يكن لتصريح جوليوس القاسي أي تأثير على مريضه حينذاك، لكن فيليب استفاد منه بعد عشر سنوات - «تدّخل متأخر»، كما ذكر جوليوس لاحقًا بجدية - عندما قرر أن يغيّر مسار حياته.

السؤال المؤلم الذي طرحه فيليب في بداية العلاج - «لماذا لا أستطيع أن أفعل ما أريد أن أفعله فعلًا؟ يشكّل تحديًا فكريًّا لجوليوس. واستمر يفكّر في السؤال لفترة طويلة بعد انتهاء علاج مريضه. شلل الإرادة سؤال يطرحه المعالج النفسي والفيلسوف والروائي - وهو موضوع مثالي لكاتب مثل

يالوم.

فيليب هو الشخصية الوحيدة في رواية يالوم التي تعاني من إدمان جنسي. قد يذكّرنا فيليب بشخصية القطة ميرغيس في مجموعة «أمي ومعنى الحياة» مع أن هذا المخلوق المتوحش يتصرّف «بشكل طبيعي». يفضّل فيليب العلاقات العابرة على العلاقات المستمرة، ونادرًا ما يرى امرأة لأكثر من شهر. تنفصل عنه المرأة عادة، لكن هذا لا يهم، لأنه يتجنب كل العلاقات المعقدة. يحتفظ فيليب بسجل عن إنجازاته الجنسية، ويقول لجوليوس بهدوء، دون أن يشعر بالسعادة أو بالخجل، إنه نام في العام الماضي مع تسعين امرأة، ولم يكن مهتمًّا بأي منهن، ولا يوجد لديه أدنى اهتمام بعمله كخبير كيميائي يعمل على تطوير مبيدات الآفات، وهو تفصيل يتوافق تمامًا مع اعتقاده بأن معظم الكائنات الحية عبارة عن آفات. يتفق فيليب مع ملاحظة سارتر الساخرة في مسرحية «لا مخرج»: «الجحيم هو الآخرون». كان والد فيليب، وهو مصرفي يعمل في مجال الاستثمار يعاني من اكتئاب مزمن، انتحر عندما كان فيليب في الثالثة عشرة من عمره، ولم تكن لفيليب أي علاقة بأمه (أو زوج أمه) التي كان منفصلًا عنها منذ عشرين سنة، حتى إنه لم يحضر جنازتها.

يُعدُّ فيليب الذي يتميز بالتحليل لكنه يفتقر إلى الدفء أو التعاطف، مثالًا صارخًا على شخص يتمتع بذكاء فكري عالٍ، لكن ذكاءه العاطفي متدنٍ كثيرًا. لا يوجد لديه أصدقاء، ولا يستطيع أن ينظر في عينَيْ أي شخص، وتفسيره لذلك - «إن التقاء عيني بعينيّ الآخرين يشتت انتباهي في البحث عن الجواب الذي قد يرغب الآخر سماعه» - هو في الغالب تبرير لفشله في التواصل مع الناس. لم تساعده ثلاث سنوات من العلاج النفسي على تخفيف أعراضه أو حتى توسيع آفاقه أو تغيير سلوكه.

لكن أمورًا كثيرة تغيّرت في حياة فيليب منذ انتهاء علاجه مع جوليوس. ميراث صغير مكّنه من أن يترك عمله ويلتحق في الدراسات العليا بالجامعة. حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة كولومبيا، ويدرّس حاليًّا في كلية صغيرة في كاليفورنيا، ويبدو أن طلابه القلائل يشعرون بالملل من

محاضراته. لقد بدأ مسيرته المهنية في الاستشارة الفلسفية، وهي حركة متجذرة في التقليد السقراطي، بدأت في كاليفورنيا في ثمانينيات القرن الماضي لمساعدة المرضى على اكتشاف فهم فلسفي لحياتهم. وغالبًا ما يكشف فيليب، البطل الأساسي في الرواية، عن وجهة نظر يالوم نفسه.

وهذا ليس أمرًا غير معتاد: إذ يضع الروائيون أنفسهم عادة في عدد من الشخصيات المختلفة التي قد تجسّد جميعها جوانب من حياة مبدعيها. يعمل فيليب بوصفه مؤلفًا عندما يُطلع المجموعة على الافتراضات الكامنة وراء الاستشارة الفلسفية. «في أفضل الأحوال، يوجد حدّ غامض فقط بين التعليم والعلاج. ويعتقد اليونانيون - سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، والرواقيون، والأبيقوريون - جميعًا أن التعليم والعقل هما الأداتان اللازمتان لمواجهة المعاناة الإنسانية. ويرى معظم المعالجين الفلسفيين أن التعليم هو أساس العلاج. ويكاد يُنسب كلّ ذلك إلى شعار ليبنيز، Caritas sapientis الذي يعني «الحكمة والرعاية». ويؤمن يالوم أيضًا بتقديم المشورة الفلسفية، مستخدمًا حكمة الفلسفة لإثراء العلاج النفسي. ويرى أن جذور الطب النفسي الوجودي تعود إلى الفلاسفة العظماء في الماضي البعيد والقريب.

يذكر يالوم في صفحة الشكر والتقدير في رواية « علاج شوبنهاور» بيتر ب. رابي، أستاذ الفلسفة في جامعة سيمون فريزر، وأول شخص في كندا يحصل على درجة الدكتوراه بناءً على عمله النظري والعملي في تقديم المشورة الفلسفية. يشير رابي في كتابه الصادر عام ٢٠٠٢ بعنوان «قضايا في الاستشارة الفلسفية» إلى أن تقديم المشورة الفلسفية ليست علاجًا نفسيًّا لأنها لا «تدّعي فهم اللا وعي (إن وجد) أو القدرة على تفسيره، وبالتالي فإن معرفة الناس هي أفضل مما يعرفون أنفسهم. يقول رابي إن ما يمكن أن تفعله الاستشارة الفلسفية هو تعليم المرضى «تلك القدرات والسمات الفلسفية التي ستساعدهم على تجنب أو منع حدوث مُشكلات في المستقبل».

يستطيع فيليب أن يستفيد من كلّ المساعدة التي يمكن أن يحصل عليها من الاستشارة الفلسفية والعلاج النفسي. ما هو السبب الرئيسي للتحول

الذي طرأ على فيليب منذ آخر مرة رآه فيها جوليوس؟ قبل سنوات، كان فيليب قد بدأ العلاج مع «معالج» آخر، هو آرثر شوبنهاور، الذي غيّرت كتاباته الملهمة حياة فيليب نحو الأفضل والأسوأ.

بدينبروكس

يدعو فيليب جوليوس للاستماع إلى محاضرة يلقيها عن أهمية فلسفة شوبنهاور، محاضرة أعدّها فيليب أساسًا من أجل معالجه السابق. تركّز المحاضرة على رواية توماس مان بدينبروكس التي نُشرت عام ١٩٠١ عندما كان في السادسة والعشرين من عمره، ولم يكن قد حاز على جائزة نوبل. شعر توماس بدينبروكس، ربّ الأسرة البالغ من العمر ثمانية وأربعين عامًا بالاكتئاب بسبب حتمية الموت، لكنه وجد راحة مؤقتة عندما وجد بالصدفة كتابًا في الفلسفة اشتراه قبل سنوات من مكتبة لبيع الكتب المستعملة. لم يذكر مان اسم مؤلف الكتاب، لكنه ذكر العنوان للقرّاء: «عن الموت وعلاقته بخلودنا الشخصي»، والمؤلف هو آرثر شوبنهاور.

على الرغم من حصوله على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة كولومبيا، إحدى أعظم جامعات البلاد، لا يعرف فيليب شيئًا عن التدريس الجيد. فهو يتكلم بصوت مملّ ورتيب، ولا يبذل أي جهد لإشراك طلابه في المناقشة. صحيح أنه يلقي محاضرات في قاعة دراسية كبيرة، لا يوجد فيها سوى ثلاثين طالبًا كسولًا تقريبًا، بالإضافة إلى عدد قليل من المشردين النائمين، لكنه لا يبذل أي جهد لإخفاء ازدرائه للحاضرين. ولا يقتصر ازدراؤه على طلابه الذين يشير إليهم «بالحمقى الذين يحضرون زريبة الخنازير هذه التي تدعى جامعة». ويمكن وصف أسلوبه في التدريس بأنه أسلوب تعليمي قائم على الإذلال. لا يحظى فيليب باهتمام طلابه إلّا عندما ذكر أن الفيلسوف الذي ذكره للتو، كانط، سيكون موضوع الامتحان النهائي. لم يكن محتوى محاضرة فيليب مسيئًا، لكن تعاليه لا يُغتفر. صوته النبوي يشي بافتقاره إلى الحكمة.

كان أسلوب تعليم فيليب مملًّا، فغادر الطلاب القاعة ببطء خلال المحاضرة، ولم يستجيبوا لملاحظات أستاذهم. فوجئ جوليوس في أثناء المحاضرة عندما كان فيليب يخاطبه باسمه، وأوصى بقراءة رواية مان «لأي شخص ينوي أن يموت». تُنبئ إحدى الفقرات التي اختار فيليب قراءتها بصوت عالٍ من رواية بدينبروكس بالأسئلة التي ظلا ضمنية طوال رواية «علاج شوبنهاور». ما هو إرث الوالدين لأبنائهم؟ ما هو إرث المعالج النفسي للمرضى الذي يعالجهم؟ عندما كان فيليب يقرأ الفقرة التي يتأمل فيها توماس بدينبروكس حياته بصمت، كان جميع الحاضرين في القاعة قد غادروا القاعة ما عدا جوليوس.

بالدخول في حوار مع اثنين من أعظم الكتّاب في العالم، شوبنهاور ومان، يطرح يالوم السؤال القديم: ماذا يورّث الموتى الأحياء؟ يطغى شبح الأب الغائب على رواية «علاج شوبنهاور»، فقد انتحر والد آرثر شوبنهاور، كما انتحر والد فيليب. ما هو الإرث المظلم للانتحار، وكيف يتجنب الابن المجروح مشاركة والده مصيره؟ يالوم ليس مستعدًّا للإجابة عن هذه الأسئلة، لكن تفسيره سيشمل، جزئيًّا، تعزيز قدرة كلّ فرد من أفراد المجموعة على إقامة علاقات شخصية.

قرأ فيليب رواية توماس مان بشكل انتقائي، وليس بعناية. صحيح أن كلمات شوبنهاور أثّرت في البداية على توماس بودنبروك. مفتونًا بفكرة شوبنهاور عن الإرادة، اعتقد بودنبروك أن «الموت كان فرحًا عظيمًا وعميقًا حتى إنه لا يمكن الحلم به إلّا في لحظات الوحي مثل الحاضر. إنه عودة من تيه لا يوصف، وتصحيح لخطأ فادح، وتحرير من القيود، وفتح للأبواب - لقد أصلحت حادثًا مؤسفًا» (مان). لكن فيليب لا يذكر أن بدينبروكس قد استيقظ في اليوم التالي وهو يشعر «بالخجل من الانفعالات العاطفية الشديدة التي انتابته في الليلة السابقة»، غير قادر على إيجاد راحة في الفكرة بأنه سيندمج مع الكون». ولم يكن جوليوس معجبًا بعزاء شوبنهاور. فقد كتب في مذكراته بعد محاضرة فيليب عن شوبنهاور: «إن فكرة العودة إلى

الوحدة الكونية دون أن يبقى أي أثر لي ولذكرياتي ووعيي الفريد، هي أسوأ عزاء. لا، إنها ليست عزاء على الإطلاق».

إبرام صفقة

مع أن جوليوس وفيليب كانا يمرّان في مراحل مختلفة من حياتهما، فقد كان أحدهما بحاجة إلى الآخر. فقد أراد جوليوس أن يعرف كيف تمكن فيليب من تغيير حياته بمساعدة شوبنهاور، ولماذا نجح فيليب مع شوبنهاور، وأخفق مع جوليوس؟ أما فيليب فقد أنهى دراسته في برنامج الاستشارة، ويحتاج إلى مئتي ساعة من الإشراف المهني ليحصل على رخصة تخوّله تقديم استشارات من الولاية. لكن هناك أسباب أعمق تفسّر لماذا يحتاج كلّ واحد منهما إلى الآخر. ورأى جوليوس أن فيليب غير قادر حاليًّا على أن يكون معالجًا فعالًا، لكن إذا أصبح مريضًا في فصل جوليوس الدراسي في العلاج النفسي الجماعي، فقد يتعلم فيليب شيئًا مهمًّا عن العلاج. ويرى فيليب أن جوليوس قد يتعلّم شيئًا أساسيًّا عن نفسه وعن الاحتضار والموت، من فلسفة شوبنهاور. لذلك اقترح فيليب تبادلًا فريدًا للإشراف والتدريس، بحيث يستفيد كل منهما من الآخر. يذكّرنا هذا التبادل المقترح برواية يالوم الأولى، حيث كان بروير ونيتشه يتناوبان على شفاء الآخر. وبعكس بروير الذي تعقّدت علاقته بنيتشه بسبب سرّ رهيب لا يستطيع الكشف عنه للفيلسوف، لم تتأثّر علاقة جوليوس بفيليب بهذه الطريقة، لكن لدى جوليوس سرّ مظلم لم يعترف به لأحد من قبل، وهو سرّ يربطه بفيليب على نحو غير متوقع.

قد يكون يالوم قد فكّر في استخدام تقنية «التبادل» مرة أخرى في علاج شوبنهاور، لكنه قرر ألّا يفعل ذلك لعدة أسباب. الأول، أن الروائي لم يشأ أن يكرر نفسه ويستخدم نفس التقنية الجمالية مرتين، والثاني، لم تُثر محاضرة فيليب اهتمام جوليوس لأن يعرف المزيد عن حياة شوبنهاور أو أعماله،

والثالث، يجب أن يتجنب المعالج العلاقات المزدوجة مع المرضى، بما في ذلك العلاقة بين المعلّم والتلميذ، وهو ما سيكون عليه الحال في حالة التبادل بين الإشراف والتدريس. وأخيرًا، يعرف جوليوس أن فيليب ليس مستعدًّا لمعالجة المرضى والخضوع للإشراف. بل إن فيليب يحتاج إلى «عمل علاجي»، وهو تعبير ملطف يعني أن يتعلّم كيف أن يكون إنسانًا.

قدّم له جوليوس عرضًا مقابلًا. فقد وافق على أن يصبح المشرف السريري لفيليب فقط إذا أمضى فيليب ستة أشهر كمريض في مجموعة العلاج النفسي التي يقودها جوليوس. لكن العرض المقابل أثار قلق فيليب. «ماذا سأستفيد عندما أسمع الآخرين يصفون حياتهم ومُشكلاتهم جماعيًّا؟ إن مجرد فكرة وجود مجموعة من البائسين والتعساء تروّعني، مع أن هناك دائمًا، كما قال شوبنهاور، متعة في معرفة أن الآخرين يعانون أكثر مما تعاني أنت». إن ربط فيليب بين شوبنهاور والشماتة، المتعة المستمدة من معاناة الآخرين ومصائبهم، يكشف عن نظرة الفيلسوف الساخرة للطبيعة البشرية. كيف يمكن لفلسفة سريرية أن تنجح إذا كانت قائمة على الشماتة؟ هل سيتحوّل اتفاق جوليوس مع فيليب إلى اتفاق شيطاني؟ يكشف تصريح فيليب عن مدى حاجته للتعلّم قبل أن يصبح شخصًا، ناهيك بأن يصبح معالجًا. يقبل فيليب الاقتراح بشرط واحد وهو أن يوافق جوليوس على اعتبار جلسات العلاج الجماعي بمنزلة ساعات إشراف. تحمّل كلا الرجلين مخاطرة ذلك بالموافقة على الاقتراح. كان جوليوس يعرف أنه يتخذ قرارًا أخلاقيًّا مشكوكًا فيه. لأن فيليب سيكون مريضًا مترددًا، وربما عدائيًّا، وقد تؤثر مقاومته على أعضاء المجموعة الآخرين. فقد أمضى حياته في بناء درع صلب لشخصيته، وسيتطلب العلاج التخفيف من هذا الدرع الذي يسجن الذات، إن لم يكن التخلّي عنه. وافقا كلاهما على أن يعملا معًا على الرغم من شكوكهما الجادة. تُعدُّ علاقتهما المتطورة إحدى انتصارات الرواية.

انتقاد تجاوزات مهنته

ينظر يالوم بريبة إلى التجاوزات في مهنته. فقد لا يذكر اسم مؤلف أو كتاب معين يعتقد أنه كان له تأثير خطير على العلاج النفسي، لكن يستطيع المرء في كثير من الأحيان أن يستنتج موضوع انتقاده. خلال أول جلسة جماعية حضرها فيليب، شعر جيل أنه بحاجة ملحة إلى أن يتحدّث عن كيف أن معالجًا أعطى زوجته روز كتابًا عن التحرش الجنسي على الأطفال أقنعها بأنها تعرضت للتحرش الجنسي في طفولتها، وأصبح لدى روز الآن، على حد تعبير جيل «فكرة ثابتة»، فتدّخل فيليب وصحّحها على الفور: «فكرة راسخة». وبموافقة معالجها، قفزت روز إلى استنتاج، دون أي دليل، بأن والدها كان قد اعتدى عليها جنسيًّا في طفولتها، وشعر والد روز بالعار من هذا الاتهام، ووافق على أن يحضر جلسة علاجها، وقطع مئات الأميال ليحضر الجلسة، وطلبت روز من جيل أن يحضر أيضًا - «لحمايتها».

بوصفه طبيبًا نفسيًّا، يعرف يالوم أن التحرش الجنسي، خاصة ضد طفل لا حول له ولا قوة، مشكلة خطيرة تنطوي على عواقب نفسية بعيدة المدى. وبوصفه روائيًّا، فلن يتناول هذه الجريمة باستخفاف. لكن في أثناء جلسة العلاج النفسي لروز، أصبحت اتهاماتها لأبيها أكثر جنونًا، كما قال جيل لمجموعة العلاج النفسي. «اتهمته بكلّ شيء، حتى إنها ادّعت بأنه كان يدعو جيرانه ورفاقه في لعب البوكر وزملاءه في فوج الإطفاء - كان يعمل إطفائيًّا آنذاك - لممارسة الجنس معها عندما كانت طفلة». سألت ريبيكا، عضوة أخرى في المجموعة، جيل ماذا أجاب والد روز على تلك الاتهامات، فقال جيل: «تصرّف كرجل محترم. إنه رجل عجوز لطيف، في السبعين من العمر تقريبًا، لطيف، طيب. كانت تلك أول مرة أراه فيها. كان رجلًا رائعًا - يا إلهي، كم تمنيت أن يكون عندي أب مثله. جلس هناك، واستمع، ثم قال لروز إنها إذا كانت تحمل كل هذا الغضب، فمن الأفضل أن تفرغه. وأنكر كلّ تهمها المجنونة، وقال إنه يعتقد - وأظن أن هذا كلام منطقي -بأنّ غضبها قد يكون لأنه هجر الأسرة عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها».

من المرجح أن الكتاب الذي يشير إليه معالج روز بثقة تامة هو كتاب

«الشجاعة من أجل الشفاء» للكاتبة إلين باس وتلميذتها السابقة لورا ديفيس الذي نُشر لأول مرة في عام ١٩٨٨، وهو حاليًا في طبعته الرابعة، وما يزال «الشجاعة من أجل الشفاء» من أكثر الكتب مبيعًا في مجال المساعدة الذاتية على الإطلاق. كان الكتاب بمنزلة صرخة حرب للنساء اللاتي يعتقدن أنهن تعرضن للتحرش الجنسي في طفولتهن، أحيانًا خلال السنة أو السنتين الأوليين من حياتهن، لكنهن لم يتذكرن هذه التجربة إلّا بعد أن بدأن العلاج النفسي بعد عشرات السنين. أثار كتاب «الشجاعة من أجل الشفاء» ظاهرة استعادة الذاكرة (والاعتداء الشيطاني في الطقوس) التي هزّت أركان علم النفس والعلاج النفسي طوال عقدين من الزمن.

أثبت باحثو الذاكرة أن الذاكرة ليست مثل جهاز تسجيل أو كاميرا تعيد إنتاج الصوت أو الصورة بأمانة، بل هي عملية مستمرة تنطوي على تغيير مستمر ومراجعة، وتنطوي غالبًا على تشويه. ففي كتاب «أسطورة الذاكرة المكبوتة»، أظهرت إليزابيث لوفتوس وكاثرين كيتشام، في تجربة كلاسيكية تسمَّى «تائه في المجمّع التجاري»، أنه من السهل خلق ذكريات زائفة لدى الأطفال. فالذاكرة قابلة للتشكيل، وهي ليست غير موثوقة فقط، وإنما يسهل التلاعب بها أيضًا. وكما لاحظ الباحث في جامعة كامبريدج فريدريش بارتليت منذ قرن تقريبًا، فإن التذكّر «إعادة بناء خيالية، أو بناء، مبني على علاقة موقفنا تجاه مجموعة كاملة من ردود الفعل، أو التجارب المنظمّة في الماضي. وبالتالي، فإنه قلما يكون دقيقًا حقًّا». يستطيع المعالجون أن يزرعوا، عن قصد أو من دون قصد، فكرة في ذهن المريض، وبالتالي يخلقون فكرة راسخة، كما بدا ممكنًا في حالة روز. تجنب جوليوس بحكمة إعطاء جيل نصيحة حول كيف يتعامل مع حالة زوجته، ويذكّر يالوم قرّائه بحكمة بأن العلاج النفسي قد مرّ بموجات من الصرعات والبدع والعلاجات الزائفة التي عندما ينظر إليها في الماضي، فإنها تسبب ضررًا للمرضى.

يبدو أن أسوأ مخاوف جوليوس حول فيليب تأكدت خلال الجلسات الجماعية الأولى. فقد بدا التوتر بينهما واضحًا للعيان. فقد سبق فيليب

جوليوس وأبلغ المجموعة عن تشخيصه النهائي. «أشعر أنه لم يعد لديّ ما أقوله، أشعر أنه كان لديّ خبر هام أردت أن أنقله لكم لكن أحدًا سبقني إلى نقله، نقل قصّة حياتي - أو قصّة موتي». وهكذا أصيب جوليوس بنرجسية مزدوجة، الأولى عندما حصل على تشخيصه النهائي، ثم عندما حُرم من فرصة سرده بكلماته الخاصة. فقد كان على جوليوس أن يسرد قصته بنفسه، لا أن يرويها شخص آخر نيابة عنه. حتى عندما حاول فيليب أن يكون مفيدًا، مستشهدًا بعبارة سبينوزا اللاتينية sub specie aeternitatis، أي الحاجة إلى النظر إلى الحياة من منظور كوني، وجد جوليوس أن النصيحة غير مفيدة، وأنها الدواء الخاطئ الذي يحتاج إليه. دواء جوليوس للتعامل مع الأفكار المظلمة التي تداهمه ليلًا نهارًا، وتذكّره بأنه لم يعد له مستقبل، وهو الحياة المكثفة التي يعيشها في مجموعته العلاجية، دواء يجده فيليب سامًّا. وسرعان ما لاحظ أعضاء المجموعة الآخرون العداء بين جوليوس وفيليب. وعندما سُئل جوليوس عن سبب دعوته لفيليب إلى المجموعة، أجاب بطريقة غير معهودة: «بصراحة لا أعرف ما هي دوافعي في ذلك». ويرى جوليوس أن ما يحتاج إليه الآن هو تعزيز روابطه، بينما يرى فيليب، مثل شوبنهاور، أنه كلما زادت روابط المرء، زادت الحياة عبئًا عليه. وتشير مواقفهما المتناقضة إلى المعنى المزدوج لعنوان الرواية، كما تقترح روثيلين جوسيلسون: «يشير عنوان «علاج شوبنهاور» إلى العلاج الذي يقدّمه شوبنهاور وإلى العلاج الذي يحتاج إليه شوبنهاور».

«شكل من أشكال حياة جديدة»

خيّم الصمت على أعضاء المجموعة مندهشين من فيليب حتى إنهم اعتبروه «نوعًا جديدًا، شكلًا من أشكال حياة جديدة». اتهمه توني الذي ترك الجامعة وأمضى فترة في السجن بتهمة الاعتداء، «بالتباهي» بما يعرف من معلومات وتقديم «شعارات نزقة تبدو عميقة»، وهي جهود، كما أضاف توني، تُعدُّ شكلًا من أشكال الإغواء، لكن فيليب رفض هذه التهمة. هناك

شيء مثير للاهتمام والاشمئزاز في فيليب حتى عندما يقتبس اعتقاد شوبنهاور الذي عبّر عنه في أواخر حياته بعد حصوله على الشهرة التي كان يتوق إليها، بأننا «إخوة في المعاناة، ونحتاج إلى التسامح والحبّ من جيراننا في الحياة».

يحبّ يالوم مصطلح شوبنهاور كثيرًا، ويشير في كتابه «هبة العلاج» إلى أن هذا التعبير يلغي الفروق بين المرضى والمعالجين، «بين «هم» (المصابون) و«نحن» (المعالجون)». لكن عندما يستخدم فيليب عبارة «إخوة في المعاناة» في بداية الرواية، فإنه لا يزال يفكّر بطريقة عقلانية، غير قادر على أن يدرك صحة عبارة شوبنهاور.

لا يسع القارئ إلّا أن يتساءل إن كان هذا النوع الجديد أو شكل الحياة الجديد المسمّى فيليب سليت يخلو تمامًا من العواطف، أم أنه مجرد لوح فارغ لا يستطيع فهم الطبيعة العاطفية للحياة، أو أنه كبت مشاعره وعواطفه فلم يعد من الممكن الوصول إليها بشكل دائم. يُعدّ فيليب أكثر شخصيات يالوم غرابة، فهو يشير إلى نفسه دائمًا بضمير الغائب، ولا ينظر إلى الآخرين أو يخاطبهم بأسمائهم، ويتكلم بصوت منسلخ عن الجسد، وينبعث منه طابع من النقاء غير الدنيوي، ويبدو أنه يعيش في كوكب آخر.

آرثر شوبنهاور

لا يؤمن فيليب بتناسخ الأرواح، لكن لو كان بإمكانه أن يعود بالزمن إلى الوراء، لأراد أن يكون آرثر شوبنهاور. يعتقد فيليب أن شوبنهاور أنقذ حياته، وهو مقتنع أن باستطاعة الفيلسوف إنقاذ حياة الآخرين. سرعان ما فقد فيليب اهتمامه بالتدريس لأنه يعتقد أنه لا يوجد طالب جيد، وهو رأي شوبنهاور عندما كان أستاذًا جامعيًّا لفترة قصيرة غير مرضية، فانتقل فيليب إلى الاستشارة الفلسفية. قال لأعضاء المجموعة إن الفلسفة شفته، لذلك، من الممكن أن تشفي الآخرين. الشفاء كلمة غامضة، وحدود علاج شوبنهاور واضحة على الفور.

كان فيليب صادقًا بأن قراءة أعمال شوبنهاور ساعدته على التخلص من الإدمان الخطير على الجنس، وقد اعتبر جوليوس ذلك شيئًا رائعًا. «معظم المعالجين اليوم يقولون إنّه لا يمكنك أن تتخلص من الإدمان على الجنس المزمن وحدك» ومهما كانت التقنيات الشوبنهاورية التي استخدمها فيليب، فلا شك أنها كانت فعالة - وتابع جوليوس، «أفضل من أيّ شيء قدمته لك، مع أنني بذلت قصارى جهدي».

بعكس رواية «عندما بكى نيتشه» التي تدور أحداثها في عام ١٨٨٢ الذي يعتبر عامًا حاسمًا في حياة شخصيتيْ يالوم الرئيسيتين، تدور أحداث رواية «علاج شوبنهاور» في الوقت الراهن، عام ٢٠٠٥، بعد مضي ١٤٥ عامًا على وفاة الفيلسوف التاريخي عندما كان في الثانية والسبعين من عمره. وبما أن قلة من قرّاء يالوم ربما يعرفون أشياء كثيرة عن شوبنهاور، فقد قرر الروائي أن يسرد قصتين متوازيتين عن اكتشاف الذات وتغييرها. وقد حدث أول تقدم فكري ونفسي لفيليب سليت عندما قرأ كتابات شوبنهاور عندما كان طالبًا في الدراسات العليا، وبمساعدة هذا الفيلسوف تمكّن من التخلص من إدمان مدمر للذات. أما الاكتشاف الثاني والأكثر أهمية فقد حدث عندما عرف فيليب، كمشارك في مجموعة العلاج التي يقودها جوليوس، أهمية العلاقات الإنسانية. ولكي نفهم علاج فيليب الأول، يبين لنا يالوم كيف عاش شوبنهاور ونما كشخص ومفكّر.

يركّز ستة عشر فصلًا من أصل اثنين وأربعين فصلًا في رواية «علاج شوبنهاور» على حياة الفيلسوف التاريخي وأعماله. وتسلّط هذه الفصول الضوء على أوجه تشابه عديدة بين فيليب وشوبنهاور. يقول فيليب لأعضاء مجموعة العلاج: « إن معرفة شوبنهاور تعني معرفتي. إننا متلازمان، لنا عقل توأم». مثل فيليب عانى شوبنهاور من «طفولة محرومة من الحب» شكّلت حتمًا حياته وفلسفته. كان والد شوبنهاور رجل أعمال انتحر عندما كان ابنه ما يزال مراهقًا، وكان شوبنهاور غاضبًا من أمه التي حمّلها مسؤولية انتحار أبيه. وفي إشارة إلى نظرية مؤثّرة اقترحها المحلل النفسي إريك إريكسون، يقول

يالوم إن الأطفال المحرومين من رابطة الحبّ الأمومي لا يستطيعون تعزيز الثقة الأساسية اللازمة لحبّ أنفسهم، والإيمان بأن الآخرين سيحبّونهم، أو بأن الحبّ موجود. وعندما يكبرون يصبحون أشخاصًا مجافين، وينعزلون وينكفئون إلى داخل أنفسهم، يعيشون غالبًا في علاقة معادية مع الآخرين. هذا المشهد النفسي هو الذي رسم آراء آرثر عن العالم في نهاية المطاف» وكذلك نظرة فيليب. إن الحرمان من حبّ الأم أمر صعب، لكن الحرمان من الأب بسبب الانتحار يحدث ضربة مزدوجة.

انتحار الأب

يخبرنا يالوم الكثير عن تأثير انتحار هاينريش شوبنهاور وهو في الخامسة والستين من عمره على حياة ابنه المراهق، ويشير إلى أن «كلّ حادثة انتحار تخلّف لدى الأحياء شعورًا بالصدمة والذنب والغضب، وقد اعترت آرثر كلّ هذه المشاعر». كانت إحدى النتائج الإيجابية لانتحار هاينريش أنها أتاحت لابنه الوحيد أن يتابع شغفه ليصبح فيلسوفًا، الاختيار الذي كان من المؤكد أن والده سيرفضه كمهنة لابنه. في هذا السياق، يلاحظ يالوم أن شوبنهاور استفاد من موت أبيه المبكر، كما استفاد نيتشه وسارتر، اللذان فقدا والدهما في سن مبكرة أيضًا. يتساءل يالوم، «هل كان بإمكان نيتشه أن يصبح ضد المسيح لو لم يمت والده الذي كان كاهنًا لوثريًّا عندما كان نيتشه طفلًا؟»

كان الجانب المظلم لتحرر شوبنهاور خشيته من أن يكون قد ساهم في انتحار أبيه. غالبًا ما يرافق الراحة شعور بالذنب، ثم شعور بالغضب، الذي قد يكون داخليًّا أو خارجيًّا. لا يوجد موت أصعب من الانتحار في الحزن عليه والتغلب عليه، فهو يخلق إرثًا، أو إرثًا غير شرعي، من المشاعر المظلمة التي تستمر طوال الحياة. واعتقد شوبنهاور أن أمه هي المسؤولة عن انتحار أبيه، الأمر الذي أدى إلى «انتقاده اللاذع لسلوك أمه تجاه أبيه». ربما أشار يالوم إلى أن إرنست هنغواي، مثل شوبنهاور، أنحى باللائمة على أمه لانتحار

أبيه، وهو اتهام ظهر في روايته التي يغلب عليها طابع السيرة الذاتية، «لمن يُقرع الجرس». يمكن فهم كراهية المرأة التي عبّر عنها شوبنهاور وهمنغواي طوال حياتهما في كتاباتهما، جزئيًّا، بأنها ردّ فعل على قناعة الكاتب بأن أمه هي المسؤولة عن انتحار أبيه. يعاني فيليب من نفس مشكلة انتحار أبيه.

يستّهل يالوم واحدًا وأربعين فصلًا من أصل اثنين وأربعين فصلًا بمقتطفات ملائمة من كتابات شوبنهاور. ويقدّم يالوم مراجع مفيدة تمكّن القارئ من إيجاد الفقرات الرئيسية في أعمال شوبنهاور للتمعن في دراستها. في بعض الأحيان، تكون الفقرات متناقضة أو تشبه الشكل المخروطي: «الحياة شيء بائس. قررت أن أمضي حياتي في التفكير فيها». تكشف الفقرة أحيانًا عن تعريف جديد ومدهش للعبقرية، كما هو الحال عندما يكتب الفيلسوف: «الموهبة مثل قناص يصيب هدفًا لا يستطيع أن يصيبه الآخرون؛ والعبقري مثل قناص يصيب هدفًا لا يستطيع أن يراه الآخرون».

كان شوبنهاور محقًا في قول ذلك، وهو قول عبقري في حد ذاته. في بعض الأحيان، تنبئ الفقرة بالنظرية الفرويدية الأرثوذكسية بكل صرامتها الحتمية: «إن الأسس المتينة عن وجهة نظرنا بالعالم، ومن ثم عمقه أو ضحالته، تتشكل في سنوات الطفولة، ثم تتطور وجهة النظر هذه وتكتمل، لكنها لا تتبدّل من حيث الجوهر».

بعض الفقرات عبارة عن حكايات تحذيرية، كما عندما يقول شوبنهاور إن «الشخص الذي يتمتع بقدرات عقلية عالية ونادرة، ويُرغم على أداء عمل مفيد فقط، أشبه بمزهرية ثمينة موشّاة بأجمل الرسوم، لكنها تُستخدم كقِدر مطبخ». غالبًا ما تعكس الاقتباسات موضوع الفصل، كما هو الحال في الاقتباس السابق الذي يصف هروب شوبنهاور بصعوبة من محاولات أبيه ليجعل منه تاجرًا. وتؤكد بعض الاقتباسات على أهمية هنا والآن، وهو موضوع متكرر في أعمال يالوم، وكذلك الحاجة إلى تحقيق الذات. تتحدّث بعض الاقتباسات عن رؤى دائمة حول الفناء لا يمكن أن يقدّرها المرء إلّا عندما يكون على شفا الموت». يعزى جزء من المرح والبهجة في شبابنا،

إلى الواقع بأننا نتسلّق هضبة الحياة، ولا نرى الموت القابع عند السفح في الجانب الآخر». وتروق بعض أقوال شوبنهاور ليالوم أيضًا: فكلاهما من أهل الكتاب «الأفكار التي تخلّفها كائنات مثلي، هي أعظم متعة لي في الحياة. فلولا الكتب لعشت، يائسًا منذ أمد بعيد»، وتشير فقرات أخرى لشوبنهاور على سخرية يرفضها يالوم بشدة مثل، «الإنسان السعيد هو الذي يستطيع أن يتحاشى معظم المخلوقات من بني جنسه».

هذه هي العبارة التي توجّه حياة فيليب. يستخدم يالوم في الاقتباسات في كل فصل من فصول الكتاب عبارات شوبنهاور التي تصف حياة فيليب الضائعة، سواء في ذروة الانغماس في الملذات، أم في أعماق كراهية الذات بسبب إدمان الجنس. وتشي بعض تلك الفقرات بالعجرفة على نحو لا يطاق، كما هو الحال مع فيليب في معظم الرواية. «عندما بلغت الثلاثين بدأت أشعر بالغثيان والتعب من اعتبار المخلوقات أندادًا لي وهي ليست كذلك. وعندما تكون القطة صغيرة، فهي تلعب بالكرات الورقية، لأنها تعتبرها أشياء حيّة تشبهها. الشيء نفسه ينطبق عليّ مع الكائنات التي تسير على قدمين». وإذا لم تُظهر فقرات أخرى التواضع، فإنها تُظهر الاعتراف بأننا جميعًا غير كاملين، ونستحق الصبر والمغفرة، وهي رؤية توصل إليها فيليب في نهاية الرواية. « يجب أن نتعامل بتسامح إزاء كلّ حماقة أو ضعف، أو رذيلة إنسانية، وأن نضع نصب أعيننا أنّ ما يوجد أمامنا هي حماقاتنا وضعفنا ورذائلنا لأنها أوجه ضعف البشرية التي ننتمي إليها أيضًا وبذلك توجد لدينا نفس العيوب والنقائص الكامنة في داخلنا. ينبغي ألّا نكون ساخطين من الآخرين على هذه الرذائل والحماقات فقط لأنها لا تظهر فينا في هذه اللحظة بالذات».

تُلهم بعض الاقتباسات الأمل والتصميم على اكتساب الحكمة فقط لتُظهر عبثية ووهم هذا الجهد. «إنّ أعظم حكمة هي أن تجعل متعة الوقت الحاضر أسمى هدف في الحياة لأنها الحقيقة الوحيدة، وكلّ ما عداها مجرد تلاعب فكري. ويمكننا أن ندعوها أيضًا أعظم حماقتنا لأن الشيء الذي يوجد للحظة فقط ثم يتلاشى كحلم لا يستحق أن يُبذل من أجله جهد

حقيقي». وتثير فقرات أخرى لحظة إدراك، لحظة استنارة. « المعاناة الشديدة تجعل المعاناة الأدنى غير محسوسة، وبالمقابل، فإن غياب المعاناة الشديدة، يجعل أدنى مضايقة أو إزعاج يعذّبنا». وتكشف إحدى الاقتباسات عن العواقب غير المتوقعة للكشف عن الذات. «إن لذتُ بالصمت واحتفظتُ بسرّي، سيصبح سجيني؛ وإن أفشيت به سأصبح أنا سجينه. على شجرة الصمت، تتدلّى ثمار السلام والسكينة». تبدو العبارة الختامية للرواية وكأنها خلاصة شوبنهاور الوداعية للعالم. « تعلّمت البشرية منّي بضعة أشياء لن تنساها أبدًا».

يوجد فصل واحد فقط لم تكن عباراته الافتتاحية من أقوال شوبنهاور، بل استخدم فيه يالوم عبارة لنيتشه: «لا يستطيع البعض فكّ السلاسل التي تقيّدهم، لكنهم يستطيعون تحرير أصدقائهم».

لقد ساعدت قراءة شوبنهاور على فك قيود نيتشه، لكنه احتاج بعد ذلك إلى التحرر من معلمه السابق.

يشير يالوم إلى الأمراض النفسية العديدة لدى شوبنهاور دون أن يصنفه بأنه مريض نفسي. ويجمع الروائي بين الاستبصار والتعاطف (المواجدة) في صورته النفسية البيوغرافية. إن مقدمات يالوم وسرده النفسي البيوغرافي تجعل شوبنهاور ينبض بالحياة في عيون قرائه. يظهر يالوم، كمعلم وروائي، بعكس فيليب ضيّق الأفق. إذ يسلّط يالوم الضوء على الصلات بين حياة شوبنهاور وأعماله، وتكون تفسيرات الروائي دائمًا مدروسة وتدعو إلى التفكير. وتُظهر فقرات من أعمال شوبنهاور التي تستخدم كعناوين للفصول في الرواية عمق واتساع معرفة يالوم بالفيلسوف. وتأتي معظم الفقرات والاقتباسات من أول وأعظم كتاب لشوبنهاور، العمل الذي اشتُهر به، وهو «العالم إرادة وتمثلًا». وتأتي بعض الفقرات الأخرى من كتابه المتأخر «باريرغا وبارالييومينا» الذي بالرغم من عنوانه الصعب، فقد حقق شعبية غير متوقعة، ودفع الفيلسوف إلى الشهرة. وتشير بعض الفقرات إلى أن يالوم عدّل الترجمة الإنجليزية بمساعدة والتر سوكيل، البروفيسور المتميز في اللغة

الألمانية والمترجم الذي توفي في عام ٢٠١٤ وهو في السادسة والتسعين من عمره. باختصار، بحث يالوم في كامل أعمال شوبنهاور عن أقوال وعبارات موجزة. وبالطبع، لم يكد فيليب أن يقول عبارة في الرواية من دون أن يقتبس من معلّمه.

اعترافات فيلسوف

أقرّ يالوم بأنه استند إلى مصادر عديدة لفهم حياة شوبنهاور وفلسفته، وخصّ بالذكر باحثين اثنين أشاد بهما. ويعود الفضل الأكبر له إلى روديجر سافرانسكي، مؤلف كتاب «شوبنهاور وسنوات الفلسفة الجامحة»، الذي نُشر باللغة الإنجليزية في عام ١٩٩١. ويستشهد يالوم أيضًا بدراسة بريان ماجي التي صدرت في عام ١٩٩٩ بعنوان «اعترافات فيلسوف» التي أوحت له فكرة العلاج بالقراءة، «علاج الذات من خلال قراءة كامل أعمال الفلسفة». ويحظى كتاب ماجي باهتمام خاص لأنه، مثل رواية «علاج شوبنهاور»، شخصي إلى درجة كبيرة، ويوضح كيف يمكن أن تساعد الفلسفة الأشخاص الذين يعانون من مرض يسمّى الحياة. ولد ماجي في عام ١٩٣٠، قبل يالوم بسنة واحدة، وهو فيلسوف بريطاني بارز شغل كذلك منصب عضو في البرلمان، ومنتج إذاعي وتلفزيوني، وناقد موسيقي ومسرحي. في كثير من النواحي، يُعدّ ماجي روحًا شقيقة ليالوم. فكلاهما يشتركان في الكثير من المعتقدات الفلسفية والفنية، بما فيها اهتمامهما الدائم بشوبنهاور. لكن تجربة ماجي في العلاج بالقراءة مع شوبنهاور تختلف عن تجربة فيليب، ومن المفيد مقارنة قصتيهما.

عانى ماجي في منتصف وأواخر الثلاثينيات من عمره من أزمة منتصف العمر كانت بمنزلة «زلزال كارثي». فمع أنه حصل على كل ما يتمناه في الحياة، بما في ذلك العلاقات الجيدة والنجاح المهني وحياة مليئة بالمغامرات، فقد غمره شعور «شديد الوضوح وقوي بشكل غير سويّ بالفناء. وتساءل

ماجي في مواجهة الموت كيف يمكن أن يكون للحياة معنى؟ ومثل يالوم، لم يجد ماجي أي عزاء في الله. وما يزال ماجي أدريًّا من الناحية الفكرية، وخلص إلى أنه لا يمكن معرفة الأسئلة الأكثر أهمية. كانت أزمة منتصف العمر التي مرّ بها ماجي، عندما اقترب إلى حافة الانهيار، أقل فكرية من كونها وجودية، تتجاوز قدرة اللغة على وصفها. لم تكن لدى ماجي ميول للانتحار خلال هذه الفترة لأنه لم تكن لديه القدرة على إنهاء حياته. كان متيقنًا من أنه سيموت وينطفئ مثل النار التي تخبو وتنطفئ عندما ينفد وقودها. لكن بدلًا من أن يموت، اكتشف ماجي فيلسوفًا غيّر حياته، أو بالأحرى اكتشف فيلسوفًا من جديد، لأنه قرأ أعمال هذا المفكّر قبل ست سنوات، ولم يستفد منها كثيرًا. لقد أقنعت أزمة منتصف العمر ماجي بأهمية الفيلسوف الذي هو شوبنهاور: «لقد أظهر لي ما كان ضمنيًّا، وغير مفهوم، في معظم تجاربي الشخصية».

بخلاف فيليب الذي طلب ووجد مساعدة شوبنهاور لعلاج إدمانه الجنسي ووجدها، وجد ماجي في أعمال الفيلسوف الإجابة الأكثر منطقية على السؤال «ما هي الحياة؟» فعندما بدأ ماجي يقرأ دراسة باتريك غاردنر النقدية عام ١٩٩٧ بعنوان «شوبنهاور»، الكتاب الذي قرأه يالوم أيضًا، قفزت الكلمات من الصفحة إليه بطريقة لم يشعر بها من قبل أو منذ ذلك الحين. «عندما قرأت عبارة «لا يمكن حلّ لغز العالم إلّا من خلال الربط الصحيح بين التجربة الخارجية والتجربة الداخلية»، كان كما لو أن أحدًا أضاء ضوءًا داخل رأسي»، وعندما انتهى من قراءة كتاب غاردنر، هرع ماجي إلى قراءة جميع أعمال شوبنهاور، وعندما قرأ كتاب «العالم إرادة وتمثلًا» مرة أخرى، وجد ماجي أن هذه التجربة قد غيّرت حياته. «بدا لي كما لو أنني استعدتُ قدرتي على السماع. فلم يسبق لي أن شعرت بهذا القدر من التواصل الشخصي المباشر والحيوي مع مؤلف: كان آرثر شوبنهاور معي في الغرفة، جالسًا أمامي، يكلّمني، واضعًا يده على ذراعي أو على ركبتي، يصوغ كل عبارة جديدة وهو ينطقها».

لم يوافق يالوم على جميع ملاحظات ماجي في كتابه «اعترافات فيلسوف»، بما في ذلك العبارة التالية: «من بين جميع الأديان التي درستها، فإني أرى أن اليهودية هي أقل ديانة جديرة بالاحترام الفكري. لا أريد أن أسيئ إلى أحد من قرائي، لكن الحقيقة هي أنني عندما أقرأ النصوص اليهودية الأساسية، فإني أقول لنفسي في كثير من الأحيان: «كيف يمكن لأحد أن يؤمن بهذا؟»

إن تصريح ماجي هذا ليس مسيئًا فحسب، بل مخطئ أيضًا. يتساءل المرء كيف لم يقدّر ماجي وأصدقاؤه، على سبيل المثال لا الحصر، الفيلسوف واللاهوتي اليهودي مارتن بوبر الذي يستشهد يالوم بكتاباته كثيرًا في روايته «علاج شوبنهاور»، وكما يوضح يالوم في روايته الأخيرة، «مشكلة سبينوزا»، مساهمات الفيلسوف الهولندي في العلمانية اليهودية.

شوبنهاور والفن

كان شوبنهاور أول فيلسوف عظيم يمنح الفن، الدافع الجمالي، أعلى قيمة في الحياة. بعكس أفلاطون الذي يمكن القول إنه أعظم فيلسوف في العالم، والذي كان شديد الارتياب بالفن، أصبح شوبنهاور، كما يشير سافرانسكي، «فيلسوف الفنانين»، الذي أثّر على فريدريش نيتشه وريتشارد فاغنر وتوماس مان ومارسيل بروست وفرانز كافكا وصامويل بيكيت، من بين آخرين. ويرى ماجي أن الفيلسوف والفنان ينظران كلاهما إلى «الطبيعة المطلقة للأشياء، والغموض المطلق للوجود». وكما قال شوبنهاور، فإن الفيلسوف يفعل في التجريد ما يفعله الفنان في الواقع الملموس». ثم يقتبس ماجي من روائية ذات خلفية فلسفية: «عندما قالت آيريس مردوخ: «في مختلف الأحوال والظروف، فإن الفن أعمق من الفلسفة»، فقد كانت محقة في الإشارة إلى أنه توجد بعض الجوانب التي تتفوق فيها الفلسفة على الفن، كما كانت محقة في الإشارة إلى أنها تكون قاصرة عنه بصورة عامة».

شوبنهاور والأدب

تركّز بعض ملاحظات يالوم الأكثر عمقًا على تأثير شوبنهاور على كتّاب الأدب، وهو تأثير لا يقرّ به دائمًا دارسو الأدب. ففي بداية الرواية، يشرح فيليب لجوليوس تأثير شوبنهاور على سارتر: «كان شوبنهاور يعتقد بأن «Homo homini lupus» (الإنسان ذئب للإنسان) وأنا على يقين بأنه كان ملهمًا لسارتر في مسرحيته «لا مخرج». وفي جلسة جماعية لاحقة، أشارت بام إلى مذكرات نابوكوف، «تكلّمي أيتها الذاكرة»، ووصفت بكلماتها «الحياة مثل شرارة بين بركتين متماثلتين من الظلام، الظلام قبل أن نولد والظلام بعد أن نموت. وتتذكّر الجملة الافتتاحية الرائعة في مذكرات نابوكوف: «يتأرجح المهد فوق هاوية، ويقول لنا المنطق السليم أن وجودنا ما هو إلّا فجوة قصيرة بين نقيضين من الظلام الأبدي». غضبت بام عندما أشار فيليب إلى أنه لا بد أن نابوكوف استوحى هذه الفقرة من شوبنهاور. «تظن أن شوبنهاور قال ذات مرة شيئًا مشابهًا بشكل غامض. يا له من أمر مهم». أغمض فيليب عينيه ليركّز أكثر، ونتيجة علاقته المتوترة معها، قرأ الفقرة بأكملها من مقالة شوبنهاور التي يوثقها يالوم في نهاية الرواية، من مقالته (ملاحظات إضافية حول مذهب زهو الوجود): «يجد الإنسان نفسه، لدهشته العظيمة، موجودًا فجأة بعد آلاف وآلاف السنين من عدم الوجود؛ يعيش لفترة قصيرة، ثم، مرة أخرى، تأتي فترة طويلة موازية عندما يجد أن عليه أن يتوقف عن الوجود».

ظلت بام غاضبة من فيليب لاستغلاله الجنسي لها عندما كانت طالبته، بينما يتوقع المرء منها، باعتبارها أستاذة أدب، أن تقدّر فطنته الأدبية. ومع أنها قد لا ترى أهمية ملاحظته، فإن قرّاء يالوم يدركون أنها تساعد على إثبات معرفة فيليب العميقة بشوبنهاور، والطريقة الماهرة التي يدمج بها يالوم كتابات الفيلسوف في الرواية. تُعدُّ كلمات شوبنهاور مهمة لسبب آخر. فإذا

كان محقًا في أن الوجود بعد الموت مطابق للوجود قبل الحياة، فإن الموت يفقد الكثير من ألمه.

الإرادة

يقول شوبنهاور في كتابه الرئيسي «العالم إرادة وتمثلًا» الذي صدر لأول مرة في عام ١٨١٨ ثم نُقّح لاحقًا، إن إرادة عمياء لا تقاوم، وحشية، وخبيثة هي التي تحرك الوجود البشري. يؤمن شوبنهاور أننا مقيدون «بعجلة الإرادة» وأننا نحوم باستمرار فوق الهاوية. ومن خلال تطويره لميتافيزيقا الجسد، فقد حدد موقع عمل الإرادة في الأعضاء التناسلية. وكقاعدة عامة، يقترح سافرانسكي أن شوبنهاور كان يؤمن بأنه «لا توجد لدينا أي فرصة لمواجهة جنسنا». وفي علاقاته غير المرضية مع النساء، «عاش آرثر شوبنهاور تجربة جنسية شخصية باعتبارها إهانة لاستقلاليته العليا»، وهي تجربة يفهمها فيليب جيدًا. في الواقع، جسّد هذه الإرادة الوحشية قبل خمسة وعشرين عامًا. «كنت مفترسًا، تدفعني شهوتي، نهمًا. لم أكن أفكّر إلّا في هذا الأمر. كان كلّ كياني موجّهًا للبحث عن نساء، نساء جديدات، دائمًا نساء جديدات، لأنني سرعان ما كنت أفقد اهتمامي بالمرأة بمجرد أن أضاجعها». ويتفق فيليب تمامًا مع قصيدة مبكرة كتبها شوبنهاور تستحضر كابوس الشهوة: «أيتها الشهوة، أيها الجحيم/ أيتها الحواس، أيها الحب/ لا يمكن تهدئتكم/ من أعالي السماء/ سحبتني/ وألقيتني/ على تراب هذه الأرض:/ ها أنا أرقد هنا مكبلًا».

شوبنهاور النفسي

يكمن اهتمام يالوم الرئيسي بشوبنهاور في تأثيره على العلاج النفسي، وهو مهنة لم تكن موجودة في مطلع القرن التاسع عشر. يستخدم يالوم فيليب نفس الوقت لتثقيف أعضاء مجموعة العلاج حول تأثير شوبنهاور على

الفكر النفسي. يقول فيليب: «كان أول فيلسوف ينظر إلى الدوافع والمشاعر من الداخل، وطوال فترة عمله كتب باستفاضة عن المخاوف والشواغل الإنسانية الداخلية: الجنس، الحبّ، الموت، الأحلام، المعاناة، الدين، الانتحار، العلاقات مع الآخرين، الزهو؛ تقدير الذات. وتطرق أكثر من أي فيلسوف آخر إلى تلك الدوافع المظلمة في داخلنا إلى حدّ أننا لا نستطيع تحمّل أن نعرفها، لذلك، يتعين علينا كبتها». ولولا شوبنهاور، لما كان هناك نيتشه أو فرويد، على الأقل ليس كما نعرفهما. وذكر فيليب أنه كتب أطروحة الدكتوراه عن تأثير شوبنهاور على فرويد، موازيًا مقال جوليوس عن تأثير نيتشه غير المعترف به على فرويد، وأشار إلى أنه مدين لشوبنهاور لأنه جعل حياته الجنسية طبيعية. وذكر فيليب أيضًا أن شوبنهاور كان أول شخصية أوروبية بارزة أدخلت الفكر الشرقي إلى الفلسفة الغربية. ولهذا السبب بالتحديد سافرت بام إلى الهند لتحضر معتكفًا روحيًا بأمل أن تتخلّص من غضبها تجاه الرجال الذين خذلوها في حياتها. لكن رحلتها باءت بالفشل، وهذا يكشف عن شك يالوم في الحياة التي تقوم على التخلّي وغياب الارتباطات.

شوبنهاور إزاء نيتشه

يعكس كثير من الخلاف بين فيليب وجوليوس التوتر الأكبر بين شوبنهاور ونيتشه. ويمضي جوليوس وقتًا في الاقتباس من نيتشه كما يمضي فيليب نفس الوقت تقريبًا في الاقتباس من شوبنهاور. يبدو أن جوليوس قد حفظ كتاب «هكذا تكلم زرادشت» عن ظهر قلب الذي يقتبس منه كثيرًا. وقرأ فيليب أيضًا هذا الفيلسوف، وقال إن «نيتشه قال ذات مرة شيئًا بمعنى أننا عندما نصحو محبطين في منتصف الليل، فإن الأعداء الذين كنا قد هزمناهم منذ أمد بعيد قد عادوا لمطاردتنا». لكن حتى عندما يقتبس فيليب من نيتشه، لا يسعه إلّا أن يضيف أنه «سرق أعمال شوبنهاور». يوجد لدى جوليوس حليفة هي بام التي تحب نيتشه بقدر ما يحبه جوليوس، وتأتي حكمة بام الأدبية المفضّلة من كتاب «هكذا تكلم زرادشت»: «يجب أن تكون هناك فوضى في النفس

لكي يولد نجم راقص». وفي نهاية الرواية تقريبًا، تعترف بام بأن «شوبنهاور يمتاز بأسلوب جميل، وكان يكتب بلغة نثرية أفضل مما كتبه أيّ فيلسوف، ما عدا نيتشه بالطبع - فلم يكتب أحد أفضل من نيتشه على الإطلاق».

بدأ نيتشه واحدًا من تلاميذ شوبنهاور، لكنه ابتكر فلسفة بعكس فلسفة معلّمه. فقد رفض نيتشه تشاؤم شوبنهاور، وأصرّ على فلسفة تؤكد على الحياة وتحتفي بها. كان شوبنهاور أشهر الرافضين للفلسفة، وكان نيتشه أشهر المؤيدين لها. وتحولت إرادة شوبنهاور التدميرية في فلسفة نيتشه إلى «إرادة القوة»، الشجاعة لتولي زمام أمور الحياة من خلال تحقيق كل ما يمكن للمرء أن يكونه. وبعكس شوبنهاور، لم يكن نيتشه مهتمًّا بالروحانية الشرقية.

لكن على الرغم من اختلافاتهما، توجد قواسم مشتركة كثيرة بين شوبنهاور ونيتشه. إن عبارة يالوم عن شوبنهاور - «كم هو مزعج ومربك رؤية مفكّر يتمتع بهذا القدر من الذكاء والموهبة، لكنه منعزل اجتماعيًّا» - ينطبق على نيتشه أيضًا. فقد كان كلا الفيلسوفين منعزلين ووحيدين طوال معظم حياتهما البالغة، وكانا عبقريين عظيمين يعانيان من نقص صارخ في مهاراتهما في التعامل مع الآخرين. إن ملاحظة يالوم بأن «مشارك فرويد الثوري غير المعترف به هو آرثر شوبنهاور الذي قال قبل أن يولد فرويد بفترة طويلة بأننا محكومون بقوى بيولوجية عميقة، ثم نضلّل أنفسنا بالتفكير بأننا نختار نشاطاتنا بوعي منا»، تنطبق على نيتشه أيضًا. فقد رفضا كلاهما الدين الرسمي الذي كانا يعتقدان بأنه يستعبد المؤمنين. وأصرّ كلا الفيلسوفين على الطبيعة الذاتية للحقيقة، وجادلا بأن المفسّر لا ينفصل عن التفسير. واتفق كلا الفيلسوفين، كما ذكر يالوم بأن «القلق من الموت يكون في أدنى حدوده عندما يبلغ الإدراك الذاتي أقصى حدّ له»، ويشاطر جوليوس كل هذه المعتقدات، كما يفعل يالوم.

بام سوانفيل

بالإضافة إلى جوليوس وفيليب، فإن بام سوانفيل هي الشخصية الأكثر إثارة للاهتمام والأكثر صراحة في الرواية. وبام التي تشبه كارول أستريد في رواية «مستلقيًا على الأريكة»، شخصية مثقفة إلى درجة عالية، ناجحة، وواضحة في كلامها، وغاضبة معظم الوقت. تشعر بام بخيانة جميع الرجال لها بدءًا من فيليب واستغلالها جنسيًّا. كانت على علاقة غرامية مع طبيبها النسائي، إيرل، الذي يكبرها بسبع وعشرين سنة ثم تزوجته. وبعد أن أعجبت في البداية بحساسية إيرل الأدبية، اكتشفت لاحقًا أن إتقانه للأدب العظيم مستمد من ملاحظات كليفس التي يقرأها ليثير إعجاب الآخرين. تركته بام عندما علمت أنه يمارس الجنس مع بعض المريضات اللاتي يعالجهن، ثم أقامت علاقة مع زميلها أستاذ اللغة الإنجليزية في جامعة بيركلي، اسمه جون وعدها بأن يترك زوجته لكنه سرعان ما غيّر رأيه. «ساعة بعد ساعة، كانت تتأرجح بين كرهه وحبه، ورغبتها فيه، وتمني موته».

تلقي الفصول الأولى من رواية «علاج شوبنهاور» نظرة ثاقبة على سعي بام وراء التنوير الشرقي والأسباب التي جعلتها تعود إلى بلدها دون أن يطرأ عليها تغيير ملحوظ. يستحضر يالوم ببراعة تفاصيل رحلتها إلى الهند، بما في ذلك المنحوتات القديمة الغريبة المثيرة في كاما سوترا، ورائحة القرفة والهيل في الشوارع المزدحمة، ومشاركتها في مهرجان غانيشا الذي استمر عشرة أيام في بومباي. يُريها المرشد، فيجاي باندي، أيقونات اللورد غانيشا الذي بشّر بقطع جميع روابط التعلق. ويستحضر يالوم في بضع صفحات الفجوة الثقافية بين الشرق والغرب. عندما تكشف بام أنها وجدت المعتكف بالصدفة، وقيل لها إنها يجب أن تدخل إليه بذهن متفتح، هزّ فيجاي رأسه، وعندما سألته إن كان يختلف معها في الرأي، أجابها: «آه، تذكّري أن الهنود يهزّون رؤوسهم من جهة إلى أخرى عندما يوافقون، وإلى الأعلى والأسفل عندما لا يوافقون - بعكس الطريقة الأمريكية». مثل هذه التفاصيل تضفي على الرواية مصداقية. تركت تجربة بام في تأمل فيباسانا الذي يعلّمه المعلم الروحي غوينكا شيئًا مرغوبًا. فلم تستطع أن تحرّر نفسها من الرغبة أو

التعلّق، ومع أنها كانت تلميذة مخلصة، فقد منحت معلميها فرصة الشك، لكنها كانت تجد نفسها في النهاية محبطة وخائبة الأمل. تحمّلت بام عشرة أيام من الصمت الذي يحدث تأثيرًا لصفاء عقلها، لكنها وجدت الفكرة التي سمّاها أحد المعلمين التوازن، مملّة لمخيلتها. فلن يستطيع أي أديب من الأدباء العباقرة الذين تحبهم كثيرًا - كافكا، دوستويفسكي، وولف، هاردي، كامو، بلاث، بو - الكتابة لو أنهم كانوا في مثل هذه الحالة الذهنية، ويمكننا أن نضيف أن روائيًّا مثل يالوم لن يكون باستطاعته أن يبدع في مثل هذه الأجواء. عادت بام إلى مجموعة العلاج في النصف الثاني من الرواية، لكن كلماتها الأولى عندما ترى العضو الجديد، لا تُنسى. «أوه، إنه سلايت؟» قالت بام التي لم تنظر إلى فيليب، «ليس فيليب سليز (السافل)؟ أو سليمبول؟ نظرت نحو الباب وقالت: «جوليوس، لا أعرف إن كنت أستطيع أن أبقى في غرفة واحدة مع هذا الوغد». أحيت كلماتها هذه نشاط المجموعة. إن الشخصيتين النسائيتين الغاضبتين في الرواية، كارول أستريد وبان سوانفيل، إحداهما محامية والأخرى أستاذة اللغة الإنجليزية، هما سيدتا الشتائم، وتنشّط تعبيراتهما العامية المليئة بلغة بذيئة، روايتَيْ «مستلقيًا على الأريكة» و«علاج شوبنهاور» على التوالي. يتعاطف يالوم مع غضب بام تجاه فيليب، ويدعها تعبّر عن مشاعرها. يعرف جوليوس أن عليه أن يجد وسيلة لمساعدة بام للتغلب على غضبها تجاه فيليب، خشية أن تحقق انتصارًا باهظ الثمن، وتدمّر خصمها وتدمّر نفسها في هذه العملية. كان جزءًا من التحدي الذي واجه جوليوس هو أنه كما كان يشكك في حركة الذاكرة المستعادة، كان يشكك أيضًا في «صناعة التسامح»، بما تتضمنه من عبارات مبتذلة وصيغ مبسطة. لم يكن جوليوس متحمسًا للانضمام إلى ركب التسامح والمغفرة. تمامًا كما يجب أن يجد جوليوس، بوصفه معالجًا نفسيًّا، طريقة لمساعدة كل من بام وفيليب على التغلب على عدم ثقتهما بأحدهما الآخر، يجب أن يسمح يالوم، بصفته روائيًّا، لكليهما أن يظلا في شخصيتهما مع توسيع نطاق وجهات نظرهما في الوقت نفسه.

أثبتت بام وفيليب أنهما خصمان قويان، أستاذان موهوبان بالاستشهاد بأقوال كبار المفكرين لدعم مواقفهما. لا تجد بام صعوبة في شرح كيف استغلها فيليب في الماضي كما قال مارتن بوبر. ومن خلال بام يكشف يالوم عن موهبته في التقاط تعقيد كتابات الباحث دون اختزالها. «بوبير فيلسوف يهودي ألماني، مات قبل نحو خمسين سنة، يستكشف عمله اللقاء الحقيقي بين كائنين - لقاء أنا - أنت (I-thou) أنها علاقة الرعاية الراهنة التامة بعكس لقاء (I-it) الذي يتجاهل «الأنا» الآخر ويستخدمه بدلًا من أن يرتبط به. لقد أثيرت الفكرة هنا كثيرًا - إن ما فعله فيليب لي منذ سنوات هو أنه كان يستخدمني كأنني لا شيء».

الكشف عن الذات المحفوف بالمخاطر - والمتبادل

تشكّل إشارة بام إلى بوبر جزءًا من مناقشة أطول حول الكشف عن الذات المحفوف بالمخاطر. يفاجئ جيل الجميع باعترافه بأنه مدمن على الكحول، وأنه يشرب الكحول كل ليلة إلى أن يغيب عن الوعي. تتحوّل صدمة جوليوس إلى انزعاج عندما أدرك أن جيل لم يعترف بذلك من قبل سواء في العلاج الجماعي أو في العلاج الفردي الذي استمر لمدة عامين. في البداية، شعر جوليوس بالخداع، لكنه سرعان ما أدرك أن جيل يستحق الثناء، لا الإدانة، لأنه كشف عن نفسه، ولو جاء ذلك في وقت متأخر: «يجب دعم المخاطرة وتعزيزها باستمرار». أتاح اعتراف جيل لفيليب الفرصة ليسأل جوليوس إن كان مستعدًّا لمشاركة الآخرين بأسراره. انتظر جوليوس الذي فوجئ بالسؤال حتى الجلسة التالية ليكشف عن سرّ لم يُطلع عليه أحد سوى صديق مقرّب له منذ عدة سنوات، بعد وفاة زوجته ميريام بفترة قصيرة، عندما اتخذ حزنه «منعطفًا غريبًا». بعد أن عانى من «طفرة هائلة في طاقته الجنسية»، أصبح مهووسًا بالجنس وأقام علاقات مع نساء متزوجات وعازبات، بمن فيهن إحدى قريبات ميريام.

المهم أن جوليوس اتبّع نصيحة يالوم بشأن كشف المعالج عن نفسه التي تُعدُّ واحدة من مساهماته الدائمة في العلاج النفسي الفردي والجماعي. يشير يالوم في كتابه «هبة العلاج» إلى أنه «لا توجد لدى المعالج وسيلة فعّالة لبناء قواعد سلوكية أكثر من النموذج الشخصي»، ويضيف بعد بضع صفحات، «يجب أن تجتاز جميع التعليقات اختبارًا واحدًا وهو هل يكون هذا الكشف في مصلحة المريض؟» كان أحد دوافع جوليوس في هذا الاعتراف التعبير عن تعاطفه مع فيليب، وثمة دافع آخر وهو تشجيع المجموعة على التخلّي عن تصوّره المثالي، وإدراك أنه إنسان، إنسان بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

أثار اعتراف جوليوس دهشة أعضاء المجموعة، فلبثوا صامتين، لا يعرفون ما الذي يقولونه، لكنهم عندما استعادوا صوتهم، ردّوا عليه بتعاطف، وسألوه أسئلة مباشرة عن ردّ فعل تلك النسوة على سلوكه الجنسي. ثم طرح جوليوس سؤالًا أفقيًّا. كيف يشعر أعضاء المجموعة تجاه إفصاحه عن نفسه؟ وبعد أن قدّم نموذجًا للإفصاح عن الذات الذي يتوقعه من الآخرين، بدأ جوليوس مناقشة قيّمة. سأل توني جوليوس عن سبب إفصاحه عن نفسه وأجاب على سؤاله بنفسه، «هل لأنك عقدت صفقة مع فيليب؟» فأجاب جوليوس، «سؤال وجيه يا توني. إني أقدّر لك أنك جعلتني أبدأ. قبل بضعة دقائق، كنت أتمنّى أن يكون لديّ معالج مشارك هنا لمساعدتي، وها قد جئت لتقوم بهذه المهمة. إنك جيّد في ذلك. قد يكون العلاج النفسي مهنة جيدة لك». وعندما فكّر جوليوس في الكشف عن نفسه، وأدرك أنه نتيجة لتشخيصه بمرض عضال، شعر أنه نضج كشخص وكمعالج. لقد أصبح معالجًا جريحًا.

حفّز كشف جوليوس عن نفسه كلًّا من بام وفيليب على الكشف عن نفسيهما بنفس القدر من المخاطرة. ومع بقاء ست جلسات فقط، أعلنت بام فجأة أنها على تقيم علاقة غرامية مع توني الذي لم يكن مستعدًّا لإعلان ذلك. ذكّرها جوليوس بأنها خرقت أحد عقود المجموعة. «إن خطر إقامة أي علاقة خارج إطار المجموعة هو أنه يقوّض مسيرة العلاج. كيف يتم

ذلك؟ لأن الأشخاص الذين يكونون على علاقة وثيقة سيقيّمون غالبًا تلك العلاقة أكثر مما يقيّمون العلاج نفسه». وجدت بام التي تحكم على الآخرين كثيرًا - والتي يُشار إليها أيضًا بأنها «قاضي القضاة» في المجموعة - صعوبة في الدفاع عن تصرفاتها، فلجأت إلى تبرير تلو الآخر، بما في ذلك التصرف بطريقة «الطيار الآلي»، وهي استعارة جعلت فيليب يجيبها بهدوء: «كما فعلت أنا، منذ فترة طويلة»، واعترفت أخيرًا أنها ارتكبت خطأً واعتذرت عن استغلالها لتوني وإهانته. وأقرّت أيضًا بأنها تعلّمت شيئًا مهمًّا من المجموعة، «لقد تغيّرتُ. أعتقد الآن أنه يمكن أن تسامح الشخص لا العمل الذي قام به. يخيّل إليّ أنني قد أغفر لفيليب إذا تغيّر» - فردّ فيليب، «لقد تغيّرت حياتي كثيرًا - لم أصاحب امرأة منذ اثنتي عشرة سنة». وكما لو أن هذا الكشف المفاجئ عن نفسه لم يكن كافيًا، أضاف فيليب عدة تفاصيل مهمة، وكشف عن معاناته لأول مرة في الرواية. فاعترف بأنه وجد القوة للتغيير لأن الحياة لم تعد تطاق. ساعد تعليق جوليوس في الكتابة على شاهدة القبر فيليب على إدراك أنه سيظل يدور إلى الأبد في دوامة العذاب إذا لم يجد وسيلة للخروج منها. من خلال محاكاة حياته بحياة شوبنهاور، وجد فيليب علاجًا ناجحًا - حتى مشاركته في مجموعة العلاج، عندما أدرك أن إنكار العواطف ورفض التواصل البشري يسببان آثارًا جانبية خطيرة، بل ومهددة للحياة.

ذكّرت رؤية بام في مجموعة العلاج فيليب بالمشاعر الجامحة التي كان يشعر بها تجاهها قبل سنوات، عندما كانت طالبة عنده، والآن. «كان فيليب مستعدًّا لئلا يخفي شيئًا، لا غيرته الفجة، ولا عقلية رجل الكهف لامتلاك بام، ولا حتى صورة توني بساعديه اللذين يشبهان ساعدي باباي، لكن عرقًا غزيرًا بلله حتى الجلد». استخدم يالوم كلمة تقنية نادرة دون أن يعرّفها، لكنه جعل القراء يستنجون معناها من سياق الفقرة: التعرق الغزير الذي يحدث عادة بسبب مرض أو إجهاد شديد، وخرج فيليب من الغرفة، وعندما عاد مع توني بعد بضع دقائق انتهى الفصل العاطفي المكثف، وقد استُنزف فيليب تمامًا.

كانت الجلسة قبل الأخيرة للمجموعة مليئة بالمفاجآت. فقد افتتحت بام الجلسة باقتباس من إبيكتيتوس عن أهمية المشاركة في الحياة المدنية، وتعلّم تحمّل الإهانات، ومسامحة الآخرين، واتهمت فيليب بأنه ينتقي الفقرات والاقتباسات التي تدعم مواقفه فقط، ثم دار نقاش بين بام وفيليب حول ما إذا كان يجب أن يؤخذ شوبنهاور الذي عانى من اكتئاب مزمن طوال معظم حياته البالغة على محمل الجد عندما قال إن معظم الناس سيختارون ألّا يولدوا أبدًا. وكما هو متوقع، يتفق فيليب مع شوبنهاور في أن الحياة تتكون من المعاناة من بدايتها إلى نهايتها. واتهم فيليب بام بأن دافعها لإثارة موضوع اثنين من فلاسفته المفضلين، إبيكتيتوس وشوبنهاور، يهدف إلى «إيقاعه في فخ وإحراجه»، وعندما ضُغط عليه، اعترف فيليب بأنه لم يكن يريد إهانة بام التي ربما كانت تحاول مساعدته. مستخدمًا كلمة ليست جزءًا من مفرداته اليومية، وبصوت يشبه محاميًّا في استجواب، نصح توني فيليب بأن يجعل نواياه وسلوكه متوافقين، فوافق فيليب بشكل غير متوقع، ثم اعترف بأنه بحاجة إلى علاج. عندما رأى الجميع يتظاهرون بالصدمة، ابتسم - لأول مرة في الرواية. عبّر توني الذي لم يتلق تعليمًا رسميًّا والذي يتمتع بإدراك حدسي كمعالج نفسي، عن موضوع الرواية: «لقد شفاك شوبنهاور، لكنك بحاجة الآن إلى من ينقذك من علاج شوبنهاور».

خطأ الانتقائية

قدّم فيليب اعتذارًا صادقًا لبام عن سنوات المعاناة التي سبّبها لها دون قصد. ولم يكن مستعدًّا للتخلّي عن رؤية شوبنهاور اليائسة عن الحياة، لكنه يستمع باهتمام إلى جوليوس الذي كشف كيف أن قراءة «هكذا تكلم زرادشت» ساعدته على التعايش مع تشخيصه النهائي. وتعشق بام أيضًا هذا الكتاب وتقتبس منه فقرتها المفضّلة. «عندما يقول زارادشت، (هل كانت تلك هي الحياة؟ حسنًا، مرة أخرى!) فأنا أحبّ الأشخاص الذين يحبّون الحياة وأنفر من الذين ينكفئون عنها». استخدم يالوم أستاذة الأدب ليقدّم

وجهة نظره عن شوبنهاور. قالت بام: «وبما أني أدرّس السيرة الذاتية، فقد صادفتني في أثناء قراءتي في الأسبوع الماضي فقرة مدهشة في سيرة مارتن لوثر الذاتية التي كتبها إريك إريكسون تقول شيئًا من هذا القبيل: (لقد رفع لوثر درجة اضطرابه العصبي إلى مستوى مريض عالمي ثم حاول أن يحلّ مشكلة العالم التي لم يستطع هو أن يحلّها لنفسه) أعتقد أن شوبنهاور، مثل لوثر، وقع بقوة في هذا الخطأ وسرت أنت على دربه». لعل بام استشهدت بفكرة ذات صلة في كتاب «الشاب لوثر» تنطبق على كلّ من شوبنهاور وفيليب سليت. «ربما سيأتي يوم، يحدث فيه اقتناع عام مستنير ومدروس، لكنه قوي، بأن أخطر الخطايا الممكنة هو تشويه روح الطفل، لأن هذا التشويه يقوض مبدأ الثقة في الحياة الذي من دونه يكون كل فعل بشري، مهما بدا جيدًا وصحيحًا، عرضة للتشويه من أشكال مدمرة من الضمير».

مثل شوبنهاور، وقع فيليب في خطأ الانتقائية عندما لم يسمح لنفسه أن يرى أن الحياة مأساة مليئة بالبهجة. ويصف يالوم أخطاء انتقائية أخرى أيضًا بما فيها خطأ ارتكبته بام. فقد لاحظت بوني أن الخلوات البوذية التي حضرتها بام تؤكد على «حبّ الرحمة والرفق والتواصل - لا على العزلة». وقال جوليوس إن العديد من الفلاسفة اليونانيين القدماء الذين اقتبس فيليب منهم يؤكدون على الصداقة أيضًا. ظل فيليب يشعر بأنه محاصَر، لكن جوليوس ذكّره بأنه يجب أن يدخل العالم الاجتماعي إذا كان ينوي أن يصبح مستشارًا. نظر فيليب مباشرة في عينيّ جوليوس، ووصف نفسه بأبشع طريقة ممكنة، بأنه كائن لا يستطيع أن يحبّ أو أن يُحب. وبدأ فيليب يبكي، وخرج من الغرفة، وتبعه جوليوس وحثّه على أن يعود. قال له المعالج: «يجب أن تعود، يا بني. لهذا السبب جئت إلى هنا، هذه اللحظة بالذات، ويجب ألّا تبددها. كان تصرفك جيدًا اليوم - تمامًا كما يجب أن تفعل عندما تصبح معالجًا. لم يبق سوى دقيقتين حتى انتهاء الجلسة. عد معي واجلس في الغرفة مع الآخرين. سأتدبر الأمر».

ثم عاد الرجلان معًا إلى المجموعة. «مدّ فيليب يده بسرعة، وللحظة

وضع يده فوق يد جوليوس، ثمّ انتصب في وقفته وسار إلى جانب جوليوس وعادا إلى الغرفة. عندما جلس فيليب، لمست بام ذراعه لتشعره بالراحة، ووضع جيل، الجالس إلى الجانب الآخر، يده على كتفه». يتيح يالوم لقرائه استخلاص استنتاجاتهم الخاصة حول معنى المشهد المثير في الرواية. تذكّر أن والد فيليب البيولوجي كان قد انتحر. لا يسعنا إلّا أن نتساءل عن تأثير الانتحار على حياة الابن. إن عبارة يالوم عن ردّ فعل شوبنهاور على وفاة أبيه - « تخلّف كلّ حادثة انتحار لدى الأحياء شعورًا بالصدمة والذنب والغضب» - تنطبق بشكل شبه مؤكد على ردّ فعل فيليب على موت أبيه. إلى أي مدى يمثّل كره فيليب لنفسه، واعتقاده بأنه وحش، لا يصلح للعيش، تعريفًا بأبيه الذي انتحر؟ لا تستكشف الرواية أبدًا الأسباب الكامنة وراء إدمان فيليب الجنسي، لكن هل يمكن أن يكون سلوكه تعبيرًا عن غضبه تجاه أمه التي ربما لامها لانتحار أبيه، وبالتالي فهو يوازي حياة شوبنهاور؟ هل يمكن أن يكون إدمان فيليب الجنسي استجابة لمشاعر التغريب والذهول والفراغ التي تنشأ أحيانًا من الصدمة، كما افترض م. ف. شوارتز وزملاؤه؟ لقد تغلب فيليب على إدمانه الجنسي بقطع جميع علاقاته، وهي استجابة مفيدة في بعض النواحي وضارة في نواحٍ أخرى.

إن الرمزية الأبوية المحيطة بجوليوس في هذه المشهد ملفتة للنظر. قلما يفكّر جوليوس في ابنته وابنه، لكن من المؤكد أن عليه أن يفكّر في السؤال الذي طرحه توماس بودنبروكس العجوز في رواية مان: «هل كنت آمل أن أعيش في ابني؟» زاد مرض جوليوس المميت تعقيد الموقف، وفقد فيليب مرة أخرى شخصية حيوية في حياته، شخصية كانت بمنزلة حبل نجاة له. يعد جوليوس بأن يرعى فيليب عندما عادا إلى مجموعة العلاج، لكن كلا الرجلين يعلمان أن المعالج لن يبقى لفترة طويلة لكي يرعى أي شخص.

كانت مجموعة العلاج التي يقودها جوليوس أسرته الأكثر دعمًا له، وفي نهاية الرواية، يكسب ثقة وحبّ ابنه العاق. وأدرك فيليب لأول مرة عمق مشاعر جوليوس تجاهه. استوعب حبّ جوليوس له، وسرعان ما

سيحذو حذو المعالج. يُسأل جوليوس عن شعوره بعد أن عاد مع فيليب إلى المجموعة. «أشعر بشيء رائع في رأسي، لقد تأثرت كثيرًا، لا تعرفون مدى إعجابي بما فعلته هذه المجموعة - إني في غاية السعادة لأن أكون جزءًا من هذا. جسديًا، نعم، يجب أن أعترف فأنا مريض، ومرهق. لكن لا يزال لدي عصير أكثر من كاف لجلستنا الأخيرة الأسبوع القادم». لم يتبقَّ الكثير لقوله في هذا الفصل - باستثناء أن المجموعة لم تلتقِ مرة أخرى. فقد أصيب جوليوس في اليوم التالي بصداع شديد، ودخل في غيبوبة، ومات بعد ثلاثة أيام.

الموت في العمل

«مت في الوقت المناسب»، بحثّ نيتشه قرّاءه، ويتبع جوليوس نصيحة الفيلسوف الحكيمة، ويموت وهو يعمل حتى آخر لحظة في حياته. لا توجد لدى جوليوس أشياء كثيرة يندم عليها في حياته. نتذكّر قوله إنه توجد لدى الذين يعيشون حياة مرضية مخاوف أقل من الموت مقارنة بأولئك الذين يظلّون غير راضين عن حياتهم. مات جوليوس خارج المسرح، لكن لو كان بإمكاننا أن نعرف أفكاره الأخيرة، لشهدنا على رجل يؤكد بلا شك على فرحة الحياة. «لا يمكنني أن أدعي بأنني لا أشعر بالخوف. لكن الشعور الذي يغمرني الآن هو الشعور بالامتنان. لقد أحببتُ وأُحببت. لقد أُعطيت الكثير وقدّم لي الكثير في المقابل. لقد قرأتُ وسافرتُ وفكّرتُ وكتبتُ. لقد تواصلتُ مع العالم، ذلك التواصل الخاص بين الكتّاب والقرّاء». هذه ليست كلمات جوليوس، بل كلمات أوليفر ساكس عندما علم أنه مصاب بسرطان في مرحلة متأخرة - سرطان الجلد النقيلي المنتشر. في مقاله القصير «حياتي الخاصة» الذي نُشر في صحيفة نيويورك تايمز في ١٩ فبراير (شباط) ٢٠١٥، وصف ساكس شعوره عندما بدأ الفصل الأخير من حياته. كانت لديه قواسم مشتركة عديدة مع جوليوس الذي أوشك على الموت، بل وأكثر من ذلك مع معاصره بالتحديد، إرفين يالوم. فقد ولد طبيب الأعصاب

والكاتب البريطاني الشهير في عام ١٩٣٣، بعد عامين من ولادة يالوم، وألّف عدة دراسات حالة حققت نجاحًا كبيرًا، تحولت إحداها إلى فيلم أيقوني بعنوان «الصحوة» من بطولة روبن ويليامز وروبرت دي نيرو. وسعى ساكس، أستاذ طبّ الأعصاب والطبّ النفسي، مثل يالوم، إلى دمج الفنون والعلوم. ووصفت صحيفة نيويورك تايمز ساكس بأنه «شاعر الطب المعاصر» و«أحد أعظم الكتاب السريريين في القرن العشرين»، وهي صفات يمكن أن تنطبق أيضًا على يالوم.

عند قراءة كتاب «حياتي»، يُذهل القارئ من عدد الأقوال والعبارات التي قالها ساكس والتي كان من الممكن أن يقولها يالوم أو بديله جوليوس. يكتب ساكس: «الأمر متروك لي الآن لأختار كيف أعيش في الأشهر المتبقية لي. يجب أن أعيش بأغنى وأعمق وأكثر طريقة منتجة ممكنة». ويستشهد بأحد فلاسفته الأثيرين لديه، ديفيد هيوم، الذي كتب، بعد أن علم أنه مصاب بمرض مميت وهو في الخامسة والستين من عمره، سيرة ذاتية قصيرة في يوم واحد بعنوان «حياتي». وواصل ساكس الكتابة بعد تشخيصه النهائي، وأكمل سيرته الذاتية وكتابًا آخر بعنوان «الامتنان». لو كان لدى جوليوس مزيدًا من الوقت بعد الجلسة الأخيرة من العلاج الجماعي، لربما كانت كلماته الأخيرة قريبة في روحها من كلمات ساكس. «خلال الأيام القليلة الماضية، استطعتُ أن أرى حياتي من ارتفاع شاهق، كنوع من المناظر الطبيعية، مع إحساس متعمق بالصلة بين جميع أجزائها. هذا لا يعني أنني انتهيت من الحياة، بل على العكس، أشعر أنني أعيش بقوة، وأريد وأتمنى في الوقت المتبقي أن أعمّق صداقاتي، وأن أودعّ أحبائي، وأن أكتب أكثر، وأن أسافر إذا كانت لديّ القوة، وأن أصل إلى مستويات جديدة من الفهم والبصيرة». مات ساكس بعد ستة أشهر [٤]. لماذا يقتل يالوم جوليوس قبل آخر جلسة

---

٤ كتب يالوم ردًّا على هذه الفقرة: «لم ألتقِ ساكس قط، لكنني أعجبت بأعماله وأحببت مذكراته كثيرًا حتى إنني كتبت له رسالة من شخص معجب قبل وفاته ببضعة أيام، فكتبت لي مساعدته أنها قرأت رسالتي له بصوتٍ عالٍ.

علاج جماعي؟ يشكّل تشخيص جوليوس النهائي عنصرًا أساسيًّا في الرواية، ويؤثّر على جميع أعضاء المجموعة، لكنه ليس محور القصة الأساسي: إيجاد ترياق لعلاج شوبنهاور. يضفي يالوم طابعًا دراميًّا على تقدّم فيليب في الجلسة العلاجية قبل الأخيرة. ربما كان إظهار موت جوليوس بدلًا من إخبارنا عنه أمرًا مخيبًا للآمال. فقد كان يالوم مهتمًّا دائمًا حول تعامل الشخصيات مع فكرة الموت أكثر من اهتمامه بلحظة الموت نفسها. إن سردًا مقتضبًا مؤلفًا من جملتين يتجنب عرض مشهد الموت العاطفي أو المثالي الذي يشيع في الأدب. (سخر أوسكار وايلد من أنه لا بد أن يكون لدى المرء «قلب من حجر» ليقرأ عن موت نيل الصغيرة في رواية ديكنز «متجر التحف القديمة» من دون أن يضحك).

لم يكن يالوم مهتمًا بإعادة كتابة «موت إيفان إيليتش» الذي أظهر شجاعة في آخر لحظات الموت. لكن يالوم أراد أن يتخيّل أحداثًا يعرفها جيدًا. وباعتباره طبيبًا نفسيًّا عمل مع عدد كبير من المرضى المحتضرين، فإنه لم يظهر قط شخصًا يحتضر (باستثناء وصف موجز لموت إيفا غالسورث في رواية «مستلقيًا على الأريكة»، ربما لأن ذلك سيبعده كثيرًا عن أهدافه المعلنة في كتابة الرواية.

تكتسب العديد من تصريحات جوليوس حول الموت في بداية الرواية أهمية خاصة في نهايتها. يقول جوليوس للمجموعة: «لا يمارس أحد النهايات. فهي تحدث مرة واحدة فقط. ولم تكتب الكتب الدراسية عن هذه الحالة - لذلك فكلّ شيء مجرد ارتجال». ومن دون الاختلاف مع جوليوس، يمكن اعتبار الإشارة إلى الكتابة عن الاحتضار والموت والوفاة مثالًا على ممارسة النهايات، بروفة لحدث سيحدث سواء كنت مستعدًّا لها أم لم تكن.

إن الموت هو الحدث الوحيد في الحياة الذي لا يستطيع الروائيون معرفته بل تخيّله، كما أشار الناقد الأدبي غاريت ستيوارت. «على الرغم من واقعيته الوحشية في نهاية الحياة، فإن الموت بطبيعته الموضوع الوحيد الذي لا مفر من تخيّله في الرواية النثرية. فالموت بالنسبة إلى الذات لا يوجد إلّا بمنزلة عدم

وجود، وهو ليس موضوعًا بقدر ما هو حدث فارغ، ولا توجد له مفردات خاصة به، ويجعلنا صامتين أمام حقيقته التي لا يمكن اختراقها». أمضى جوليوس حياته وهو يستعد للموت، وقرأ كل ما يمكن أن يقرأه عن هذا الموضوع، وعلّم الآخرين ألَّا يخافوا منه، بينما كان يعيش حياته إلى أقصى حد. إن الوفاة القصيرة والسريعة خارج المسرح تشير إلى أن جوليوس كان مستعدًّا بقدر الإمكان.

يُنهي الفصلان الأخيران من «علاج شوبنهاور» قصتَي الرواية المترابطتين. شوبنهاور الذي واجه الموت بوضوح، حقق في السنوات الأخيرة من حياته الاعتراف والشهرة التي طالما سعى إليها. كان موته قصيرًا وغير مؤلم: ففي لحظة كان يقرأ على أريكته، وفي اللحظة التالية أصيب بانسداد رئوي. طلب شوبنهاور في وصيته ألَّا يظهر على شاهدة قبره إلَّا اسمه، آرثر شوبنهاور، «لا شيء آخر، لا تاريخ، لا سنة، لا أي كلمة». وبعبارة يالوم، « لقد أراد الرجل الراقد تحت شاهدة القبر البسيطة هذه أن يتكلّم عمله عنه». تحدث كثيرون ببلاغة عن شوبنهاور، بمن فيهم يالوم. تحدث أحداث الفصل الأخير في كتاب «علاج شوبنهاور» بعد ثلاث سنوات. أصبحت بام وفيليب وتوني أصدقاء، وقبلت بام كل واحد منهما على جبهته، وقالت: «تذكّرا أن جوليوس كان يحبكما، وأنا أحبكما أيضًا»، وتمنّت لهما التوفيق في هذا اليوم الخاص. بعد ساعة، بدأ المعالجان المساعدان قيادة أول مجموعة علاجية لهما معًا. دخل سبعة أعضاء إلى مكتب فيليب وجلسوا على الكراسي التي كانت كراسي جوليوس. «بكى فيليب مرّتين كرجل بالغ: مرة في أثناء تلك الجلسة الأخيرة لمجموعة علاج جوليوس، والثانية عندما عرف أن جوليوس ورّثه هذه الكراسي التسعة».

ربما يتعلق السؤال الرئيسي في نهاية الرواية بعمق واتساع تحوّل فيليب. هل يمكن لشخص لم يعرف قط كيف يمكنه التعامل مع الآخرين بطريقة صحية أن يدرك خطأ أسلوبه، ويتعلم تقدير العلاقات الإنسانية، ويصبح معالجًا متعاطفًا؟ ثمة سؤال آخر يتعلّق بالحلّ النهائي في نهاية الرواية. يحقّق

جميع المرضى تقدمًا كبيرًا، ويبذلون كلّ ما بوسعهم لحلّ صعوباتهم الشخصية عندما كان جوليوس ما يزال على قيد الحياة. هل تقدمهم العلاجي الملحوظ واقعي أم أن الحاجة الجمالية تمليه من أجل إنهاء الرواية؟

المحفّزون والملهمون

لدى الأموات الكثير ليعلّموه للأحياء. لا أحد يعرف هذا أفضل من يالوم الذي تُعدّ كتاباته الروائية والواقعية تأملات في الموت. فلا يبتعد الموت أبدًا عن جلسات العلاج الجماعي التي يقودها جوليوس، ولديه أشياء كثيرة يريد أن ينجزها في السنة الوحيدة المتبقية له من العمر.

في روايتها «الزوج الصالح» الصادرة عام ١٩٩٤، تشبّه غيل غودوين موت شخصية خيالية بالامتحان النهائي. ماغدا دانفرز، أستاذة اللغة الإنجليزية في الثامنة والخمسين من عمرها ٥٨، على وشك أن تموت من سرطان المبيض، وتساءل ماذا ستكون كلماتها الأخيرة. عندما قيّمت حياتها، ميّزت بين المحفّزين والملهمين. كانت ماغدا مُحَفِّزة. فقد أظهرت لطلابها وقرّائها «بعض المؤشرات نحو الكمال، وقادتهم في رحلات يومية نحوه، لكن»، كما تقول، «لم أقدّم الكمال بنفسي. هذا هو الغرض من الفن. قد يكون الطريقة الوحيدة التي يمكننا أن نحصل من خلالها على ما نسعى إليه في هذه الحياة. إن حالة الإنسان معروفة بافتقارها إلى الكمال». وعلى النقيض من ذلك، كان جوليوس ومبدعه من الملهمين، وهذا يجعلنا نرى جمال الحياة وكمالها.

قال شوبنهاور ساخرًا، «يمكنني أن أتحمّل الفكرة بأنه خلال فترة قصيرة، ستلتهم الديدان جسدي، لكن الفكرة بأن أساتذة الفلسفة سينهشون فلسفتي تجعلني أرتجف». يستخدم يالوم هذه العبارة عنوانًا للفصل قبل الأخير في الرواية. كان شوبنهاور مرهف الحساسية، ورفض أعمال معظم زملائه الفلاسفة المعاصرين الذين اعتبر كتاباتهم أقل شأنًا. ليس من المحتمل

أن يخشى يالوم الذي يتصف دائمًا بأنه سخي في تعليقاته عن زملائه الأطباء النفسيين والروائيين، أن ينتقد نقاد الأدب رواياته. تظل رواية «علاج شوبنهاور» قصة مثيرة تتناول العمل الداخلي لمجموعة علاج نفسي، حيث يستطيع معالج يقترب من الموت، على غرار الفلاسفة والعلميين واللاهوتيين وكتّاب الأدب العظماء الذين سبقوه، أن يعالج اليأس البشري.

ثناء على نطاق واسع

حظيت رواية «علاج شوبنهاور» بمراجعات وتعليقات إيجابية كثيرة في العديد من الصحف والمجلات متعددة التخصصات. فقد بدأت جوان-ديان سميث مناقشتها للرواية في «المجلة الدولية للعلاج النفسي الجماعي» بجملة وافق عليها كثير من المراجعين الآخرين: «يمكن القول إن هذا الكتاب المثير للاهتمام الذي يعد أكثر تصوير واقعي وصادق ومؤثر لتجربة العلاج الجماعي في الأدب، سوف يروق لأي شخص مهتم بالفلسفة والعلاج النفسي وكفاح الإنسان من أجل إيجاد معنى للحياة». ووصف أندرو بارلي رواية «علاج شوبنهاور» في المجلة نصف الشهرية «الفلسفة الآن» بأنها «رواية مؤثّرة جدًّا وشخصية»، و«شهادة رائعة على إيمان المؤلف بأننا يجب أن نطمح إلى «الإبداع بما يتجاوز الذات». ووصف ميرل روبن الرواية في صحيفة لوس أنجلوس تايمز بأنها نوع فريد من الروايات، «بعكس الروائيين الذين ينكرون أي دوافع خارجة عن الأدب في الكتابة، فإن أهداف يالوم تعليمية بشكل واضح وصريح. وبخلاف المفهوم الخاطئ الشائع، قد تعني كلمة «تعليمي» أنها مثيرة للاهتمام. إن حماسة يالوم معدية، ومهارته في تقديم الأفكار والنظريات المعقدة في نثر واضح وجذاب تجعله شخصية شعبية بالمعنى الأفضل للكلمة. وهو بالتأكيد يعرف كيف يروي قصة شائقة».

ظهرت معظم الانتقادات الموجّهة إلى رواية «علاج شوبنهاور» في

مراجعات كانت إيجابية إلى درجة كبيرة. فقد جادل جلين أو. غابارد في المجلة الأمريكية للطب النفسي بأن تطورات الحبكة كانت مدفوعة بموضوعات الرواية أكثر من الأبعاد النفسية للشخصيات. وأعرب بعض المراجعين عن إحباطهم من تجاور جلسات العلاج النفسي وحياة فيلسوف متوفى، وهي نفس البنية السردية التي يستخدمها يالوم في روايته التالية «مشكلة سبينوزا». وأعرب سكاي ك. مودي عن أسفه في صحيفة سياتل تايمز بأن حبكة يالوم غير متماسكة لأن القارئ يتأسف حتمًا للقفز من قصة رائعة إلى أخرى ثم العودة مرة أخرى. لكن في كشفه عن حقيقة هيرتزفيلد، يكشف يالوم عن براعته كراوي قصص.

مكتبة
t.me/soramnqraa

نهايتان

لا نفكّر عادة في أن يوصي العلماء أو الأطباء بتعديل نهاية رواية، لكن مقالًا نُشر في «مجلة علوم الأورام» فعل ذلك تمامًا. تتذكّر الكاتبة نالان أكغول باباجان عندما التقت بيالوم عندما كانت طالبة طبّ شابة. «في ذلك الوقت، كنت أقبع تحت أجنحة سوداء من اكتئاب عميق». إن قراءة كتب يالوم تجربة تغيّر الإنسان. «لقد قرأت كتابًا تلو الآخر، وأنا متأكدة من أن إرفين يالوم ساهم أيضًا في الاستبصار والطاقة الحياتية التي اكتسبتها عندما أنهيت علاجي. واصلتُ قراءة كتبه الجديدة طوال مسيرتي الطبية، وأصبحت جزءًا من حياة فيلسوف مختلف في كل عمل له». تعتقد باباجان التي تعمل حاليًّا طبيبة أورام في إسطنبول أن جوليوس ربما دخل في غيبوبة ومات بسبب ورم خبيث في الدماغ. حتى عام ٢٠١٠، كان متوسط العمر المتوقع لمريض مصاب بسرطان الجلد النقيلي من ستة إلى تسعة أشهر، أما الآن، بفضل الأدوية الجديدة الثورية المضادة للأورام، فقد أصبح التشخيص أكثر تفاؤلًا. تثير العلاجات الجديدة لسرطان الجلد سؤالًا مثيرًا للاهتمام لدى باباجان: «هل ستكون هناك نهاية جديدة لكتاب إرفين يالوم الشهير؟ من يدري، ربما كان على سيّد الأدب أن يختار ورمًا آخر مع معدّل أقل للبقاء

على قيد الحياة، أو ربما كان جوليوس، على الرغم من إصابته بورم خبيث في الدماغ، سيستفيد من استجابة طويلة ومستمرة للعلاج، وبهذا البقاء الطويل، كان سيؤثّر برفق على حياة المزيد من الناس بكتابه الوجودي الذي غذّى روحه عند تشخيصه. من يعلم؟».

حتى من دون هذه المراجعة، حقّق يالوم في ختام روايته أهدافه الأربعة المعلنة، فقد أظهر لنا كيف يعمل العلاج الجماعي، وكيف يمكن أن تؤثّر الفلسفة على ممارسة العلاج النفسي، وكيف أثّرت حياة شوبنهاور على تفكيره، وكيف يؤثّر الوعي بالموت على حياة المرء. حقق يالوم ضمنيًّا هدفًا آخر، فقد أظهر لنا كيف أن التعليم هو أساس العلاج. ويظهر التعليم والعلاج النفسي، على حد تعبير فيليب، الحكمة والرعاية. تستكشف رواية «علاج شوبنهاور» أيضًا طبيعة الإرث، والهدايا التي يمنحها الموتى للأحياء. إن الإرث تعبير عن الامتنان للهدية التي لا تقدَّر بثمن وهي مجرد الوجود. لا يوجد أحد أكثر امتنانًا في نهاية القصة من جوليوس الذي يشعر بالامتنان لفرصة إكمال حياته. قد يكون من المبالغة القول إن فيليب حصل على كرسي أستاذية، تسعة كراس دلالة على أنه أستاذ متميز، نتيجة لإرث جوليوس، لكن من الصحيح أن فيليب سيُسعد بتدريس ما تعلّمه من معلّمه. لا يحتاج المرء إلى الإيمان بالله أو بالآخرة ليدرك أن روح جوليوس تسكن في أولئك الذين أثّر في حياتهم. يظلّ جوليوس معلّمًا ومعالجًا بارعًا يعلّم طلابه المرضى كيف يعيشون ويموتون. لا يخبرنا يالوم ماذا أراد جوليوس أن يُكتب على شاهدة قبره، لكن كلمات هنري آدامز تتبادر إلى الذهن: «يؤثّر المعلّم على الأبدية. لا يمكنه أن يعرف أبدًا أين يتوقف تأثيره».

الفصل الحادي عشر

التحديق إلى الشمس:
شفاء بالرواية

كان يالوم في الخامسة والسبعين من عمره عندما كتب «التحديق إلى الشمس» الذي يكشف فيه عن الأسباب العديدة التي تدفعه إلى مواصلة الكتابة عن الموت، بدءًا من الحاجة إلى مواجهة قلقه من الموت. إيمانًا منه بأهمية الشفافية، يرى يالوم أن الكتابة عملية تؤدي إلى إزالة الحساسية. «أظن أننا نستطيع أن نتعود على أي شيء، حتى الموت». لكن هناك أسباب أخرى تدعو إلى الكتابة عن الموت، بما فيها الرغبة في تعليم الآخرين. «لقد تعلّمت الكثير عن التخفيف من قلق الموت، وأريد أن أنقل ما أستطيع أن أنقله إلى الآخرين وأنا ما أزال حيًّا، وعقلي ما يزال سليمًا. يقول يالوم «عندما يسألني أصدقائي في أحيان كثيرة عن المشروع الذي أعمل عليه حاليًّا، أجيبهم إنني أكتب كتابًا حول التغلب على الخوف من الموت، وينتهي الحديث، باستثناءات قليلة فقط، أن أحدًا لا يطرح سؤالًا ليتابع الموضوع، وسرعان ما ننتقل إلى الحديث عن موضوع آخر».

استمد يالوم العنوان من مقولة (مقتبسة من صفحة العنوان) للكاتب الفرنسي فرانسوا دو لا روشفوكو من القرن السابع عشر: «لا تستطيع أن تحدق إلى وجه الشمس أو في وجه الموت مباشرة». يقدّم يالوم نظرة ثاقبة على دور القلق من الموت في مرضى العلاج النفسي. «ليس من السهل أن تعيش كلّ لحظة وأنت تفكّر في الموت، لأن ذلك كما لو أنك تحاول أن تحدّق إلى الشمس مباشرة: فلا يمكنك أن تفعل ذلك للحظات طويلة». تُظهر جميع كتابات يالوم وعيه الشديد بالموت، لكن «التحديق إلى الشمس» أكثر كتب يالوم شخصية حتى الآن، فهو لا يتردّد في أن يقدّم أمثلة شخصية عن القلق

من الموت. وتتمثّل إحدى الطرق التي يحدّق بها يالوم إلى الشمس في وصف قلق الموت لدى المرضى الذين يعالجهم، وطريقة أخرى في وصف وجوده مع معلميه ومرشديه وهم في نهاية حياتهم، وطريقة ثالثة في وصف قلقه الشديد الذي كاد يشلّ حركته عندما كان ينتظر نتائج فحوصات طبية لآفة مهددة للحياة اكتُشفت في صورة أشعة سينية.

ربما تكمن الطريقة الأكثر غرابة التي ينظر بها يالوم إلى الشمس في إعادة قراءة رواياته، مما يؤدي إلى شفاء بالرواية.

تكمن قوة كتاب «التحديق إلى الشمس» في قدرة يالوم بوصفه طبيبًا نفسيًّا كرّس حياته كلّها لعلاج المرضى الذين يعانون من القلق من الموت، وبوصفه كاتبًا يرى المرضى والمعالجين بأنهم رفاق في رحلة الحياة. «أشعر بقوة - كإنسان سيموت ذات يوم في المستقبل غير البعيد، ولّما كنتُ طبيبًا نفسيًّا أمضى عقودًا عديدة في معالجة قلق الموت - أن مواجهة الموت تتيح لنا، ألّا نفتح صندوق باندورا المزعج، وإنما نلج مرة أخرى الحياة بطريقة أكثر ثراءً وتعاطفًا». تؤكد الإشارة إلى «المستقبل غير البعيد» إلى الطابع الملح للكتاب الذي يبدو أحيانًا كأنه مذكرات نهاية الحياة. تستكشف الفصول السبعة في كتاب «التحديق إلى الشمس» جوانب مختلفة من القلق من الموت. يُعدّ الفصل الأول، «جرح الموت» بمنزلة مقدمة. ليس علماء النفس العظماء هم معلّمو يالوم الأكثر تأثيرًا، وإنما الفلاسفة الكلاسيكيون، على رأسهم أبيقور الذي يرى يالوم أنه رائد في العلاج النفسي الوجودي. ومع أن أبيقور يُعرف أكثر بدعوته للاستمتاع بالملذات الحسية، لا سيما الطعام والشراب، فإنه يرتبط أيضًا بهدف تحقيق السكينة والطمأنينة، أو الأتاراكسيا، وهي فكرة طرحها يالوم في روايته التالية والأخيرة «مشكلة سبينوزا».

يقترح الفصل الثاني «تحديد قلق الموت» أن الخوف من الموت ليس عَرَضًا أو بديلًا عن شيء آخر، وإنما قلق أساسي. كان الخوف من الموت يسيطر على حياة المرضى الذين كتب عنهم فرويد وبروير في كتابهما «دراسات عن الهستيريا». ثمة طريقتان يحاول الناس التغلب على قلق الموت من خلالهما،

الأولى الدين الغيبي، الذي يعد بالحياة بعد الموت، والثانية من خلال أبنائهم الذين يمثّلون لكثير من الآباء «مشروع الخلود».

ويقدّم الفصل الثالث، «تجربة اليقظة»، عددًا من القصص والحكايات السريرية التي توضح كيف يمكن أن يؤدي مواجهة الموت إلى زيادة تقدير المرء للحياة. كان من الممكن أن يضع يالوم عنوانًا لكتابه اسم «اليقظة» لولا أن أوليفر ساكس كان قد استخدم نفس الاسم لعنوان كتابه الصادر عام ١٩٧٣. ويستشهد يالوم بتمييز هايدغر بين نمطين من الواقع، الواقع اليومي، «كيف هي الأشياء» إذ ننهمك في الواقع اليومي، والواقع الوجودي، «أن الأشياء موجودة»، معجزة الوجود. ويركّز الفصل الرابع «قوة الأفكار»، على الفلاسفة والمعالجين والأدباء الذين استكشفوا سبلًا للتعامل مع قلق الموت في أثناء التحديق إلى الشمس. ويخصص يالوم جزءًا كبيرًا من الفصل لمناقشة أبيقور الذي سبق رؤيتنا المعاصرة عن اللا وعي، بما في ذلك الفكرة بأن قلق الموت مخفي عن معظم الناس، ويجب استخلاصه عبر مظاهر مقنعة. ويناقش يالوم أيضًا فلاسفة آخرين، بمن فيهم نيتشه، ويوضح كيف أن عبارتي الفيلسوف الصلبتين «كن من أنت» و«الشيء الذي لا يقتلني يجعلني أقوى» قد تكونان مفيدتين لمرضى العلاج النفسي.

ويؤكد الفصل الخامس «التغلب على الخوف من الموت من خلال التواصل» على القوة العلاجية للحضور. يقارن يالوم بين نوعين من الوحدة، الوحدة اليومية والوحدة الوجودية، والأخيرة أكثر عمقًا. وتعد المواجدة أقوى أداة للتغلب على الوحدة اليومية والوجودية. إن يالوم ليس أول معالج يؤكد على أهمية التعاطف أو المواجدة. فقد كان كارل روجرز من أوائل المدافعين عنها، وشكّل هاينز كوهوت حركة نفسية جديدة تقوم على أساس المواجدة. ولم يكتب أي معالج عن المواجدة ببلاغة ووضوح أكثر مما كتب يالوم.

ويُعدُّ الفصل السادس «الوعي بالموت: مذكرات» أكثر الفصول إثارة للاهتمام، فهو يعمّق فهمنا للسبل التي يحوّل من خلالها يالوم تجاربه

الشخصية إلى رواياته. فهو يكتب لأول مرة عن تجاربه المبكرة مع الموت، ويناقش بعض القصائد والقصص التي كان لها تأثير كبير على حياته، بما فيها قصيدة الشاعر ي. ي. كامينغز «سيّد الموت» الرائعة حتى إنه حفظها عن ظهر قلب على الفور التي تفسّر بعض أحلامه المزعجة عن الموت. ويشرح لماذا يشعر بضرورة الكتابة عن الموت.

أما الفصل الأخير، «التعامل مع قلق الموت: نصائح للمعالجين، فهو أطول فصل في الكتاب، وموجّه أساسًا للقرّاء غير المطلعين على نهج يالوم الوجودي في العلاج النفسي. يركّز في هذا الفصل على عدد من المرضى. وعندما سأله أحد المرضى كيف يمكنه أن يتصدى لخوفه من الموت، أجاب يالوم: «تداهمني نوبات قلق الموت أيضًا في الساعة الثالثة صباحًا، لكنها قلّت كثيرًا الآن، وأنا أتقدّم في العمر، بدأت أجد بعض النتائج الإيجابية في التحديق إلى الموت: بدأت أشعر بمزيد من العاطفة، ومزيد من الحيوية في حياتي. جعلني الموت أعيش أكثر في كل لحظة - أصبحت أقدّر متعة الوعي، وأنني ما أزال على قيد الحياة». قد تكون الكلمة الأهم في إجابة يالوم هي «أيضًا» التي على غرار تعبير أوليف سميث، «يبدو أننا جُبلنا هكذا»، بالإشارة إلى علاقة المعالج بمريضه.

لا توجد نظريات جديدة أو كشوفات مذهلة في كتاب «التحديق إلى الشمس»، ولا شيء يمكن أن يُدهش قرّاء يالوم القدامى. لكن، كما في أعماله غير الروائية السابقة، توجد مفاجآت في كتابه الجديد، من أبرزها مناقشة يالوم مدى تأثير تجربة وجوده مع معلّمه الذي كان على فراش الموت، رولو ماي، على حلم حيوي استخدمه في إحدى رواياته. ومن أبرز النقاط أيضًا كيف كان يالوم يواسي نفسه عندما كان ينتظر نتائج فحص التصوير بالرنين المغناطيسي. ما يزال الموت مصدر إلهام يالوم، كما يوضح كتاب «التحديق إلى الشمس».

استخدام المعالج الكشف عن ذاته

أبرز الأمور التي كشف عنها يالوم في كتاب «التحديق إلى الشمس» عدد العلاجات التي جرّبها يالوم شخصيًّا، بما فيها الرولفينج، وهو شكل من أشكال العلاج الجسدي للأنسجة العميقة كان شائعًا في سبعينيات القرن الماضي، لكنه فقد شعبيته لأنه كان مؤلمًا جسديًّا وعاطفيًّا. ويقرّ يالوم في كتاب «التحديق إلى الشمس» ويقول: «وحشي الأسود هو اعتقاد غريب: هالة العلاج؛ معلّمون نصف آلهة؛ معالجون تقليديون؛ أنبياء. ادعاءات شفاء غير مثبتة يعلن عنها العديد من خبراء التغذية؛ العلاج بالروائح، والمعالجة المِثْلِيَّة (علاج الداء بالداء)، والأفكار الغبية المتعلقة بأمور من قبيل السفر عبر النجوم، وقوة الشفاء بواسطة بلورات الكريستال، والمعجزات الدينية، والملائكة، والفنغ شوي، والتواصل الروحاني، والمشاهدة عن بعد، والصعود إلى السماء بالتأمل، والتحريك النفسي، والأرواح الشريرة، وعلاج الحياة السابقة، والأجسام الطائرة المجهولة، والكائنات الفضائية التي ألهمت الحضارات المبكرة، ورسمت أنماطًا ورسومات في حقول القمح، وبنت الأهرامات المصرية». قليلة هي اقتراحات يالوم للمعالجين التي تثير القلق أكثر من أن يكشف المعالج عن نفسه. «إن الاقتراحات القليلة التي أقدمها للمعالجين لا تثير قلقهم أكثر من أن تحثّهم على الكشف أكثر عن ذواتهم، لكن ذلك يجعلهم يشعرون بالتوتر، ويتخيّلون أن شبح المريض يغزو حياتهم الشخصية». وقد استخدم يالوم كشف المعالج عن ذاته لتسهيل عملية كشف المريض عن ذاته، لكنه كان حريصًا دائمًا على ألّا يفصح عن معلومات تتعلق بأسرته لمرضاه أو قرّائه. أما الآن، ولأول مرة، فهو ينتهك هذه القاعدة ليثبت معرفته بأن الآباء يقلقون على أبنائهم، بشكل مفرط أحيانًا. لم يكن الكشف عن الذات متوقعًا. كانت سوزان قلقة لأن الشرطة ألقت القبض على ابنها مؤخرًا بتهمة تتعلق بالمخدرات، وعندما حدّد لها يالوم موعدًا في الصباح الباكر، وهي فترة يخصصها يالوم عادةً للكتابة، سألته لماذا غيّر عادته، فقال لها إنه سيسافر ويمضي بضعة أيام في الأسبوع التالي لحضور حفل زفاف ابنه. ورغبة منه في أن يدلي بشيء يمكن أن يكون مفيدًا، أضاف وهي تهمّ بمغادرة

المكتب: «إنه زواج ابني الثاني يا سوزان، وأذكر أنني مررت بفترة عصيبة خلال فترة طلاقه - إنه شيء فظيع أن يشعر الوالد بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا. لذلك، فإني أعرف من تجربتي الشخصية مدى الرعب الذي ينتابك. فالرغبة في مساعدة أبنائنا متأصلة فينا». قالت له سوزان في جلستها الأخيرة إن تلك اللحظة كانت الأكثر قيمة وأهمية في علاجها. المهم أن نلاحظ أن ما شكّل نقطة تحول في علاجها لم تكن أيًّا من تفسيرات يالوم لحالة سوزان أو رؤاها، وإنما قراره بأن يشاركا شيئًا عن نفسه، وهو ما يؤكد الأهمية البالغة للعلاقة بين المعالج والمريض.

تجربة اليقظة

إن الذين يرفضون أن ينظروا إلى الشمس قد يعزّون أنفسهم بأنه، كما ورد في سِفر الجامعة، لا يوجد شيء جديد تحت الشمس. بعض تعابير يالوم جديدة، وإن لم تكن الأفكار الكامنة وراءها جديدة. فهو يستخدم عبارة تجربة اليقظة ليصف كيف يمكن أن يهزّ حدث عاجل أو حتمي شخصًا ويُخرجه من حالته الذهنية اليومية ويوقظه إلى وعي وجودي مكثف. إن اللقاء الوثيق مع الموت تجربة إيقاظ جوهرية. يستشهد يالوم بعدة أمثلة أدبية لتجارب اليقظة، مثل يقظة سكروج التي نشأت عن زيارة شبح عيد الميلاد القادم في قصة «أغنية عيد الميلاد»، وحصول بيير على عفو من الإعدام في اللحظة الأخيرة في رواية «الحرب والسلام». ويُعدّ «موت إيفان إيليتش» أشهر مثال على تجربة اليقظة من الموت عندما اكتشف بطل الرواية أن حياته بدأت تقترب من نهايتها، وأنه عاش طوال حياته في قيم خاطئة. ينقل تولستوي لنا هذه اليقظة في عبارة «بدلًا من الموت كان هناك نور». فسّر بعض القرّاء ذلك بأنها يقظة مسيحية: فقد كانت كلمات إيفان إيليتش الأخيرة الصامتة، «انتهى»، هي الكلمات الأخيرة التي قالها المسيح التاريخي، لكن يالوم العلماني لا يقدّم هذه القراءة، بل يؤكد على الوضوح الغيبي الذي نشأ عن البطل المشرف على الموت من خلال رؤيته المتفجرة لحقيقة الوجود،

وهي أن يعيش ببساطة دون أن يؤذي الآخرين.

كان يالوم يؤمن دائمًا أن الحزن قد يكون تجربة يقظة. يزخر الأدب بتجارب اليقظة التي قد تكون مفيدة لمرضى العلاج النفسي. وعندما تصف إحدى مريضاته، أليس، الألم الذي ينتابها لأنها ستتخلّى عن جميع أغراضها ومقتنياتها المنزلية لأنها ستنتقل إلى دار للمسنين، قرأ لها يالوم فقرة مناسبة من رواية آنا كارنينا تصوّر الهاوية القابعة تحت سقالات الحياة العارية. يقول يالوم إن تلك الفقرة من رواية تولستوي ساعدت أليس «جزئيًّا لأنها رأت تجربتها في الرواية وجعلتها تمتلئ بمشاعر الألفة والسيطرة، وجزئيًّا لأنها رأت آثارها في علاقتنا - أي أنني أمضيت وقتًا وجهدًا لأبحث عن هذه الفقرة التي تحتوي على بعض أفكار تولستوي الأثيرة لديّ».

الأمر غير العادي في علاقة يالوم بأليس هي أنها استمرت...؟» تشبثّوا بكراسيكم أيها القراء الشباب الذين تعرفون أن فترة العلاج يجب أن تكون قصيرة. لقد عالجتها لأكثر من ثلاثين سنة». فقد بدأت تراه عندما كانت في الخمسين من عمرها لمعالجة مُشكلات تتعلق بابنها وبعض أصدقائها وزبائنها، وخلال تلك السنوات عادت إلى العلاج عدة مرات لأسباب أخرى، بما فيها وفاة زوجها. لم تتقبّل أليس جميع أفكار يالوم، وتركت له رسالة نصيّة قصيرة قالت فيها إن أقواله الهاتفية بمنزلة صفعة في الوجه. لكن علاقتهما صمدت أمام هذه العواصف لأن يالوم طمأنها وأكدّ لها بأنه لن يتخلّى عنها أو يتركها أبدًا. ويقدّم لنا يالوم خاتمة غير متوقعة لقصة أليس. فبعد يومين من انتقالها إلى مجمّع المتقاعدين، بدأت جلسة العلاج بعبارة «أنا سعيدة». وفي إشارة إلى عنوان مقال مطول لفيرجينيا وولف، يقول لنا يالوم إن أليس حصلت لأول مرة في حياتها على غرفة خاصة بها.

مرّ مريض آخر، محامٍ ذكي في التاسعة والأربعين من عمره يدعى ويل بتجربة يقظة بسبب ملاحظات يالوم السريرية. يتذكّر يالوم جلسة علاج سابقة عندما انفجر ويل في البكاء، لكن يالوم راجع ملاحظاته عندما لم يتذكّر المريض شيئًا عن تلك اللحظة. «توجهت إلى جهاز الكمبيوتر، وبحثت عن

كلمة «دموع» في ملّفه، وعدت بعد دقيقة، وجلست، وقلت له: كان الأمر يتعلق بوالدك. قلت بحزن إنك تشعر بالندم لأنك لم تكن تتحدّث معه شخصيًّا، وفجأة اغرورقت الدموع في عينيك». تأثر ويل كثيرًا لأن يالوم تذكّر الدموع التي اغرورقت في عينيه في جلسة سابقة، وتأثر القارئ أيضًا. وقد انهار ويل عدة مرات في الجلسات اللاحقة لإدراكه الجديد بمخاوفه الخفية من موت أبيه ومن موته هو نفسه. لا يربط يالوم بين هذه الأمور لقرائه، لكن ربما دوّن ملاحظات سريرية مستفيضة لكي يتمكن من الكتابة عن الحالة لاحقًا. وإذا كان هذا صحيحًا، ربما كان قرار ويل بالسماح ليالوم بالكتابة عن قصته السبب وراء هذا الإنجاز العلاجي.

التأثير المتموّج (التأثير على الآخرين)

يُعدّ التأثير المتموّج أحد أقوى أفكار يالوم في كتاب «التحديق إلى الشمس». ويشير التأثير على الآخرين إلى حقيقة أن كلّ واحد منّا يخلق - غالبًا من دون قصد أو معرفة واعية منه - دوائر تأثير أحادية المركز قد تؤثر على الآخرين لسنوات طويلة، أو ربما حتى لأجيال. أي أن التأثير الذي نحدثه على الآخرين ينتقل بدوره إلى أشخاص آخرين، كما تستمر التموّجات في بركة ماء حتى تصبح غير مرئية، لكنها تستمر في مستوى ضئيل جدًّا. إن فكرة أننا نستطيع أن نترك شيئًا من أنفسنا، حتى خارج نطاق معرفتنا، تقدّم إجابة قوية للذين يزعمون أن اللا معنى ينبع حتمًا من محدودية بقاء المرء وفنائه.

حسب معرفتي، فإن يالوم هو أول معالج نفسي يشير إلى تأثير التموّج أو التأثير على الآخرين الذي يُستخدم بشكل تكريمي. إنه إرث، هدية تنتقل إلى الآخرين. ويقدّم لنا يالوم عدة أمثلة على التموّج، بما فيها أن تترك شيئًا من نفسك للآخرين، مثل التوجيه أو الحكمة أو الفضيلة. وتُعدُّ المساهمة في المجتمع أو العلوم أو الفنون طريقة أخرى لإحداث تأثير التموّج. «أشعر

بأنني سعيد ومحظوظ لأنني معالج نفسي: إذ إن رؤية الآخرين وهم ينفتحون على الحياة يجعلني في غاية السعادة، ويتيح العلاج فرصة عظيمة لنقل التأثير إلى الآخرين. ففي كل ساعة عمل، يمكنني أن أنقل أجزاء من نفسي، أجزاء مما تعلّمته عن الحياة إلى الآخرين». إن أعظم تأثير متموّج ذكره يالوم هو جوليوس في رواية «علاج شوبنهاور» الذي ينقل هبة العلاج إلى مرضاه الذين سيستفيدون من مساعدته، وقد استفاد هو أيضًا منهم: من ثقتهم ورؤاهم وحسن نواياهم.

فن الموت: يالوم وموري شوارتز

تذكّرنا استعارة يالوم عن تأثير التموّج أو التأثير على الآخرين، دوائر التأثير أحادية المركز، برمزية استشهد بها موريس شوارتز في كتابه الصادر عام ١٩٩٦ بعنوان «التخلّي: تأملات موري حول الحياة في أثناء الاحتضار». يروي شوارتز أستاذ علم الاجتماع في جامعة براندیز الذي ألهم ميتش ألبوم في كتابه الأكثر مبيعًا عام ١٩٩٧ «أيام الثلاثاء مع موري» قصة حكاها له معلّمه في التأمل عن موجة ذكر تخشى أن ترتطم بالشاطئ وتتلاشى وتفنى. تقول له موجة أنثى بكل طمأنينة: «إنك لا تفهم، إنك لست موجة، إنك جزء من المحيط». لا يستشهد يالوم بشوارتز أو ألبوم، لكن يالوم يتعاطف مع فكرة أن الموتى يشكلون جزءًا من كل أكبر، يرتبطون بمن سبقوهم وبمن سيأتون بعدهم. مات شوارتز عندما أصيب بالتصلب الجانبي الضموري، مرض لو جيريج، في عام ١٩٩٥ وهو في الثامنة والسبعين من العمر. توجد فقرات في كتاب «أيام الثلاثاء مع موري» مثل جعل الموت مشروع البحث الأخير للمرء، كان جوليوس الذي يقترب من الموت في رواية «علاج شوبنهاور»، سيقدّرها وربما يشاركها مع المرضى الذين يعالجهم. قال شوارتز: «بما أن الجميع سيموتون، فقد تكون لي قيمة كبيرة، أليس كذلك؟ يمكن أن أكون بحثًا. كتابًا مدرسيًّا بشريًّا. ادرسوني في موتي البطيء والصبور. راقبوا ماذا يحدث لي. تعلّموا مني».

مثل يالوم، يعرف شوارتز أن أسوأ جانب في الموت هو العزلة. سأل شوارتز تيد كوبل في برنامج «نايتلاين» على قناة ABC «هل سأنسحب من العالم كما يفعل معظم الناس، أم سأعيش؟» فأجاب شوارتز على سؤاله بطريقة لا بد أن يؤيدها جوليوس ويالوم، «قررت أن أعيش - أو على الأقل أن أحاول أن أعيش - بالطريقة التي أريدها، بكرامة وشجاعة وروح مرحة ورباطة جأش». إن الكثير من دروس الحياة التي تعلمها شوارتز تشبه الدروس التي تظهر في كتاب «التحديق إلى الشمس»: «الطريقة التي تضفي معنى على حياتك هي أن تكرّس نفسك لحب الآخرين، وتكرّس نفسك لمجتمعك من حولك، وتكرّس نفسك لخلق شيء يمنحك هدفًا ومعنى». أما الدرس الرئيسي الذي قدمه شوارتز فهو: «عندما تتعلّم كيف تموت، فإنك تتعلّم كيف تعيش»، موضوع كتاب «التحديق إلى الشمس». تؤكد جميع كتب يالوم الاعتقاد المتناقض بأن الموت الجسدي يدمّرنا، لكن فكرة الموت تنقذنا. يستطيع يالوم أن يتخيّل وهو يحفر الكلمات التي اختارها شوارتز على شاهدة قبره: «معلّم حتى النهاية».

يكتب يالوم وشوارتز كلاهما من وجهة نظر المشارك-المراقب، منظور طوّره شوارتز خلال السنوات الخمس التي عمل فيها في مؤسسة تشستنات لودج للأمراض النفسية في روكفيل، ماريلاند. إن كتابَيْ «التحديق إلى الشمس» و«التخلّي» ملهمان دون ابتذال، وهي ملاحظة لا يمكن قولها عن كتاب «أيام الثلاثاء مع موري» العاطفي. يُعدُّ كتاب «التحديق إل الشمس» وكتاب «التخلّي» مثالين معاصرين على فن الموت. ويشير يالوم وشوارتز في أحيان كثيرة إلى فلاسفة وشعراء متشابهين، من قبيل مارتن بوبر وه. أودن. ويذكّرنا تعليق يالوم بأن الأشخاص الذين يقتربون من الموت يتعلّمون في غالب الأحيان تقدير الحياة بعد فوات الأوان بملاحظة شوارتز المضحكة في كتاب «أيام الثلاثاء مع موري» الآن بعد أن أصبحت على مشارف الموت، ازدادت أهميتي للناس». شارك شوارتز في تأليف ثلاثة كتب في بداية حياته المهنية، وندم في نهاية حياته لأنه لم يكتب كتبًا أخرى، ندم لا يمكن أن ينتاب

يالوم الغزير الإنتاج. إن «التحديق إلى الشمس» عمل أكاديمي أكثر من كتاب شوارتز «التخلّي» أو كتاب ألبوم «أيام الثلاثاء مع موري». فقد كُتب كتاب «التحديق إلى الشمس» من منظور وجودي وديناميكي نفسي، وهو مليء بالتعاطف والحكمة والفكاهة التي سيُقدّرها القارئ العادي وغير العادي. يتمتع يالوم بقدرة نادرة على الكتابة بأسلوب تعليمي مبهج عن موضوعات قاتمة، من دون أن يكون متعسفًا أو جازمًا من غير دليل».

الامتنان

لا يوجد شيء أكثر تأثيرًا من الامتنان. فقد استكشف يالوم آثار الامتنان المظلمة في كتابه «عندما بكى نيتشه» عندما رفض الفيلسوف أن يكون مدينًا لبروير لكي لا يصبح تحت سلطة أي شخص. ويركّز يالوم في كتابه «التحديق إلى الشمس» على الجانب الإيجابي للامتنان فقط، وعلى قدرته على تكوين علاقات دائمة. ويذكر استخدام «زيارة الامتنان» التي ابتكرها مارتن سيليجمان، مؤسس حركة علم النفس الإيجابي. يطلب يالوم عادة من مرضاه القيام بزيارة امتنان. «فكّر في شخص ما يزال على قيد الحياة تشعر تجاهه بامتنان كبير لم تعبّر له عن ذلك قط. امضِ عشر دقائق في كتابة رسالة امتنان إلى ذلك الشخص، ثم التقِ بشخص آخر هنا، وليقرأ كلّ واحد منكما رسالته إلى الآخر. وتتمثّل الخطوة الأخيرة في أن تزور ذلك الشخص في المستقبل القريب، وتقرأ له هذه الرسالة بصوتٍ عالٍ». لقد استخدمتُ نسخة من زيارة الامتنان في كثير من دورات الكتابة التي أدرّسها، فقد كنت أدعو الطلاب إلى التعبير عن امتنانهم لأي شخص، بمن فيهم الأشخاص الذين لم يعودوا على قيد الحياة. يقدّم يالوم مثالًا شخصيًّا على الطبيعة المتدفقة للامتنان، ويوضح أن الامتنان هدية تثري المانح والمتلقي. «وبما أنني ربّ أسرة، فأنا الذي أدفع ثمن وجبة الطعام عندما نتناول الطعام في أحد المطاعم أنا وأسرتي. ويشكرني أبنائي الأربعة دائمًا بلطف (بعد إبداء مقاومة ضعيفة)، وأقول لهم دائمًا: «اشكروا جدّكم بن يالوم. فما أنا إلّا شريان ينقل كرمه. فقد

كان دائمًا يدفع عني. (وبالمناسبة، كنت أبدي أنا أيضًا مقاومة ضعيفة).

المرضى يقرؤون كتب معالجهم النفسي

تشمل أمثلة عديدة قدمها يالوم حول التأثير المتموّج مرضى قرؤوا كتبه. يكشف يالوم في كتابيه «هبة العلاج» و«التحديق إلى الشمس» كيف استجاب مرضاه له بوصفه معالجًا وكاتبًا. يقول يالوم في كتابه «هبة العلاج»، «لقد قرأ معظم المرضى الذين أعالجهم بعض كتبي الذين تشكّل ردود أفعالهم على كتاباتي مصدرًا غنيًّا بالمعلومات. ويشعر بعضهم بالرهبة من كثرة كتاباتي، ويعرب بعضهم الآخر عن قلقهم بأنني لم أجد أنهم يثيرون الاهتمام. قال لي أحد المرضى أنه قرأ كتابًا لي في المكتبة العامة ولم يشأ أن يشتريه لأنه «تبرع به للتو في العيادة». ويكره الذين يفترضون وجود اقتصاد قائم على الندرة، الكتب لأن وصفاتي عن العلاقات الوثيقة مع المرضى الآخرين توحي بأنه لن يتبقى لهم سوى قليل من الحب».

يقول يالوم بعد بضع صفحات أنه بعد صدور كتاب «جلّاد الحب» خُيّل إليه أن المرضى سيصبحون حذرين من أن يعالجهم معالج يكتب عن العلاج النفسي. لذلك كان يؤكد دائمًا للمرضى الجدد أنه لم يكتب قط عن أحد من المرضى دون أن يحصل على موافقته أولًا، ودون أن يغيّر ويموّه هويته إلى درجة كبيرة، وهذا يعني أن هؤلاء المرضى لم يكونوا قلقين بأنه سيكتب عنهم دون موافقتهم وإخفاء هويتهم كثيرًا، ولم يشعروا بالقلق بأنه سيعتبرهم مجرد موضوعات محتملة لدراسة حالة نفسية. ما الذي يثير قلقهم؟ إنهم لا يشعرون بالقلق «لأنني لم أكتب عنهم» وإنما «لأنني لم أخترهم لأنهم ليسوا مثيرين للاهتمام».

يقرّ يالوم في مقابلة أجراها تيرينس كلارك في عام ٢٠١٥ نُشرت في صحيفة «هافينغتون بوست» بأن سمعته ككاتب مشهور غيّرت كثيرًا ممارسته كطبيب نفسي، وهو أمر «يحبّ» أن يكتب عنه في المستقبل. «في الوقت الحالي، فإن كلّ مريض أراه يأتي إليَّ بسبب شيء كتبته، ويصبح له تأثير كبير على

مسار العلاج. هذا يجعلني شخصية أكبر من الحياة بالنسبة إلى الأشخاص الذين أراهم، وربما يمنحني مزيدًا من القوة لعمل الخير، ما دمت أستطيع في النهاية أن أتجاوز حاجتهم لرؤيتي بصفتي شخصية خاصة. لا أريد أن أكون مثاليًّا في عيني المريض بسبب ما أكتبه».

لا يشارك الجميع اعتقاد يالوم بقيمة كتابة المعالجين عن المرضى حتى لو حصلوا على موافقتهم وأخفوا هويتهم إلى درجة كبيرة. تنظر مقالتان نُشرتا في صحيفة نيويورك تايمز في عامي ٢٠١٥ و٢٠١٦ إلى هذه الممارسة نظرة سلبية. ففي مقال بعنوان «لماذا لم أكتب قط عن المرضى الذين أعالجهم»، تبدأ ليزا جورنيك، المحلّلة النفسية ومؤلفة روايتين عن العلاج النفسي، بالاعتراف بأن الكتابة عن المرضى أمر مقبول مهنيًّا إذا وافقوا على ذلك وأُخفيت هوياتهم. لكن عمل ذلك يجعلها لا تشعر بالارتياح، وتؤكد أن المعالجين الذين يكتبون عن مرضاهم يستغلونهم. وتجادل بأن المرضى الذين يشعرون بالإكراه النفسي لا يستطيعون منح المعالجين موافقتهم للكتابة عنهم، كما لا يستطيع الأطفال منح موافقتهم على أن يمارس معهم البالغون الجنس. وترى غورنيك أن اللقاء العلاجي يجب أن يكون «ملاذًا يستطيع المريض فيه، برفقة معالج حصيف، أن يفحص أفكاره ومشاعره الأكثر إزعاجًا»، وتشير إلى أنها لن تتمكن من «الحفاظ على الانتباه الشديد الذي يتطلبه العمل العلاجي إذا كنت أفتّش في أعماق عقلي عن شيء يمكنني أن أكتب عنه».

يصل غاري غرينبرغ إلى استنتاج مماثل في مقال بعنوان «هل يجب أن يكتب المعالجون عن المرضى؟» وإن كان ذلك لسبب مختلف. ومثل غورنيك، يرى أن المرضى يشعرون بأنهم يتعرضون للتلاعب الخفي لمنح موافقتهم فقط لإرضاء المعالج، ويصف غرينبرغ دهشته عندما أخبره محاميه أن السؤال ليس هل سيعرف القرّاء هويات المرضى في دراسة حالة منشورة، وإنما هل سيعرف المرضى أنفسهم. كان غرينبرغ ينحو إلى تجاهل هذا التحذير. «لكن ألم يستفد العالم من دراسات الحالة التي قدمها معالجون بارعون في

هذا المجال مثل سيجموند فرويد وإرفين يالوم؟» لكن غرينبرغ غيّر رأيه عندما دخل إلى مكتبه مريض غاضب كان قد أعطى موافقته، حاملًا الكتاب بيده، وقال غاضبًا: «أعرف أن هذا أنا، لا أصدق أنك فعلت هذا». فصُدم غرينبرغ. «كانت قصة ذلك الشخص مدفونة في الصفحة مثل قلب نمّام. كنت أعرف ذلك، وكان المريض يعرف ذلك، وكنا نعرف في تلك اللحظة أنني تسببت في إحداث جرح لا يمكن البرء منه. فقد استخدمت المريض لأغراضي الخاصة. وهكذا انتهت علاقتنا». مكتبة سُر مَن قرأ

في كتاب «السرية ومساوئها: معضلات الخصوصية في العلاج النفسي»، تناقشتُ مع بول و. موشر العديد من القصص المرعبة للمرضى الذين اكتشفوا أن معالجيهم كتبوا عنهم دون موافقتهم. وجادلت جودي ليوبولد كانترويتز في كتابها «الكتابة عن المرضى» (٢٠٠٦) أن استخدام التمويه الشديد دون موافقة المريض أمر مقبول، لكن جلين أو. غابارد (في كتاب «التمويه أو الموافقة»)، وبيتر ل. رودنيتسكي، وآخرين طعنوا في موقفها هذا. وأشارت إيلين ر. ساكس وشاهروخ غولشان في كتابهما «الموافقة المستنيرة في التحليل النفسي» (٢٠١٣) إلى أنه، استنادًا إلى دراسة تجريبية شملت ٦٢ محللًا نفسيًّا شاركوا في دراستهما، لم يكشف سوى قلة قليلة من المحللين لمرضاهم عن احتمال الكتابة عنهم، وهو استنتاج مثير للقلق.

أما يالوم، فإنه يتفادى هذه المُشكلات ويُبلغ المرضى مسبقًا بنيته بالكتابة عنهم. لذلك، فهو في وضع فريد لمناقشة تأثير هذه الكتابات في العلاج. ويقدّم في كتابه «التحديق إلى الشمس» عدة أسباب تجعل المرضى يرغبون في أن يكتب المعالج عنهم في دراسة حالة. إذ يستطيع المرضى أن يقرؤوا دراسة الحالة تلك وتذكرون ما تعلّموه في العلاج، ويمكنهم أن يعرفوا مدى النمو والتطور الذي بلغوه منذ انتهاء العلاج - أو، في بعض الحالات، ما الذي ينبغي لهم أن يفعلوه. ويمكنهم أن يقرؤوا كيف أن حياتهم تشبه حياة مرضى آخرين، ويمكنهم أن يقرؤوا ما الذي تعلّمه معالجوهم من قصص المرضى. ويمكنهم أن يقرؤوا كيف أحدثوا فرقًا في حياة معالجيهم أو في حياة قرائهم.

قد يكون بعض هذه الأسباب نرجسيًّا، مثل متعة رؤية كيف يدور عالم المعالج حول حياة المريض، حتى لو كان ذلك لفترة مؤقتة، لكن الأسباب الأخرى قد تكون تعليمية وعلاجية. وهناك سبب آخر قد يجعل المرضى يرغبون في أن يكتب معالجهم عنهم، وهو البقاء على تواصل معه بعد وفاته (ووفاتهم)، كما تعترف إيرين في «سبع دروس متقدّمة في علاج الحزن»، وتقول: «لا أريد أن ينتهي الأمر معك».

لا يبدو يالوم أنه يستغل أو يدافع عن استخدام قصص المرضى الذين عالجهم في كتاباته، فهو يدعهم يعبّرون في كتاب «التحديق إلى الشمس» عن شعورهم عندما يقرؤون قصص علاجهم:

أصف في كتاب «هبة العلاج» مريضة لم تكن تشعر بارتياح من مظهرها بعد أن تساقط شعرها من العلاج الإشعاعي، وكانت تخشى أن يراها أحد من دون شعر مستعار. وعندما جازفتُ ونزعت شعرها المستعار عن رأسها في عيادتي، مرّرتُ أصابعي برفق فوق خصلات شعرها القليلة المتبقية. ثم رأيتها بعد سنوات في جلسة علاجية قصيرة، وقالت لي إنها قرأت الفقرة التي تتحدث عنها في كتابي مرة أخرى في الآونة الأخيرة، وشعرت بالسعادة لأنني سجلت هذه القصة عنها ونقلتها إلى معالجين ومرضى آخرين. قالت إنها سعيدة لأن تجربتها يمكن أن تفيد أشخاصًا آخرين بطريقة ما، حتى الذين لا تعرفهم.

قد يجد المعالجون الذين هم أنفسهم مرضى الراحة في الظهور في دراسة حالة منشورة. كان جيف، وهو طبيب نفسي وعضو قديم في مجموعة دعم بلا قيادة شارك فيها يالوم طوال الخمسة عشر عامًا الماضية، قد شارف على الموت من السرطان، وظل يعمل بعد اكتشف إصابته بمرض عضال قبل بضعة أشهر مرشدًا لجميع الأعضاء الآخرين حول «كيف يواجه المرء الموت بطريقة مباشرة ومدروسة وشجاعة». وعلى الرغم من قاعدة السرية، فقد وافق جيف أن يسجل يالوم مشاعره عن محنة الرجل المحتضر وتأثير ذلك على المجموعة. كتب يالوم: «غمرتني موجة من الحزن. لا بد أن هناك طريقة

لحفظها. لو صُوِّرت هذه المجموعة في فيلم وعُرض على قناة أرضية شاملة يشاهدها جميع البشر الأحياء، لتغيّر العالم إلى الأبد». لم يسجّل يالوم جلسات المجموعة في شريط، لكنه أدرك أن هناك طريقة أخرى لالتقاط جوهرها وهي الكتابة عنها. «نعم، هذه هي التذكرة - الحفظ، الاحتفاظ، مكافحة النسيان. ألست مدمنًا على أن أحتفظ بالأشياء؟ أليس هذا ما يجعلني أكتب الكتب؟ لماذا أكتب هذه الملاحظة؟ ألا يعتبر ذلك جهدًا عقيمًا للتسجيل والحفظ». ثمة خاتمة لهذه القصة. «ختامًا، بعد أسبوعين، عندما التقينا في منزل جيف عندما اقترب من الموت، طلبت منه مرة أخرى بأن يسمح لي أن أنشر هذه الملاحظات، وهل يفضّل أن أشير إليه باسمه الحقيقي أم باسم وهمي، فطلب مني أن أستخدم اسمه الحقيقي، وأحبُّ أن أعتقد أن فكرة التأثير، بفضل هذه المقالة القصيرة، قد قدّمت له قدرًا من الراحة». يستدعي يالوم التأثير المتموّج لشرح «الشعور بالراحة» الذي شعر به جيف عندما عرف أن اسمه الحقيقي وقصته السريرية ستظهران في كتاب «التحديق إلى الشمس». ثمة تفسير آخر للشعور بالراحة الذي انتاب جيف ويالوم، وهو ما أطلقت عليه في كتابي «الموت بكرامة» خلق الكاتب لنفسه في الأجيال القادمة. «إن الرغبة في خلق ذات في الأجيال القادمة هي أحد الدوافع الرئيسية للكتابة عن الموت. إننا لا نكتب من أجل الحاضر فقط، بل من أجل المستقبل أيضًا، مستقبل لن نكون فيه على قيد الحياة». قد تكون هناك أسباب أخرى دفعت جيف إلى استخدام اسمه الحقيقي: للتصديق على قصة يالوم السريرية، وللتعبير عن امتنانه ليالوم لتسجيله الحدث، ولمساعدة قراء يالوم على التعايش مع قلقهم من الموت.

الرواية تحاكي الحياة

مثل مجموعة «أمي ومعنى الحياة»، يسلّط كتاب «التحديق إلى الشمس» الضوء على كتابات يالوم السابقة من خلال إظهار الطرق التي استخدم بها تجارب الحياة في رواياته. وفيما يلي مثال على البقاء على تواصل مع المرضى

المحتضرين، «في إحدى المرات، منذ بضعة عقود، عندما كنت أودّع مريضة وهي على فراش الموت، طلبت مني أن أستلقي بجانبها على سريرها قليلًا. فعلتُ ما طلبته مني، وأعتقد أنها شعرت بالراحة. إن الحضور المطلق هو أعظم هدية يمكنك أن تقدّمها لأي شخص يواجه الموت (أو لشخص يتمتع بصحة جيدة جسديًّا وقد أصيب بنوبة هلع الموت). وقد حوّل يالوم هذا المشهد إلى قصة متخيلة في رواية «مستلقيًا على الأريكة» عندما استلقى إرنست لاش بجانب مريضته إيفا غالسورث. إنها أحد أكثر المشاهد التي لا تُنسى في الرواية. فقد شعر إرنست بالخجل لأنه أثير جنسيًّا على الفور، لكنه «استطاع أن يتخلّص من ذلك، وكرّس نفسه لعناق إيفا بطريقة حنونة». وسرعان ما دخلت إيفا في غيبوبة وماتت بعد بضع ساعات، وقف إرنست وشقيقتها إلى جانبها. لم يخبرنا يالوم، ولا يوجد سبب يدعو إلى ذلك، إن كانت التفاصيل في هذا المشهد حقيقية أم من نسج الخيال. يوضح هذا المشهد العلاقة بين الأحياء والأموات، وقوة الحضور في مواجهة الغياب.

مثال آخر على الفن الناشئ من الحياة هو حلم إرنست «بالدب سموكي في رواية «مستلقيًا على الأريكة». إذ يفسّر إرنست الحلم بأنه ردّ فعل على تجهيز جثة إيفا للحرق — « يمثّل الدب سموكي عملية الحرق». يكشف يالوم في كتابه «التحديق إلى الشمس» أنه حَلِم بالدب سموكي مباشرة بعد أن ساعد في تجهيز جثة معالجه ومرشده، رولو ماي، للحرق. في الحلم، كان يرتدي قميص نوم رُسم عليه وجه الدب سموكي المبتسم، لكن الوجه ازداد إشراقًا وبريقًا. «أيقظني الحلم، لا لأنني كنت مرعوبًا، بل بسبب لمعان الشعار المتوهج على قميص النوم». كان الحلم يرمز إلى جهود يالوم للتخفيف من رعب الموت.

ثلاثة معلّمين

يظهر حلم الدب سموكي في الفصل السادس «الوعي بالموت:

مذكرات»، حيث يناقش يالوم كيف أثّر الموت على ثلاثة من معلّميه: جيروم فرانك، وجون وايتهورن، ورولو ماي. وكان ليالوم لقاء لا يُنسى مع الموت عندما كان موجودًا معهم وهم قرب نهاية حياتهم. كان فرانك، أحد أساتذة يالوم السابقين في جامعة جونز هوبكنز ومؤلف كتاب «الإقناع والشفاء» قد أصيب بالخرف وهو في التسعينيات من عمره. في البداية، لم يتذكّره فرانك واعتذر لأنه فقد ذاكرته. «أنا أسف جدًّا يا إرف، لكن هذا ليس بإرادتي. ففي صباح كلّ يوم، يمُسح لوح ذاكرتي تمامًا». أخيرًا، جاءته ومضة من الذاكرة، وتواصل فرانك مع يالوم، وألمح إلى أن الحياة يمكن أن تظل جيدة بالرغم من فقدان كل شيء. يقول يالوم: «كم أثمّن هذه الهدية، عمل سخي أخير في نهاية حياة معلّم ومرشد استثنائي».

وأصيب وايتهورن، أستاذ الطب النفسي الأسطوري الآخر في جامعة هوبكنز، بسكتة دماغية شديدة جعلته مشلولًا. لم يفهم يالوم قط لماذا طلب منه معلمه أن يزوره وهو على فراش الموت. «لكن لماذا أراد أن يراني أنا بالذات؟ فقد علّم جيلين من الأطباء النفسيين، يشغل معظمهم مناصب مرموقة في جامعات رائدة. لماذا اختارني، أنا ابن بقال مهاجر فقير، مضطرب عديم الثقة في نفسه؟ ماذا يمكنني أن أفعل له؟» كتب يالوم عن وايتهورن بمزيج من التعاطف والنقد، وهو أمر ليس سهلًا دائمًا عند الكتابة عن الموتى. تشير العبارة اللاتينية (De mortuis nihil nisi bonum) «لا يُذكر عن الموتى إلّا الخير»، إلى الخوف الخرافي من التحدّث بسوء عن الموتى كي لا تعود الكلمات السيئة وتطارد الشخص الذي قالها.

من بين المعلمين الثلاثة، كان لرولو ماي التأثير الأكبر على حياة يالوم، بوصفه مرشدًا ومعالجًا وصديقًا مهمًّا. وقد أثّر كتاب ماي الذي شارك في تحريره عام ١٩٥٨، بعنوان «الوجود: بُعد جديد في الطب النفسي وعلم النفس»، ونُشر عندما كان يالوم طالبًا مقيمًا في السنة الثانية في كلية الطب النفسي، تأثيرًا عميقًا على تطور يالوم كمعالج نفسي وجودي. ونتيجة لقراءة الكتاب، التحق يالوم بدورة دراسية جامعية في تاريخ الفلسفة الغربية، وهو

قرار كان على الأرجح مهمًا بقدر قراره الالتحاق بكلية الطب. «ومنذ ذلك الحين، بدأت أواصل القراءة والتدقيق في الدورات الدراسية حول الفلسفة، ووجدت في عملي حكمة وتوجيهًا أكثر مما وجدته في الأدبيات المهنية في مجال تخصصي». وتحتفي مقالات عديدة في كتاب العلاج الوجودي (٢٠١٢) الذي حررته لورا بارنيت وجريج ماديسون، بمساهمات رولو ماي.

يمكن للمرء أن يفهم سبب إعجاب يالوم الشديد برولو ماي. فقد رفض ماي جميع أشكال الأرثوذكسية العلمية التي يسميها «عبادة المنهج»، ويوضح كيف أصبحت الصرامة العلمية «سريرًا قسريًّا تمددت عليه الحقائق التجريبية لتتناسب مع نمط مسبق». لا بد أن يالوم قد تأثّر بتعريف ماي عن القلق. «إنه ليس تهديدًا هامشيًّا يمكنني قبوله أو رفضه، مثلًا، أو ردّ فعل يمكن تصنيفه إلى جانب ردود أفعال أخرى. إنه دائمًا تهديد للأساس، لمركز وجودي. القلق تجربة تهديد بانعدام الوجود الوشيك». ولا بد أن يالوم أثارت اهتمامه تقنيات ماي العلاجية التي تتضمن إحداها السؤال التالي، «أجد نفسي غالبًا أشعر برغبة في السؤال عندما يدخل المريض ويجلس، ليس «كيف حالك؟» بل «أين أنت؟» ويضيف ماي أن «أين»تشمل «هل هو منفصل أو حاضر تمامًا، وهل اتجاهه نحوي ونحو مُشكلاته أم هو بعيد عن كليهما»، و»هل يتهرب من القلق».

بعد سنوات، عندما بدأ يالوم يعاني من قلق شديد من الموت بعد عمله مع مرضى في مرحلة الموت، بدأ العلاج مع رولو ماي، وكان يزوره أسبوعيًّا طوال ثلاث سنوات. لم يحاول يالوم التقليل من شدة قلقه خلال هذه الفترة. « كانت العزلة المرافقة للموت أكثر فكرة تستحوذ عليَّ. وفي مرحلة ما، عندما بدأ ينتابني قلق شديد في الليل في أثناء ذهابي إلى تلك المحاضرات، بدأت أمكث ليلة في فندق صغير غير بعيد عن عيادته، وكنت أعقد جلسات معه قبل تلك الليلة وبعدها». ويعترف يالوم بتهكم «أننا تواطأنا على ألّا نحدّق إلى الشمس أبدًا: فقد تجنبنا مواجهة شبح الموت». لكن العلاج ظل قيّمًا، وعندما انتهى العلاج أصبحا صديقين مقربين. خلص يالوم من تجارب نهاية

حياة ثلاثة من معلّميه ومرشديه أنه من أجل التغلب على قلق الموت، يجب أن يحافظ المرء على صلة مع الآخرين، وهي صلة يشعر بها مع مرضاه وقرائه.

إلغاء الموت

يُعدّ يالوم أحد المنظّرين القلائل في أي تخصص يكشف عن مدى تأثير تجاربه الحياتية على بناء نظريته. فالحدث الذي كان له تأثير كبير عليه في طفولته ذلك الشعور بالطمأنينة الذي منحه له طبيب العائلة، الدكتور مانشستر، الذي استُدعي عندما أصيب والد يالوم بنوبة قلبية كادت أن تودي بحياته. فقد وضع الطبيب سماعته على صدر والده وسمح لابنه البالغ من العمر أربعة عشر عامًا أن يسمع دقات قلب والده. «انظر، إنه يدّق، إنه منتظم كالساعة. سيكون بخير». كانت تلك الليلة بأكملها حدثًا غيّر حياة يالوم، جزئيًّا من الرعب الناجم عن مواجهة أبيه الموت أمامه، وجزئيًّا لاتهام أمه له عندما قالت له: «لقد قتلته»، وجزئيًّا من كلمات الطبيب المطمئنة. «عندها قررتُ أن أصبح مثله، أن أصبح طبيبًا وأنقل للآخرين ذلك الشعور بالارتياح الذي منحني إياه». لا يقدّم لنا يالوم تفاصيل، لكن يمكننا أن نستنتج أن الدافع المضاد للرهاب يقبع وراء قراره بأن يصبح طبيبًا، كوسيلة لإبعاد شياطينه.

يتذكّر يالوم حدثين مهمين يتعلقان بوفاة أمه وهي في الثالثة والتسعين من عمرها. يوضح الحدث الأول أن اللا وعي يعمل أحيانًا بطرق غريبة وكوميدية. فقد كان يالوم قد قرر في الليلة التي سبقت جنازتها أن يكرّم ذكراها ويخبز خبز الكيشل اللذيذ الذي كانت تخبزه عادة، وهو معجنات يهودية شهيرة. «لكن العجينة لم تنجح. كانت هذه أول مرة يحدث ذلك، فقد نسيت أن أضيف إليها السكّر. ربما كانت تلك رسالة رمزية مني إلى نفسي بأنني ركّزت كثيرًا على محنة أمي. يبدو أن اللا وعي في داخلي هو الذي كان يلكزني: «أترى، لقد نسيت الأجزاء الجيدة - رعايتها، تفانيها اللا متناهي

الذي لا تعبّر عنها في كلمات في كثير من الأحيان». يتماشى تفسير يالوم مع شخصيته، فينتقد نفسه لأنه فشل في تقدير الوصفات الخفية التي كانت تستخدمها أمه. وثمة تفسير أقل انتقادًا للذات وهو أن أمه، بصرف النظر عن خبزها، لم تكن امرأة لطيفة. أما الحدث الآخر الجدير بالذكر فهو يتعلق بحلم راوده في الليلة التي تلت جنازة أمه. «سمعت صوت أمّي يناديني باسمي. رحت أسير بسرعة في الدرب وتوجهت إلى بيت طفولتي. عندما فتحت باب البيت، رأيت أمامي، جالسين على الدرج، صفًّا فوق صف، جميع أفراد عائلتنا الممتدة (ماتوا جميعًا - أمي آخر ورقة شجرة، عاشت أطول من جميع أفراد عائلتها). عندما نظرت إلى تلك الوجوه الجميلة الجالسة على الدرج، رأيت عمتي ميني جالسة في الوسط. كانت تهتز مثل نحلة طنانة، وتتحرك بسرعة كبيرة حتى غامت ملامحها عني». يفسّر يالوم هذا الحلم بأنه حلم «يتحدّى الموت»، محاولة لإلغاء الموت. للحلم معنى آخر، معنى وثيق الصلة بالمعنى الأول، وهو الحاجة إلى تذكّر الموتى. فقد نادت أمي اسمي لتقول لي: «تذكّرني، تذكّرنا كلنا، لا تدعنا نموت ونتلاشى». وهكذا فعلت.

«تذكّرني»

بعد استخدام عبارة «تذكّرني» مباشرة، يتذكّر يالوم مثالًا مذهلًا عن النسيان. فعندما كان يكتب رواية «عندما بكى نيتشه» كتب بضعة أبيات بسيطة يردّدها فيلسوفه المتخيّل عندما زار المقبرة: حتى توضع حجرة فوق حجرة/ ومع أنها لا تستطيع أن تسمع/ ولا تستطيع أن ترى شيئًا/ فكل واحدة منها تبكي بصمت، وتقول: تذكّروني، تذكّروني». يقول يالوم: «كتبتُ هذه الأبيات لرواية «عندما بكى نيتشه» بسرعة، ودغدغتني فكرة نشر الجزء الأول من قصيدتي. وبعد سنة تقريبًا، توصلت إلى اكتشاف غريب. فقد كانت جامعة ستانفورد تنقل قسم الطب النفسي إلى مبنى جديد، وفي أثناء عملية النقل، وجدت سكرتيرتي خلف خزانة ملفاتي مغلفًا كبيرًا مختومًا، اصفرّ لونه بفعل الزمن، كان قد سقط وراء الخزانة منذ زمن بعيد.

ووجدت في المغلف مجموعة قصائد ضائعة كنت قد كتبتها على مدى سنوات خلال فترة مراهقتي وبداية سن البلوغ. وكان من بين هذه القصائد هذه الأبيات التي تتطابق كلمة بكلمة مع القصيدة التي ظننت أنني كتبتها من أجل الرواية، لكنني، في الواقع، كنت قد كتبتها قبل عقود عدة عندما مات والد خطيبتي. لقد انتحلتُ نفسي».

الحياة تحاكي الخيال

يشكّل التذكّر جوهر كتاب «التحديق إلى الشمس»، وربما كانت اللحظة الأكثر تأثيرًا في الكتاب هي اللحظة التي كتب فيها يالوم كيف تمكن من التغلب على قلق الموت الذي كاد أن يشلّ حركته. «منذ بضع سنوات شعرت بألم شديد في وركي، فذهبت لاستشارة جرّاح عظام طلب مني أن أجرى صورة أشعة سينية. وعندما فحصنا صورة الأشعة معًا، كان غبيًّا وعديم الإحساس عندما أشار إلى بقعة صغيرة في صورة الأشعة السينية وعلّق بطريقة واقعية، من طبيب إلى طبيب، بأنها قد تكون آفة منتشرة - بعبارة أخرى، حكم بالإعدام. وطلب أن أجري تصويرًا بالرنين المغناطيسي، ولأنه كان يوم الجمعة، لم يكن من الممكن إجراء التصوير إلّا بعد ثلاثة أيام. وخلال الأيام الثلاثة المؤلمة تلك، احتل الوعي بالموت تفكيري. ومن بين جميع السبل المختلفة التي حاولت أن أجد فيها راحة، وجدت أن أنجع طريقة وأكثرها فعالية - بشكل غريب - أن أقرأ روايتي التي كنت قد أنهيت كتابتها للتو «علاج شوبنهاور»، عندما بدأ بطل الرواية الذي يوشك على الموت، جوليوس، يعيد قراءة «هكذا تكلم زرادشت» ويمعن في فكرة نيتشه عن العود الأبدي. يفكّر جوليوس في تحدّي نيتشه، كما يخبرنا يالوم في «التحديق إلى الشمس»، ويدرك أنه، نعم، سيعيش حياته مرة أخرى بنفس الطريقة إذا استطاع، دون أي ندم. لقد أتاحت لي قراءة كلماتي الراحة التي كنت أبحث عنها. أكمل حياتك. حقق إمكاناتك. فهمت الآن نصيحة نيتشه على وجه أكمل، فقد أرتني الشخصية التي رسمتها، جوليوس، الطريق، وهو مثال قوي وغير عادي للحياة التي تحاكي الخيال».

الفصل الثاني عشر

مشكلة سبينوزا:
«مهدئ لعواطفي»

صدرت رواية «مشكلة سبينوزا» في عام ٢٠١٢ عندما بلغ يالوم الحادية والثمانين من عمره، وهو عمر توقف فيه معظم الروائيين عن الكتابة. (فقد أعلن فيليب روث عندما بلغ الثمانين من عمره أنه لم يعد يرغب في كتابة الروايات). تُعد مشكلة سبينوزا أكثر روايات يالوم طموحًا واتساعًا، وتقدّم لمحة عن أحد أكثر الفلاسفة غموضا في العالم. كُتبت دراسات سيرة ذاتية عديدة عن شوبنهاور ونيتشه، وتسلّط أعمال ورسائل هذين الفيلسوفين الضوء على حياتهما الداخلية، بينما لا نكاد نعرف شيئًا عن حياة سبينوزا الشخصية.

في مقابلة مع غاري بريسلي عام ٢٠١٢ قال يالوم إن رواية «مشكلة سبينوزا «أصعب مشروع كتابي واجهته، وقد استغرقت في كتابتها أربع سنوات من البداية إلى النهاية. «عند صياغة الحبكة، لم يخطر ببالي أن رواية تدور أحداثها في فترتين زمنيتين ستضاعف فترة البحث. فقد أجريت معظم أبحاثي من خلال القراءة ومساعدة زملائي في قسم الفلسفة في ستانفورد، وزملائي في أماكن أخرى في الولايات المتحدة وهولندا وألمانيا».

جادل سبينوزا، العقلاني الأسمى في الفلسفة، بأن أفضل وسيلة لتحقيق السعادة والإنجاز تكمن في التغلب على ما نسميه الهوية والذاتية، وتبني بدلًا من ذلك موقف sub specie aeternitatis، أي النظر إلى الذات من منظور الخلود. لكن كيف يستطيع الروائي أن يجسّد الخلود؟ كيف يستطيع المرء أن يستوعب رحابة الكون من دون أن يفقد إحساسه بأنه إنسان؟ كيف يمكن للروائي أن يبدأ في تخيّل الحياة الداخلية لشخص أصرّ، كما فعل سبينوزا، على حذف جميع الدلائل والإشارات الشخصية في رسائله بعد موته؟ باختصار، كيف استطاع سبينوزا أن ينأى بنفسه عن عالم العواطف ويعيش في سمّو عالم العقل الخالص؟

لا تُعرف أمور كثيرة عن حياة سبينوزا اليومية التي عاشها في هولندا في القرن السابع عشر، سوى أن الطائفة اليهودية في هولندا قد نبذته، وأنه نجا من محاولة اغتيال، وانسحب من الحياة العامة، وتبنّى حياة العزلة، وعمل في صقل العدسات، وواصل كتابة نصوص مثيرة حتى نهاية حياته، ومات فجأة في عام ١٦٧٧ وهو في الرابعة والأربعين من عمره. وعلى الرغم من عدم معرفة الكثير عن حياة سبينوزا الخاصة، فقد وجد يالوم نفسه منجذبًا إليه، جزئيًّا لأن سبينوزا كان فيلسوفًا عظيمًا بشّر بالتنوير وبالعصر الحديث، وجزئيًّا لأنه كان عالمًا نفسيًّا ذكيًّا سبق شوبنهاور ونيتشه وفرويد. كان الفيلسوف الهولندي بطل ألبرت أينشتاين الذي زار متحف سبينوزا في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٠، وأُغرم في هذا المفكر، وقال إنه يعتبر نفسه تلميذًا له. وكان أينشتاين بدوره أحد أبطال يالوم الأوائل. أظن أن أحد الأسباب الأخرى التي جذبت سبينوزا إلى يالوم هو تأكيد الفيلسوف على «النبل» (الذي يُترجم أيضًا إلى سُمُوُّ الأخلاق)، «الرغبة التي يسعى إليها كل فرد، انطلاقًا من منطق العقل وحده، لمساعدة الآخرين وضمهم إليه في صداقة» (قارئ سبينوزا).

فيلسوف غامض

تمثّل التحدّي في كتابة رواية عن سبينوزا في أنه كان، على حد تعبير وينستون تشرشل في سياق مختلف، «لغزًا محاطًا بالغموض داخل أحجية». وما يزال الدارسون يتناقشون حول معنى آراء سبينوزا اللاهوتية الراديكالية. هل كان، كما صرح مرات عديدة، مفكرًا متدينًا جدًّا يؤمن بأن «الطبيعة هي الله، والله هو الطبيعة»؟ أم كان، كما زعم خصومه، ملحدًا مخادعًا وصوفيًّا مستترًا؟

كانت معتقدات سبينوزا هرطقية حتى إنه طُرد نهائيًّا من المجتمع اليهودي وهو في الثالثة والعشرين من عمره، ومُنع من التواصل مع أي شخص

يهودي: عائلته، أصدقاؤه، عملاؤه التجاريين، أي شخص. وبعد أن رفضه اليهود، وشككّ فيه المسيحيون، أعاد سبينوزا تعريف وجوده عندما عاش في منفى طوعي وقَبِل النبذ بهدوء مميّز، معتقدًا أن النبذ الذي لم يسبق له مثيل من حيث مدته وشدته، كان باتجاه الأفضل. لكن إذا لم يكن سبينوزا قد شعر بأي صراع حول نبذه ونفيه مدى الحياة من العالم الذي نشأ فيه، وإذا كان حريصًا جدًّا على عدم الكشف عن حياته الداخلية، فكيف يمكن لروائي أن يكتب عنه؟ فالصراع ضروري في القصة، ومن دون صراع، لا يوجد فن. يعترف يالوم بأسف أنه ظلّ لسنوات عاجزًا عن كتابة قصة عن رجل سعى إلى صقل نفسه من خلال كتاباته الفلسفية.

على مستوى ما، يبدو من الواضح أن مشكلة سبينوزا تدور حول الصعوبة التي وجدها يالوم في استحداث الشخصيات والحبكة اللازمة لكتابة رواية.

زعيم الرايخ ألفريد روزنبرغ

ظلّ يالوم يفكّر في هذا الفيلسوف حتى زار متحف سبينوزا في رنسبرخ، وهي قرية صغيرة خارج مدينة لايدن في هولندا، حيث عاش سبينوزا من عام ١٦٦٠ إلى عام ١٦٦٣، وأوحت له بفكرة الرواية. في البداية، شعر يالوم بخيبة أمل لأن مكتبة سبينوزا المكوّنة من ١٥٩ مجلدًا لم تكن سوى نسخ غير أصلية - فقد بيعت جميع ممتلكات الفيلسوف في مزاد بعد وفاته - لكن مضيفه أخبره أن القوّة الألمانية ERR في أوائل الحرب العالمية الثانية صادرت كل شيء في المتحف، بما في ذلك كتب سبينوزا. أثار ذلك فضول يالوم، فسأل عن معنى الحروف ERR فعلم أنها القوّة الضاربة لزعيم الرايخ روزنبرغ - ألفريد روزنبرغ، النازي، المنظّر المعادي للساميّة - المسؤولة عن أعمال النهب في الرايخ الثالث».

الغريب أن النازيين لم يحرقوا الكتب التي عادت جميعها بأعجوبة إلى متحف سبينوزا بعد الحرب. لكن لماذا تكبّد النازيون عناء سرقة كتب

سبينوزا في حين كان بإمكانهم الاستيلاء على أشياء أكثر قيمة، مثل لوحات رامبرانت؟ وكما أوضح مضيف يالوم «أبدت القوة بقيادة روزنبرغ اهتمامًا غامضًا بسبينوزا. ففي تقريره الرسمي، أضاف الضابط النازي الذي أشرف شخصيًّا على عملية نهب المكتبة، التابع لقوة روزنبرغ، جملة هامة. فقد قال: «إنها تضم أعمالًا مبكرة ثمينة ذات أهمية كبيرة لاستكشاف مشكلة سبينوزا». لم يستطع يالوم التوقف عن التفكير في مشكلة سبينوزا، وبدأ كتابة الرواية بعد ذلك بفترة قصيرة.

لم يعثر يالوم قط على أي دليل تاريخي يربط بين روزنبرغ وسبينوزا. يشرح يالوم في «حقيقة أم خيال؟ وضع الحقيقة في نصابها» أن كل فقرة في الرواية تربط بين الرجلين هو من ضرب الخيال، بما في ذلك زيارتا روزنبرغ لمتحف سبينوزا في رنسبرخ بهولندا. بُنيت حبكة رواية «مشكلة سبينوزا» بعناية شديدة بحيث يسهل على القارئ تصديق أن هاتين الزيارتين دقيقتان تاريخيًّا - كما افترضتُ، وأعترف بذلك بشيء من الخجل، حتى أشار يالوم بلطف إلى قراءتي الخاطئة.

لم يكن إيجاد حلّ لمشكلة سبينوزا مهمة سهلة، لأن ذلك يعني أنه كان على يالوم أن يتخيّل الحياة الداخلية لفيلسوف هولندي غامض ومفكّر نازي متهم بارتكاب جرائم مروعة ضد الإنسانية. روزنبرغ أكثر شخصيات يالوم شرًّا. ويتطلب فهم هذه الشخصية البصيرة والتعاطف. وبما أن رواية «مشكلة سبينوزا» رواية علاجية، تدور حول محتوى وعملية العلاج، كان على يالوم أن يخلق شخصية تتجاوز قدرتها التدميرية أي شخصية أخرى تخيّلها الروائي حتى ذلك الحين، لكنها تظل معقولة ويمكن علاجها. وتُعد رواية «مشكلة سبينوزا» أكثر روايات يالوم قتامة، قصة يكون فيها العلاج بالحوار عاجزًا أمام الشر.

في أثناء التخطيط للرواية، ربط يالوم بين شخصيتين تاريخيتين تفصل بينهما ثلاثمائة سنة. فقد كان القرن السابع عشر عصر محاكم التفتيش، عندما أُجبر آلاف اليهود في إسبانيا والبرتغال على اعتناق المسيحية أو الفرار من

ديارهم وثقافاتهم، أما الذين لم يفعلوا ذلك، فقد كان مصيرهم الاستشهاد والحرق. وعاش المتحوّلون الجدد، أو الكونفيرسوس كما كان يُطلق عليهم، في ظلّ الشك والخوف والمراقبة المستمرة. وكان أي شخص اعتنق المسيحية يُظهر علامات تشي بالعودة إلى اليهودية يعاقب بالإعدام. فهرب عدد كبير من اليهود من شبه الجزيرة الأيبيرية إلى أمستردام، المدينة الأكثر تسامحًا في أوروبا، لكن كان عليهم أيضًا توخي الحذر، لأن ثمن القبول كان عدم الإدلاء بأي تصريح يمكن أن يُنظر إليه بأنه يقوّض الإيمان بالله، أو قدسية الكتاب المقدس، أو وجود حياة بعد الموت.

وحُرم اليهود الذين تحدّوا الأرثوذكسية الحاخامية، مثل سبينوزا، من الطائفة. وفُرض الحرمان على سبينوزا في الذي يقتبسه يالوم بدقة:

«باسم الملائكة وباسم القديسين والأحبار، فإننا نحرم، ونطرد، ونلعن، وندين باروك سبينوزا، بموافقة الرب تبارك اسمه، وباتفاق جميع أعضاء الطائفة المقدّسة، وأمام هذه اللفائف المقدّسة التي تضم ٦١٣ مبدًا ووصية، فإننا نلعنه بالحرمان والطرد كما لعن يشوع كل من يأتي ويبني أريحا، وكما لعن أليشع الأولاد الصغار، وبكلّ العقوبات المدوّنة في كتاب الشريعة».

بُذرت بذور الحل النهائي لهتلر تجاه اليهود في محاكم التفتيش ولغة الحرمان الكنسي. كانت محاكم التفتيش الإسبانية البرتغالية في القرن السابع عشر كارثة لم تتجاوزها سوى كارثة الهولوكوست التي لا يمكن تصورها في القرن العشرين.

شخصيتان مُختلقتان

من أجل كتابة رواية يمكن أن تكون قد حدثت، يقول يالوم في «حقيقة أم خيال؟ وضع الحقيقة في نصابها» «اختلقت شخصيتين هما: فرانكو بنيتيز وفريدريش بفيستر، ليكونا بمنزلة مدخل إلى نفسيّة أبطالي. وبالطبع، فإن جميع المشاهد التي ظهرا فيها هي من نسج الخيال». وكما ذكر كتّاب السيرة

الأوائل، فقد تعرّض سبينوزا التاريخي للخيانة على يد رجلين مجهولي الاسم، يُدعيان في الرواية فرانكو بينيتيز وابن عمه جاكوب ميندوزا، يُشركان الفيلسوف الشاب في نقاش ديني للكشف عن آرائه الهرطقية ونقلها إلى السلطة الدينية العليا في أمستردام، الحاخام شاول ليفي مورتيرا. وبخلاف ابن عمه الذي سرعان ما اختفى من القصة، كان فرانكو جاسوسًا مترددًا، وبعد نبذ سبينوزا من المجتمع اليهودي، ظلّ مخلصًا للفيلسوف في السرّ. وتتطور علاقتهما إلى صداقة دافئة وموثوقة تتحقق بالكامل.

يؤدي سبينوزا دور المعلّم والصديق وعالم النفس لفرانكو، لكن كما هو الحال في روايات يالوم الأخرى، يظهر مبدأ التبادلية: فغالبًا ما يتبادل المعلمون والطلاب، والموجهون والمتدربون، والمعالجون والمرضى الأدوار. كانت لدى سبينوزا التاريخي، الثوري في أفكاره المتعلقة بالدين والفلسفة والديمقراطية، آراء تقليدية عن النساء اللواتي يرى أنهن يفتقرن إلى ذكاء الرجال، وبالتالي، ينبغي ألّا يتمتعن بنفس حقوق وامتيازات الرجال. ومن أجل فهم حياة سبينوزا الداخلية وعالمه العاطفي، استخدم يالوم فرانكو لكشف نقاط ضعف الفيلسوف. وقد جسّد فرانكو الذي لم يستطع أن يغيّر رأي بينتو، موقفًا أكثر تقدمية، مستشرفًا النسوية وإصلاح اليهودية. ومكّنت علاقة سبينوزا بفرانكو يالوم من استكشاف الاستخدامات العلاجية لأعمال الفيلسوف، كما خدمت أعمال شوبنهاور كاستشارة فلسفية لفيليب سليت. وبخلاف سليت الذي تلّقى ترياقًا في رواية «علاج شوبنهاور»، لم يتضرر فرانكو قط من نصائح سبينوزا، لكنه شعر بالحيرة والارتباك من بعض المعتقدات البديهية للفيلسوف. فلم تكن آراء سبينوزا نفس آراء فرانكو، وأبرز يالوم الاختلافات بينهما في نهاية الرواية.

ومن أجل فهم حياة روزنبرغ الداخلية، وهو أمر لم يحاول أي روائي أن يفعله، ابتكر يالوم شخصيته الثانية البارزة، وهي المحلل النفسي الألماني فريدريش بفيستر الذي أظهر مشاعر النازي المستقبلي حول مجموعة واسعة من الموضوعات. (لعل جائزة أوسكار بفيستر التي حصل عليها يالوم

من الجمعية الأمريكية للطبّ النفسي في عام ٢٠٠٠ هي التي ألهمت اسم عائلة المحلل المتخيل[٥]). في بداية الرواية، كان فريدريش طالب طب شاب وصديق لأخ ألفريد روزنبرغ الأكبر. يرى فريدريش ألفريد روزنبرغ لأول مرة وهو شاب غاضب ومشوش، يبحث عن هويته، قبل انضمامه إلى الحزب النازي. ثم حاول فريدريش فهم علاقة روزنبرغ المعقدة مع هتلر وجراحه النرجسية العميقة. ظل فريدريش طوال الرواية شخصية متعاطفة، يمارس شكلًا مبكرًا من أشكال الطب النفسي الوجودي.

مع أن النازيين جنّدوه لاحقًا وأصبح طبيبًا برتبة عقيد في الجيش الألماني (الفيرماخت) كان فريدريش ينفر من فكرة معاداة السامية، لكنه أُرغم على إطاعة الأوامر و«عالج» روزنبرغ عندما أصيب باكتئاب حاد. كان فريدريش يفهم نفسية روزنبرغ المراوغة جيدًا، لكن كيف يمكن لمعالج نفسي أن يعالج مريضًا معاديًا للسامية يعرف أن الذي ابتكر العلاج بالكلام كان يهوديًا مكروهًا؟ ولماذا يكون نازيًا مهووسًا بفيلسوف من القرن السابع عشر كان يهوديًا حقيرًا؟ هذه الأسئلة هي محور حبكة الرواية.

دمج القصتين

كتب سبينوزا عدة كتب، منها «رسالة في اللاهوت والسياسة»، وهو سرد سهل القراءة يورد فيه آرائه عن الدين والفلسفة السياسية. كان سبينوزا سابقًا لعصره في الدعوة إلى الفصل التام بين الكنيسة والدولة. أما أكثر أعماله تأثيرًا فهو كتاب «الأخلاق» الذي يشوبه الغموض، والذي كُتب في صيغة برهان إقليدي. انتهى كتاب «الأخلاق» في عام ١٦٧٤ ونُشر بعد وفاته في عام ١٦٧٧، وهو بيان عن الميتافيزيقا بقدر ما هو بيان عن الفلسفة الأخلاقية. واعتمد يالوم على كلا النصين الأساسيين اللذين كتبهما سبينوزا. وكان كتاب «الأخلاق» الأساس الذي استند إليه برتراند راسل في وصف

---

٥ كتب لي يالوم: «تخمين مثير للاهتمام. لم يخطر ذلك ببالي قط».

سبينوزا بأنه «أنبل الفلاسفة العظماء وأكثرهم محبةً. تفوّق عليه آخرون فكريًّا، لكنه أسمى منهم أخلاقيًّا».

حرص يالوم دائمًا على الإشارة إلى مصادره، وإلى ريبيكا غولدشتاين، أكثر الباحثين الذين يدين لهم بالفضل، مؤلفة كتاب «خيانة سبينوزا» الذي نُشر عام ٢٠٠٦. فقد قدّمت غولدشتاين، الفيلسوفة والروائية الحائزة على جائزة ماك آرثر «العبقرية»، وصفًا شخصيًّا قويًّا عن عظمة سبينوزا. وهي لم تحاول أن تكشف عن حياة سبينوزا الداخلية، كما فعل يالوم، لكنها سعت إلى اكتشاف «نبض الذاتية الذي يخفق داخل البنية البلورية للموضوعية الراديكالية»، مشروع يرقى إلى ما تصفه باعتذار «بخيانة سبينوزا». ومثل يالوم، كانت غولدشتاين متناقضة، وألقت الضوء على جانب بارز من حياة سبينوزا وعمله. تكتب غولدشتاين أن سبينوزا، في محاولته «التفكير في نفسه خارج المعضلات الرهيبة للهوية اليهودية، فهو، بشكل متناقض، يهودي في جوهره، جوهر استلزم أن ينكر شيئًا مثل الجوهر اليهودي». لم يبدأ الباحثون إلّا الآن استكشاف الهوية اليهودية لسبينوزا. مستشهدًا بملاحظة يوسف هـ. يروشالمي بأن سبينوزا هو «أول بطل ثقافي عظيم لليهود العلمانيين المعاصرين»، أضاف دانيال ب. شوارتز أن سبينوزا «ما يزال المرشح الأكثر ذكرًا للقب أول يهودي علماني معاصر».

لا يأتي يالوم على ذكر كتاب أنطونيو داماسيو «البحث عن سبينوزا» (٢٠٠٣)، وهو دراسة متعمقة لنظرية الفيلسوف حول التأثير الوجداني. يرى داماسيو، أحد أبرز أطباء الأعصاب في العالم، أن سبينوزا أحد رواد علم الأحياء صاغ نظامًا أخلاقيًّا يستند إلى الحاجة إلى الحفاظ على حياة الفرد وتعزيز حياة الآخرين في الوقت نفسه. ومثل أينشتاين قبله ويالوم بعده، كتب داماسيو عن رحلته إلى رنسبرخ ليتعرّف أكثر على حياة سبينوزا. وأُغرم داماسيو أيضًا بالفيلسوف الذي يرى أنه رائد الفكر البيولوجي الحديث، مع أنه خلص إلى استنتاج محبط: «ثمة شيء فيه لا يخضع للتدقيق، ولا تهدأ الغرابة التي تحيط به أبدًا».

أما ألفريد روزنبرغ، فإنه تُعرف عنه أشياء كثيرة. فهو مؤلف كتاب «أسطورة القرن العشرين» الذي أصبح من أكثر الكتب مبيعًا في ألمانيا النازية، وحلّ في المرتبة الثانية بعد كتاب هتلر «كفاحي». وكتب روزنبرغ عدة كتب أخرى، بما فيها مذكراته. وتُعدُّ رواية «مشكلة سبينوزا» سردًا مثيرًا عن صعود وسقوط ليس ألفريد روزنبرغ فقط، وإنما الأيديولوجية الخبيثة التي ابتكرها وجسّدها ونشرها أيضًا. ومع أنه كُتبت كتب كثيرة عن هتلر، ورغم ورود ذكر روزنبرغ كثيرًا في هذه الدراسات، لم يحاول أحد تقديم تحليل داخلي عن حياته.

ومثل رواية «علاج شوبنهاور»، فإن رواية «مشكلة سبينوزا» توازي قصة نمو وتطور فيلسوف مثير للجدل بالإضافة إلى قصة شخص يعيش في فترة تاريخية لاحقة بكثير، ويسعى لمعرفة المزيد عن حياة الفيلسوف. توجد اختلافات صارخة بين العصر الذهبي لأمستردام وألمانيا النازية، لكن كتابات سبينوزا أثارت انتقادات عنيفة في كلتا الفترتين التاريخيتين. ومع أن كتب سبينوزا مكتوبة باللغة اللاتينية، فقد أُدرجت في قائمة الكتب المحظورة ف الكنيسة الكاثوليكية وحظرتها السلطات الهولندية. وتكمن إحدى المفارقات في حياة سبينوزا في أن مؤلف هذه الكتابات المثيرة للجدل لم يكن جدليًّا ولم يكن مثيرًا للخلاف في حياته الخاصة.

تتألف رواية «مشكلة سبينوزا» من ثلاثة وثلاثين فصلًا، يلي كل فصل تتناول سبينوزا فصلًا آخر يتناول روزنبرغ. إن التجاور المستمر بين القرنين السابع عشر والعشرين يُجبر القارئ على تتبع العلاقات المتبادلة بين القصتين. يقول فرانكو لبنيتو: «لكن من الأفضل أن تُحكى القصص من بدايتها لا من نهايتها ونرجع إلى الوراء». ويمكن تفسير القصص بشكل أفضل عندما تُروى بشكل منفصل بدلًا من أن روايتها معًا. لذلك، سأتناول قصة سبينوزا أولًا، ثم أنتقل إلى قصة روزنبرغ المقابلة. لا تظهر العديد من التقاطعات الدقيقة بين القصتين إلَّا في القراءة الثانية. تقدّم لنا الرواية تاريخًا وسيرة ذاتية مزدوجة، تُظهر كيف عاش سبينوزا وروزنبرغ في عالمين متوازيين، لكنهما

يتصادمان أحيانًا. وتواجه كلا الشخصيتين مُشكلات مماثلة تتمثّل في فقدان الأم في سن مبكرة، لكنهما اختارا حلولًا نفسية مختلفة غيّرت حياتهما ومسار التاريخ.

تغطي رواية يالوم ثلاثمائة عام من التاريخ السياسي والثقافي المضطرب، وتكشف كيف ظل سبينوزا يمثّل مشكلة عميقة لأسباب مختلفة. فهو كافر في نظر أقرانه، ومفكّر عميق اكتشف مهدئًا للعواطف في نظر غوته وكتّاب ألمان آخرين في عصر التنوير، أما في نظر روزنبرغ، فهو شخص مستحيل، عبقري، يهودي، وفي زمننا هذا، فإنه ما يزال يشكّل لغزًا، رجلًا استكشف بهدوء مياه العقل المجهولة، في رحلة ما تزال تُحدث صدمات عاطفية لقرائه. توضح رواية يالوم كيف يمكن أن يبدو العلاج السبينوزي، ويُظهر لنا الروائي أولًا تطور أفكار سبينوزا نصف الوليدة، ثم ينقل دراما الولادة الفكرية العالية، بما في ذلك وصف القوى التي كادت أن تنجح في إجهاض الإبداع الجديد. ويقترح يالوم، عند اقتراب نهاية الرواية، كيف يسعى فريدريش إلى إشراك محلّله المتردد في الاستشارة الفلسفية. لا شك في أن فريدريش سيفشل في جهوده العلاجية، لكن ما يميّز الرواية مدى توقع العلاج السبينوزي للعديد من الأفكار المعاصرة حول الشفاء.

ماذا يعني الاسم؟

لم يختر سبينوزا اسمه الأول أو اسم عائلته، لكن لا يوجد فيلسوف آخر يحمل لقبًا ملائمًا أكثر منه. فاسمه العبري، باروخ، ويعني «المبارك»، وهو ما يعبّر عنه أيضًا اسمه البرتغالي واللاتيني، بينتو وبينديكتوس، على التوالي. إنه اسم مثالي لأن هدف الحياة، في رأيه، يكمن في البحث عن البركة والكمال. يطلق يالوم على بطل روايته اسم «بينتو»، كما سأفعل أنا، ويحتفظ باسم «سبينوزا» للفيلسوف التاريخي. إن الاسم «دي سبينوزا» المشتق من البرتغالية (D»espinhosa) الذي يعني «من مكان شائك». ربما لا يوجد

فيلسوف منذ سقراط أكثر إزعاجًا للسلطات الدينية والمدنية التي حظرت كتاباته ووضعته تحت المراقبة. يواصل علماء سبينوزا مناقشة معنى عمله، «مشكلة سبينوزا». يقول غولدشتاين: «إن اسم سبينوزا مناسب بشكل غريب. سبينوزا، بوصفه يهوديًّا، يقدّم لنا نفسه مزدانًا بتاج من الأسئلة الشائكة الأبدية».

لم يجد القراء في كتابات سبينوزا أي شيء مبارك. في مقدمة كتابه «رسالة في اللاهوت والسياسية» (المعروف أيضًا باسم Tractatus Theologico-Politicus)، يوجه براد س.غريغوري الانتباه إلى العداء، وحتى الاشمئزاز الذي أثاره الكتاب فور نشره في عام ١٦٦٩ أو عام ١٦٧٠. وقد نُشر الكتاب باللغة اللاتينية وليس باللغة الهولندية، لأن سبينوزا خشي أن يُحظر الكتاب رسميًّا إذا نُشر باللغة الدارجة، وأثار الكتاب «بعضًا من أكثر ردود الفعل عنفًا تجاه أي عمل منشور في القرن السابع عشر».

ولاسم روزنبرغ أهمية أيضًا، وإن كان من نوع مختلف. يلقي في بداية الرواية خطابًا انتخابيًّا معاديًّا للسامية في المدرسة الثانوية يسيئ فيه إلى مدير المدرسة إبشتاين. يقول إبشتاين الذي لم يكن معاديًّا للسامية إنه هو وزوجته «ألمانيان نقيان» على الرغم من اسميهما اللذين يبدوان اسمين يهوديين. وبّخ المدير روزنبرغ بشدة وشرح له أنه بعد أصدرت الحكومة قوانين في أواخر القرن الثامن عشر لجعل اليهود مواطنين ألمان، لا يستطيع أحد التأكد من الهوية الدينية أو العرقية لاسم ما. وإذا رفض اليهود دفع ثمن اسم تقليدي، فإنهم سيحصلون على لقب سخيف، مثل «شموتزفينغر» أو «دريكلكر»، ويقول إبشتاين للطالب الغاضب إن «روزنبرغ» اسم ألماني قديم، لكنه أصبح اسمًا يهوديًّا شائعًا في أنحاء البلاد خلال القرن الماضي، وحذّر المدير روزنبرغ وقال: «أؤكد لك بأنك إذا قمت، أو عندما تقوم برحلة إلى أرض الأجداد، فإنك سترى نظرات وابتسامات، وستسمع إشاعات عن وجود أسلاف يهود في سلالتك».

سبينوزا في رواية يالوم

بصورة عامة، يتجنب يالوم التكهن حول طفولة سبينوزا ومراهقته، جزئيًّا لأننا لا نعرف شيئًا تقريبًا عن هذه الفترة الغامضة من حياة الفيلسوف، وجزئيًّا لاعتقاد يالوم بأن وجود المرء في الحاضر يقدّم أدلة قيّمة عن ماضيه. تدور أحداث معظم قصة سبينوزا في الرواية في عام ١٦٥٦، وهو العام المصيري الذي نُبذ فيه من المجتمع اليهودي ونُفي من أمستردام. في بداية الرواية، يشعر بينتو بخطر محدق، وبحكم طبيعته الحذرة، يدرك أن في «المبارزة الغريبة بين العقل والعاطفة»، يكون الأول دائمًا في وضع أضعف، ونذر نفسه لأن يعيش حياته بصدق، وهو قرار يتعارض مع الحيطة والحذر.

يتمتع سبينوزا في رواية يالوم بقدرة لا توجد في شخصيتيه الخياليتين شوبنهاور ونيتشه، وهي القدرة على فصل نفسه عن مشاعره من خلال التأمل. تحدث هذه القدرة لأول مرة بعد محادثة مزعجة مع شقيقه غابرييل حول التناقضات الداخلية والتضارب في التوراة العبرية. «فقد بدأ مؤخرًا يمارس التأمل وأصبح بوسعه أن يفصل نفسه عن سير تدفق أفكاره ويرى عقله مثل خشبة مسرح وهو أحد المشاهدين يرى العرض أمام عينيه». لا يتخذ تأمل سبينوزا شكل غيبوبة أو تواصل صوفي أو تنويم مغناطيسي ذاتي، ولا يمكن اختزال قدرته إلى آلية دفاع نفسية كالإنكار أو شكل من أشكال الانفصال. لا يوجد ثمة دليل على أن سبينوزا اكتسب هذا الانفصال عن الذات من دراسة الروحانية الشرقية، بل إن التأمل أو اليقظة الذهنية هي تقنية تساعد على تهدئة الذات التي تمكّنه من تحقيق الطمأنينة الداخلية.

منحته اليقظة الذهنية نضجًا لم يختبره شوبنهاور ولا نيتشه حتى عندما كانا أكبر سنًا منه بكثير. وبعد أن حذّره اليسوعي السابق فرانسيسكوس فان دن إندن الذي سيعلّمه لاحقًا اللغة اللاتينية والأعمال الكلاسيكية من أن السلطات الحاخامية قد تنصب له فخًا، تجاهل بينتو التحذير الأبوي الودّي

عندما سأله جاكوب بحضور ابن عمه سلسلة من الأسئلة التي تدينه لاختبار أرثوذكسيته الدينية. يتولّى جاكوب معظم الحديث، بينما يبدو فرانكو قلقًا، غير سعيد بمشاركته في الاستجواب. يقول جاكوب لبنتو: «لم يعد فرانكو يؤمن. أصبح يشكّ في كلّ شيء: أصبح يشكّ بجميع الطقوس الدينية، بالصلاة، بل حتى بوجود الله. وتراه خائفًا طوال الوقت. فلم يعد يغمض له جفن، ويتحدّث كثيرًا عن الانتحار». كان تفسير جاكوب في الأساس ذريعة. كان السبب الحقيقي لتورط جاكوب وابن عمه بنتو أنه أساء إلى عمه المستبد، دوارتي رودريغيز، لأنه قاضاه في محكمة مدنية هولندية بدلًا من مقاضاته في محكمة يهودية محلية، كما كانت العادة في ذلك الوقت. وإذا لم يوافق جاكوب وفرانكو على مساعدة رودريغيز عديم الضمير، فسوف يبذل كل ما في وسعه لتطارد محاكم التفتيش عائلة ابن عمه في البرتغال وتُقتل كما قُتل والد فرانكو.

عالم نفس مبكّر

من سخرية القدر أن فرانكو كان يشعر بالقلق والاكتئاب والخوف بسببه شكوكه المزعجة حول الدين. ومدركًا أن جاكوب لم يسمح لابن عمه أن يتكلم، سأل بنتو فرانكو عن سبب انزعاجه، فأجابه، «من الشكّ. تتملكني مشاعر قوية أخشى أن أصفها، حتى لك». فأحابه بينتو بنبرة معالج متعاطف، «ثق بي حتى أفهم مشاعرك وثق بأني لن أطلق عليك أية أحكام». هدّأ بينتو فرانكو، وقال له: «لنر إن كان هناك سبب معقول لخوفك. فكّر في هاتين الحقيقتين: الأولى، هي أنني لا أشكّل أي تهديد. أعدك بأنني لن أكرّر كلماتك أبدًا. بالإضافة إلى أنني أنا أيضًا، أشكّ بأشياء كثيرة. حتى إنني قد أشاطرك بعض المشاعر التي تنتابك، والثانية، لا يوجد أي خطر يهددك في هولندا، لأنه لا توجد محاكم تفتيش هنا. لا في هذا المحل ولا في هذه الطائفة، ولا في هذه المدينة، ولا حتى في هذا البلد. ألا تعرف أن أمستردام استقلّت عن أيبيريا منذ سنوات عديدة؟»

يتمتع سبينوزا في رواية يالوم، مثل الفيلسوف التاريخي، بفهم مذهل للا وعي الفرويدي، مستودع العواطف الخفيّة التي تحتوي على القوة التي تغلب العقل. ومع ذلك، يحتفظ كلّ من سبينوزا المتخيّل والتاريخي بإيمانهما بقوة العقل لإخضاع الجانب غير العقلاني المتمرّد للوجود. عندما يلاحظ فرانكو أن الرعب يمنعه من أن يتكلّم، ردّ بينتو بأنه لا يوجد شيء مرعب جدًّا لا يمكن أن يتحمله العقل. «تشجّع»، صاح مشجّعًا فرانكو على أن يعترف بأزمته الروحية والوجودية التي جعلته مشلولًا، وشكوكه المتزايدة حول الطقوس اليهودية والمسيحية التي أُجبر على المشاركة فيها.

تظهر رؤى سبينوزا النفسية بشكل أفضل في كتاب «الأخلاق» الذي قرأه يالوم بعناية ودمجه في الرواية. في الجزء الأول، «عن الله»، يطرح سبينوزا نظرية نفسية تحليلية مذهلة عن الحتمية النفسية. «يظن الناس أنهم أحرار لأنهم يعون إرادتهم وشهواتهم، ولا يفكّرون، حتى في أحلامهم، في الأسباب التي تجعلهم يميلون إلى الرغبة والإرادة، لأنهم يجهلون [تلك الأسباب]». وفي الجزء الثاني، «عن طبيعة العقل وأصله»، يطرح سبينوزا نظرية الأسباب المتعددة التي تشبه ما أطلق عليه فرويد اسم «الحتمية المفرطة»، حيث توجد شبكة معقدة من الأسباب. «لا توجد في العقل إرادة مطلقة أو حرة، بل تتحدد رغباته بسلسلة من الأسباب المتلاحقة إلى ما لا نهاية». تكمن الحرية بالنسبة إلى سبينوزا في معرفة سبب تصرفاتنا لكي نتمكن من التحكم بأفعالنا. ويحتوي الجزء الثالث من كتاب «الأخلاق»، «أصل الانفعالات والعواطف وطبيعتها» على نظرية سبينوزا عن الانفعالات. وهو يدرك أن الماضي والمستقبل قد يشكّلان الحاضر. يتميّز تركيز سبينوزا على الحبّ المتبادل والامتنان بعلاقة بينتو مع فرانكو. هذا «الحب المتبادل، وما يترتب عليه من... السعي لإفادة من يحبنا، ويسعى... لإفادتنا، يسمّى الشكر أو العرفان بالجميل». المهم أن تأكيد سبينوزا على الامتنان أو العرفان بالجميل لا يقوّضه وجود الضغينة التي ربطها شوبنهاور ونيتشه وفرويد لاحقًا بالجانب المظلم للامتنان.

يدافع سبينوزا عن الحبّ، لكنه يقول أشياء كثيرة عن الكراهية، بما في ذلك عبارة تلّخص حياة ألفريد روزنبرغ: «إذا تخيّل أحدهم أن أحدًا مثله يتأثر بكراهية تجاه شيء مثله يحبّه، فإنه سوف يكره [ذلك الشخص]». تنطبق رؤى سبينوزية أخرى حول الكراهية على روزنبرغ المصاب بجنون العظمة. «من يتخيّل أن شخصًا ما يكرهه، ويعتقد أنه لم يمنحه سببًا لتلك الكراهية، فإنه سوف يكره ذلك الشخص بالمقابل».

أثبتت أفكار سبينوزا النفسية التي لا تقلّ عن أفكاره اللاهوتية والفلسفية، أنها مزعجة للقرّاء على مرّ القرون. كان يعرف أن أعماله لن تلقى قبولًا واسعًا. وقد أدرج في الجزء الرابع من كتابه «الأخلاق» الذي يحمل عنوانًا مناسبًا هو «في عبودية الإنسان، أو قوى الانفعالات»، اقتباسًا من سِفْر الجامعة: «من ازداد علمًا ازداد حزنًا». ومثل فرويد الذي يكّن له احترامًا كبيرًا، كان سبينوزا أحد الذين أثاروا اضطرابًا في سلام العالم. فقد كانت تجمع بين هذين المفكرين الثوريين قواسم مشتركة عديدة، كما أشار يرمياهو يوفيل في كتابه «سبينوزا وملحدون آخرون». «إن فرويد هو أعظم ملحد يهودي في قرننا، وكان سبينوزا، قبل ثلاثة قرون، أبرز أخ له في عدم الإيمان» (مصطلح صاغه هاينه واستخدمه فرويد). ويصف يوفيل سبينوزا وفرويد، بالإضافة إلى نيتشه، بـأنهم «فلاسفة التنوير المظلم»، ويقدّمون رؤى ما تزال مزعجة.

يتمتع سبينوزا في رواية يالوم بصفة لم تكن متوفرة بكثرة عند فرويد وهي: المواجدة. فقد أدرك بينتو أن الاستبصار دون مواجدة أو تعاطف لا يفيد كثيرًا في مساعدة الناس على تغيير حياتهم. فقد تكون المعرفة قوة، كما أكد سقراط وفرويد، لكن المواجدة، أي القدرة على فهم أفكار ومشاعر الآخرين، ضرورية في العلاقة بين المريض والمعالج. ويتمتع سبينوزا في رواية يالوم بفهم حدسي لنظرية النرجسية المعاصرة، بما في ذلك معرفة علم النفس الذاتي الكوهوتي، ويقدّر قيمة الانعكاس التعاطفي أو المحاكاة التعاطفية، وهي موهبة يتمتع بها أيضًا فريدريش بفيستر. يستشعر بينتو مخاوف فرانكو

وشكوكه، والأهم من ذلك، أنه يستطيع أن يغفر لفرانكو خيانته له أمام دوارتي رودريغيز. وأصبح شفاء فرانكو النفسي ممكنًا من خلال تطور علاقته مع بينتو الذي لم يخيّب أمله قط.

ناقد الدين الغيبي

كان فرانكو غاضبًا من الله لأنه يسمح بحدوث الظلم. لماذا لا يجترح الرب معجزات في عصرهم، كما كان يفعل في العصور التوراتية؟ سأل فرانكو كلًا من جاكوب وبنتو: «لماذا حدثت كلّ هذه المعجزات في ذلك الوقت، في عصر التوراة؟ أخبراني، كلاكما، لماذا انتهى عصر المعجزات؟ هل أخلد الله القدير، الكامل القدرة إلى النوم؟ أين كان ذلك الرب عندما أحرقوا أبي على الملأ؟ ولماذا؟» تتعلق أسئلة فرانكو الآنية والخالدة بالهولوكوست بقدر ما تتعلق بمحاكم التفتيش. إن «مشكلة سبينوزا» أول رواية يواجه فيها يالوم الأسئلة المؤلمة التي يطرحها الهولوكوست. لم يتردد بينتو في الردّ على الأسئلة، لكن إجاباته لم تكن الإجابات التي يريدها فرانكو أو يتوقعها. «أعتقد أن جذور المشكلة تكمن في خطأ أساسي وهائل، وهو خطأ الافتراض بأن الله حيّ، كائن مفكر، كائن على صورتنا، كائن يفكّر مثلنا، كائن يفكّر بنا». لا تبدو انتقادات بينتو للتوراة اليهودي نقاشًا لاهوتيًّا جافًّا. أثار اعتقاده بأن اليهود ليسوا «الشعب المختار» وأن البشر، وليس الرب، هم الذين كتبوا الكتاب المقدس، رفضًا تلقائيًّا من جاكوب الذي تُنذر مقاطعاته المستمرة بالاعتراضات على فكر سبينوزا التي أُثيرت خلال القرون الثلاثة الماضية. بالإضافة إلى ذلك، تتيح مقاطعات جاكوب للقراء وقتًا للتأمل في أساليب سبينوزا في الاستدلال واستنتاجاته. ويأتي عرض يالوم للاهوت والفلسفة في خدمة السرد دائمًا. وكما هو متوقع، يستشيط يعقوب غضبًا من إجابة بينتو الهرطقية، لكنه يكون مسرورًا في سريرته لأنه جمع المعلومات التي تدينه والتي يطلبها منه دوارتي رودريغيز. ويقدّم بينتو لجاكوب شهادة تدينه أكثر في الفصول التالية من الرواية، حيث يعرض يالوم ببراعة اللاهوت

الراديكالي لسبينوزا التاريخي.

كما أظهر في روايتيّ «عندما بكى نيتشه» و«علاج شوبنهاور» يقدّم يالوم أفكارًا فلسفية معقدة جدًّا في صياغة واضحة وموجزة. يتحوّل نقد بنتو للدين بسلاسة إلى حوار مقنع، ولا تصبح الشخصيات الثلاث أبواقًا للكاتب أبدًا، ويدرك القراء عدة مفارقات في هذه الفصول. إذ يشعر بينتو وجاكوب أنهما قد يصبحان كلاهما ضحية لفخ الآخر. خشي بينتو أن تُستخدم كلماته ضده، كما حدث فعلًا، وتوّجس جاكوب من أن ينهار إيمانه بالكامل بسبب عقل مجرد من العواطف. كانت لكلمات بينتو تأثيرات معاكسة على الاثنين، فغضب جاكوب الذي يعكس المجتمع اليهودي الأرثوذكسي المتحفظ مما يسمعه. لو يستطع أن يشكك في تعليمه الديني، ويقدّم المعلومات التي تؤدي إلى نبذ بنتو وطرده من المجتمع اليهودي. أدّى جاكوب دورًا يشبه دور يهوذا بخيانته رجلًا ذا إيمان لا يلين، وفي المقابل، تأثّر فرانكو المنفتح الذهن الذي كان يصارع مسألة وجود الله، كثيرًا بمناقشة بينتو اللاهوتية، ونتيجة لذلك يقوى إيمانه. لا يساور أحد الشكّ في تعاطف يالوم، لكنه يدرك قيمة بقاء الأفكار الأرثوذكسية، ويعي في الوقت نفسه مخاطر التمرّد الفكري. وهو يدرك أن الإيمان بالدين الغيبي سيظل موجودًا رغم حجج المفكرين العقلانية مثل سبينوزا. وفي حثّه لجاكوب وفرانكو على استخدام العقل الذي وهبه الله لهما، يعكس سبينوزا في رواية يالوم وجهة نظر الروائي نفسه. في البداية، يصرّ بينتو على أنه لا يمكن فهم التوراة إلّا في السياق التاريخي الذي كُتب فيه. ويتحدى بينتو المبادئ الأساسية لتربيته الدينية. قد يكون اليهود هم الشعب المختار، كما يكرر العهد القديم، لكن بينتو يقرأ عدة فقرات من التوراة تشير إلى أن اليهود القدماء لم يكونوا مختلفين عن غيرهم من الشعوب. «الشيء المحزن هو أنه توجد دلائل عديدة في التوراة تشير إلى أنه عندما كان الإسرائيليون يمتلكون القوّة، كانوا قساة وعديمي الرحمة مثل أيّ شعب آخر، ولم يكونوا متفوّقين أخلاقيًّا، ولم يكونوا أكثر تقى وورعًا، أو أكثر ذكاء من الأمم القديمة الأخرى. بل الشيء الوحيد الذي كانوا متفوّقين

فيه فقط آنذاك هو أنه كان لديهم مجتمع منظّم وحكومة متفوّقة مكنتهم من الاستمرار إلى أمد بعيد. أما الأمة العبرية القديمة تلك فقد انقرضت منذ زمن بعيد، وأصبحت منذ ذلك الحين مثل الشعوب الأخرى، ولا أرى في التوراة شيئًا يوحي بأنّ اليهود هم أرقى من الأمم الأخرى. فالله رؤوف ورحيم بالبشر كلهم». وأضاف بينتو بهدوء مخاطبًا أبناء عمّه أن الكتاب المقدّس يتكلّم بلغة المجاز والاستعارة. فكلمات الله ليست سوى كلمات الأنبياء. ونجح يالوم في نقل نشوة بينتو وهو يحطّم «أغلال الصمت». نشعر بشغفه في تقديم نقده الراديكالي للدين الغيبي. شعر جاكوب بالرعب، لكن فرانكو شعر بالارتياح، وقال مخاطبًا بينتو: «إنك تساعدني على الحفاظ على صوابي. كدت أفقد توازني، لكن وضوح أفكارك، وطريقتك في ألّا تقبل شيئًا فقط لأن السلطة قالته، أمر لم أسمع مثله من قبل».

تظهر يهودية يالوم بوضوح في رواية «مشكلة سبينوزا». فهو يظل فخورًا بكونه يهوديًّا علمانيًّا، متناغمًا مع التاريخ القديم لاضطهاد اليهود وبقائهم. ويحتفي بالفلاسفة واللاهوتيين والعلماء وعلماء النفس والكتاب المبدعين اليهود العظماء، ويكتسب الحق في أن ينضم إلى رفقتهم المتميزة. ويدرك تمامًا أنه يُطلق على اليهود «أهل الكتاب»، وأنه جزء من تلك التقاليد، لكنه نافد الصبر تجاه الكتّاب الكَبّاليين الذين يستخرجون معاني خفية، خارقة للطبيعة أو مسيحية في الكلمات. وكما اشتكى بينتو لاحقًا، «لم يعبد اليهود أصنامًا من الذهب وإنما عبدوا أصنامًا من الورق والحبر». إن جزءًا من كونه يهوديًّا علمانيًّا يعني ليالوم أن لديه الحق، بل المسؤولية، في أن يشكك في كل جانب من جوانب الوجود، واعتبار عملية الجدل أمرًا مقدسًا. باختصار، إن يالوم سبينوزي.

تدور أحداث الفصل التالي من قصة بينتو في أكاديمية فان دن إندن حيث درس الفيلسوف التاريخي مع شبان آخرين، من بينهم الطالب الألماني ديرك كيركرينك الذي أحبّ مثله ابنة فان دن إندن الجذابة، كلارا ماريا. تعلّم بينتو المفهوم اليوناني للسعادة، (eudemonia): «انسجام الروح». كان بنتو

سريع التعلم، يتشرّب معتقدات أفلاطون في انسجام الروح. وتعلّم بنتو أيضًا عن أرسطو وعن فيلسوف أقرب إلى قلب يالوم، وهو أبيقور الذي كتب عن الأتاراكسيا، أي الطمأنينة أو التحرر من الاضطراب العاطفي. وأظهر بنتو قدرته على تحرير فرانكو من القلق، لكنه تعلّم الآن التقليد الفلسفي الطويل للأتاراكسيا الذي يعود إلى الإغريق القدماء. كان إبيقور قد تنبأ بثلاث من أفكار يالوم المميزة: يجب أن نسعى لتحقيق السعادة الدنيوية لأنه لا توجد حياة بعد الموت؛ وأن الخوف من الموت مصدر رئيسي للقلق؛ وأن فهم الفلسفة يساعد على تقليل الخوف من الموت.

شغف بالتعليم

ينقل يالوم شغف فان دن إندن وشغفه هو بالتدريس. ويُنشئ الروائي حوارًا حيًّا بين المعلّم وطلابه، يساهم فيه كلّ واحد منهم في مناقشة أفكار أبيقور. فيطرح ديرك الذي يدرس ليصبح طبيبًا، سؤالًا وجيهًا: «هل يذكر خدمة الآخرين والمجتمع أو الحب؟» فأجابه فان دن إندن بحماسة، «سؤال صائب من شخص سيصبح طبيبًا. وستكون مهتمًّا عندما تعرف أنّ أبيقور كان يعتبر نفسه فيلسوفًا طبيبًا، يعالج أمراض الروح تمامًا كما يعالج الطبيب أمراض الجسد»، وأضاف فان دن إندن أن أبيقور كان يعتقد أن بهيموث القلق الذي يشمل جميع أشكال القلق الأخرى ويغذّيها هو الخوف من الموت والحياة بعد الموت».

ومثل معلمين كثيرين، يقدّم فان دن إندن إجابة لا تجيب تمامًا على سؤال تلميذه، ومثل معظم المعلمين أيضًا، فقد نسي فان دن إندن جزءًا من سؤال تلميذه. وبخلاف معظم المعلمين، يطلب فان دن إندن بلطف من تلميذه أن يكرر السؤال، ثم يتركز الحديث حول كلمة واحدة. قبل أن يكرر سؤاله، سأل ديرك عن معنى كلمة «بهيموث»، فأجابه المعلم، «سؤال وجيه. من منكم يعرف معنى هذه الكلمة؟» فرفع بنتو فقط يده، وقال «وحش بشع.

إنها تأتي من اللغة العبرية b»hëmãh ترد في سِفْر التكوين وفي سِفْر أيوب أيضًا». شعر فان دن إندن بالامتنان لهذه المعرفة، وقال: «أيوب، نعم. لم أكن أعرف ذلك. شكرًا لك. الآن، لنعد إلى سؤالك يا ديرك». مثل إبيكوروس، فإن يالوم فيلسوف طبيب، ويكشف شغفه بالتعليم عن حبّه التربوي، الحبّ الذي يشعر به المعلمون والطلاب تجاه بعضهم بعضًا. تصف عبارة تشوسر في «حكايات كانتربري» سبينوزا التاريخي والمتخيل، وكذلك يالوم نفسه: «كان يتعلّم بمتعة، ويعلّم بمتعة».

لكن النقاش حول أبيقور لم ينته بعد. مثل العديد من المناقشات في الفصول الدراسية التي يشارك فيها الطلاب، ينحرف النقاش في اتجاه غير متوقع وربما خطير. فيسأل طالب كاثوليكي اسمه إدوارد، كان عمه أسقف أنتويرب، هل تحدّث أبيقور عن الله. أثنى فان دن إندن على السؤال وأقرّ بأن الفيلسوف اليوناني لم يركّز على الأمور الغيبية. وسأل إدوارد بطريقة استفزازية هل كان أبيقور يؤمن بالله، فأشار فان دن إندن بلطف إلى أن السؤال يجب أن يكون هل كان الفيلسوف يؤمن بالآلهة لأن اليونان القديمة كانت، مثل معظم الثقافات في ذلك الزمن، متعددة الآلهة. لكن تصحيح المعلّم لم يثن إدوارد عن السؤال هل أبيقور ينكر الرب، فرد فان دن إندن بتحذير ضمني لبنتو الذي لبث صامتًا بشكل لافت خلال المناقشة، وقال «لا، كان شجاعًا، لكنه لم يكن متهوّرًا. فقد ولد بعد أن أُعدم سقراط بستّين سنة تقريبًا بتهمة الهرطقة، وكان يعرف أنّ عدم الإيمان بالآلهة سيئ على صحة المرء». غير قادر على قبول إله غير مسيحي، قاطعه إدوارد، وقال: «لا يمكن تخيّل أن الله الذي ضحّى بابنه من أجلنا لا يريد أن نعيش حياة مقدّسة محددة». واعتقادًا منه بأن الإله المسيحي أصعب قبولًا من إله العهد القديم، ردّ بنتو قائلًا: «توجد مفاهيم كثيرة عن الآلهة التي اخترعتها ثقافات عديدة». ودخل الطالبان في نقاش حاد، ولم يهدأ أي منهما إلّا عندما أنهى فان دن إندن الدرس بتأييد نصيحة أبيقور بأن على أتباعه «المشاركة بهدوء في جميع أنشطة المجتمع، بما في ذلك الاحتفالات الدينية». ارتاع فان دن إندن من إصرار

بينتو على الجهر بمعتقداته الدينية الهرطقية، وفي محاولة للتخفيف من حدة الموقف، قال متهكّمًا إن التاجر الصادق هو تناقض في ذاته، فلن يُقبل عليه أحد من الزبائن إذا قال الصدق. لكن بينتو لم يقدّر التحذير الساخر، وتذكّر فان دن إندن شيئًا لاحظه عن تلميذه وهو أن بينتو لا يتمتع بروح الدعابة، نقطة ضعف أساسية في رؤية يالوم للعالم. واستمر الدرس في تأكيد بينتو على رغبته في أن يعيش في مجتمع لا يخضع للمعتقدات الخاطئة، وهو أمر مستحيل في رأي فان دن إندن الذي قال: «لو بحثت في العالم كلّه فلن تجد قومًا أو دينًا لا يؤمن بالخرافات، فما دام هناك جهل، فإن البعض سيتمسّكون بالخرافات. إن التخلص من الجهل هو الحلّ الوحيد، ولهذا السبب فإني أعلّم». يحترم يالوم كلًا من التزام الطالب بالحقيقة المطلقة وتوصية المعلّم بتوخي الحذر والواقعية. وينتهي الفصل بنبرة تنذر بالخطر بإدراك سبينوزا أن التحفّظ لم يعد ممكنًا.

اللقاء المبارك

في لقائه التالي مع جاكوب وفرانكو، استمر بينتو انتقاده الحاد للدين الذي يستند إلى ما ورائيات الطبيعة. لم يكن جاكوب قد جمع أدلة كافية تلحق الضرر ببنتو، ولم ينته يالوم بعد من انتقاده للدين الذي لا يخضع لقوانين الطبيعة. كان جاكوب يتصرّف كما لو كان محقّقًا في محاكم التفتيش، وطرح على بينتو أسئلة متتالية. لم يتردد بينتو في الإشارة إلى تناقضات التوراة، الواحد تلو الآخر، حتى وصل إلى استنتاج لا يتزعزع وهو أن «كلمات وأفكار التوراة تأتي من العقل البشري، من الرجال الذين كتبوا هذه المقاطع وتخيّلوها». قال بينتو إن التوراة تحتوي على نوعين من القوانين، القانون الأخلاقي والقانون المدني، ويؤكد أن القانون الأخلاقي الوحيد الذي يجب أن يؤخذ بجدية، كما ورد في سِفر أشعيا: «كفُّوا عن فعل الشر، تعلّموا فعل الخير. اطلبوا العدل. أنصفوا المظلوم». حاول جاكوب أن يوقع بينتو في فخ بإقناع فرانكو أن يتجاهل القوانين الشعائرية، لكن بينتو، مستفيدًا من درس فان دن إندن

وأبيقور، ردّ بحكمة، «أنا لا أنكر أهمية الشعور بالطمأنينة المدنية، لكنّي أميّزه عن السعادة الحقيقية». كان واضحًا في رفضه للعنصر الغيبي في الدين، «العالم الآخر، الحياة الخالدة، الحياة الآخرة الهانئة - أكرّر، كلّ هذه العبارات هي من اختراع الأحبار».

تحدث اللحظة الأكثر إثارة للمشاعر في هذا الفصل عندما سأل فرانكو المضطرب إن كان عليه أن يتخلّى عن أمله في أن يلتقي بوالده الشهيد الحبيب. كانت إجابة بينتو هي نفس إجابة يالوم، «لقد تخلّيت عن هذه الآمال الطفولية واستبدلتها بالمعرفة الأكيدة بأنني أضع أبي في داخلي - وجهه، حبّه، حكمته - وبهذه الطريقة فإني أتّحد به. إن اللقاء المبارك يجب أن يتم في هذه الحياة لأن هذه الحياة هي كلّ ما لدينا». لم يستخدم بينتو كلمة «الاستبطان» لوصف هذه العملية لأنها كلمة لم تظهر إلّا في القرن العشرين، لكن هذا ما كان يعنيه. يتوقع مفهوم بينتو للقاء المبارك نظرية الحزن المعاصرة حيث يستبطن المفجوعون ذكرى أحبّائهم الراحلين ويتبنّونها كجزء لا يتجزأ من ذواتهم، بينما يواصلون المضيّ في حياتهم.

كان سبينوزا على معرفة وثيقة بالفقد. فقد ماتت أمه قبل عيد ميلاده السادس بفترة قصيرة، وماتت زوجة أبيه عندما كان في التاسعة عشرة من عمره، ومات أبوه عندما كان في الحادية والعشرين من عمره. بالإضافة إلى ذلك، مات أخوه الأكبر عندما كان في السابعة عشرة من عمره، وماتت أخته غير الشقيقة عندما كان في السادسة عشرة من عمره، وماتت أخته ميريام عندما كان في الثامنة عشرة من عمره. تشير عبارة سبينوزا في كتابه «الأخلاق» إلى أن الحياة التي تستند إلى العقل تقضي على الخوف من الموت: «إن الإنسان الحر لا يجعل الموت محور تفكيره، فحكمته تقوم على أساس التأمل في الحياة لا في الموت». نتساءل، كيف يمكن للمرء أن يعيش دون التفكير في الموت وربما التأمل فيه؟ كيف يعيش المرء دون الخوف من الفقدان؟ كيف استطاع سبينوزا أن يتغلّب على قلق الموت السائد في عالم يالوم؟ سرعان ما سيعود الروائي إلى هذه الأسئلة. يقدّم بينتو تعليقًا آخر قبل نهاية الفصل، وهو أحد

أكثر تصريحات سبينوزا التاريخية إثارة للجدل: «الله هو الطبيعة. الطبيعة هي الله»، وهي صيغة مختصرة لعلم لاهوت معقد.

الحاخام مورتيرا

بعد إبراز الطابع المتمرّد في معتقدات سبينوزا الدينية، يُظهر يالوم كيف عالج الحاخام مورتيرا الأزمة المتفاقمة. فقد استُدعي بينتو إلى كنيس تلمود التوراة الجديد في أمستردام الذي ترأسه مورتيرا طوال سبعة وثلاثين سنة. يقدّم لنا يالوم في هذا الفصل تاريخًا موجزًا عن اضطهاد اليهود الأوروبيين. كان مورتيرا يقوم بدور مدرس تاريخ موثوق، وسلطة حاخامية، وشخصية ذات مصداقية تكافح من أجل اتخاذ أفضل قرار لمجتمع أمستردام اليهودي المحاصر. وبعد أن أشار إلى أن اليهود عاشوا بسلام مع المسلمين والكاثوليك لعدة قرون عندما جاءوا إلى إسبانيا قبل ألف سنة، يصف مورتيرا كيف طُرد اليهود في النهاية من بلد إلى بلد آخر. وبعد أن تعرضوا لمذبحة في ماينتس عام ١٠٩٦، اضطُهدوا باتهامات ملفقة تُعرف بافتراءات الدم، وأُجبروا سنة ١٣٩١ على اعتناق المسيحية. وشرعت محاكم التفتيش الإسبانية في عام ١٤٩٢ إرغام جميع اليهود إمّا على أن يتنصّروا وإما أن يرحلوا، ذات العملية التي شهدتها البرتغال المجاورة سنة ١٥٣٦. ويعرف كثير من قرّاء رواية «مشكلة سبينوزا» عن اضطهاد المسيحيين لليهود الأوروبيين، لكنهم قد لا يعرفون، كما يقول الحاخام مورتيرا لبنتو، أن الرهبان هم الذين قادوا عمليات الاضطهاد في كثير من الأحيان. «فكلما كان اليهود يُذبحون، كنت تجد رجال الصليب على رأس القطيع». وقد لا يعرف القرّاء أيضًا عن أعداد اليهود الكبيرة الذين فضّلوا الاستشهاد على اعتناق الديانة المسيحية، وهي حقيقة لم يستطع بنتو فهمها أو قبولها. يذكّر الحاخام مورتيرا بينتو أيضًا بوجود اليهود غير المستقر في أمستردام، فبدأ اليهود البحث عن الأمان في أمستردام

عام ١٥٧٩، عندما أعلنت هولندا استقلالها عن إسبانيا. كانت حرية اليهود تعتمد على الاتفاق بعدم تقويض العقيدة المسيحية الأرثوذكسية.

يعرف بنتو معظم هذه التاريخ. إذ ينحدر والداه من سلالة المارانوس في البرتغال، وهم اليهود السفارديم الذين طُردوا من إسبانيا عام ١٤٩٢ وهربوا إلى البرتغال حيث أُجبروا على اعتناق الكاثوليكية عام ١٥٣٦، لكنهم احتفظوا سرًّا بدينهم اليهودي.

توحي كلمة مارانوس بمعنى «الخنازير»، إشارة إلى الاحتقار والازدراء الذي كان يكنّه كثير من غير اليهود لليهود الذين اعتنقوا الكاثوليكية». وفي نهاية القرن السادس عشر تقريبًا، انتقلت عائلة سبينوزا إلى أمستردام حيث عادت واعتنقت اليهودية. وكان سبينوزا قد تلقّى تعليمًا يهوديًّا صارمًا بإشراف الحاخام مورتيرا، وأصيب مورتيرا بالهلع في رواية يالوم عندما سمع معتقدات سبينوزا الهرطقية، لكن من المرجح أن هذه الأفكار نشأت ببطء نتيجة قراءته النهمة وذاكرته الهائلة، وليس نتيجة إلهام مفاجئ. وجد بينتو صعوبة في البقاء صامتًا في أثناء درس التاريخ الذي يعطيه مورتيرا، ونجح الروائي في استحضار الماضي كتاريخ حي. يمكننا أن نفهم اعتقاد مورتيرا بأن الحضارة اليهودية كانت في خطر، ويمكننا أيضًا أن نفهم عدم تصديق بينتو بأن مجيء المسيح وشيك، كما يؤكد له الحاخام. يُبرز يالوم الفروق بين الرجلين من حيث الجيل والرؤية الفلسفية والطبيعة النفسية، ولا يختزل الروائي أبدًا أيًّا منهما إلى صورة نمطية أو كاريكاتورية.

منح مورتيرا بنتو كل فرصة ممكنة ليتجنب الحرمان والنبذ، وقال له مع أن جاكوب ميندوزا وفرانكو بينيتيز قد أدليا بشهادة ضارة ضده أمام المجمّع اليهودي (البارناسيم) الذي أصدر حرمانًا لكنه كان معلّقًا، وأنه سيبذل كل ما في وسعه لدعم بنتو إذا كان الاثنان قد كذبا. ظل بينتو ثابتًا على موقفه، وقال بهدوء: «إنهما لم يكذبا، أيها الحاخام» متجاهلًا حذره، أعلن أن سلطة

الحاخامات تستند إلى أجيال من العلماء المؤمنين بالخرافات. ذُهل مورتيرا، وفشلت جميع محاولات التوصل إلى حلّ بينهما.

ثوري هادئ

بعد أن أدرك بينتو مصيره وتقبّله، لم يجزع على نفسه، ولم ير نفسه شهيدًا. إن شخصية سبينوزا التي صوّرها يالوم تنطوي على تواضع لا يمكن أن يكون مختلفًا كثيرًا عن الشخصيات الأخرى في التاريخ أو الأدب التي شاركت في تمردات بطولية ضد الكنيسة أو الدولة. يُصوِّر ستيفن ديدالوس، بطل رواية التكوين في عمل جيمس جويس «صورة الفنان في شبابه»، على أنه يرى نفسه في نهاية الرواية شخصية بروميثيوس، ينطلق في رحلة مصيرية ستغيّر مجرى التاريخ الإيرلندي، ويقول: «أمضي لأواجه للمرة المليون حقيقة التجربة، ولأصوغ في ورشة روحي الضمير الذي لم يُخلَق بعد لجنسي». وبخلاف ذلك، فقد غادر سبينوزا، أحد أعظم المتمردين الفكريين في التاريخ، أمستردام بهدوء، لم يبحث عن شيء سوى عن غرفة يمكنه أن يكتب فيها. يرى فلوبير أن ما يميّز سبينوزا، سواء باعتباره شخصية تاريخية أم روائية، قوله: «عِش حياتك منظمًا ومنضبطًا مثل برجوازي، حتى تكون عنيفًا ومبتكرًا في عملك».

وقد عاش سبينوزا حياة أقرب إلى الزاهد منها إلى البرجوازي الهولندي، لكن لا يوجد مفكّر ثوري أكثر منه.

من اللافت مدى ضآلة تأثير الشخصية على حكم سبينوزا. فقد التقط يالوم رفض بينتو السماح لعواطفه بالتأثير على تفكيره. كان بإمكان الشاب أن يبذل جهدًا لشكر مورتيرا على جهوده للتوصل إلى حل وسط أو مصالحة، أو للاعتراف بخيبة أمل الرجل الأكبر سنًّا، لكن مرة أخرى، قد لا يكون ذلك متوافقًا مع شخصيته. ثمة لحظة غريبة في حوارهما عندما عرض بينتو أن يوفر على مورتيرا عناء كتابة الحرم. «كنتَ معلّمي في اللغة العبرية، وقد

أحسنت تعليمي. دعني أكافئك بأن أحصي عدد الحرمان التي فرضتها أنت. لقد أريتني بعض أشدّ أنواع الحرمان وحشية التي صدرت عن الطائفة في فينيسيا، وأنا أتذكّر كلّ كلمة منها». هل هذا عرض كريم لتجنيب الرجل المتقدم في العمر ألمًا غير ضروري، أم عمل يشي بغطرسة شديدة؟ في العادة لا يكون سبينوزا ساخرًا، ويبدو عرض بينتو صريحًا، دون أي تلميح للسخرية. نظل معجبين به طوال الرواية، لكن قد يكون هذا الإعجاب أحيانًا موجهًا إلى جنس أعلى.

يظهر الجانب الأكثر إنسانية من بينتو عندما ينبّه أخاه غابرييل وأخته ريبيكا إلى الحرمان الوشيك. يبدأ الفصل ببينتو وهو يتجوّل في منطقة أمستردام حيث يعيش معظم اليهود السفارديم مثله، محاولًا أن يستوعب للمرة الأخيرة مشاهد المدينة التي سيُرغم على مغادرتها قريبًا. لم تكن الكاميرات قد اختُرعت بعد، لكنه يحاول تخزين كل صورة في ذهنه ليتمكّن من تذكّرها في المستقبل. «كان يمعن النظر في كلّ صورة، كما لو أنه يريد أن يضفي عليها صفة الديمومة، حتى يتمكن من تذكرها واستدعائها إلى ذهنه في المستقبل، مع أنّ صوت العقل همس له بأن كلّ شيء سيتبخر وأن الحياة يجب أن تعاش في الحاضر». يدمج ياليوم الجانب النفسي والفلسفي في جملة واحدة مؤثّرة.

فقدان الأم في سن مبكرة

يقدّم بينتو وصفًا كاملًا عن لقائه مع مورتيرا، رافضًا تبرير أو التقليل من دوره في الحرم. يغمر الحزن أخاه حتى يكاد لا يقوى على الكلام، ما عدا توسله لأخيه ليغيّر رأيه، لكن أخته استشاطت غضبًا جدًّا. في هذا الفصل يُصارع بينتو عواطفه بشدة، ويبذل جهده ليكتم اضطرابه، فيُظهر في نبراته سكينة لا تتطابق مع ما يختلج في صدره. ولم يستطع أن يفعل شيئًا لتهدئة ريبيكا التي ألهبت كلماتها هذا الفصل. فقد بدت غاضبة وحادّة النبرة، قلقة

على وضعها المهدَّد أكثر من وضع بينتو. وقدّمت ريبيكا ملاحظتين مهمتين سلطتا الضوء على مشكلة سبينوزا. الأولى، إشارة إلى حياة يهودي مهرطق آخر، يدعى أوريبل دا كوستا، الذي تحدّى الشريعة اليهودية، وأصدر معلّم مورتيرا حرمًا ضده، وطُرد ونُبذ من المجتمعات اليهودية في هولندا وألمانيا وإيطاليا، ثم طلب المغفرة، فغُفر له، لكنه نُفي مرة أخرى بسبب تصريحاته الهرطوقية، ثم انتحر أخيرًا في عام ١٦٤٠. «هذا ما يحدث»، حذّرت ريبيكا بينتو بنبرة مليئة بالشؤم، «لا توجد حياة خارج الطائفة». ظل جنون دا كوستا وانتحاره عبرة قوية، لكن وقعها على ريبيكا كان أشدّ من وقعها على بينتو. ذكر كاتب السيرة الذاتية ستيفن نادلر أنه ربما كانت هناك صلة وثيقة بين عائلتي دا كوستا وسبينوزا، وهما عائلتان يهوديتان بارزتان. ويؤكد نادلر أنه لا ريب في أنّ سبينوزا، مثل جميع أبناء الطائفة اليهودية في أمستردام، كان على اطلاع جيد على أفكار دا كوستا الهدّامة؛ «وربما فكّر فيها مليًّا». أما ملاحظة ريبيكا الثانية فهي أن بينتو لم يبرأ تمامًا من وفاة أمه، وأنها ترى أن بينتو «محطم» ولم يتجاوز قط موت أمه، الأمر الذي قد يفسّر رفضه المخاطرة بحبّ امرأة أخرى أو المجازفة بأي نوع من خسارته العاطفية.

لا تذكر ريبيكا الخسائر الإضافية التي ربما أثّرت على سبينوزا والتي ترد تفاصيلها في سيرة نادلر. فقد ماتت زوجة مايكل سبينوزا الأولى، راشيل، في عام ١٦٢٧، عندما كان في الثامنة والثلاثين من عمره، بعد بضع سنوات فقط من زواجهما، وماتت زوجته الثانية، هانا، أم ريبيكا وباروخ وغابرييل، في عام ١٦٣٨. وهكذا فقد زوجتيه بعد بضع سنوات فقط من زواجه بهما. وبعد وفاة زوجته الثانية بفترة قصيرة، تزوج مايكل سبينوزا امرأة ثالثة ربّت باروخ منذ أن كان في الثامنة من العمر حتى وفاتها في عام ١٦٥٣ عندما كان في العشرين من عمره. اضطر مايكل سبينوزا إلى دفن ثلاث زوجات: كيف يمكن ألّا يؤثّر حزنه على ابنه؟ لا عجب أن سبينوزا ساوى بين الحبّ والفقد، وهذا ما أدى إلى الاستنتاج بأن الارتباطات العاطفية خطيرة.

تستحق نظرية ريبيكا حول دور الفقد المبكر والمتكرر في حياة شقيقها

دراسة جادة. ومن المثير للاهتمام أن ريبيكا هي التي طرحت هذه النظرية حول الفقد وليس يالوم بوصفه راوي القصة. أخطأت ريبيكا عندما أكدت أنه لا يوجد أحد يهمّ بنتو، لكنها قد تكون محقة عندما قالت إنه لأنه فقد أمه، حاول أن ينأى بنفسه عن العالم العاطفي. قد يكون ذلك ردّ فعل مفهوم على الحزن. من المؤكد أن هذه الأفكار قد تكون خطيرة كما توضح رواية «مشكلة سبينوزا»، لكن قد تكون العواطف أشد خطورة ويصعب السيطرة عليها. رفض غابرييل تفسير أخته وأشار إلى أنه عاش في نفس الأسرة، وعانى من نفس الوفيات، ومع ذلك، فإنه لم يفكّر أو يتصرّف مثل شقيقه، لكن ذلك يتجاهل حقيقة أن الناس يستجيبون للأحداث نفسها بأشكال مختلفة. ويستشهد يالوم بملاحظة سبينوزا الحكيمة في كتاب «الأخلاق»: « يمكن أن يتأثر أشخاص مختلفون بنفس الشيء بطرق مختلفة. ويمكن للشخص نفسه أن يتأثر بنفس الشيء بطرق مختلفة في أوقات مختلفة». إن اقتراح يالوم بالدور الحاسم للفقد المبكر في حياة الفيلسوف أحد أكثر رؤاه إثارة للإعجاب في مشكلة سبينوزا. لم يلمح نادلر الذي كتب أول سيرة ذاتية رئيسية عن سبينوزا، إلى هذه الإمكانية، ولم يفعل ذلك أحد من الذين درسوا سبينوزا وكتبوا عن تطوّر أفكاره.

الحَرْم

إثر تجسيده لوداع بينتو المضطرب مع أسرته، لجأ يالوم إلى نبرة أكثر هدوءًا عندما تناول وصف الحَرْم الذي صدر في ٢٧ يوليو (تموز) ١٦٥٦. وبالرغم من عدم توفر المعلومات التاريخية، يأخذنا يالوم إلى «كنيس التلمود توراة» حيث اكتظ زهاء ثلاثمائة شخص. «ما سبب كلّ هذه الجلبة وهذا والإقبال الشديد اليوم؟ فقد غذّت هذا الجنون نفس الإثارة، نفس الرعب والافتتان المظلم الذي، على مدى العصور، ألهب الحشود للاندفاع لرؤية عملية صلب، أو شنق، أو قطع رؤوس، أو رسوم الإيمان. فقد انتشر الخبر بين أفراد الطائفة اليهودية في أمستردام بسرعة كبيرة بأن باروخ سبينوزا سيُحرم وسيُنبذ من

الطائفة». لم يكن بينتو حاضرًا لسماع الحاخام مورتيرا وهو يقرأ بصوت عالٍ قرار الحَرْم باللغة العبرية الذي تلاه ترجمة حاخام آخر إلى اللغة البرتغالية. صُدم الحاضرون من شدة العقوبة غير المسبوقة. وقد اقتبس يالوم معظم لغة الوثيقة التاريخية، فلا داعي لأن يبهرج الروائي اللغة لأنها مروعة بما يكفي.

يختلف الوصف الهادئ لصدور الحَرْم عن معظم الروايات السابقة للواقعة. فقد قدّم ويل ديورانت مثلًا، سبينوزا في كتابه «قصة الفلسفة» (١٩٢٦) على أنه شهيد عاش «وحدة قاسية ومريرة بعد نبذه».

ولا يوجد لدينا دليل يثبت أن سبينوزا شعر بالمرارة. فعلى الرغم من وحدته، لم يفتقر قط إلى الأصدقاء أو إلى المؤيدين. وقد أخطأ ديورانت أحيانًا في عرض الحقائق، كما عندما ذكر أن والد سبينوزا، «الذي كان يتطلّع إلى أن يتفوق ابنه في تعلّم اللغة العبرية، كان قد قد طرده» بعد الحَرْم، فقد مات مايكل سبينوزا في عام ١٦٥٤، أي قبل سنتين من صدور قرار الحَرْم.

يتطابق وصف يالوم للحرمان الكنسي إلى حد كبير مع أحدث الأبحاث حول هذا الحدث التاريخي. إذ يلاحظ ريتشارد بوبكين أنه بعكس الروايات السابقة عن الحرمان الكنسي التي كان معظمها بدافع إيديولوجي، يبدو أن سبينوزا لم يعتبر هذا الحدث هامًا. فقد لزم الصمت بشأن الحَرْم، ولم يُعلن عن الحَرْم في كنيس يهودي كما يوضح يالوم، بل في غرفة خاصة. وبذلك خلا الحدث من أي طابع درامي أمام الناس. وأسقط بوبكن بعض الأساطير الأخرى التي نُسجت حول الحَرْم، إذ يؤكد: «وفق ما نعرفه حاليًّا، يمكن القول بأمان إنّ نبذ سبينوزا لم يكن من المآسي الكبرى في القرن السابع عشر، ولا منعطفًا حاسمًا في المواجهة بين الأرثوذكسية التقليدية والحداثة». يبدو أنه كان حدثًا محليًّا ثانويًّا في مجتمع محلي في أمستردام، لم يُناقش فيما بعد قط. لكن لا شك، كما يشير نادلر، أن نص قرار الحَرْم بحق سبينوزا تجاوز جميع النصوص الأخرى «في حدّته وغضبه».

وبوصفه روائيًّا، فإنه يحق ليالوم، بل المطلوب منه، أن يتخيّل الحدث، أو اللا حدث، وما أضافه في السرد، بقدر ما نعرف، هو وصف المصلّين وكأنهم مأخوذون بفضول مَرَضي تجاه القرار. هذا التفصيل ينذر بالشجب العلني الأكثر شيطانية للأفكار الهرطقية واليهود الهراطقة بعد ثلاثة قرون.

محاولة اغتيال ونفي

باعتدال في السرد، يكشف يالوم عن أثر الحداثة المؤلم في نفس بينتو. فهو يقبل مصيره، بل يُلمح فيه معانٍ إيجابية، مردّدًا لنفسه المرة تلو الأخرى: «لم أعد يهوديًّا». لكن لا يستطيع المرء أن يغيّر هويته بسهولة، وتبقى حياته الداخلية كما كانت إلى درجة كبيرة على الرغم من التغيّرات الخارجية التي طرأت على وجوده. تقبّل بينتو من دون إصدار حكم اعتراف فرانكو بخيانته له، وباح له في المقابل بسرّ من أسراره: فقد رحّب بالحَرْم من بعض الوجوه، لأنه أدرك أن العيش بين أناس غير يهود كيهودي منبوذ أسهل من إخفاء أفكاره عن أبناء طائفته. وثمه سبب آخر لترحيبه بالحَرْم، «إني أزمع أن أكتب في النهاية، وقد تكون هناك فرصة أفضل لأن يقرأ العالم برمته أعمال يهودي نبذته طائفته وليس يهوديًّا من الطائفة اليهودية». كان فرانكو مخلصًا جدًّا لبينتو حتى إنه أبدى رغبته في أن يكون تلميذه أو أحد أتباعه، لكن الأخير رفض ذلك بلطف لأنه أراد تجنب الارتباطات المستقبلية.

كان أحد الجوانب الغريبة في حياة سبينوزا محاولة يهودي متعصب أن يقتله خارج الكنيس بعد فترة قصيرة من نبذه، وطعنه مرتين في بطنه وهو يصيح herege (زنديق). وتعارك بينتو مع مهاجمه، ونجا من محاولة الاغتيال تلك. وبعد أن أصيب بجروح خطيرة، احتفظ سبينوزا بالمعطف الممزق والملطخ بالدم، مع أن أحدًا لا يعرف لماذا فعل ذلك، ربما دلالة للتذكير بالموت، وإشارة إلى نجاته من مواجهة كادت تودي بحياته. ثم واسى ديرك وكلارا بينتو الذي لم يشعر بكراهية تجاه مهاجمه، وقد أظهر هذه المشاعر للمرة الأولى والوحيدة في الرواية، بالإضافة إلى شعوره بالغيرة

عندما اكتشف أن ديرك وكلارا يحبّان بعضهما، وأنهى ذلك احتمال أن يقيم بينتو علاقة عاطفية معها. «إذا أردت أن تنجح وتزدهر، يجب أن تتغلّب على عواطفك بتثبيت مشاعرك على شيء راسخ، شيء يدوم إلى الأبد». مرة أخرى، يواجه بينتو قسوة العالم العاطفي الذي بدا هذه المرة متقلبًا وخائنًا، الأمر الذي يوضح خطر الارتباطات العاطفية الشديدة.

الصداقة

يتمثّل دور بينتو الرئيسي في بقية قصة سبينوزا في كونه معالجًا لفرانكو ظل يتصارع مع مسألة وجود الله. وقد مارس بينتو نمطًا من الاستشارة الفلسفية يذكّرنا بما ورد في روايتيْ «عندما بكى نيتشه»، و«علاج شوبنهاور». واقتبس من مجموعة يالوم المألوفة من الفلاسفة، بمن فيهم أبيقور وسينيكا. وتلّقى بينتو كذلك المشورة من فرانكو، وهذا يؤكّد على إيمان يالوم بالتبادلية. وعندما عبّر بينتو عن انزعاجه من انجذاب كلارا إلى ديرك، ساعده فرانكو على تجاوز غيرته، وذكّره بأن التعلّق بامرأة كاثوليكية غارقة في إيمان غيبي يرفضه قلبًا وقالبًا وهو أمر لا عقلاني. تمثّل الصداقة العميقة والمتبادلة بين بينتو وفرانكو علامة مميّزة في روايات يالوم.

في عام ١٦٦٢، سافر فرانكو إلى رنسبرخ، القرية الهولندية الصغيرة التي عاش فيها سبينوزا. فرح فرانكو وبينتو برضا كلّ منهما عن نفسه وتحقيقه لذاته. عاش بينتو وحيدًا، وعمل في صقل العدسات، وأمضى بقية حياته في التفكير والقراءة والكتابة. إن استعارة صقل العدسات مفيدة لأن يالوم يفحص شخصيته بدقة ووضوح العدسة المكبرة، ويساعدنا ذلك على فهم سعيه نحو تحقيق السعادة. استمتع بينتو بخصوصيته ولم يشعر بالغيرة أو بالندم. تزوج فرانكو وأنجب طفلًا، وتابع دراساته الحاخامية في مدرسة سبينوزا القديمة. حتى إن فرانكو تقاضى راتبًا سخيًّا من الحاخام مورتيرا. ومثل عازف بيانو خبير، يعرف يالوم كيف يعزف الصمت. ومن الصمت المربك الذي خيّم على حديثهما، خلص فرانكو إلى أن علاقتهما تغيّرت. وافق

بينتو على ذلك، وأوضح التنافر غير المتوقع في صداقتهما. «قبل الآن، كنت أنا المعلّم وأنت التلميذ الذي يوافق على آرائي ويريد أن يمضي حياته في المنفى معي، أما الآن فقد تغيّر كلّ ذلك».

يتيح التحدّث بين الرجلين فهم التوتر بينهما والتغلب عليه. يدركان أنهما ما يزالان قادرين على البقاء على تواصل بينهما مع أن حياتهما سارت في اتجاهين مختلفين. تنوّعت موضوعات الحوار بينهما: تباين رؤيتهما للقصص، وأهمية الدرس التلمودي، ثم افتتان بينتو بإقليدس الذي ترك بصمته العميقة على صياغة سبينوزا لكتاب «الأخلاق». وتطرّق حديثهما إلى القصة التلمودية القريبة إلى قلب بينتو، «إن القصّة المفضّلة لديّ في التلمود هي التي تحكي عن كافر اقترب من الحاخام هيليل وقال له إنه مستعد لاعتناق اليهودية إذا علّمه الحاخام التوراة كلّه وهو واقف على قدم واحدة، فأجابه هيليل، ‹الشيء الذي تكرهه، لا تفعله لجارك. هذه هي التوراة كلّها - وما تبقى مجرد تفاسير. اذهب وادرسها›». هذه هي قصص التوراة التي يُعجب بها سبينوزا ويالوم. وكشف بينتو لفرانكو عن جانب آخر من حياته، وهو التزامه بنوع مختلف من الحبّ، الحبّ الفكريّ، الذي يشير إليه باللاتينية بعبارة Amor dei intellectualis. حبّ الله بالعقل. هذه الفكرة أساسية في لاهوت وفلسفة سبينوزا. حاول فرانكو فهم جوهر هذه الرؤية الجديدة الثورية لله، فطرح عدة أسئلة: هل يؤلّه بينتو الطبيعة أم أنه يجعل الله هو الطبيعة. ووعده بينتو بأن يجيب على هذا السؤال عندما يلتقيان مرة أخرى.

فهم نظرة سبينوزا الدونية إلى المرأة

تدور أحداث الفصلين الأخيرين من قصة سبينوزا في عام ١٦٦٦ في قرية فوربورخ القريبة من لاهاي التي كان الفيلسوف يُلقب فيها باسم «حكيم فوربورخ». ونعلم أن عام ١٦٦٦ كان غارقًا في تنبؤات عددية غريبة، من بينها اعتقاد كثير من اليهود آنذاك بأن المسيح جاء في شخص ساباتاي زيفي.

انتهى «جنون المسيح المنتظر» كما سمّاه بينتو، نهاية سيئة بالنسبة إلى ساباتاي زيفي: عندما اعتقله السلطان العثماني ومنحه خيار إما الاستشهاد وإما اعتناق الإسلام، فاختار اعتناق الإسلام.

كان حاخام فرانكو مسيحانيًّا، وبسبب شكوك فرانكو يتوقّع أن يُصدر الحاخام بحقه حُرْمًا». وبينما كان فرانكو يحكي قصته عن الحرية المقيّدة بروح مرحة، أدرك بينتو أن صديقه وعائلته سيرحلون إلى جزيرة كوراساو الهولندية في العالم الجديد حيث سيؤسّس لنفسه كنيسًا خاصًّا به. ثم انتقل الحديث إلى موضوع النساء اللاتي يعتبرهن بينتو أدنى منزلة من الرجال، ما يعكس موقف سبينوزا التاريخي بدقة. بعكس بينتو، كان فرانكو معجبًا بذكاء النساء، ربما لأنه متزوج من امرأة ذكية. باستخدام لغة ومنطق سبينوزا، يوضح فرانكو عدم عقلانية ازدراء الفيلسوف للمرأة. تتوقف مناقشتهما، لكنها تستمر في الفصل الأخير عن سبينوزا حيث يقدّم فرانكو تفسير يالوم عن سبب احتقار سبينوزا للنساء. «لديّ علاقة محبّة قوية مع أمّي والآن مع زوجتي وابنتي، وأظن أنّ مواقفك تجاه المرأة هي بالضرورة سلبية بسبب علاقتك بهن في الماضي». لكن بينتو لم يغيّر رأيه تجاه المرأة. يعمّق تفسير فرانكو لشكوك بينتو تجاه المرأة فهمنا لشخصية سبينوزا التاريخية. يلاحظ يالوم في «حقيقة أم خيال؟ وضع الحقيقة في نصابها»، أنه في إظهاره كيف كان فرانكو متقدمًا على عصره في موقفه المتنور تجاه المرأة، كان الروائي يفكّر في موردخاي كابلان، «الرائد الذي ظهر في القرن العشرين ونادى بتحديث اليهودية وعلمنتها».

سبينوزا الشائك

يستكشف الفصل الأخير عن سبينوزا الجوانب الأكثر إثارة للجدل في معتقداته اللاهوتية والفلسفية. وتختلف بعض هذه الآراء كثيرًا عن آراء يالوم الذي كما فعل سابقًا، فإنه يترك للقرّاء حرية التوصل إلى استنتاجاتهم

الخاصة. فقد استهّل حديثه بطرح مصطلحين محوريين في فلسفة سبينوزا، هما conatus - الرغبة في الاستمرار في الازدهار التي تشبه في بعض النواحي إرادة شوبنهاور، وإرادة القوة عند نيتشه، و«الهو» عند فرويد، والرؤية من زاوية الأبدية، أي النظر إلى الأشياء في ضوء الخلود. ثم بيّن بينتو الحاجة إلى التخلّص من «الهو»، أي تجاوز الحواجز التي تفصل الذات عن الآخر. وعندما يحدث ذلك، يشرح لفرانكو، «تغمرنا حالة من الهدوء الشديد»، لكن هذه التجربة السعيدة تنذر بفقدان الانفصال بدلًا من فقدان الترابط. «لذلك فإنك ترى أن هناك فرقًا - الفرق بين أن يلّتف الناس حول بعضهم سعيًا للدفء والأمان إزاء الأشخاص الذين تجمعهم نظرة مستنيرة وسعيدة مشتركة إزاء الطبيعة أو الله». تستحضر صورة بينتو للناس الذين يتجمعون معًا سعيًا للدفء رواية يالوم السابقة عندما لا تستطيع قنافذ شوبنهاور التي تتجمع معًا لتقي نفسها من البرد، أن تمنع نفسها من غرز أشواكها الحادة في بعضها بعضًا. إن صورة بينتو ليست صورة للطبيعة البشرية الشائكة، وإنما هي إمكانية الاتحاد مع الكمال الإلهي. لا يستطيع فرانكو أن يفهم معتقدات سبينوزا غير التقليدية، ويلاحظ بسخرية أن التفكير في فقدان «الهو» يسبب له الصداع.

ما الذي يقصده سبينوزا تحديدًا عندما يتحدّث عن رؤية العالم من منظور الأبدية؟ هل يوحي هذا العقلاني الكبير بنزعة صوفية؟ وهل تُعَدّ فكرة سبينوزا عن «التأمل الواعي أو اليقظة الذهنية» تجربة متعالية؟ إذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن التوفيق بينه وبين إيمانه بإلهٍ مقيم في الوجود؟ هل يفضي الحب العقلي لله إلى حياة خالدة؟ أطلق سبينوزا الذي ظلّ خصمًا عنيدًا للدين الغَيبيّ في كتابه «الأخلاق» جملة من العبارات التي توحي بإيمانه بالخلود، لكن ملامح مذهبه في الخلود، كما تقول هايدي م. رافن، «شديدة الإيجاز والالتباس»، لا يقلّ غموضًا عن قول سبينوزا بأن الله والطبيعة هما شيء واحد. يتفق يالوم مع مقولة تشيخوف النقدية، ويطرح هذه الأسئلة دون أن يجيب عنها.

تقدير القصص

من بين ما يُعاب على سبينوزا أنه لم يُولِ القصص والسرد ما يستحقانه من تقدير، وهو ما يعدّه يالوم، بوصفه راويًا ومعالجًا، مشكلة أساسية. وبينما يستمتع فرانكو بالقصص، يحكي القصة التالية عن الحاخام يوهانون: «القصّة التي تقول إنه عالج حبرًا آخر بأن أعطاه يده، ثمّ عندما مرض هو نفسه، زاره حبر آخر وسأله، ‹هل تتحمل هذه الآلام؟› فأجاب الحبر يوهانون، ‹لا أتحملها هي ولا ثوابها›، وعندها عالج الحبر الآخر يوهانون بإعطائه يده». إن قصة التلمود نسخة معدلة من فكرة يونغ عن المعالج الجريح التي يناقشها يالوم في روايته «علاج شوبنهاور». عندما سمع بينتو قصة الحبر يوهانون، سرعان ما لخص موضوعها: «لا يستطيع السجين أن يحرّر نفسه. لا ريب أنك تريد أن تقول إنني أستطيع أن أحرّر الآخرين، لكنّي لا أستطيع أن أحرّر نفسي؟» يُلمح يالوم إلى أن الجزء الأول فقط من قول بينتو هو الصحيح. في رأي يالوم، فإن القصة لا تؤيد وجود عالم آخر، بل تؤكد على أن المعلمين والطلاب، والمعالجين والمرضى، والمؤلفين والقراء يمكنهم شفاء بعضهم بعضًا. هنا يتعاطف يالوم تمامًا مع فرانكو، وليس مع بينتو. يسأل فرانكو: «لماذا تنبذ متعة قصّة جيّدة، إنها متعة تبدو لطيفة جدا، شاملة جدًا؟ أيّ ثقافة لا توجد فيها قصص؟» وأضاف فرانكو أن الطلاب سيظلون مهتمين دائمًا بالقصص، بينما لن يكون هناك طابور طويل من الطلاب المتشوّقين إلى تعلّم أشياء عن إقليديس والهندسة الرياضية». لم يخشَ فرانكو أن يلفت الانتباه إلى ضيق أفق بينتو في بعض المسائل، مستذكرًا ملاحظة نيتشه بأن المرء يردّ الجميل لمعلّمه بطريقة سيئة إذ بقي تلميذًا.

سبينوزا الإنسان

نجح يالوم في روايته «مشكلة سبينوزا» في إضفاء الطابع الإنساني على

أكثر الفلاسفة غموضًا في التاريخ، موضحًا أنه، بعكس الاستنتاجات المستخلصة من كتاباته، لم يكن عقلانيًّا باردًا. يقدّر سبينوزا في رواية يالوم الحبّ الإنساني، مع أنه يجب أن يبقى على مسافة آمنة من الآخرين. يبدو بينتو أحيانًا أشبه بقديس، لكنه بعيد كل البعد عن الكمال. يفهم سبينوزا كما صوّره يالوم أن الحبّ يولّد الحبّ، وأن الذين يكرهون هم عادة ضحايا عواطفهم. في صميم لاهوت سبينوزا وفلسفته تتجلّى رؤية أخلاقية سامية، قوامها الإيمان بالتسامح والبرّ. ويؤكد أن النعمة أو السعادة الحقّة ليست ثوابًا للفضيلة، بل هي الفضيلة نفسها، وهذا ما جسّده في حياته. ظلّ رجاء سبينوزا في دينٍ كوني بعيد المنال كما كان في القرن السابع عشر، لكنه لم يدّخر وسعًا للسعي لتحقيق هذا الحلم. وصف فرانكو هذه الرؤية للجنة بأنها «ما تزال بعيدة ألف سنة»، فردّ بنتو، «لا أشكّ بأنها تحتاج إلى بذل جهد. فجميع الأشياء الرائعة تكون صعبة ونادرة»، وهي عبارة تردّد صدى آخر سطر في كتاب «الأخلاق». [illegible]

مع انتهاء الفصول المتعلقة بسبينوزا، يفترق بينتو وفرانكو بحبّ، فيغادر الأخير إلى العالم الجديد مع عائلته، ويواصل الأول تفكيره الراديكالي وكتاباته. حثّ فرانكو بينتو على أن يتوخى الحذر وألّا يضع اسمه على الكتاب الجديد الذي يكتبه، «أنا أصدّق كلّ ما تقوله، لكن لن يستمع إليه أحد بعقلانية. ليس الآن، ليس في حياتنا». انتهت الرواية بعودة بينتو إلى «العزلة»، لكن تحذير فرانكو يمهّد للقصة الأخرى: ألفريد روزنبرغ الذي يصبح مهووسًا بمشكلة سبينوزا.

التطلع إلى المستقبل: أسطورة القرن العشرين

تبدأ القصة الموازية في الفصل الثاني من رواية «مشكلة سبينوزا» الذي تجري أحداثه في ريفال، بإستونيا، في ٣ مايو (أيار) ١٩١٠. يبدو أن هذا الشاب البالغ من العمر ستة عشر عامًا الذي سيصبح لاحقًا منظّرًا للنازية،

«يشبه الجميع ولا يشبه أحدًا»، على حد تعبير يالوم. ثم تطلّع الروائي إلى المستقبل ليحسم أيّ غموض قد يساور القارئ بشأن مصير ألفريد روزنبرغ:

بعد تسع سنوات سيسمع خطابًا حماسيًّا في اجتماع يعقده حزب العمّال الألماني يلقيه أحد المشاركين في الحرب العالمية الأولى اسمه أدولف هتلر، وسينضم ألفريد إلى الحزب بعد فترة قصيرة من انضمام هتلر إليه. وبعد عشرين سنة سيضع قلمه وسترتسم على شفتيه ابتسامة عريضة تشي بالانتصار وهو يضع اللمسات الأخيرة على آخر صفحة في كتابه، «أسطورة القرن العشرين» الذي سيباع منه أكثر من مليون نسخة، سيعرض فيه الكثير من الأسس الأيديولوجية للحزب النازي وسيبرر مسألة القضاء على اليهود الأوروبيين. وبعد ثلاثين سنة، ستقتحم قوّاته متحفًا هولنديًّا صغيرًا في رنسبرخ ويصادر مكتبة سبينوزا الشخصية التي تضم مئة وواحد وخمسين مجلدًا. وبعد ستّ وثلاثين سنة، ستبدو عيناه المحاطتان بهالتين داكنتين في حيرة وسيهزّ رأسه بالنفي عندما يسأله منفذ حكم الإعدام الأمريكي في نورمبرغ «هل لديك كلمات أخيرة تريد أن تقولها؟».

قد يتوقّع المرء أن يكون كتابٌ بيعت منه مليون نسخة وصدر عام ١٩٣٠ متاحًا بسهولة، لكن عندما طلبتُ نسخة من كتاب «أسطورة القرن العشرين» عبر خدمة الإعارة المتبادلة في جامعتي، أُبلغت بأن هذا الكتاب غير متوفر في أي مكتبة من مكتبات الجامعات المشاركة. كانت هذه أول مرة في مسيرتي التعليمية الطويلة في جامعة ألباني لم أتمكن فيها من الحصول على نسخة من كتاب طلبته. فلجأت إلى الإنترنت، ووجدت نسخة متاحة على موقع أمازون. كانت النسخة التي تلقيتها، سيئة الطباعة، وصعبة القراءة (الفقرات متداخلة لا يوجد بينها مسافة)، ولا تحتوي على معلومات الفهرسة المعتادة لمكتبة الكونغرس، وظهرت عبارة «صنع في الولايات المتحدة الأمريكية» في الصفحة الأخيرة من الكتاب، تلتها عبارة «ميدلتاون، ديلاوير» بالإضافة إلى التاريخ: «٢٠ يوليو (تموز) ٢٠١٦» - وهو التاريخ الذي طلبتُ فيه الكتاب،

وظهرت على غلاف الكتاب صورة هتلر وهو يحيّي عشرات آلاف الجنود الألمان الواقفين في تشكيل عسكري. ويعرض الغلاف الخارجي ملخصًا متعاطفًا مع أيديولوجية روزنبرغ من دون ذكر نهايته المشينة.

إن كتاب «أسطورة القرن العشرين» كتاب بغيض تمامًا، مؤلف من ٣٨١ صفحة مليئة بالكراهية والتعصب تتنكّر في شكل تاريخ ثقافي. ويُضفي الكتاب طابع التمجيد على «الآريّة»، ويساويها «بالشعوب النوردية في شمال أوروبا»، ويصوّر الثقافات الأخرى بأنها مدنّسة «بالتأثيرات السامية». وقد عزمتُ على قراءته بتأنٍ في إطار بحثي حول مشكلة سبينوزا، كما فعل يالوم على الأرجح، لكنني لم أتوقّع أن يثير في نفسي شعورًا بالغثيان، فقد كانت كل صفحة فيه تنضح بالكراهية العرقية.

مذكرات

يستشهد يالوم ايضًا بمذكرات روزنبرغ التي كتبها عندما كان ينتظر محاكمته بتهمة ارتكاب جرائم حرب. وقد نشرت نسخة «مذكرات روزنبرغ» التي استعرتها من مكتبة الجامعة، دار نشر صغيرة مستقلة لم أسمع عنها من قبل تدعى «دار أوستارا للنشر» وتكشف المقدّمة المجهولة بوضوح أنّ الناشر ينكر المحرقة ويتبنّى موقفًا مؤيّدًا لروزنبرغ، جاء فيها: «مع نهاية الحرب، اعتُقل مع كبار قادة الرايخ الثالث، ومثُل أمام محكمة نورمبرغ وأنكر معرفته بالمحرقة المزعومة، وقال للمحكمة إنّه لم يسمع عن هذه الادعاءات إلّا في نورمبرغ، وإنّه لم يصدّقها».

عرض روزنبرغ في مذكراته رؤية منقحة لكتاب «أسطورة القرن العشرين»، وهو تبرير ذاتي يردّده المحرر المجهول. يُذكر في إحدى الحواشي أن «وصف روزنبرغ الجريء الذي قدّمه عن تاريخ المسيحية جعله عرضة للاتهام بمعاداة المسيحية، وقد غطّى ذلك الجدل على الفصول الأشد أهمية في الكتاب، الفصول التي تبحث في المسألة العرقية العالمية والدعوة إلى دول

متجانسة عرقيًا لأنها السبيل الوحيد لصون الثقافات المتفرّدة في العالم». لذلك يقدّم المحرر حجة خبيثة، يدافع فيها عن العنصرية بهدف الحفاظ على التنوع الدولي. ولا تكشف المذكّرات الكثير عن حياته الباطنية، لكن شعوره بعدم الأمان يطفو أحيانًا، كما عندما يقول إن هتلر «كان يقدّرني كثيرًا، لكنه لم يكن يحبّني». ويختتم المذكّرات بإيمانه بأن الرايخ الثالث المهزوم سيُبعث ذات يوم ويعود إلى الحياة. «وكما عرفت أفكار عظيمة أخرى قممًا وقيعانًا، فإن الاشتراكية القومية ستُبعث أيضًا ذات يوم في جيل جديد صقلته الأحزان، وستُنشئ في شكل جديد رايخًا جديدًا للألمان». وقد اقتبس يالوم الجملة ذاتها في روايته «مشكلة سبينوزا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

مشكلة روزنبرغ

أثارت قراءة كتاب «أسطورة القرن العشرين» غضبًا شديدًا في نفسي حتى إنني لم أستطع أن أنهي قراءة الكتاب. استطعت أن أنهي قراءة «مذكرات روزنبرغ»، فقط لأنها أقصر وأقلّ حدّة، ولم أتوقف عن التساؤل: مَنْ يريد أن ينشر مثل هذه الكتب البغيضة؟ ومَنْ قد يرغب في قراءتها غير الباحثين أمثالي؟ بحثًا عن إجابة «لمشكلة روزنبرغ»، بحثتُ في موقع جوجل عن «دار أوستارا للنشر» وتأكدت من الشكوك التي كانت تساورني. فكما ورد في موقع الدار الإلكتروني، «فإنها تسعى لأن تكون المورد الأوروبي المركزي الرئيسي في العالم. وأنشئت بسبب التمييز ضد البيض في جميع أنحاء العالم، وترى أن دراسة النظرة الأوروبية المركزية للعالم وتوسيع نطاقها أمر حيوي لاستمرار وجود شعبنا وحضارتنا». وفي مقال نشره «مركز القانون لمكافحة الفقر في الجنوب» وصفت ليا نيلسون آرثر كيمب، ناشرة «دار أوستارا» (وعلى الأرجح المحررة المجهولة لمذكرات روزنبرغ) بأنها «امرأة متطرفة بيضاء سيئة السمعة من جنوب إفريقيا» لا تكتفي بالكتابة لمنشورات متطرفة بيضاء، وإنما افتتحت أيضًا مكتبة على الإنترنت تعرض فيها طبعات جديدة من «منشورات عنصرية من الماضي كان من المستحيل العثور عليها».

إن أفضل ما يمكن أن يقال عن ألفريد روزنبرغ التاريخي هو أنه، بعكس زملائه من الضباط النازيين، أُعدم شنقًا بسبب كتابته كتاب «أسطورة القرن العشرين» بشكل رئيسي. وكما تبيّن مذكراته، فإنه لم يعترف قط بتواطؤه في الكارثة التي أحدثها النازيون. توجد لدى قلة من الروائيين البصيرة والتعاطف اللازمين لخلق شخصية خيالية مثل روزنبرغ، ولا يستطيع إلّا قلة من المعالجين النفسيين علاج مريض يتصف بهذه السمّية، لكن هذا ما فعله يالوم تمامًا في رواية «مشكلة سبينوزا». يظلّ القارئ مشدودًا إلى صورة روزنبرغ المتخيَّلة، وهو ما يزيد الرواية تأثيرًا ووقعًا.

واجب دراسي عن غوته

تقدّم الفصول الأولى من رواية «مشكلة سبينوزا» طالبًا وقحًا في المدرسة الثانوية يتحدّث عن نظريات داروين الاجتماعية، و«البقاء للأقوى»، ونظريات هيوستن ستيوارت تشامبرلين (١٨٥٥-١٩٢٧) المؤرخ الإنجليزي الذي تزوج ابنة ريتشارد فاغنر العنصرية. ويصف روزنبرغ كتاب تشامبرلن «أسس القرن التاسع عشر» بأنه «كتاب نبيل».

كلّف استاذ روزنبرغ، هير شيفر، ومدير المدرسة إبشتاين روزنبرغ بإعداد دراسة لكي يتحرر من مشاعر معاداة السامية. فطلب المدير من روزنبرغ أن يسمّي أعظم أبطاله، الشخص المعجب به أكثر من أي شخص آخر، فأجاب الطالب على الفور «غوته»، مشيدًا به بأنه أعظم الألمان، ثم طلب الأستاذ والمدير من روزنبرغ أن يقرأ الفصلين في سيرة غوته الذاتية اللذين يعبّر فيهما عن إعجابه الشديد بسبينوزا، ثم كتابة ثلاث نسخ من كل ما يقوله غوته عن الفيلسوف. لم يكن روزنبرغ قد سمع شيئًا عن سبينوزا، وعندما اشتكى من أن هذه الدراسة ستكون شاقة، قيل له إن الطالب الذي وصف المدير بأنه غير مؤهل لمنصبه لأنه يهودي سيُطرد من جميع المدارس في إستونيا أو ألمانيا. وافق روزنبرغ على أداء هذه الدراسة مكرهًا، لكنه وجد صعوبة كبيرة لأنه ليس

من الواضح دائمًا متى تحدّث غوته عن سبينوزا، فطلب المعلم من تلميذه أن يحفظ فقرة مختصرة من السيرة الذاتية. وفي لقائهما التالي، قرأ روزنبرغ بطريقة آلية فقرة توضح سبب امتنان غوته الشديد للفيلسوف: «إن العقل الذي كان له تأثير قوي عليّ وعلى طريقة تفكيري هو سبينوزا. فبعد أن بحثت طويلًا، لكن عبثًا، في كلّ مكان عن وسيلة أصقل فيها طبيعتي الغريبة، عثرت أخيرًا على كتاب الأخلاق الذي كتبه هذا الرجل. فهو الكتاب الذي هدَّأ عواطفي المتأججة، وفتح أمامي مشهدًا فسيحًا وحرًّا على الجوهر والعالم الفاني».

حفظ روزنبرغ عن ظهر قلب الفقرات التي ذكر فيها غوته بأنه كان لسبينوزا أثر مهدّئ على عقله القَلِق. لكنه لم يتمكن من استيعاب السبب الذي جعل غوته يعتقد أنه «أشدّ المخلصين لعبادة سبينوزا». اعترف روزنبرغ، وهو ينظر إلى الملاحظات التي دوّنها، أنه بعكس ما ادّعى أعداء سبينوزا، لم يكن غوته يعتقد أن الفيلسوف الهولندي كان ملحدًا. واعترف روزنبرغ ببطء أن غوته كان معجبًا بسبينوزا لأن سبينوزا «كان رجلًا طيبًا وعاش حياة تبهج الرب؟» وأضاف المدير إن غوته كان شديد الإعجاب بسبينوزا حتى إنه ظلّ يحمل في جيبه نسخة من كتاب الأخلاق لسبينوزا سنة كاملة، وهي تفاصيل لا تظهر في السيرة الذاتية.

يذكر غوته في سيرته الذاتية، في فقرة لم يقتبسها يالوم في روايته، أنه شعر «بطمأنينة في النفس وصفاء في الفكر» عندما بدأ يقرأ مؤلفات سبينوزا التي صدرت بعد وفاته. هذا ما حدث لفرانكو في وجود بينتو. يوحي يالوم بأن روزنبرغ أصبح مهووسًا بكتابات سبينوزا راجيًا أن يصل هو أيضًا إلى الشفاء النفسي، ويهدئ شغفه من خلال العلاج بالقراءة. وقال المدير لروزنبرغ إن كاتبين ألمانيين عظيمين آخرين، هما ليسينغ وهاينه، كانا معجبين جدًّا بسبينوزا، وشعرا كلاهما «بالصفاء والهدوء» عندما قرآ كتاب «الأخلاق». وطلب المدير من روزنبرغ أن يعده أن يقرأ كتاب «الأخلاق» بأكمله قبل عيد ميلاده الحادي والعشرين. وكشف المدير أخيرًا لروزنبرغ المندهش أن سبينوزا كان يهوديًّا، ثم سرد المدير أسماء يهود ألمان عظماء آخرين، أُرغم بعضهم على اعتناق الدين المسيحي، مثل فيليكس مندلسون

وغوستاف مالر، بالإضافة إلى رئيس الوزراء الإنجليزي بنيامين دزرائيلي، والملحن الفرنسي جاكوب أوفنباخ، وقال أخيرًا، «هناك عدد من العباقرة. ما تفسيرك؟» لم يملك روزنبرغ تفسيرًا سوى أن يوافق على ادعاء تشامبرلين بأن سبينوزا، مثل يسوع، ربما كان ينتمي إلى الثقافة اليهودية، لكن لم تكن تسري في دمه قطرة دم يهودية واحدة.

الازدواجية

تمكننا الحبكة المزدوجة والسيرة الذاتية المزدوجة في رواية «مشكلة سبينوزا» من رؤية، وإن لم يكن من القراءة الأولى، أن شخصيتيْ يالوم تجدان نفسيهما في مواقف متشابهة، فكلتاهما شوكة في خصر معلميهما، وقد انتُقدا كلاهما لأنهما طالبان «وقحان» هُدِّدا بالنفي أو بالطرد، وكتبا كلاهما كتبًا أُدينت لأنها تنادي بأعمال فظيعة. وانتقدا كلاهما الدين التقليدي الذي كانا يسعيان إلى عكسه أو تدميره لصالح رؤيتهما الدينية الراديكالية. وكان كلاهما ينادي بالعقل، سبينوزا بما يدعوه «حقيقة عقل الله الأبدي»، وروزنبرغ بما يدعوه هتلر بشكل غريب في الرواية «معاداة السامية العقلانية». وسعيا كلاهما إلى «تحويل العقل إلى شغف» كما قال بينتو لفرانكو، وكما قال فريدريش لكارل أبراهام عن روزنبرغ. وعاشا كلاهما في قرون سيطرت عليها لفترة من الزمن محاكم التفتيش الدينية أو السياسية قُتل فيها عدد لا يحصى من الناس بسبب معتقداتهما. وعانيا كلاهما من فقدان أمه في سن مبكرة، مما أثّر على شخصيتهما مدى الحياة. وأخيرًا، عاشا كلاهما في عزلة، أحدهما طواعية لتكريس نفسه لحياة الفكر والسعي إلى الكمال، والآخر قسرًا في محاولة للحصول على الحب والتقدير من أكثر شخص متوحش في ذلك القرن.

بداية «العلاج»

يلخص يالوم بإيجاز السنوات التي تخلّلت تخرج روزنبرغ من المدرسة الثانوية ولقائه بفريدريش بفيستر في إستونيا عام ١٩١٨. حاول روزنبرغ

الوفاء بوعده بقراءة كتاب «الأخلاق» قبل أن يبلغ الحادية والعشرين من عمره، لكنه لم يستطع أن يتجاوز الصفحة الأولى. يُعَدّ كتاب الأخلاق من أعظم النصوص الفلسفية، وقد صيغ بأسلوب إقليدي يعكس نزوع سبينوزا إلى الأقنعة والتمويهات التي ربما استخدمها اتقاءً من الرقباء، وهذا ما دفع هاينه لأن يصف غوته بأنه «سبينوزا الشعر»، وهي فكرة لم يدركها روزنبرغ، ومع ذلك، لم يستطع أن يتخلّى عن كتاب سبينوزا.

مثل نظيره التاريخي، بدأ روزنبرغ في رواية يالوم دراسته في معهد البوليتكنيك في ريغا، في لاتفيا، ثم انتقل مع بقية الطلاب إلى موسكو في عام ١٩١٥ عندما هددت القوات الألمانية دول البلطيق. وعندما عاد إلى وطنه في عام ١٩١٨ التقى بفيستر. هنا يبدأ يالوم في استكشاف حياة روزنبرغ الداخلية. يكمن التحدي الذي يواجه يالوم في خلق حبكة تسمح لصداقة روزنبرغ مع فريدريش بفيستر بالتطور بشكل طبيعي لتصبح ثقة. كان يوجين روزنبرغ الذي يكبر ألفريد بست سنوات، قد سمع فريدريش يوجين يتحدّث كثيرًا عن شقيقه الذي انقطعت علاقته به.

عندما تعمّقت الصداقة العرضية بين ألفرد روزنبرغ وفريدريش وأصبحت بداية علاقة علاجية، نلاحظ أن مشاعرنا تجاه ألفرد قد أصبحت أكثر إيجابية، رغم إدانتنا للشخصية التاريخية. فمن الأسهل أن نتعاطف مع ألفرد روزنبرغ المتخيَّل، جزئيًّا لأننا نرى هشاشته، وجزئيًّا لأننا أصبحنا نفهم حياته بشكل أفضل، وجزئيًّا لأننا نسعى إلى التوصل إلى الحكم المستنير الذي توصل إليه الروائي نفسه. إننا نكره روزنبرغ التاريخي عندما نقرأ كتابه «أسطورة القرن العشرين» ومذكّراته، لكننا نرى له وجوهًا أخرى عندما نقرأ رواية «مشكلة سبينوزا». ولذكر فرق صغير لكنه مهم، فإني أجد نفسي في معظم الأحيان أشير إلى الشخصية التاريخية باسم «روزنبرغ» وإلى الشخصية المتخيلة باسم «ألفريد». قد لا يريد بعض القرّاء رؤية روزنبرغ في صورة إنسانية ويفضّلون شيطنته، لكن الفضل يعود إلى يالوم في محاولته فهمه، وأحيانًا التعاطف معه.

«التوقيت هو كل شيء»

كشف فريدريش أنه أنهى تدريبه في الطب النفسي الأمر الذي ساعد ألفريد على فهم كيف استطاع صديقه الجديد أن يقرأ أفكاره، وأوضح فريدريش أيضًا أنه بدأ التحليل النفسي في برلين مع كارل أبراهام، أحد أعضاء الدائرة المقرّبة من فرويد. وعندما سأله ألفرد: «لكن، يا فريدريش، لماذا توّرط نفسك في دراسة مجال يهودي؟» ردّ فريدريش ردًّا يبدو مقنعًا، «سيكون ميدانًا يهوديًّا إذا لم نتقدّم نحن الألمان، أو بعبارة أخرى يجب علينا ألّا نتركه لليهود فقط»؟ ثم تحدّى فريدريش ألفرد بأن يشرع بإجراء بحث سبينوزي عن منابع عدائه لليهود، فقال له: «يخيّل إليّ أن هذا المجال بدأ مع سبينوزا الذي يعتقد بأنّ لكلّ شيء سبب، حتى العاطفة والفكر، يمكن اكتشافه عند إجراء فحص صحيح». فاتخذ ألفريد على الفور موقفًا دفاعيًّا، وأدرك فريدريش أنه كان عدوانيًّا جدًّا. وتذكّر بليولير الذي حذّره مرات عديدة: «أيها الشاب، إن التحليل النفسي ليس كبشًا ينطح: فنحن لا نطرق بالمطرقة حتى ترفع الأنا العليا رايات الاستسلام البيضاء المهترئة بعد أن تكون قد أُصيبت بالإعياء. صبرًا، صبرًا. اكسب ثقة المريض. حلّل وافهم المقاومة - لأن المقاومة ستتلاشى عاجلا أم آجلاً وسيُفتح أمامك الطريق إلى الحقيقة».

بوصفها رواية علاجية، تسلّط رواية «مشكلة سبينوزا» الضوء على عدة أخطاء سريرية ارتكبها فريدريش، أحدها إخبار المريض بأكثر مما يريد سماعه. فقد أرغم نفاد صبر فريدريش على أن يكشف لألفريد عن شيء أخبره به يوجين روزنبرغ قبل عدة سنوات: أن جدتها الكبرى كانت يهودية روسية. لا توجد أدلة تاريخية تؤكد ذلك، لكن قد يكون ذلك صحيحًا. علاوة على ذلك، كان المدير إبشتاين قد أعدّنا لهذه التفاصيل. لكن ألفريد نفى ذلك بشدة، ومرة أخرى تذكّر فريدريش نصيحة بليولر له. «ليس من الضروري أن تذكر كلّ ما تفكّر به يا دكتور بفيستر، فالمعالجة ليست مكانًا لتطلق فيه

أفكارًا مزعجة. تعلّم كيف تحتفظ بها في نفسك. تعلّم أن تكون وسيلة لضبط أفكارك المنفلتة. فالتوقيت هو كلّ شيء».

يحافظ يالوم طوال الرواية على تركيز مزدوج، ويظهر كيف أن صراع سبينوزا في أعقاب محاكم التفتيش يوازي صعود أكثر محاكم التفتيش رعبًا في العالم، وهي الاشتراكية القومية. كان ألفريد يحتفظ بنسخته من كتاب «الأخلاق»، ووعده فريدريش بأن يكون مرشدًا له. وبناءً على توصية فريدريش، بدأ ألفريد قراءة كتاب «الأخلاق» وصدمه انتقاد سبينوزا للدين الذي يتطابق مع انتقاده هو نفسه. في لحظة تناقض معرفي يكشف له السبب الذي جعل أبطاله العظماء، وفي مقدمتهم غوته، يبجلّون سبينوزا. لكنه، أقنع نفسه بأنهم لم يكونوا على بيّنة من أنّ «علم الأعراق الجديد» يرى في الدم الملوّث خطرًا على الأمة، وهو تبرير عززته صداقته مع هتلر. وعلى الرغم من ذلك، ظل شبح سبينوزا يطارده، فسافر مرتين إلى رنسبرخ ليزور متحف سبينوزا. كانت الزيارة الأولى في عام ١٩٢٢، عندما عثر على نسخة من القصيدة التي كتبها أينشتاين بعد أن أمضى يومًا كاملًا في مكتبة سبينوزا. لكن ألفريد ارتكب خطأً عندما قال لحارس المتحف إنه يريد أن يكتشف أصل أفكار سبينوزا، فردّ عليه الحارس، «أنت لست هنا لتعرف المزيد عن سبينوزا. أنت هنا لتدمّره. لتثبت أنه سرق أفكاره». شعر ألفريد بالإهانة عندما طُلب منه أن يغادر المتحف، «رأى ألفريد وجه جهنم: حارس يهودي يمارس سلطة على شخص آري، يهودي يمنع غير يهودي من الاقتراب، اليهود يسجنون فيلسوفًا عظيمًا يكره اليهود. لن ينسى هذا اليوم في حياته».

ولم ينسه. حدثت أحداث كثيرة في الرواية بين فترة طرده من متحف سبينوزا في عام ١٩٢٢ وعودته منتصرًا في عام ١٩٤١ بصفته الرايخسليتر روزنبرغ. سافر إلى برلين للقاء فريدريش الذي أصبح مستشارًا في قسم العيادات الخارجية للاضطرابات العصبية والنفسية. عندما اكتشف ألفريد فريدريش كتابًا أثار حماسته من جديد لتأكيد مشاعره المعادية للسامية وهو كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» الشهير الذي تبين لاحقًا أنه كتاب

ملفّق. خضع فريدريش للتحليل النفسي خلال السنوات الثلاث الماضية، وأصبح مستمعًا أفضل. وتذكّر وعده بأن يساعد ألفريد على أن يفهم كتاب سبينوزا «الأخلاق» الذي أربكه كثيرًا.

مع أن فريدريش كان مهتمًا بمساعدة ألفرد، فقد رأى فيه أيضًا، بدافع أقل نبلًا، حالة محتملة للدراسة. فقد كان فريدريش يعرف ألفريد منذ ربع قرن، منذ أن حاول أن يحمله على ظهره عندما كان صبيًّا صغيرًا. ويعرف فريدريش أيضًا والد ألفريد وأخاه وأمه البديلة وطبيبه. ولا يزال ألفريد نفس ذلك الصبي القلق الذي لا يستطيع أن يستمتع بالحياة كما كان قبل خمسة وعشرين عامًا. إن استمرار هذه الصفات مدى الحياة أثار اهتمام فريدريش. «يا لها من فرصة نادرة أن تتمكن من دراسة أصل تشكيل الشخصية! قد يكون ذلك اختراقًا مهنيًّا عظيمًا». وقد أثار استمرار هذه الصفات طوال الحياة اهتمام يالوم أيضًا، كما تُظهر رواياته. فإذا لم ينجح يالوم تمامًا في جعل فريدريش شخصية ثلاثية الأبعاد، فإن إيثار الشاب الألماني النفسي وطموحه وحذره المتزايد تلتقي وتجعل منه شخصية قابلة للتصديق. وكان حوار فريدريش مع ألفريد مقنعًا أيضًا، ما عدا الاستخدام المتكرر لكلمة «schmoozing» بلغة اليديش.

كانت تحليلات فريدريش النفسية مقنعة وواقعية أيضًا، وسارت الجلسة العلاجية الأولى بشكل ناجح ومثمر. اعترف ألفريد بأن زملاءه يطلقون عليه لقب «أبو الهول». ثم قال فريدريش لألبرت أن يدع أفكاره عن «أبي الهول» تدخل إلى عقله بحرية ويفكّر بصوت مسموع، فقال ألفرد: «أبو الهول... الصحراء، ضخم، قويّ، غامض، مبهم، يحتفظ بأسراره. خطير - لقد خنق أبو الهول أولئك الذين لم يستطيعوا الإجابة على لغزه». وبمساعدة فريدريش، أدرك ألفريد أن لسلوكه الشبيه بسلوك أبي الهول محاسن وعيوب، ثم بدأ ألفريد يعترف بحبّه من جانب واحد لهتلر الذي كان يرى أنه شخصية أبوية مثالية يريد أن يحصل منه على الحبّ الذي حرمه منه والده. «أظن أنّني أعجبه، لكنّه لا يحبّني»، يعترف ألفريد، مستخدمًا نفس اللغة تقريبًا، كما

نتذكر الواردة في مذكرات روزنبرغ.

مثل يالوم، يؤمن فريدريش بعلاج «هنا والآن»، متجنبًا البحث الطويل والعبثي في الماضي البعيد لمريضه. في كتابه «الإله السيكوباتي: أدولف هتلر»، شدّد روبرت وايت على مُشكلات هتلر الأوديبية التي لم تُحلّ، وآلياته الدفاعية المعيبة، ولجوئه إلى الإسقاط لتشويه وشيطنة أعدائه، مما أدى إلى ظهور معاداة السامية السامة، لكن نهج وايت النفسي البيوغرافي يختلف عن نهج يالوم الذي يكّز بصورة أساسية على مُشكلات روزنبرغ الشخصية والاجتماعية، بالإضافة إلى الطرق التي تتجلى بها هذه المُشكلات في العلاقة بين المعالج والمريض.

«الكراهية في الانتقال المقابل»

من دون علم ألفريد، كان فريدريش يتحدّث عنه مع كارل أبراهام. فقد شعر فريدريش بالرعب من رسالة تلقاها من ألفريد تفيد بنشر كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» في صحيفته، الكتاب الذي ألهم القيصر الروسي لإصدار أمر بسلسلة من المذابح الدموية. كيف يمكن أن يكون فريدريش معالجًا لمريض يرتكب مثل هذه الأفعال الدنيئة؟ كان هذا أحد الأسئلة العلاجية الرئيسية التي طرحها يالوم في الرواية. «أعرف أنه خطير»، قال فريدريش معترفًا، «كيف يمكنني أن أتعامل مع الانتقال المقابل؟» يطرح أبراهام مسألة ذات صلة: الانتقال المقابل تجاه المشرف. «إن كوني يهوديًّا يجعل من المستحيل أن أقوم شخصيًّا بمعالجة هذا الشخص المعادي لليهود، القاتل». حذّر أبراهام فريدريش بأنه لن يتمكن أبدًا من تحليل رجل يرفض أن يفهم ماضيه. أصبح السؤال بالنسبة إلى أبراهام - ويالوم - لماذا يرغب فريدريش في مساعدة شخص معتل اجتماعيًّا. هل لأن فريدريش يحاول، كما يتساءل أبراهام، التواصل مع طفولته المبكرة، ربما ليعكس مسار الزمن؟ إذا كان الأمر كذلك، يجيب ألكسندر، فإن هذا الجهد سيكون عديم الجدوى.

«إن رؤية ألفريد روزنبرغ لا تفيدك بشيء في صراعاتك الداخلية». اتفق فريدريش في الرأي مع المشرف عليه، لكنه ظن أيضًا أنه قد يتمكن من جعل روزنبرغ شخصًا أخلاقيًّا. لم يستطع أبراهام إخفاء شكوكه. «آه، إذا نجحت في معالجته، فإنك ستنال جائزة نوبل التي لم يحصل عليها فرويد حتى الآن».

يذكّرنا سؤال فريدريش لأبراهام بمقال د. و. وينيكوت الكلاسيكي عام ١٩٤٩ «الكراهية في الانتقال المقابل» الذي يناقش فيه صعوبة علاج المرضى النفسيين. لم يكن وينيكوت يتحدّث عن مرضى ذوي نزعات سيكوباتية مثل روزنبرغ، لكن جلّ ما أورده المحلّل البريطاني يجد صداه في شخصية يالوم. يسعى وينيكوت إلى فهم الانتقال المقابل «الموضوعي» للمحلل. ومن أجل فهم الكراهية في الانتقال المقابل، يجب أن يكون باستطاعة المحلل أولًا إنشاء ما يسميه وينيكوت «بيئة احتضان»، أي بيئة علاجية آمنة. لكن فريدريش لم يستطع أن يفعل ذلك، كما أنه لم يكن يملك الوقت الكافي لمساعدة مريضه على تطبيع مشاعر الكراهية لديه. جرى «تحليل» فريدريش لروزنبرغ في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي عندما كان التحليل النفسي ينظر إلى الانتقال المقابل من منظور ضيق، وعندما كان فرويد يرى أنه يشكّل عائقًا أمام العلاج. وظهرت رؤية أوسع بعد عدة عقود، عندما بدأ يُنظر إلى الانتقال المقابل بأنه أداة علاجية، يشترك فيها المحلل والمريض معًا، ويمكن أن يكون مصدرًا حيويًّا للمعلومات لكليهما. وحتى مع وجود رؤية أوسع للانتقال المقابل، لم يستطيع فريدريش أن يُظهر كراهيته تجاه روزنبرغ الذي سيصبح بعد فترة قصيرة رئيسه السياسي، مسلحًا بالسلطة لتدمير حياته المهنية كطبيب.

حدث اللقاء التالي بين روزنبرغ وفريدريش بعد ثلاث سنوات. قاد هتلر خلال هذه الفترة انقلابًا فاشلًا في ميونيخ، واعتُقل وسُجن بتهمة الخيانة، وعُيّن روزنبرغ في غيابه زعيمًا للحزب. وبعد أن صدر عفو عنه بعد ثلاثة عشر شهرًا، ظهر هتلر مستبدًّا أكثر من أي وقت مضى، وأصرّ على أن يناديه الجميع «الفوهرر»، وأهان روزنبرغ علنًا. لماذا رفض هتلر الإشادة

بأكثر أتباعه ولاءً؟ عكس فريدريش سؤال روزنبرغ المعذَّب، وسأله: «ما الذي يجعل حبّه لك بهذه الأهمية الكبيرة؟» وبحسب تنبؤات أبراهام، قطع روزنبرغ الذي لا يمكن تحليله، العلاج وأطلق تهديدًا مبطّنًا: «سأحرص على أن تغادر أفكار اليهود هذه أوروبا مع اليهود أنفسهم». عقدت آخر جلسة في برلين عام ١٩٣٦، عندما استُدعي فريدريش الذي أصبح الآن طبيبًا برتبة عقيد (فيرماخت) لعلاج عضو الرايخ، روزنبرغ المصاب باكتئاب حاد. كان روزنبرغ التاريخي قد خضع على الأقل لفترتين طويلتين من العلاج النفسي في المستشفى لإصابته بما يسمى «اكتئاب هستيري»، لذلك، ربما خضع لشكل من أشكال العلاج النفسي. انهار روزنبرغ تحت ثقل النقد اللاذع الذي وُجّه إلى كتاب «أسطورة القرن العشرين»، وفاقمته برودة هتلر تجاهه فأصيب بجرح نرجسي مدمّر. أدرك فريدريش أن عليه أن يكون حذرًا، لأن مصير زوجته وابنيه مرتبط بما يجري، فأكّد منذ البداية على أن يحترم كل منهما خصوصية الآخر، ويجب أن تكون السرية متبادلة، فوافق ألفرد، ثم تحدّث عن إعجاب غوته بسبينوزا وقال: «أريد ما وجده غوته عند سبينوزا. أحتاج إلى كلّ ذلك. أريد ما يهدّئ انفعالاتي».

العلاج السبينوزي

هيّأ يالوم القارئ بمهارة لنهج فريدريش السبينوزي في معالجة روزنبرغ. ومن خلال السرد نتعرف على جعبة فريدريش (ويالوم) العلاجية، بما تحويه من أسئلة تستقصي طبيعة العلاقة بين المعالِج والمريض. تحدّى ألفريد أن يطرح على نفسه الأسئلة التالية: «هل ندمتُ على حديثي معه؟ هل أغفلتُ قضايا مهمة؟» ثم سأله سؤالًا آخر: «قل لي، ما هي الجملة المثالية التي تودّ أن تسمعها مني؟» لم تساعد هذه الأسئلة ألفريد على أن يبدأ في التحدّث عن حياته فحسب، بل ساعد أيضًا على تطوير وإبقاء التشويق في القصة. تُعد الأسئلة السردية المحرك لكل من علاج روزنبرغ ورواية يالوم.

تستند طريقة فريدريش العلاجية إلى اعتقاد سبينوزا بأن كلّ ما نفعله

تحدده قوى داخلية وخارجية. فإذا أدركنا هذه الشبكة السببية، فإننا سنكون في وضع يمكننا من فهم حياتنا. تتمثّل خطة فريدريش العلاجية في مساعدة روزنبرغ على تحرير نفسه من اعتماده الماسوشي على موافقة هتلر السادي. يقترح سبينوزا أن حبّ الذات يجب أن يعتمد على شيء أبدي وثابت، أي على حبّ الله الكامل، وليس على حبّ شخص غير كامل، وبالتأكيد ليس على شخص قاس ومدمّر. أدرك فريدريش أن جزءًا من صعوبة العلاج السبينوزي يكمن في أنه لا توجد تقنية واحدة أو بسيطة في نظام الفيلسوف، لا شيء مثل الاعتراف في الديانة الكاثوليكية أو التنفيس في العلاج النفسي. هذا ما يجعل العلاج السبينوزي أكثر صعوبة من أشكال الاستشارة الفلسفية الأخرى - لذلك كانت مهمة يالوم في هذه الرواية أصعب من مهمته في روايتَيْ «عندما بكى نيتشه» أو «علاج شوبنهاور».

وكما في السابق، فشل العلاج، هذه المرة بسبب وصول هتلر غير المتوقع الذي أعلن لزعيم الرايخ أنه رُشِّح للحصول على جائزة الأمة الألمانية للفنون والعلوم التي أُنشئت حديثًا. وبعد أن حصل روزنبرغ على تقدير الشخص الوحيد الذي تعني موافقته له أي شيء، لم يعد يحتاج إلى فريدريش، فاقترب من هتلر وقال له: «حاولت، لكني لا أظن أنني أستطيع أن أُخرج منه ذلك اليهودي. يجب أن نراقبه. قد يكون بحاجة إلى إعادة تأهيل». أنهت خيانة روزنبرغ للسرية علاقته بفايستر، الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه مساعدته على مقاومة انجذابه القاتل لهتلر. ثم اختفى فايستر من الرواية، وتُرك للتفكير في حدود العلاج بالحوار. يذكر الروائي في نهاية «حقيقة أم خيال؟ وضع الحقيقة في نصابها» تقريبًا على الطريقة التي كان يالوم نفسه سيعالجه بها. قد يتساءل بعض القرّاء كيف استطاع طبيب الأعصاب الرحيم في الفيرماخت أن يستمر في خدمة القضية النازية، لكن كثير من الأشخاص الطيبين يجدون أنفسهم متورطين، طوعًا أو كرهًا، في حركات مدمرة. ربما كان روائي آخر سيصوّر فريدريش وهو يحاول بنشاط معارضة النزعة العسكرية الألمانية، لكن هذا كان سيتعارض مع نوايا يالوم في رواياته التعليمية، حيث يكون العلاج دائمًا في خدمة الشفاء.

يصف الفصل الأخير من القسم الذي يتناول شخصية روزنبرغ زيارته الثانية إلى متحف سبينوزا في عام ١٩٤١ التي لم تكن أكثر نجاحًا من زيارته الأولى قبل زهاء عقدين. مهووسًا بمقولة ألبرت أينشتاين التي صادفها، «إن سرّ الإبداع هو أن تعرف كيف تخفي مصادرك»، اقتنع روزنبرغ بأنه يستطيع أن يكشف عن مصادر سبينوزا، وبالتالي فضحه بأنه خدعة يهودية. صادر الكتب الموجودة في مكتبة سبينوزا، لكنه أدرك عندما عاد إلى برلين، أنه لم يستطع أن يقرأ أيًّا منها لأنها مكتوبة باللغتين اليونانية واللاتينية، وهما لغتان لا يفهمهما روزنبرغ. لم يجد قط الدليل الذي يدعم اعتقاده بأن سبينوزا سرق جميع أفكاره من مفكرين آخرين، لم يفلح روزنبرغ في العثور على ذاك البلسم السبينوزي الذي هدّأ غوته بعمق، ولم يكن له ذات الأثر في تهدئة انفعالاته.

أفضل وأسوأ ما في الطبيعة البشرية

تترك لنا رواية «مشكلة سبينوزا» شخصيتين تاريخيتين مختلفتين على نحو مذهل، تلتقي حياتهما بطرق مدهشة. يقول يالوم في الخاتمة: « عاش سبينوزا فلسفته: وبلغ مرحلة «تفوق العقل»، وحرّر نفسه من عبودية العواطف والانفعالات المقلقة، وواجه نهاية حياته بصفاء». لكن على الرغم من هذه الحياة والموت الهادئين، فقد ترك وراءه صخبًا شديدًا لا يزال تأثيره مستمرًّا حتى اليوم، فهناك كثيرون يبجلّونه، وكثيرون آخرون ينتقدونه ويخالفونه بشدة. ظهرت صورة سبينوزا على ورقة نقدية هولندية من فئة ألف غيلدر، وفي عام ١٩٥٦، في الذكرى الثلاثمائة لنبذه، أيدّ ديفيد بن غوريون، رئيس وزراء إسرائيل، وضع لوحة تذكارية هولندية جديدة في الكنيسة التي دُفن فيها الفيلسوف، لكن بعض الأعضاء الأرثوذكس في الكنيست الإسرائيلي غضبوا من إشادة بن غوريون بهذا الكافر، وظلوا يعتقدون أن حرمانه عام ١٦٥٦ كان مبررًا. لم ينكر ألفريد روزنبرغ قط هتلر أو الأيديولوجية النازية، وأُعدم شُنقًا عام ١٩٤٦ مع ضباط آخرين رفيعي المستوى. كأنما انتصرت العدالة الشاعرية عندما أُحرق جثمانه في محرقة داخاو، لكن موت روزنبرغ لم يُسدل الستار على كتاباته التي ما يزال ينشرها أولئك الذين يفتنون بنقاء

العرق الآري.

في روايته «مشكلة سبينوزا» يقدّم يالوم تباينًا مذهلًا بين الخير والشر. فهو يُجيد الإمساك بذلك البُعد المتعالي في شخصية سبينوزا، سموّه عن عالم البشر، دون أن يُغفل إنسانيته. وهكذا ينبثق باروخ سبينوزا كشخصية حية نابضة، ربما للمرة الأولى في أدبنا الحديث. يُظهر سبينوزا في رواية يالوم الذي يتسم بطبعه الحذر، لكنه ثوري في روحه، أن الحياة الهادئة يمكن أن تكون استثنائية. تدمج الرواية بين الواقع والخيال، والذاكرة والأسطورة، وتقدّم لنا تفسيرًا نفسيًا مقنعًا لجهود سبينوزا في إخضاع عواطفه الجامحة، المهدئة لعواطفه. ويكشف يالوم كيف أن مهدّئ الفيلسوف لا يُضعف أبدًا قدرته على الشعور بالفرح والدهشة. ونرى تأثير سبينوزا القوي على غوته، ونفهم لماذا ظل يحمل في جيبه نسخة من كتاب «الأخلاق» لمدة سنة كاملة كمصدر للإلهام والشفاء النفسي. كما أن رواية «مشكلة سبينوزا» مصدر للإلهام والشفاء النفسي، ومثال على الحقيقة الفنية المبنية على الحقيقة التاريخية.

بإظهار كيف كان ألفريد روزنبرغ عبدًا لرغبته في نيل استحسان هتلر، التقط يالوم تأملات شخصيته المهووسة، والتناقض بين تفوقه المتعجرف وكراهيته الشديدة لنفسه، وتأليه هتلر. لكن وراء كل هذا، يقبع جرح نرجسي لم يعترف بوجوده، ويعيش في عالم داخلي هشّ، متصدّع لا يملك السيطرة عليه. يرى يالوم أن مأساته تكمن في أنه لم يستطع قط فهم رؤية سبينوزا المتعلقة بالسعادة. مات ألفريد ولم يتمكن من حلّ مشكلة سبينوزا، فشل من حوّله يالوم إلى رواية مؤثرة تزخر بالحكمة الفلسفية والنفسية.

مسيئًا فهم كلمات أينشتاين، لم يدرك روزنبرغ أن العبقرية لا تُبدع من فراغ، وإنما تُنبت من أفكار الآخرين لتكشف عن حقائق جديدة ومبتكرة. أما يالوم فقد أخفى مصادره النفسية والفكرية والأدبية، التي نذر عمره في السعي وراءها. وربما كان سرّ نجاح رواية «مشكلة سبينوزا» يكمن في ثرائها بأصواتها الأصيلة المتعددة. يطلّ علينا بنتو دي سبينوزا الذي يتسم بالاستقامة بلا ادّعاء وغطرسة، وديعًا وجريئًا في آن معًا، يرتاب في العواطف لكنه شغوف جدًّا بالأفكار، صاحب رؤية ما يزال يلهم قرّاءه. أما فرانكو

بنيت، الطالب المخلص الذي أصبح معلّمًا مستنيرًا، فلم يتردد في كشف عيوب أستاذه والسير وراء رؤيته الخاصة المتعلقة بالإله، فيما يردد الحاخام موريرا صدى صوت المجتمع اليهودي الأرثوذكسي القاسي، المثقل بأعباء قوى التاريخ وخيانته. أما الشخصية الأقرب إلى يالوم نفسه، فهو فريدريش بفيستر، المفكر الرصين المفعم بالتعاطف، لكنه يعلم تمامًا أنهما لا يستطيعان مواجهة الشر. بينما يظل ألفريد روزنبرغ أسيرًا بين عالم انطفأ في داخله، وعالم لم تُكتب له الولادة. وعندما يتخذ خياره المحتوم، يجد نفسه مضطرًّا إلى تحمّل تبعاته. أما صوت يالوم، فيعلو بدوره، صوت الحكيم والطبيب النفسي والروائي البارع، يمنحنا نظرة ثاقبة لا تتزعزع إلى أفضل وأسوأ ما في الطبيعة البشرية.

روائي في ذروة مجده

لا يمكن قراءة كتاب «التحديق إلى الشمس» أو «كائنات فانية» من دون أن يتذكّر المرء تقدّم المؤلف في العمر، لكن من يقرأ رواية «مشكلة سبينوزا» وهو لا يعرف شيئًا عن مؤلفها، فلن يخطر له أن الرواية كتبها رجل وهو في عقده الثامن. فالقصة تكشف عن راوٍ في ذروة قوته التخيلية، لم يكن سحر الساحر يومًا أكثر إقناعًا. وقد رأى مايكل جونسون رواية «مشكلة سبينوزا» أعظم إنجاز روائي ليالوم، ووافقه على ذلك نقّاد آخرون. فقد كتب مارتن سليغمان: «يُعدّ إرفين يالوم أهم كاتب في العالم في وقتنا الحالي في مجال الرواية النفسية. لم أكن أظن أنه سيتجاوز روايته «عندما بكى نيتشه» أو «علاج شوبنهاور»، لكنه فعل ذلك. إن رواية «مشكلة سبينوزا تحفة فنية». وفي المشهد الأخير المروّع من «مشكلة سبينوزا»، لم يكتفِ يالوم بأن يخبرنا بأنّ جثث روزنبرغ وتسعة نازيين آخرين قد أُحرقت في محرقة داخاو، بل يديم النظر إلى نهاية تاريخهم المشؤوم، حكايات رجال عبدوا مسيحًا زائفًا. «ستّون باوندًا من الرماد، كان كلّ ما تبقى من هؤلاء القادة النازيين، نُثرت فوق أحد الجداول وسرعان ما انجرفت إلى نهر إيزار الذي يتدفّق عبر ميونيخ حيث بدأت هذه القصّة الأكثر حزنا والأكثر ظلامًا».

الفصل الثالث عشر

مخلوقات فانية:
توقع النهايات

يقدّم لنا كتاب «مخلوقات فانية وقصص أخرى عن العلاج النفسي» الذي صدر في عام ٢٠١٥، لمحة عن حياة رجل في منتصف الثمانينيات من عمره يعمل طبيبًا نفسيًّا وكاتبًا. يكتب يالوم بين الساعة السابعة والعاشرة صباحًا، فترة يعتبرها عادةً «مقدسة»، لكنه يتوقف عن الكتابة عندما يكون هناك مريض بحاجة ماسة إلى مساعدته. ومثل المرضى الذين يعالجهم، لا يتردّد بأن يعترف بأنه يصارع قلق الفناء أيضًا. يقول لمرضة مصابة بسرطان الجلد (الميلانوما): «إنك تواجهين ما يجب أن نواجهه جميعًا، إن آجلًا أم عاجلًا. فأنا لست مصابًا بمرض محدد، لكن تقدّمي في السن يجبرني على أن أفكّر طوال الوقت في نهاية حياتي».

يستمّد يالوم عنوان كتابه من كتاب «تأملات» للفيلسوف والامبراطور الروماني ماركوس أوريليوس الذي عاش في القرن الثاني. «كلنّا مخلوقات فانية؛ الذاكر والمذكور على حد سواء. كل شيء زائل - الذاكرة والأشياء التي تتذكّرها، وسرعان ما ستكون قد نسيت كلّ شيء، ويكون قد نسيك كلّ شيء. وتذكّر دائمًا أنك لن تكون أحدًا بعد حين، ولا في أي مكان». يستخدم يالوم هذه الفقرة القاتمة عنوانًا للكتاب، وعنوانًا للقصّة العاشرة والأخيرة. كان ماركوس أوريليوس اختيارًا ممتازًا وموفقًا لموضوع قصة يالوم، ويشير الباحث الكلاسيكي ر. ب. رذرفورد في مقدمته لعمل ماركوس أوريليوس، « يكشف كتاب التأملات بجلاء يفوق معظم النصوص القديمة عن المكانة الجوهرية التي قد تحتلها الفلسفة في حياة الإنسان المثقف». لا يغلب على كتاب «مخلوقات فانية» طابعًا جنائزيًّا بقدر ما يتسم بروح الرثاء، وكما في مؤلفاته السابقة في قصص العلاج النفسي، لا تتجه البوصلة إلى الموت بل إلى الحياة. يحث يالوم قرّائه على اغتنام اليوم، «اغتنموا اللحظة، لكن تذكّروا أن الوعي بالموت يزيد من تقدير الحياة».

لا يقدم يالوم في مجموعته «مخلوقات فانية» حكايات علاجية طويلة، بل لوحات خاطفة، تنبض بالإيحاء، تستند أحيانًا إلى جلسة أو جلستين فقط. إنها أقرب ما تكون إلى صور مصغّرة، يُصاغ فيها كل تفصيل بدقة متناهية، وتفتح كل لوحة بابًا على أسئلة عصيّة: كيف يستطيع يالوم أن يساعد شيخًا أثقلته ستة عقود من حبسة الكتابة؟ كيف يقدّم العزاء لشاب أثقلت حياته الخسارات، كان آخرها انتحار ربّ عمله؟ كيف يواسي راقصة باليه روسية في أواخر عمرها حبست نفسها في الماضي؟ كيف يواجه إخفاقًا قديمًا مع طبيب أشعة عندما تعلن له زوجة المريض مصادفة أنها مدينة له بحياتها؟ كيف يتعامل مع مدير متقاعد يرى العلاج ساحة صراع ويكابر على الاعتراف بالحقيقة التي يعرفها؟ كيف يستجيب عندما يكتشف أن «الهدية الثمينة» التي منحتها ممرضة لمريضة ميؤوس من شفائها لم تكن رحمة وإنما قسوة؟ كيف يقنع مريضة كاتبة أن تريه قصصها بعد إخفائها بفترة طويلة؟ كيف يكرّم مريضة كانت «رائدة في الموت» وقد أخلف وعده بأن يكون إلى بجانبها؟ كيف يجيب امرأة ترى فجأة ماضيها يتبدّل أمام عينيها؟ وكيف يقدّم حكمة الفلاسفة الذين تفشل أفكارهم في مواساة المتألمين وتقديم الراحة لهم؟

يبدو يالوم في كل قصة في مجموعة «مخلوقات فانية» مثل المرضى الذين يعالجهم، مأخوذًا ومتواضعًا أمام سحره العلاجي. تكشف هذه القصص القصيرة عن العلاج النفسي عن مرضى يمرون غالبًا في مرحلة حرجة في حياتهم، ولا يعانون من اضطرابات يمكن تشخيصها، وإنما من مُشكلات تتعلّق بألم الوجود. أبطالها مخلوقات فانية، كلّ منها يتذكّر ويُذكر في آن معًا. يتمثّل التحدي الذي يواجهه يالوم في ابتكار علاج لكل مريض، وتحويل حياة مثقلة بالعذاب إلى حكاية استعادة. وهكذا يبرهن الكتاب على أن العلاج النفسي هبة، يتقاسمها كلّ من المريض والمعالج في دائرة من الامتنان المتبادل.

الحاجة إلى شاهد: «العلاج الملتوي»

إن يالوم أول من أقرّ بأنه كلّما تقدّم به العمر، ازداد حذرًا في اختيار المرضى الذين يعالجهم. فقد قال في حوار أجراه معه سِمي ريتشمان عام ٢٠١٥: «لقد أحطتُ نفسي بدرع خفي باختيار المرضى. أتعامل حاليًّا مع مجموعة مثقفة، مهتمة بما أكتب». ويلجأ معظم المرضى في «مخلوقات فانية» إليه لمعالجتهم بعد أن قرؤوا أحد أو أكثر من كتبه.

مع أن مرضى يالوم يشعرون بالاطمئنان بأنه لن يكتب عنهم دون موافقتهم، فإن بعضهم ليس معجبًا بكتاباته. ففي القصة الأولى «العلاج الملتوي»، يطلق بول أندروز، المريض الهرم الذي يبلغ من العمر أربعة وثمانين عامًا، مديحًا ساخرًا لرواية «عندما بكى نيتشه» «في البداية سارت بشيء من البطء، ثم بدأت تكتسب زخمًا. وعلى الرغم من اللغة المتقنة والحوار المنمّق كثيرًا، فإنها لم تكن، بصورة عامة، قراءة غير ممتعة». لا بد أن يالوم ضحك عندما سمع هذا التقييم: فالجميع نقاد أدبيون. ومع أنه لم يتضح قط ما الذي يبحث عنه بول في استشارة واحدة، فقد كان يبدو أنه يعاني من حزن مزمن لم يُحلّ. فقد تبادل رسائل طوال خمسة وأربعين عامًا مع المشرف على أطروحته، كلود مولر، مؤلف سيرة نيتشه التي يبدي يالوم بها إعجابًا كبيرًا. كانت وفاة البروفيسور مولر قبل اثني عشر عامًا، في عام ٢٠٠٢، خسارة كبيرة ما يزال بول حزينًا عليها. أدرك يالوم أن بول يبحث حاليًّا عالم بارز آخر يقيم معه علاقة، «يبحث عن شريك آخر يرقص معه». كان أفضل ما يمكن أن يفعله يالوم هو أن يشهد على عمق حزن بول: «وإني أتساءل هل ما تزال هذه الخسارة المؤلمة تعتمل في نفسك، وهي السبب الذي جعلك تريد أن تراني وتحصل على استشارتي؟» انتابت يالوم الحيرة من مراوغة بول الغامضة، لكنه كسب احترام مريضه بتعليقه عندما خُيّر بول بين أن يعيش حياةً بلا تأمل وبين فحص سقراطي للنفس، اختار الأولى، وأعرب عن امتنانه ليالوم على استشارة وصفها بأنها «مفيدة جدًّا»، وغادر، ما دفع المعالج والقارئ معًا للتفكير في ألغاز وجوده المتعددة.

النهايات العلاجية مقابل النهايات الصادقة: «أن تكون حقيقيًا»

على امتداد كتاب «مخلوقات فانية»، يشهد يالوم على قلق المرضى الذين يعالجهم وعلى قلقه هو نفسه من الموت. يدرك المرضى تقدمه في العمر، واحتمال ألّا يكون موجودًا لمساعدتهم في المستقبل القريب، ويتكرر قلقهم على صحته في طيات القصص المختلفة. يقول يالوم لتشارلز في «أن تكون حقيقيًّا، «بالطبع عمري يهمك». كان تشارلز ما يزال حزينًا على وفاة أبيه منذ سنوات عديدة، ووفاة صاحب عمله ومرشده جيمس مؤخرًا. يعبّر يالوم صراحةً عن مخاوف مريضه ويقول: «نعرف كلانا أنني، في عمري البالغ الواحد والثمانين عامًا، أقترب من نهاية حياتي. وأنت حزين الآن على جيمس وعلى والدك أيضًا، ومن الطبيعي أن ينتابك القلق إذا فقدتني أيضًا». بعد أن اعترف تشارلز بأنه قلق من موت يالوم، قرر المعالج أن يكشف عن مخاوفه هو أيضًا، ووصف، كما فعل بطل مسرحية صموئيل بيكيت «شريط كراب الأخير»، مخيّلة لم تتحقق لحسن الحظ.

«رأيت زوجتي المتوفاة تلتفت نحوي بابتسامة عريضة، وتشير إليَّ. وعندما رأيتها، غمرتني مشاعر حزن عميق لا يمكن تصورها. وفجأة اختفى كل شيء، وعدتُ إلى الحاضر، ورأيتها هناك، على قيد الحياة، مشرقة، بدمها ولحمها، تبتسم ابتسامتها الجميلة في صباح يوم في شهر سبتمبر (أيلول). غمرتني موجة دافئة من الفرح. شعرت بالامتنان لأننا ما نزال على قيد الحياة، وهرعت إليها وضممتها إليَّ، وبدأنا نزهتنا المسائية».

دمعت عينا يالوم وتشارلز، وخلص تشارلز من سماع هذه المخيّلة إلى أنه يجب على المرء أن يقدّر النعم التي لديه. فأكد يالوم قائلًا: «»نعم، تمامًا. أقول إن توقع النهايات قد يشجعنا على فهم الحاضر بحيوية أكبر». ونظرا كلاهما إلى الساعة وأدركا أن الجلسة تجاوزت بضع دقائق - وهو تفصيل من المناسب إدراجه.

مثل جميع القصص في مجموعة «مخلوقات فانية»، تنتهي قصة «أن تكون حقيقيًّا» بشكل مفاجئ. كان تشارلز «منهكًا» من الجلسة المرهقة، وقال: «أشعر بأنني مرهق» وأضاف بتعاطف، «ولا بد أنك كذلك أيضًا»، فأجابه يالوم بحيوية: «لا أبدًا. في واقع الحال، فإن جلسة عميقة وحقيقية كهذه تزيدني نشاطًا وحيوية. لقد بذلت جهدًا كبيرًا اليوم يا تشارلز، وعملنا كلانا عملًا مهمًّا». لكن بعد أن غادر تشارلز مكتبه بعد بضع ثوانٍ، صفع يالوم جبهته، وقال لنفسه إنه كان عليه أن يكون أكثر صدقًا، وفتح الباب، وناداه وقال له: «تشارلز، لقد عدت إلى الحالة القديمة وفعلت تمامًا ما لا أريد أن أفعله. الحقيقة أنني متعب من هذا العمل الشاق والعميق، وأنا منهك قليلًا في الواقع، وأنا سعيد لأنه لا يوجد مريض آخر في جدولي اليوم». نظر يالوم إلى تشارلز، لم يتوقع كيف سيكون ردّه على هذه الحقيقة. ثم قال: «كنت أعرف ذلك يا إرف، فأنا أعرفك أكثر مما تظن. أعرف متى تحاول أن تكون طبيبًا معالجًا».

يدهش القارئ من التباين بين «الحقيقة العلاجية» والحقيقة الفعلية في قصة بعنوان «أن تكون حقيقيًّا». فالحقيقة الواقعية ليست سهلة المنال، لا في العلاج النفسي ولا في الكتابة، لأنها تستلزم تحدي المسلمات السائدة. ماذا كان سيحدث لو لم يفتح يالوم الباب ويوافق على أنه منهك هو أيضًا؟ ربما كان تشارلز سيخرج من الجلسة وهو يشعر بقدر من الطمأنينة، وقد تهدأ هواجسه حول صحة يالوم مؤقتًا، لكن الجلسة كانت ستكون أقل أصالة وتفقد شيئًا من صدقيتها. فالعلاج، ينعش المعالج المحترم ويستنفد طاقته في الوقت نفسه. كانت نهاية يالوم مثالية، وفي مفارقة لافتة، ربما تحمل النهاية الصادقة في طياتها أثرًا علاجيًّا هي الأخرى. تتجسد الحقيقة الأصيلة في هذا المشهد في قرار يالوم أن يعترف بحدوده، وبإرهاقه الجسدي والنفسي مع تقدمه في العمر. عندما يقرّ بأنه لم يتبق له الكثير من الوقت فإنه لا يصرّح بذلك فحسب، وإنما يُجسّده، ليُذكّرنا بأن علينا أن نعيش اللحظة بكامل حيويتنا، حتى ونحن ندرك أن هذه الحيوية ستتلاشى شيئًا فشيئًا.

وهم الحب: «أرابيسك»

ظلت ناتاشا، راقصة الباليه السابقة، مهووسة بحب زوجها الأول، سيرجي، الراقص المشهور عالميًّا، مع أنها كانت غاضبة جدًّا منه عندما هجرها حتى إنها ضربته بقنينة مكسورة وجرحت وجهه. حاول يالوم إقناعها في جلستين علاجيتين أنها لا تحبّ زوجها السابق، بل تحبّ شبابها الفاتن عندما كانت راقصة باليه رئيسية في لا سكالا. تستمد قصة «أرابيسك» روح الدعابة من انتقادات ناتاشا العديدة ليالوم التي يتقبّلها كلها بروح طيبة. قال لها: «قلتِ إنك ذهبت إلى المعرض لتبحثي عن سيرجي، الرجل الذي قلتِ إنه «حبّ حياتك؟» فقالت: «نعم، أنا متأكدة الآن من أن سيرجي كان هدفي، هدفي السرّي عندما دخلتُ إلى قاعة المعرض، وأقصد سرّي حتى لنفسي. فحبّ حياتي لا يعني بالضرورة حياتي الواعية. أنت طبيب نفسي مشهور، ولا بد أنك تقدّر ذلك»، فقال: «إنها غلطتي». واعترف «وجدت انتقاداتها الناعمة ساحرة وحيوية إلى حد ما». بعد لحظة وبخّته لأنه لم ينصت إليها ولم يفهم أن سيرجي كان «إلهًا» يحلّق فوق الجميع في السحاب. وجدت أن كلمات يالوم عن سيرجي قاسية، فسألته إن كان يكلّم جميع المرضى الذين يعالجهم بهذه الطريقة، فقال: «أرجو أن تعتبري ذلك مجاملة للقوة التي ألمسها فيك».

وصفت ناتاشا المطلّعة على كتبه، يالوم بأنه جلّاد الحب، فأجابها «ليس الحبّ هو الذي أتعقبّه، وإنما فريستي هي سراب الحبّ». يستشهد يالوم بمقولة لشوبنهاور تقارن شغف الحبّ بالشمس الساطعة التي تسبب العمى، ويقول: «عندما يبدأ يخبو في السنوات التالية، ندرك فجأة السماء المرصعّة بالنجوم الرائعة التي كانت تحجبها أو تخفيها الشمس». قدّرت ناتاشا صدقه، لكنها مازحته قائلة: «بضع جلسات أخرى كهذه، وأُنقل إلى بيتي بسيارة إسعاف». عندما انتهت الجلسة، سألته: «هل يمكنني أن أعود إليك بأن أرسل لك رسائل بالإيميل أو عبر السكايب إذا كان لديَّ مزيد

من الأسئلة؟، فأجابها، «طبعًا. لكن تذكّري أنني أتقدّم في العمر، لذلك لا تنتظري طويلًا».

مبدأ عدم اليقين: «شكرًا يا مولي»

ينصّ مبدأ عدم اليقين، المعروف أيضًا بمبدأ اللّا حتمية في ميكانيكا الكم على أنه لا يمكن قياس موقع وسرعة جسم ما بدقة في الوقت نفسه. وقلما يُفكّر المرء في أن هذا المبدأ يحكم العلاج النفسي- إلّا إذا قرأ قصة «شكرًا يا مولي». فكل شيء في القصة غير محدد. كانت مولي تعمل محاسبة لدى يالوم منذ فترة طويلة وكانت تتدخل في شؤونه المنزلية. لكنها كانت أيضًا «شوكة كبيرة في خاصرته. طردها أربع مرات، لكنه كان يعيدها في كل مرة، مؤكدًا صحة ادعائها بأنه لا يستطيع أن يستغني عنها. لا يسع المرء إلّا أن يتخيّل غضب يالوم منها واعتماده عليها.

تبدأ القصة بحضور يالوم مراسم جنازة مولي. فقد فوجئ عندما رأى عددًا من زملائه من جامعة ستانفورد في الجنازة. تذكّر أن مولي كانت تحترم قواعد السرّية والخصوصية الصارمة، وترفض باستمرار الكشف عن هوية زبائنها بهدف الحفاظ على السرية. وفي نهاية حفل التأبين، اقترب منه رجل متقدم في العمر، وقال له: «أنا ألفين كروس، وهذه زوجتي مونيكا، وقد عالجتني منذ نصف عمر». شعر يالوم بالخجل لأنه لم يستطع أن يتعرّف على اسم أو وجه مريضه السابق، فحاول مماطلته ليكسب مزيدًا من الوقت. ازداد الغموض عندما أعربت مونيكا عن سعادتها بلقاء يالوم أخيرًا، وقالت له إنها تدين له بزواجها وطفليها الرائعين. عندما عاد يالوم إلى المنزل، راح يبحث في ملفات المرضى في عام ١٩٨٢، ووجد ملف ألفين الذي لم يره إلّا اثنتي عشرة جلسة، وتذكر يالوم حالة ألفين التي «أخفق» فيها بكل السبل. لجأ ألفين إلى العلاج لعدة أسباب: وفاة شقيقه مؤخرًا الذي انفصل عنه منذ فترة طويلة، وعزلته عن الرجال والنساء، واستمناءه القهري الذي كان يشعر بخجل شديد منه.

ربما كان الدافع الأعمق لقدومه إلى العلاج أنه حضر محاضرة ألقاها يالوم في الجولات الطبية الرئيسية التي تحدّث فيها عن تجربته مع مرضى السرطان في مراحل حياتهم الأخيرة. قال ألفين، طبيب الأشعة، «أنا هو ذاك الرجل الذي يكتب أحكام الإعدام هذه. فأنا الطبيب الذي يكتب هذه التقارير منذ فترة طويلة، منذ خمس سنوات، لكن محاضرتك أرتني هذا العمل من منظور مختلف». إن فهم كيف يشعر المرضى عندما يقرؤون أحكام الإعدام التي يصدرها في تقاريره الطبية أثار قلق ألفين من الموت.

كانت جلسات العلاج الأولى مفيدة، وتحدّث ألفين بصراحة عن حياته. تعلّم يالوم في دراسته الطبية كيف يأخذ التاريخ المرضي لحالة المريض الراهنة، ثم يغوص في تفاصيل النشأة والتعليم والعائلة. أما ثقافته الأدبية التي صقلها بنفسه، فقد منحته القدرة على اختزال حياة كاملة في بضعة أسطر نابضة بالحضور. الإنسان في بضع فقرات.

كان ألفين يريد أن يتزوج وينجب أطفالًا، وتعرّف على عدة نساء خلال تلك السنوات، لكن كانت جميع النساء ينيهن علاقتهن المحتملة به بعد أن يزرن منزله. لماذا؟ خلق رفض ألفين التفسير لغزًا آخر سرعان ما ارتطم بحائط في العلاج وقرر أن ينهي العلاج. «لا يتعلق الأمر بك يا إرف، إنه يتعلق بي. انظر، هناك أشياء لستُ مستعدًّا لمناقشتها». ازداد اللغز غموضًا. لم يقبل يالوم قرار ألفين بإنهاء العلاج وأراد أن يعرف أسباب مقاومته الشديدة. « كنت أعرف أنني خرجت عن السياق، وبدأت ألحّ بقوة على مريضي، لكنني لم أستطع أن أتوقف. كان فضولي شديدًا». وكان فضول القارئ مشتعلًا أيضًا. ما الذي يخفيه ألفين عن يالوم؟ ما هي علاقة ألفين بمولي؟ أصبحت القصة مثيرة للفضول أكثر عندما قدّم يالوم اقتراحًا غير عادي بأن يجري جلسة العلاج التالية في منزل ألفين. طلب ألفين الذي شعر بالقلق وقتًا ليفكّر في هذا الاقتراح. في صباح اليوم التالي، اتصل بيالوم بالهاتف وأخبره بقراره بأنه يريد أن ينهي العلاج. لكن يالوم ألحّ عليه حتى وافق أن يزوره في المنزل، وفي وقت لاحق من ذلك المساء دخل إلى منزل

ألفين ورأى المريض واقفًا أمام النافذة، خجلًا من مواجهته.

تبيّن أن السرّ هو أن منزل ألفين كان مليئًا بأكداس من أدلة الهاتف القديمة، والصحف الصفراء والكتب التي يكسوها الغبار، والملفات الطبية، والأشعة السينية حتى إن يالوم استطاع أن يشق طريقه وذهب إليه بصعوبة. يذكّرنا يالوم أن تخزين الأشياء بإفراط لم يكن موضوعًا مألوفًا في الطب النفسي في أوائل ثمانينيات القرن الماضي، وعندما عرض المساعدة على ألفين الذي كان الآن «مضطربًا من الشعور بالمهانة والغضب»، رفض المريض عرضه. شعر يالوم بغضب شديد من نفسه لأنه ضغط على ألفين كثيرًا، حتى إنه استشار معالجًا نفسيًّا صديقًا له ليساعده على فهم استيائه. هنا يبدو أن قصة طبيب الأشعة الذي يخزّن أشياء كثيرة في منزله قد انتهت.

لكن القصة استمرت على نحو غير متوقع في مراسم تأبين مولي، عندما رأى يالوم ألفين لأول مرة بعد عشرات السنين. كيف استطاع أن يغيّر حياته؟ اتفق الرجلان على أن يلتقيا لتناول فنجان من القهوة، وفوجئ ألفين بأن يالوم لم يتذكّر التوصية التي غيّرت حياة طبيب الأشعة. فقد اتصل يالوم بألفين بعد يوم أو يومين من آخر جلسة لهما وأعطاه اسم شخص يمكنه أن يساعده على إعادة ترتيب منزله وحياته. وعملت مولي لدى ألفين طوال ثلاثين عامًا حتى وفاتها، وكانت تهتم بمنزله وفواتيره وضرائبه. قال ألفين ليالوم بامتنان، «أنا ممتن لك. لقد قلبت حياتي رأسًا على عقب. لقد أعطيتني الكثير، لكن الأهم من كل ذلك، أنك أعطيتني مولي».

سجن التقاعد: «لا تُحاصرني داخل سياج»

يبدأ ريك إيفانز، الرئيس التنفيذي السابق الذي يبلغ من العمر سبعة وسبعين عامًا في قصة «لا تُحاصرني داخل سياج»، العلاج بالقول: «كتابك التحديق إلى الشمس: التغلب على الرعب من الموت قوي، قوي جدًّا خصوصًا لشخص في عمري. إن هذا الكتاب هو سبب وجودي هنا». مثل

بول أندروز، يعرف ريك كيف يكون متحفظًا في رفضه بطريقة غير مباشرة. في محاولة لتسريع العلاج، لأنهما سيلتقيان في جلسة واحدة فقط، قرّر يالوم أن يشاركه تجربة كشف عن الذات حول أهوال الشيخوخة، عندما زار طبيب عيون بسبب ضعف بصره عندما بلغ الأربعين من العمر، وقال له الطبيب: «حسنًا أيها الشاب، لقد جئت وفق الجدول الزمني المناسب. «طول النظر في الشيخوخة»، فأجابه ريك: «إنها قصة جميلة قرأتها في أحد كتبك. إني أفهم وجهة نظرك، لكنها في الواقع ليست وجهة نظري».

وجد ريك نفسه يعاني من «مُشكلات حادة ومستمرة في التأقلم»، بعد أن تقاعد وانتقل إلى دار للمتقاعدين. رفض ريك اقتراح يالوم واعتبره بعيدًا عن الواقع، أن يتخلّى عن عفويته السابقة ليعيش في دار للمتقاعدين شديدة التنظيم تجعل فكرة الموت قريبة جدًّا منه. «رأيته يهزّ رأسه قليلًا، ثم قال: لم أفكّر بأنه سجن. إذ إن إدارته ممتازة، ويمكنني أن أغادره عندما أريد».

تتيح العديد من القصص في «مخلوقات فانية» الفرصة ليالوم ليكتب عن نفسه، بما في ذلك حياته بوصفه كاتبًا اتهم ريك يالوم بتجاهل أهمية العفوية، لكن المعالج لا يوافقه الرأي، ويسعده أن يعترف بمدى تقديره للعفوية في حياته الخاصة. «أنا شخصيًّا أقدّر العفوية كثيرًا. أعتمد عليها عندما أكتب. أقدّر أن يجذبني شيء غير متوقع ويأخذني في اتجاهات لا يمكن التكهن بها. في الواقع، أحبّ ذلك». اقترح يالوم أن مشكلة ريك ليست في إخلاصه للعفوية، بل في رفضه مواجهة حتمية موته، وهو ما تذكره له حياته في دار المتقاعدين كل يوم. تبدو جلسات العلاج بالنسبة إلى يالوم كأنها مسابقة، وينهي ريك العلاج دون أن يتلقى مساعدة كبيرة. يتلقى يالوم بعد أربعة أشهر رسالة بالإيميل يقول فيها إنه حصل تقدم في العلاج، وأرفق ريك كلمات أغنية «لا تحاصرني داخل سياج»: كان وايلدكات كيلي الذي يبدو شاحبًا جدًا/ واقفًا بجانب مأمور الشرطة/ وعندما قال مأمور الشرطة ذاك: «سأرسلك إلى السجن»/ رفع وايلدكات رأسه وصاح/ أوه، أعطني أرضًا، أرضًا شاسعة تحت سماء مرصعة بالنجوم/ لا تحاصرني داخل سياج».

الأفعال لا الأفكار: «أظهري شيئًا من الرُقيّ أمام أبنائك»

تكشف قصة «أظهري شيئًا من الرُّقيّ أمام أبنائك» الاختلافات المذهلة التي قد تنشأ حول تعبير واحد. تبدأ القصة بمناقشة يالوم حول أستريد التي عمل معها كمعالج ومشرف لأكثر من عشر سنوات، وساعدها يالوم على تجاوز محنة وفاة شقيقها أولًا ثم ابنها البالغ من العمر ستة عشر عامًا. وقد زار يالوم أستريد في منزلها عندما أصيبت بالتهاب كبدي مناعي ذاتي شديد. وعزت أستريد شفاءها إلى زراعة الكبد وإلى ممرضة تمارس حبًّا صارمًا، وهمست في أذنها: « أظهري شيئًا من الرقي لأبنائك»، النصيحة التي شعرت أستريد أنها كانت نقطة تحوّل في حياتها. بعد شفائها من عملية زرع الكبد، ماتت أستريد فجأة بسبب تمدد الأوعية الدموية. حضر يالوم جنازتها، وعندما غادر، دنت منه جوستين، ممرضة أستريد، وقالت له إن أستريد أعطتها نسخة من كتاب «علاج شوبنهاور»، وسألته، «هل ما زلت تستقبل مرضى؟» انزعج يالوم من هذا الوصف الذي ذكّره بعمره، لكنه وافق على رؤيتها، وتساءل هل هي الممرضة التي صادقت أستريد.

خلال الجلسة العلاجية الثالثة والأخيرة، قرر يالوم أن يكسر حاجز السرية وسأل جوستين إن كانت هي الممرضة التي همست في أذن أستريد تلك العبارة التي غيّرت حياتها. صُدمت جوستين بسؤاله، وبعد فترة صمت طويلة، أجابت: «نعم»، ثم شرح لها يالوم لماذا كانت كلماتها بمنزلة «هدية لا تُقدَّر بثمن» بالنسبة إلى أستريد. «قالت إن هذه الكلمات أخرجتها من نفسها على الفور، بمعجزة، وجعلتها تفكّر في الآخرين، ومنحتها إحساسًا بالمعنى، وقالت، حتى لو أنها كانت تحتضر، فما تزال لديها أشياء يجب أن تقدمها لأسرتها - يمكنها أن تكون نموذجًا حول كيف يمكنها أن تواجه الموت. لقد قدّمتِ لها هدية لا تُقدّر بثمن».

جلست جوستين ولم تنبس بكلمة واحدة للحظات طويلة، ثم قالت: «يا إلهي. هذه أقسى نكتة»، وأشاحت بوجهها بعيدًا وراحت تحدّق من نافذة مكتبي، وتكلّمت كما لو أنها في غيبوبة، «إنها أقسى نكتة. كما ترى، لم أهمس بهذه الكلمات في أذن أستريد، وإنما هسهستها لها. نعم هسهسة. فقد كان لدى أستريد كل شيء: غرفة مليئة بمزهريات وزهور جميلة، وخاتم ألماس بحجم كرة غولف... وقد تحلّق حولها أحفاد جميلون، وعائلة كبيرة وأصدقاء». كيف سيردّ المعالج على اعتراف جوستين؟ كيف يمكن أن يردّ أي شخص؟ يكمن جزء من قوة مجموعة «مخلوقات فانية» في أن كل قصة تدفع القارئ للتساؤل: كيف كنت سأتصرف لو كنت مكان يالوم؟ الكثير من قصص العلاج النفسي تطرح أسئلة نفسية - أخلاقية محيّرة. ماذا يمكن أن يقول يالوم لجاستين لكي يكون صادقًا ومتفهّمًا؟ وكيف يمكنه أن يتجنب أن يجعلها تشعر بسوء تجاه نفسها؟ كل حكاية علاجية تدفع القارئ إلى مراجعة قرارات يالوم والتشكيك فيها.

يذكّر يالوم جوستين بأنه على الرغم من تضارب مشاعرها تجاه أستريد، فقد جلبت لحياتها راحة كبيرة. «في النهاية، فإن الأفعال لا الأفكار هي التي تهمّ حقًّا». وطلب منها القيام بتجربة فكرية، وأخذت تتذكّر المرضى الذين ساعدتهم في حياتها. ثم تخيّل يالوم جميع الأشخاص الذين ساعدتهم في حياتهم، وربما غيّرت حياتهم. هزت جوستين رأسها بصمت موافقة. انتهت القصة باستعداد يالوم ليصبح مرشدًا علاجيًّا في مستقبل جوستين، دعوة أمل أن تقبلها.

تنقيب في صفحات مظلمة: «يجب أن تتخلّى عن الأمل من أجل ماضٍ أفضل»

تقدّم القصة التالية «يجب أن تتخلّى عن الأمل من أجل ماضٍ أفضل» نظرة ثاقبة على حياة كاتبين اثنين، هما مريض يالوم ويالوم نفسه. فقد عالج

يالوم سالي التي تعمل مساعدة فنيّة في مختبر فيزياء منذ ست سنوات، أربع جلسات فقط، لمساعدتها على تجاوز حزنها على وفاة والدها. ولم تذكر خلال تلك الفترة شيئًا عن رغبتها في أن تصبح كاتبة. لكن مع اقتراب عيد ميلادها الستين، أرادت أن تتقاعد من وظيفتها الحالية وتتابع حلم حياتها. «قررتُ أن أضع كتاباتي في المرتبة الأولى». فقد كانت تكتب قصائد وقصصًا بالسرّ طوال حياتها، لكنها كانت تخشى أن تُريها لأحد. حصلت على جائزة أدبية للكتّاب الجدد عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها، لكنها كانت تشعر دائمًا أنها لا تستحق تلك الجائزة، وأنها محتالة. وهي تحتفظ بجميع كتاباتها في صندوقين، الأول، الصندوق الرئيسي، ممتلئ ومغلق بشريط لاصق، ومخزّن في مكان بعيد عن الأنظار وراء خزانة ملابسها فيه جميع كتاباتها القديمة، منذ أن كانت في سن المراهقة حتى خمسة عشر عامًا تقريبًا، وتضع في الصندوق الآخر أعمالها الحديثة تحت طاولة مكتبها. لم يستطع يالوم كبح حماسته لقراءة ما كتبته، لكنه قال لنفسه: «: لا تبالغ في أن تتماهى معها ككاتب، فلن يؤدي ذلك إلى شيء جيد». كانت سالي قد بدأت تكتب القصائد والقصص عندما كانت في سن المراهقة. وعندما اكتشفت وهي في الرابعة عشرة من عمرها أن والدها فَتّش غرفتها وأخذ بعض كتاباتها، وأخفاها في درج يحتفظ فيه بستراته، أحرقت كلّ قصائدها. قال يالوم متحسرًا « يا لها من فكرة مؤلمة وفظيعة. هذا العنف تجاه نفسك». وفي محاولة لثنيها عن إتلاف حزمة قديمة أخرى من القصائد التي كتبتها إلى حبيبها الشيطاني أوستن، قال لها إن لديه ملفًا كبيرًا بعنوان «مقتطفات» يضم جميع المواد المحذوفة من رواياته وقصصه. لا يوجد دليل على أن يالوم كان يعاني من اضطراب التخزين مثل ألفين كروس، لكنه لم يستطع أن يتخلص من المواد التي كتبها ولم يستخدمها في كتبه النهائية.

كانت سالي تخشى قراءة قصصها مرة أخرى، لا سيما قصة «ركوب الحافلة» التي تصف فيها اليوم الذي أمضته وهي تفكر في الانتحار عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها. خشيت أن تعيدها قراءة هذه القصة

وكتاباتها الكثيبة الأخرى إلى الماضي، لكن يالوم وعدها بأن يعيدها بأمان إلى الحاضر. فتحت الصندوق الذي توجد فيه كتاباتها القديمة، وقرأت قصيدة كتبتها في عام ١٩٨٠. طفرت الدموع في عيني يالوم، وصمت قليلًا، وهو أمر ليس من طبيعته معهود عنه، ثم قال إنه أحبّ القصيدة جدًّا. «يا له من شرف عظيم أن أتقاسم هذه اللحظات الهامة والثمينة، وكم كان الاستماع إليها وهي تقرأ قصائدها متعة كبيرة، مع أنني شخص أصمّ إزاء الطبقات الموسيقية، ولا أقدّر الحفلات الموسيقية أو الأوبرا، لكنني أجد دائمًا متعة في الكلمة المنطوقة - المسرح، وفوق كل شيء، سماع الشعر وهو يُتلى. وهنا، اليوم، فإني أتقاضى أجرًا لقاء حضور هذه الدراما الاستثنائية، والاستماع إلى أبيات شعرية رائعة»

لإقناع سالي بأنها ليست مخادعة وأن القصائد التي كتبتها لأوستن وُلدت من علاقة عاطفية عاصفة تلاشت بسرعة، قدّم يالوم رؤاه العميقة حول جوهر الإبداع الفني. «قلت لها إن تحويل الروث إلى جمال هو انتصار فني، وأنه لولا العاطفة المنحرفة والموت واليأس والخسارة، لما وُلد الجزء الأكبر من الفن». يصعب إيجاد فقرة أخرى عن الإبداع الفني، سواء من فنان أو منظّر، تكثّف معنى أكبر في جملة واحدة. وأقنع يالوم سالي بألّا تتلف قصائدها التي كتبتها إلى أوستن، وشعر، عن جدارة، «بأنني بطل أنقذتُ مخطوطة قديمة ثمينة من أن تلتهما ألسنة النيران». يبدو يالوم بطلًا، أو على الأقل فنانًا خلاقًا، من زاوية أخرى: فقد نسج قصة تمسّ القلب من شغف سالي الضائع ويأسها، واختتمها بنهاية غير متوقعة. أعادت سالي قراءة قصة «ركوب الحافلة» له، لا القصة الأصلية التي أضاعتها، بل قصة جديدة كتبتها البارحة. في النهاية المعدلة، اشترى سائق الحافلة الطيب القلب كولا لسالي، ودعاها لتجلس بالقرب منه بجانب المدفأة في مقدمة الحافلة، ورافقته طوال اليوم، وهكذا أنقذ حياتها دون أن يعلم. قال لها يالوم: «لقد سلكتِ طريقًا مثيرًا للإعجاب». تنقل الجملة الأخيرة من قصة يالوم التي تقولها سالي، أحد أجمل الإطراءات التي سمعها يالوم في حياته: «لن تكون الحياة صعبة جدًّا إذا وجدت سائق حافلة طيب».

رائد الموت:

اذهبي وخذي ذلك المرض القاتل اللعين: تحية إجلال لإيلي

طالما تحدّث يالوم عن شغفيه المتلازمين - العلاج النفسي الوجودي والكتابة - وكيف أنهما يتفاعلان بتناغم ويغذّي أحدهما الآخر. لكنه لم يلمح قط إلى أي صراع داخلي بين كونه معالجًا وكاتبًا. لذلك تُعدُّ قصة « اذهبي وخذي ذلك المرض القاتل اللعين: تحية إجلال لإيلي» مثيرة للغاية. تبدأ القصة عندما يتلقى يالوم في أثناء إقامته في هاواي لمدة شهر للتفرغ للكتابة، رسالة «وداع» بالإيميل من إيلي تعلن فيها أنها قررت أن تعجّل موتها وتوقفت عن تناول الطعام والشراب. كان يعرف أنها ستموت. فعندما رأته أول مرة قبل خمسة أشهر، أخبرته أنها تعاني من سرطان المبيض، وأنه لم يتبق لها سوى أقل من سنة لتعيشها. ومع ذلك، فقد صدمته رسالتها تلك.

كانت إلي، الكاتبة العلمية والمحررة، كاتبة موهوبة، كما كان واضحًا عندما كتبت له تطلب منه أن يخصص لها بضع جلسات علاجية. وافق يالوم على الفور، لكن كانت هناك مشكلة واحدة وهي أنها لا يمكنها دفع أتعابه. فقدّم لها نفس العرض الذي قدّمه لجيني إلكين قبل أربعين عامًا. كان مستعدًّا للتنازل عن أتعابه إذا وافقت على كتابة ملخص عن كل جلسة، كما سيفعل، ثم يرسل كل منهما الملخص إلى الآخر عبر البريد الإلكتروني قبل الجلسة التالية. أدخل هذا الاقتراح السرور إلى قلب إيلي وقبلته على الفور. وافق أيضًا على طلبها بأن يظل يراها حتى وفاتها، وهو طلب جريء لم يسمعه من قبل. للأسف، وجد يالوم أن ملخّصاتها عن جلسات العلاج الست كانت «متكلّفة تفتقر إلى الإلهام، ومع أن ملخصاتها أبدت قدرًا من التألّق، فقد أظهرت تعبها، وأصبحت مثقلة بعبارات الامتنان المتكررة لي لأنني أراها دون مقابل. أما ملخصاتي فقد كانت حذرة وسطحية لأنه أصبح من

الواضح أنه لم تعد لدى إيلي قدرة قوية على المشاركة، وأصبح من الواضح أنها أصبحت على حافة الموت، وشعرت أنه ليس من المناسب أن أعلّق على بعض الأمور في علاقتنا. وهكذا افتقد أحدنا الآخر، ولم يحدث بيننا ذلك اللقاء الحقيقي الذي كنت أسعى إليه في البداية». خلال هذه الفترة، كان يالوم «مشغولًا» بإنهاء روايته «مشكلة سبينوزا». وشعر بالذنب لأنه لم يبذل جهدًا ويزورها في منزلها عندما اشتد عليها المرض ولم تستطع أن تسافر.

ربكا لم يكتب معالج وكاتب آخر قصة عن إيلي أو ينهي القصة ببساطة برسالة الوداع التي أرسلتها إليه بالبريد الإلكتروني التي تعبّر فيها عن امتنانها الصادق له. يفاجئنا يالوم، أولًا، بالقول إنه قبل وفاتها توقف مؤقتًا عن كتابة روايته ليقرأ ملخصاتها مرة أخرى، وثانيًا، باعترافه بفشله في تقدير كتاباتها عندما قرأها أول مرة. فقرر أن يستخدم ملخصاتها في هذا الكتاب، فاتصل بها هاتفيًا وطلب موافقتها. كانت سعيدة جدًا وطلبت منه شيئًا واحدًا فقط، وهو نفس ما طلبه الطبيب النفسي جيف الذي كان على فراش الموت في كتاب «التحديق إلى الشمس» وهو أن يستخدم اسمها الحقيقي وليس اسمًا مستعارًا. وهي المريضة الوحيدة في كتاب «مخلوقات فانية» التي لم يغيّر اسمها. تُعدّ قصة يالوم عن إيلي ذكرى لها أكثر منها خلاصة لعلاجهما معًا، ويقتبس يالوم من عدد من عباراتها، بما فيها المثال التالي من ملخصها الرابع: «أكره أن أوضح حالتي للأشخاص المقبلين على الموت. لقد جعلني إرف أشعر بالراحة ولم يكن يخشى أن يذهب إلى الظلام معي. لا أستطيع أن أتحدّث بهذه الطريقة مع الآخرين. يصعب عليَّ أن أشرح لهم أن السرطان الذي ينهش جسدي لا يمكن شفاؤه. ولا يتوقف الناس عن السؤال: «إلى متى ستظلين تحت العلاج الكيميائي؟» وهو سؤال مزعج. ألا يفهمون؟ ألا يفهمون أن مرضي لن يزول؟ أحتاج إلى أناس يستطيعون أن ينظروا في عينيَّ مباشرة. إرف يجيد ذلك. إنه لا يشيح بنظره». يستدعي التحديق إلى عينَيْ شخص يحتضر إلى الذهن استعارة لاروشفوكو عن التحديق إلى الشمس. ثمة مفارقة مؤلمة هنا، كما يشير يالوم. كانت إيلي ممتنّة لأنه كان مستعدًّا للعمل

معها دون مقابل، وقد منحها وجوده بجانبها دعمًا حقيقيًّا. ومع ذلك، فهو يعتقد أنه ابتعد عنها بسبب قلقه من الموت. لم يقدّر كلماتها في البداية، لا لأنها كانت متكلّفة وغير ملهمة، كما كان يظن، بل بسبب قوة الإنكار - إنكاره هو. اتّهمها من دون حق بأنها السبب في عدم وجود حميمية بينهما خلال العلاج، بينما كان هو المسؤول عن ذلك في حقيقة الأمر. «كنت أنا المشكلة. كنت أحمي نفسي». لكن من المفارقة أن إنكاره جعله يكمل عمله. وثمة مفارقة أخرى في القصة. عندما تأمّل يالوم مخاوفه من الموت، أدرك أنه خلال تحليله المطوّل مع أوليف سميث لم يُطرح موضوع القلق من الموت ولا حتى مرة واحدة. «شيء لا يصدق. فنائي النهائي - الحقيقة الأكثر رعبًا في حياتي - لم تطف على السطح قط، ولم يتحدّث أحد مطلقًا عنها، في هذا التحليل الشخصي الطويل». فكّر يالوم بأنه ربما كانت أوليف سميث التي كانت في السبعينيات من عمرها في ذلك الوقت، تحمي نفسها من مخاوفها من الموت. ومن المثير للدهشة أيضًا أن يالوم مقتنع بأنه جعل رولو ماي يشعر بالقلق في أثناء العلاج.

تخطّي التصنيفات: «البكاء ثلاث مرات»

تمثّل قصة «البكاء ثلاث مرات» وهي أقصر الحكايات الواردة في مجموعة «مخلوقات فانية» صرخة احتجاج في وجه ضياع الذات، سواء بسبب تشخيص نفسي يُفرغ الإنسان من خصوصيته، أو حبٍ يُعبّر عنه ببرود لا يلامس القلب. كانت هيلينا قد رأت يالوم مرة واحدة فقط قبل سنوات، وتركت في روحه بصمة لا تُمحى. قبل أسبوع من لقائها يالوم، حققت هيلينا منعطفًا رمزيًّا في حياتها: فقد اجتازت امتحانات الولاية وأصبحت معالجة نفسية مرخّصة، لكنها قالت له بأسى: «المنعطفات ليست مباركة دائمًا»، ثم شرحت له كيف أن هذا الإنجاز الذي حققته لم يبدّد شعورها بالندم. فقد

عاشت زواجًا بورجوازيًّا طوال خمسة عشر عامًا، لكن قلبها ظلّ مشغولًا ببيلي، حبيبها الأول الذي مات قبل ثلاثة أشهر بسرطان الدماغ. لم يكن بيلي حبيبًا شيطانيًّا مثل أوستن الذي حوّلته سالي إلى قصائد رومانسية، لكن بيلي وهيلينا عاشا لحظات من الشغف والجنون. عندما نظرت إلى صورته المفضّلة بعينيها الجديدتين كمعالجة، أدركت فجأة أنه ربما كان يعاني من اضطراب ثنائي القطب، وأن ما جمعهما من «جنون» «لم يكن سوى...» لكنها لم تُكمل، وأجهشت في البكاء. ثم بكت مرة أخرى وهي تروي خيبة أملها عندما اكتشفت أن رسالة بيلي الأخيرة التي عبّر فيها عن حبّه لها، أرسلها إلى مئة وثلاثة عشر شخصًا. وبعد لحظات، بكت للمرة الثالثة عندما قالت ليالوم: «لقد ولدنا بفارق ساعات قليلة فقط، والآن هو ميت، لا بدّ أنها فكرة مخيفة».

كان من الممكن أن يضع يالوم عنوانًا لهذه القصة العلاجية «جلّاد الحب» لو أنه لم يستخدمه في مكان آخر، لكنه سلك هنا مسارًا مختلفًا، منتقدًا التصنيف النفسي. «يمكنني أن أقدّر أنك تشعرين بعدم الاستقرار الآن يا هيلينا. فطوال تلك السنوات كنتِ ترين حياتك بطريقة واحدة، وفجأة أصبحتِ تواجهين الآن نسخة جديدة ومختلفة من الواقع. أصبحت ترين الماضي يتغيّر أمام عينيك - إنها صدمة كبيرة». لقد أدخلت بصيرته الطمأنينة إلى نفس هيلينا، لأنها شعرت بأنها أصبحت مفهومة. تكشف قصص «مخلوقات فانية» الهوّات السحيقة التي تجعل الناس لا يفهمون بعضهم بعضًا، لا بل حتى لا يفهمون أنفسهم، لكن بصيرة يالوم خفّفت من تلك الهوّة بينه وبين هيلينا. كما وجدت عزاءً في ملاحظته أن بيلي، ربما شعر بالعزلة واليأس عندما أدرك أنه شارف على الموت، وأن محاولته للتواصل مع جميع من يعرفهم لم تكن تهدف إلى تقويض خصوصية علاقته بها. «كان بيلي ضحية لتلك العملية، وكنت سعيدًا لأنني أديت دورًا في إعادته إلى التعقيد والحيوية السابقين».

رسائل إلى الذات اليومية: «مخلوقات فانية»

تكون القصة التي تحمل عنوان المجموعة العلاجية عادة متميّزة، كما يتجلّى في «مخلوقات فانية». فقد جاء جارود هالسي الذي درس الفلسفة في الجامعة ويعمل حاليًّا طبيب أمراض جلدية إلى يالوم لأنه قرأ رواياته. لم تكن تحرّك جارود، مثل فيليب سلايت، شهوة لا تُروى، لكنه كان يرى نفسه «نذلًا» لأنه يفكّر في أن ينهي علاقة مع امرأة تُدعى ماري أجرت مؤخرًا عملية استئصال الثدي، ولا يستطيع أن يتخذ قرارًا هل يبقى مع ماري أو مع امرأة أخرى تدعى أليشيا، لأن كلّ واحدة منهما تعتقد أنه يريد أن يتزوجها، في حين لم يكن متأكدًا من رغبته في أن يتربط بأيّ منهما.

ومثل فيليب، كان جارود يفضّل أن يُشغل معالجه النفسي في نقاشات فلسفية مجردة بدلًا من أن يواجه ذاته بصدق. واعترف جارود بأنه يتردّد في قول أي شيء في العلاج قد يُفسد رأي يالوم به، لأنه يُضفي عليه طابعًا مثاليًّا ويريد أن يراه المعالج شخصًا ذكيًّا ذا مستقبل واعد. تساءل يالوم: كيف يمكن أن يستفيد جارود من العلاج إذا لم يكن مستعدًّا ليعبّر عمّا يؤرقه؟

لمعالجة هذه المعضلة، لجأ يالوم إلى وسيلة غير تقليدية، فقرأ له فقرة من كتاب ماركوس أوريليوس «تأملات» ليقنعه بأن يتجاهل نظرة الآخرين إليه. فقد كان الفيلسوف القديم يعلم أن إدراك الإنسان لذاته هو الذي يمكن أن يسبّب له الأذى. وكانت هذه الطريقة قد نجحت مع مريض آخر يُدعى أندرو، لكن جارود لم يرَ كيف تنطبق هذه الفقرة الفلسفية على حياته. ولكي يُجمّل صورته أمام يالوم، سأله سؤالًا كان قد سأله لأستاذه في دارتموث حول من هو جمهور ماركوس أوريليوس المستهدف. تأفف يالوم في داخله، منزعجًا من محاولة جارود المستمرة لإبهاره، ومع ذلك، أجاب على سؤاله، وقال: «بحسب علمي، يشعر الدارسون بأن ماركوس أوريليوس كان يكرر هذه العبارات لنفسه كتمرين يومي لتعزيز عزمه وحثّ نفسه على أن يعيش

حياة جيدة».

لم يُفضِ تفسير يالوم إلى أي تقدّم يُذكر في العلاج، ولام نفسه على محاولته الفاشلة. «جاء إليَّ وهو في حالة عاجلة، وكانت استجابتي له بأنني أصبحت أستاذًا ومغرورًا ورحت أقرأ له فقرات غامضة من فيلسوف عاش في القرن الثاني. إنه خطأ هواة! ماذا كنت أتوقع؟ أن مجرد قراءة كلمات ماركوس أوريليوس ستنيره وتغيّره بطريقة سحرية؟» ورغم اختلاف الشخصيات والظروف، فقد أعاد هذا الاعتراف إلى الأذهان إخفاق فريدريش فِيستر عندما ظنّ أن فلسفة سبينوزا قد تُنقذ ألفريد روزنبرغ. وكدأبه، يتحمّل يالوم مسؤولية الفشل بأكملها، حتى لو بدا ذلك مبالغًا فيه. ومع تزايد شعوره بالإحباط، طلب يالوم من جارود أن يتأمل في الجلسة القادمة العلاقة بين عدم معرفته ما يريده حقًّا لنفسه وسعيه المحموم لنيل إعجاب يالوم.

كان سؤال يالوم بمنزلة صدمة أيقظت جارود ونقلته إلى وعي جديد: فقد كان يبحث عن ذاته في عينيْ معالجه، لا ليعرف ما الذي يريده في الحياة. ثم فتح ملفًا وأرى يالوم فقرات من كتاب ماركوس أوريليوس «تأملات»، وجد فيها صدى لحياته. عندما قرأها بصوت مسموع، أدرك يالوم أن هذه الجلسة ليست سوى مرآة للجلسة الماضية: «اليوم هو القارئ وأنا المستمع». ورغم مقاومة جارود لطلب يالوم بأن يشرح له كيف أثّرت فيه تلك الفقرات، أبدى ملاحظة دقيقة حول ممارسة ماركوس اليومية للتأمل الذاتي: «في الأسبوع الماضي سألتُ: لمن كان يكتب؟ فهمت الآن. من الواضح أن تأملاته كانت رسائل يكتبها لنفسه كل يوم من ذلك الجزء العميق من نفسه الملتزم بأن يعيش حياة جيدة. أظن أنك ألمحت إلى ذلك. حسنًا، الآن أريد أن يكون بوسعي أن أفعل ذلك. لقد أُعجبت به كثيرًا. ماذا أقول أيضا؟» لكن توجد أشياء كثيرة يستطيع جارود أن يقولها، بدءًا من ملاحظة أن وصفه لماركوس أوريليوس ينطبق كذلك على يالوم نفسه. فلا أحد يُجسّد ممارسة التأمل الذاتي اليومية مثل يالوم. إن كتابات يالوم التأملية رسائل يوجّهها إلى

كل من ذاته اليومية، من ذلك الجزء العميق فيه الملتزم بعيش حياة فاضلة، وإلى قرّائه، سواء كانوا معالجين أم غير معالجين.

متعة المعالج

إن حكمة يالوم مشبعة أيضًا بالفرح: فرح لكونه معالجًا نفسيًّا وكاتبًا. إذ تعكس جميع قصص يالوم عن العلاج النفسي حبّه لكونه معالجًا. إن ما يجعل هذه البهجة لافتة ومميزة ما أشار إليه مايكل شولمان في مقال نُشر عام ٢٠١٦ في مجلة الجمعية الأميركية للتحليل النفسي، حيث ذكر أن المحللين يصفون في معظم الأحوال عملهم بأنه «مؤلم ويصعب احتماله، بينما لم تحظَ متعته إلّا بقدر قليل من التعليق والشرح». وفي دراسة واسعة النطاق تسلّط الضوء على التحليل النفسي منذ بداياته الفرويدية وحتى الوقت الحاضر، خلص شولمان إلى أن العديد، وربما معظم، «السرديات الروتينية لتجارب المحللين مع عملهم ومعاناته قد تقود إلى الاستنتاج بأن مهنتنا مؤلمة بشكل استثنائي، وأن أيام عمل المحللين تكون عادة صعبة الاحتمال، وأن الإرهاق أمر شائع».

يكفي أن نتأمل القصص في «مخلوقات فانية» حتى نلمس البهجة الغامرة التي يجدها يالوم في عمله مع مرضاه. فهو يحتفي بلحظات الكشف الصغيرة، الومضات الخفية، مثل عندما يكتشف أن بول إدواردز في قصة «العلاج الملتوي» كان في الحقيقة يستجوبه هو، وليس العكس. وكان يالوم مأخوذًا ببول، بينما قد يكتفي غيره من المعالجين بشعور بالضيق أو الغضب. ويجد لذّة في مشاركة حياته مع تشارلز في قصة «أن تكون حقيقيًّا»، حيث يتحقق اللقاء الأصيل الذي يؤكد معنى الحياة. ويستمتع بالمبارزة اللطيفة مع ناتاشا في قصة «أرابيسك»، منغمسًا في الدعابات التي توازي دعاباتها الماكرة. وحتى في قصة «شكرًا يا مولي»، عندما ارتكب أخطاء علاجية، فإنه فرح بمساعدة ألفين كروس. وفي قصة «لا تُحاصرني داخل سياج»، يبوح لريك إيفانز: «أشعر بالسعادة لأنني أساعد الآخرين، خصوصًا الأشخاص

الذين يواجهون نفس المشكلات التي أواجهها مثل الشيخوخة، والتقاعد، وكيفية التعامل مع وفاة زوج أو صديق، والتفكير في موتي أنا». ربما لم تكن جوستين كيسي تقصد أن تكون الكلمات التي همست بها، أو هسهستها، في أذن أستريد هدية لا تقدّر بثمن في قصة « أظهري شيئًا من الرُّقيّ أمام أبنائك»، لكن قصة يالوم توفر المتعة لأناس كثيرين، بمن فيهم يالوم نفسه. فهو يشعر بسعادة كبيرة عندما يستمع إلى سالي وهي تقرأ له قصائدها وقصصها في قصة «يجب أن تتخلّى عن الأمل من أجل ماضٍ أفضل» حتى إنه شعر بالذنب لأنه كان مستمتعًا بالجلسة معها. ويُنهي قصة « اذهبي وخذي ذلك المرض القاتل اللعين: تحية إجلال لإيلي» بشعوره بالندم لأنه لم يلتق «امرأة ذات روح عظيمة» في جلسات العلاج مثلها. وفي قصة « البكاء ثلاث مرات»، يذكّر يالوم هيلينا بأنه تأثّر كثيرًا بكلماتها. وقد جعلته تجربتا «إدراك الحقيقة» في قصة «مخلوقات فانية»، الأولى مع أندرو، والثانية مع جارود، «ممتلئًا بالتواضع والدهشة».

يُظهر يالوم في هذه القصص أن العلاقة الحميمة بين المعالج والمريض يجب ألَّا تتجاوز الحدود. ويجب ألَّا تكون رغبة المعالج في الكتابة عن مريضه استغلالية أو استعراضية. لا يعلن يالوم عن حبّه للعلاج النفسي فحسب، بل يُظهره أيضًا في كل قصة. فالعلاج النفسي بالنسبة إليه مغامرة مليئة بالتحديات الفكرية والعاطفية، تنطوي كل مغامرة على مخاطر، والعلاج النفسي ليس استثناءً. وتكون بعض أساليب يالوم العلاجية محفوفة بالمخاطر، لكن النجاحات تفوق الإخفاقات، وحتى الإخفاقات نفسها ليست سوى تجارب تعليمية.

الخاتمة

علاج يالوم وأن أُصبح نفسي

يعرض فيلم «علاج يالوم» (٢٠١٤) الوثائقي، وكتاب «أن أُصبح نفسي» (٢٠١٧)، وهو سيرة ذاتية، لمحات حميمة من حياة المعالج النفسي وهو في عقده الثامن. يبدأ الفيلم الوثائقي الذي أخرجته سابين غيزيغر، بلقطات لسفن ويخوت تبحر ببطء في النهر أمام مانهاتن، ويُختتم بالمشهد نفسه، على أنغام مقطوعة إدفارد غريغ «Peer Gynt Suite»، يتبعها سؤال علاجي مثير يطرحه يالوم: «إذا رسمت خطًّا يبدأ بحياتك وينتهي بموتك، فأين تجد نفسك الآن في هذا الخط؟» يعترف يالوم بأن السؤال قد يبدو صادمًا، لكنه يسلّط الضوء على «الجدول الزمني» لحياة الإنسان. ثم يطرح سؤالًا علاجيًّا آخر لا يقل إثارة: كثير من الناس مثقلون بالشعور بالندم. «إذا التقينا مرة أخرى بعد سنة من الآن، فما هو الشي المختلف الذي ستفعله خلال تلك الفترة لتعيش حياة خالية من الندم؟».

قالت المخرجة السويسرية سابين غيزيغر في مقابلة مع سونيتا سيمي إنها أرادت أن تصنع فيلمًا يُحدث في المشاهدين نفس الأثر التطهيري الذي أحدثه فيها قراءة كتب يالوم، فيلمًا «يُلهم الجمهور للتفكير في أنفسهم ووجودهم». فقد كانت غيزيغر مثقلة بالحزن والأسى بعد وفاة والدها وطلاقها، عندما صادفت كتاب «جلّاد الحب» الذي ألهمها فكرة الفيلم الوثائقي. قالت إن قراءة حكايات وقصص يالوم العلاجية «ساعدتني على أن أفهم الآخرين، والأهم من ذلك، على أن أفهم نفسي. أردت أن أنقل هذا الشعور بالراحة الذي شعرت به إلى الآخرين، ومن هنا بدأ المشروع». يُعدّ فيلم «علاج يالوم» الوثائقي تحية رقيقة لعمل المعالج وحياته، لوحة خريفية تكشف عن نضج الوجود.

يُظهر الفيلم الوثائقي المعالج وهو في مكتبه المحاط بالأشجار الخلابة في بالو ألتو بولاية كاليفورنيا، منهمكًا في شغفيه الكبيرين: العمل مع مرضى العلاج النفسي والكتابة. نراه جالسًا إلى طاولة مكتبه، خلفه رفوف مكتظة بكتب الطب النفسي السريري والفلسفة. ونراه يقود دراجته الهوائية ببطء

في شوارع ستانفورد وبالو ألتو، رجلًا متقدمًا في العمر، أنيقًا يعتمر قبعته الكاكية الألبية المميّزة. نراه يمارس رياضة الغوص برشاقة في مياه هاواي في أثناء خلوة للكتابة. ونرى لقطات من الأرشيف لمهاجرين وهم يدخلون الولايات المتحدة قبل قرن من الزمن، إشارة إلى رحلة والديه عبر جزيرة إيليس في نيويورك. ونرى مشاهد منزلية لأمه وأبيه، والحي الذي عاشا فيه فوق متجر بقالة صغير في واشنطن العاصمة. نرى صورًا لإرف يالوم الشاب ومارلين كونيك التي لم تكن قد تجاوزت الرابعة عشرة من عمرها حين بدآ يتواعدان، وصورًا للعروسين السعيدين يوم زواجهما في عام ١٩٥٤. نراه يُرضع طفلًا بزجاجة بينما تراقبه زوجته برضا وهي تُبعد سيجارة من فمه، ونراه في عطلة مع زوجته وأبنائه الأربعة وأحفاده الخمسة في بلدة مينيرب، القرية المسوّرة الجميلة في جنوب شرق فرنسا.

يستكشف الفيلم الوثائقي الذي تبلغ مدته أربعًا وسبعين دقيقة عدة جوانب من حياة يالوم: علاقته المعقدة والمتضاربة مع والديه، وقراره بأن يصبح طبيبًا نفسيًّا لأن ذلك كان أفضل طريقة لتحقيق حلمه في أن يصبح كاتبًا، وعلاقته بزوجته وأطفاله، والتزامه المستمر بالعلاج النفسي والكتابة، وأفكاره حول الشيخوخة والموت. يشبه فيلم «علاج يالوم» أحيانًا جلسة علاجية أو حصة درس في الفلسفة. ستجذب الطبيعة التأملية للفيلم الوثائقي بصورة أساسية أولئك الذين يرغبون في معرفة المزيد عن حياة يالوم، مع أنهم لن يتعلموا الكثير عن مساهماته المميّزة في العلاج النفسي أو الأدب الروائي أو الأدب الواقعي الإبداعي.

عدم وجود قاعدة راسخة

يؤكد يالوم في العلاج على منهج «هنا والآن»، لكن حين سُئل في مؤتمر ضخم ما هي «المنعطفات المثيرة في قصة حياتك»، عاد إلى أصوله، وقال: «كما تعرفون، فإني أحظى بكثير من التصفيق وكثير من التكريم، لكن ثمة

جزءًا في داخلي يشعر أن هذا غير واقعي». وبينما كان يتحدّث، ظهرت على الشاشة صور والديه، بنجامين وروث يالوم، وأضاف: «كان والدايَّ غير متعلمين تمامًا، لذلك أشعر دائمًا بأنه لا يوجد خلفي أساس أو سند، وهذا أمر يزعزعني قليلًا. ومهما حققتُ من نجاح، أو مهما حظيت كتبي من شهرة، يبقى لديَّ شيء من القلق: هل هذا حقًا أنا؟ هل أنا حقًا من أنجز كل هذا؟».

ثم يعود يالوم إلى غياب الوالدين الحنونين في وقت لاحق من الفيلم الوثائقي، ويكشف عن مكاسب وخسائر الافتقار إلى أساس له. «هناك شعور بالفخر في الحقيقة بأنك أنت صانع نفسك، وأنت أباك، ومرشدك. قد يمنحك هذا كثير من الشعور بالرضا. لكن في المقابل، هناك حنين، ربما حنين إلى مرحلة الطفولة المبكرة، إلى مرشد أو والد كان يمكن أن يوجّهك ويأخذ بيدك طوال هذه الرحلة».

ظل غياب المرشد في حياته المبكرة يملؤه بالحزن، لكنه يؤدي هذا الدور مع مرضاه: «أنا مرشد في هذه الرحلة نحو استكشاف الذات، وأنا دليل لأنني كنت هناك من قبل».

تتوافق الصورة التي يرسمها الفيلم عنه مع ما كشف عنه في كتبه. فهو يعترف بصراحة بعلاقته الإشكالية مع والديه، خصوصًا مع والدته. ورغم خيبة أمله من تلك العلاقة، يعترف يالوم بأنه لا يستطيع أن يبعدها من تفكيره - كما تكشف أحلامه في كتاب «أمي ومعنى الحياة». ثم يخبرنا أن الحزن يزداد وطأة وقسوة على الذين بقيت في حياتهم أمور لم تُنجز ولم تُحسم. وفي مراجعة ذاتية، يتساءل هل كان بإمكانه أن يفعل شيئًا ليجعل حياة والدته أكثر سعادة، ثم يقول: «ربما كان عليّ أن أكلّمها خلال تلك السنتين».

بداية علاقة تدوم مدى الحياة

لم يشأ يالوم أن يكون زواجه مثل زواج والديه. «لم أشأ أن أعيد إنتاج نمط الأب المستسلم والأم المتسلطة... لدى مارلين رأي مستقل، لكنها لا تسعى

أبدًا إلى السيطرة عليَّ».

يمزج فيلم غيزيغر الوثائقي بين صور الماضي والحاضر، ليقدّم لوحة عن حياة إرف ومارلين التي عاشاها معًا. ويكشف عن بهجتهما المتجددة في صحبة أحدهما الآخر، بهجة لم تزدها السنوات إلّا رسوخًا. يُظهر الفيلم سعادتهما بوجودهما معًا، وهي سعادة لم تزدد إلّا مع الزمن. ومن بينهما، كان إرفين يالوم الأكثر استرخاءً وتحفظًا، بينما كانت مارلين يالوم الأكثر عفوية ومرحًا وجرأة. نراهما جالسين عاريين في حوض استحمام ساخن، مسترخيين يستمتعان بوقتهما. ولكي لا يكون الفيلم الوثائقي جافًا وأكاديميًّا، تقول مارلين مبتسمةً إنهما يجب أن يسمحا للمشاهدين رؤية أنه شخص حقيقي من لحم ودم. «أظن أنكِ استعراضية»، قال مازحًا، بصوته كأفضل طبيب تشخيصي، فردّت عليه مازحةً وهي تتحرك نحوه: «حسنًا، ربما، ربما هذا ممكن. فإذا لم يكن لديّ جمهور، فما الفائدة؟».

يكشف الفيلم الوثائقي عن تفاصيل جديدة من البدايات الأولى لزواج إرفين ومارلين يالوم. تقول مارلين: «لم يكن مظهره هو الذي أسرني، وإنما شخصيته، فقد كان شخصًا جذابًا ومثيرًا للاهتمام». في مقابلة مع تيرينس كلارك في صحيفة «هافينغتون بوست»، قال يالوم إن صداقته مع مارلين وُلدت من شغفهما المشترك بالقراءة، فقد كانا يتقاسمان حبّ دوستويفسكي وديكنز وستاينبك. كان متيقنًا بأنها المرأة التي خُلقت له: «عندما كنت في السادسة عشرة مع عمري، راهنتُ صديقًا بأنني سأتزوجها». وقالت مارلين إن بعض الفتيات كنّ يرين أنه «شخص منطوٍ على نفسه أو غريب في اهتماماته»، وأضافت أن هذا التعبير لم يكن مستخدمًا في منتصف القرن. «أما نقطة قوته الأخرى فهي أنه كان معجبًا بي. وكان يبدو شخصًا آمنًا كثيرًا». كان مفتونًا بها أكثر مما كانت مفتونة به، وظلّ يرى أنها حبيبته طوال فترة الثانوية، لكنه لم يكن متأكدًا إن كانت تراه كذلك.

تمثّل التحدي في بداية علاقتهما في التوفيق بين اختلاف طباعهما. فقد كانت منفتحة، واجتماعية، وواثقة من نفسها، بينما كان غارقًا في دراسته

الأكاديمية. وتُظهر الصور ومقاطع الفيديو من سنوات مراهقتها أنه كان يبدو جادًّا متجهمًا، شابًّا متلهفًا ليترك بصمته في الحياة، وإلى جانبه فتاة يفيض وجهها دلالًا ترتسم على وجهها ابتسامة فاتنة. وتظهر في لقطة وهي تمازحه وتمدّ له لسانها. كانت متحمسة لمواعدة شبان آخرين عندما كانت طالبة في جامعة ويلسلي. تقرأ مما يبدو رسالة قديمة مرسلة إليها، وتعلّق قائلة: «لقد التقينا عندما كنا صغارًا جدًّا، ومهما كان رأيك، فإني سأشعر بالندم الشديد الآن لو أنني لم أتعرّف على شبان آخرين واستمتعت برفقتهم خلال السنوات الست الماضية». لقد منحتها تجربتها في مواعدة شبان آخرين في الجامعة الثقة بأنها تستطيع أن تتعامل مع رجال آخرين. لكنه لم يستطع أن يفهم حاجتها إلى أن تكون مع رجال آخرين. «لسوء الحظ، لم تستطع أن ترى أن استمتاعي برفقة آخرين لم يقلل بأي شكل من الأشكال من مشاعري تجاهك. الحقيقة هي أنني أستطيع أن استمتع وأستفيد من علاقاتي مع الآخرين، بينما أنت لا تستطيع أن تفعل ذلك». ومع أنها تنسب نسويتها إلى ابنتها إيف، بدا أن مارلين الشابة تتمتع بحساسية نسوية أولية منذ خمسينيات القرن الماضي.

يُلمح إرفين يالوم إلى أن اندفاعه الشديد نحو النجاح الأكاديمي أبعده عن أي نشاط آخر. يقول: «كنت أدرس طوال الوقت. كانت سنوات الجامعة وكلية الطب جحيمًا بالنسبة إليَّ. فلم تكن كليات الطب تقبل سوى خمسة في المئة من طلابها من اليهود، وهذا يعني أنه كان عليّ أن أكون متفوقًا لأتمكن من الالتحاق بها».

كتب يالوم عن معاناته من فترات قلق شديد خلال مراحل معينة من حياته، وتؤكد زوجته ذلك في الفيلم. «أظن أن هناك بعض الأشخاص الذين يعانون من قلق دائم. وفي حالة إرف، ربما تجلّى هذا القلق في نفاد صبره أو في شعوره بأن عليه أن يثبت نفسه في الحياة. لم يكن يسكنه كثيرٌ من الشعور بالطمأنينة أو الارتياح». يوافق يالوم على تعليقاتها ويقول: «عندما بدأت الدراسة في كلية الطب، كنت مندفعًا إلى درجة كبيرة - حتى أتخرّج بسرعة، وأتزوّج، وأحظى بهذه المرأة الجميلة التي قابلتها».

مارلين يالوم

درست مارلين يالوم التي تصغر زوجها بسنة واحدة في جامعات ويلسلي والسوربون وهارفارد. وحصلت على درجة الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة جونز هوبكنز، ثم تولّت تدريس اللغة الفرنسية في منظومة كليات ولاية كاليفورنيا، وهي حاليًّا باحثة مرموقة في معهد كلايمن لدراسات الجندر بجامعة ستانفورد الذي تولّت إدارته في العامين ١٩٨٤ و١٩٨٥. وفي عام ١٩٧٥، درّست مارلين وإرفين يالوم معًا في جامعة ستانفورد مقررًا بعنوان «الموت في الأدب وعلم النفس». يوجد في جعبة مارلين يالوم، المؤرخة الثقافية، اثني عشر كتابًا تُرجمت إلى عشرين لغة. ومُنحت شهادة تقدير من الجمعية التشريعية لولاية كاليفورنيا «تكريمًا لقيادتها الاستثنائية في الفنون الأدبية والالتزام المستمر بضمان جودة القراءة» عن كتابها الصادر عام ٢٠٠٨ «المثوى الأمريكي الأخير: أربعمئة عام من التاريخ عبر مقابرنا ومدافننا» الذي صُوِّره ابنهما ريد يالوم، وقلّدتها الحكومة الفرنسية أيضًا وسام ضابط السعفة الأكاديمية عام ١٩٩١. ورُشّح كتابها الصادر عام ٢٠١٢ المعنون «كيف اخترع الفرنسيون الحبّ» للقائمة القصيرة لجائزة «في بيتا كابا غاوس الأدبية» ولجائزة «مكتبة باريس الأمريكية». أما كتابها الذي صدر عام ٢٠١٥ بعنوان «الجنس الاجتماعي» فيتبنّى مقاربة ثقافية-تاريخية للصداقة النسائية في العالم الغربي.

إن كتاب «كيف اخترع الفرنسيون الحبّ» كتاب تاريخ ثقافي متطور، ويسلّط الضوء كذلك على روح الدعابة التي لا يمكن كبتها لدى مارلين يالوم. تتذكّر حديثًا مع الكاتبة الأكثر مبيعًا إليزابيث بادينتر بعد فترة قصيرة من انتخاب زوجها روبرت لعضوية مجلس الشيوخ الفرنسي بعد مسيرة طويلة في الحكومة. عندما سألت مارلين يالوم «من دون تفكير» عن عمر زوجها، قاطعتها إليزابيث بادينتر بابتسامة وقالت: «إنه في الثامنة والستين من عمره ووسيم مثل إله». مندهشة من «تعبيرها الصريح عن الحبّ الحسي»،

ردت مارلين يالوم: «المرأة الأمريكية لا يمكن أن تقول ما قلته للتو»، وعندما سألتها كيف تجيب المرأة الأمريكية، أجابت بخفة: «على الأرجح، إنها تقول إنه في الثامنة والستين من عمره ومزعج»، فضحكتا.

تتحدّث مارلين يالوم عدة مرات عن زواجها في كتابها «كيف اخترع الفرنسيون الحبّ»، لكنها تكشف أيضًا عن علاقتين عاطفيتين قبل زواجها. تذكر زيارتها إلى كنيسة في مدينة تور، في فرنسا، مع صديقها الكاثوليكي عندما كانا يدرسان في الخارج في سنتها الجامعية الثالثة، مضيفةً بين قوسين: «ظن قس ودود أننا حبيبان يبحثان عن مشورة قبل الزواج». وفي نهاية الكتاب تقريبًا، ذكرت علاقة غرامية في فرنسا مع شاب نرويجي عندما كانت في العشرين من عمرها، وتذكر أنهما تعرّفا على أحدهما الآخر على الفور في مكالمة هاتفية بعد أربعين عامًا.

تشير مارلين يالوم إلى فرق جوهري بين العلاج النفسي الفرنسي والأمريكي. إن قناعة الفرنسيين بأن الحبّ والجنس يجب أن يظلّا غامضين تحدّ مما يثق به الأزواج للمعالج، وتستشهد بمعالج أسرة باريسي يعبّر عن رعبه من فكرة مناقشة صريحة لهذه الموضوعات، ويُنقل عنه قوله «الغموض عنصر أساسي للحفاظ على جذوة الاهتمام بشريك الحياة عبر السنين. ولكي تبقى حياتي الزوجية حيوية، لا بدّ أن أشعر أنه يوجد في زوجتي دائمًا شيء يتجاوز ما أعرفه للتو عنها». صوّر المعالج الزواج بأنهما دائرتان متقاطعتان لا تتطابقان تمامًا. وقال: «في فرنسا، عندما نفكّر في العلاقة، نادرًا ما يتجاوز التداخل بين الدائرتين ثلث كل منهما، فالزوجان هنا ليسا مخوّلين فقط بالاحتفاظ بخصوصيتهما، بل يجب أن تكون لهما حياتهما الخاصة ليظلا مثيرين وجاذبين لأحدهما الآخر».

يتقاسم الزوجان مارلين وإرفين يالوم العديد من الاهتمامات الفكرية المشتركة، لكنهما اتجها في اتجاهات مختلفة عن تدريبهما الأكاديمي المبكّر. «مرّت فترة كنت فيها شديدة الاهتمام بمجال إرف. كنت أكتب تفسيرًا نفسيًّا لرواية «عوليس» لجيمس جويس، ثم انتقلتُ من تدريس الأدب إلى

دراسات المرأة. لا أزعم أن العلاج النفسي غير ملائم للآخرين عندما يوجد المعالج الكفء، لكن عندما امتلأت حياتي الخاصة بما يكفي به، لم أجد أن هذا ما أحتاج إليه». بعد هذه الملاحظة، نراها في درس يوغا، ملاذها الأثير لتبديد التوتر، بينما يهمس لها مدرّبها: «كوني مرهفة الحس تجاه العالم من حولك كما تكونين تجاه جسدك».

تثري رؤى مارلين يالوم النفسية العميقة دراستها النسوية والثقافية، ويتجلّى ذلك في التمييز الذي صاغته بين مفهوم «الحب باعتباره مرضًا» وبين «المرض الناجم عن الحب»، وذلك في قراءتها لبروست في كتابها كيف «اخترع الفرنسيون الحبّ».

إنّ الحبّ بوصفه عِلّة أشدّ خطرًا من «سقم العشق». فالعاشق المبتلي بالعشق يذوي تحت وطأة الغياب أو اللا مبالاة، لكنه يتعافى في غالب الأحيان، إمّا بظفره بالمحبوب، وإما بانصرافه إلى حبّ جديد. أمّا الحبّ بوصفه عِلّة وجودية، فهو حكم بالمعاناة الأبدية، حيث يظلّ العاشق يتألم دون أن يعرف محبة سليمة، محبة تعني على الأقل أن تهتم بمن تحبّ. إن شخصيات بروست غارقة في عتمة ذواتها، لا ترى إلّا شقاءها الداخلي، عاجزة عن أن تمنح الآخر أي رعاية ناضجة.

زواج أسطوري

ليس من المستغرب أن يكون إرفين ومارلين يالوم قد نعِما بزواج طويل المدى، متينًا، مفعمًا بالحيوية. يمكن استنتاج ذلك من اعتراف كلٍّ منهما بمساعدة الآخر في كتبهما العديدة. ففي كتاب «جلّاد الحبّ» يصفها بأنها «أشدّ ناقديه وأوفى أنصاره». وفي رواية «عندما بكى نيتشه» يروي كيف أنها تفوقت على نفسها، «ناقدةً بلا هوادة من أول كلمة حتى آخر سطر، بل حتى إنها هي التي اقترحت العنوان أيضًا. ثم يأتي كتاب «هبة العلاج» بإهداء دافئ: «مارلين، رفيقة الروح منذ أكثر من خمسين عامًا، وما زال العدّ

مستمرًا». وفي كتاب «مخلوقات فانية» كتب: «إلى زوجتي منذ ستين عامًا، التي ليست فترة كافية».

لا تقلّ إهداءات مارلين يالوم وشكرها حرارة وعمقًا. ففي كتابها الصادر عام ١٩٨٥ «الأمومة والموت وأدب الجنون»، تستشهد بزوجها في فصل عن سيلفيا بلاث: «كما كتب الطبيب النفسي إرفن يالوم: «إن فقدان الوالد يضعنا في تماس مباشر مع هشاشتنا، فإذا كان والدانا لم ينجوا، فمن ذا الذي سينقذنا؟» أما إهداء كتابها «تاريخ الثدي» (١٩٩٧) فيتّسم بجناسٍ موسيقي جذّاب: «إلى إرف، إلى الأبد». وتختم كتاب «تاريخ الزوجة» (٢٠٠١) باعتراف ساخر رشيق: «وكعادتي، فقد اعتمدتُ على زوجي، إرفين يالوم، البرفسور الفخري في قسم الطبّ النفسي بجامعة ستانفورد، في قراءة النص بعناية، وإجراء مناقشات في غاية الأهمية عندما تختلف وجهات نظرنا. وبعد مضي ستة وأربعين سنة على زواجنا، عرفتُ المعاني العميقة الكامنة في هذه الكلمة الصغيرة «الزوجة». وفي كتابها «كيف اخترع الفرنسيون الحب» أهدت كتابها إليه بعبارة من العصور الوسطى: «Ni vous sans moi, ni moi sans vous» أي «لا أنت من دوني، ولا أنا من دونك».

وهكذا يظلّ الزوجان يالوم كاتبين مرموقين، كلٌّ منهما توأم روح الآخر، وإن اختلفت موضوعاتهما، لكن الموضوعات الفكرية التي تشغلهما مختلفة. فقد كتبت مارلين يالوم كتابًا عن المقابر والمدافن، لكنها اشتُهرت أكثر بكتبها عن الحبّ. واشتُهر إرفن يالوم بكتبه عن العلاج النفسي الوجودي، وبدوره جلّاد الحبّ، وبتركيزه على قلق الموت. وهكذا يبدو زواجهما اتحادًا سعيدًا بين الأضداد: زواج إيروس وثاناتوس، الحبّ والموت.

لا يقدّم لنا الفيلم الوثائقي صورة مثالية عن الزوجين. إذ يشعر المرء أنه كانت هناك أوقات عاصفة تعرّض فيها زواجهما للخطر. تقرّ مارلين يالوم بالقول: «لا شك أنّه مرت لحظات في مسيرة الزواج كنت سأغادر فيها. أقصد، تمرّ هذه اللحظات دائمًا. لكن الوشائج التي تربطني بإرف وبأبنائي وبالأسرة، كانت دائمًا أقوى، فلم أغادر قط». ويقول إرفين بنفس الطريقة:

«مررتُ بلحظات ربما انجذبتُ فيها إلى حبّ آخر، وكان ذلك شعورًا جميلًا، لكنه كان شعورًا عابرًا. أما ارتباطي بمارلين فقد كان دائمًا ثابتًا لا يتزعزع». ويؤكدان معًا على أن نجاح الزواج يقوم على أساس مبدأ واحد: «أن يكون التزامك الأول تجاه شريكك. وهذا ما يجب أن تتذكّره طوال الوقت». ويشددان كلاهما، على لسان مارلين، أنّ سرّ دوام الزواج أن يكون «الالتزام الأول موجّهًا إلى الآخر. وهذا ما يجب أن يذكّر المرء نفسه به على الدوام، مرة بعد أخرى».

الاختلافات الثقافية والجنسانية في الحبّ

تدرك مارلين يالوم تمامًا التأثيرات الثقافية على الحبّ والاختلافات بين الرؤى الفرنسية والأمريكية المتعلقة بالزواج. فقد أدركت مارلين هذه الاختلافات الثقافية لأول مرة عندما كانت تدرس في جامعة السوربون في باريس. في حوارها مع رويال يونغ عام ٢٠١٢ حول كتابها «كيف اخترع الفرنسيون الحبّ»، تحدّثت مارلين يالوم عن تميّز التجربة الفرنسية في الحبّ، وقالت: «إن أكثر ما يميّزها هو الإيمان بأن الحبّ يبرّر ذاته بذاته، وأنه ينبغي أن يُعاش بكل ما في الشغف من عنفوان. توجد لدى الفرنسيين عبارة رائعة: amour passion، أي شغف الحبّ. فمن يعيش في فرنسا لفترة طويلة، لا بدّ أن يسمع ذات يوم من يحدّثه عن شغف الحبّ، شغف الحبّ الذي يسم حياته، أو أنهم يسألونك إن كنت قد عشته بنفسك». ما الذي يحدث إذا لم يعش المرء هذا النوع من الحبّ؟ «إنهم ينظرون إليك بعين الأسى، إذ يُعدّ غياب الرغبة في نظر الفرنسي نقصًا في الكيان». وتوضح مارلين يالوم أنه يوجد لدى الفرنسيين تقليد عريق في الحب الرومانسي منذ تسعمئة سنة، منذ شعراء التروبادور والمغنين الجوّالين. «هناك الفروسية في أسمى مراتبها. في مدام بوفاري، عندما كانت في مدرسة الراهبات، ماذا كان معلّقًا على الجدار؟ صورة عشيقة ملك فرنسا. (تضحك) هذا يدلّ على أن الحبّ مهمّ في لاوعيهم الجمعي، وأن الجنس مهمّ، وأن الحب متجسّد في الجسد ذاته».

لا تُصدر مارلين يالوم أحكامًا على الحبّ خارج إطار الزواج، لكنها ترى أنّ إقامة علاقة دائمة مع شخص آخر، سواء أكان زوجًا أم لا، أمر يزداد صعوبة. وفي حديثها عن زواجها في الفيلم الوثائقي، تقول: «مضت سبعة وخمسون عامًا على زواجي من الشخص نفسه، ولم تخلُ حياتنا من صعوبات وضغوط شديدة، ومع ذلك فإنني أقدّر دوام هذا الزواج، واعتزّ بتاريخنا المشترك، وما نزال نريد الخير والسعادة لأحدنا الآخر، وهذا، في النهاية، أثمن ما في الحياة».

يُقِرّ إرفن ومارلين يالوم بقوة «شغف الحبّ»، غير أنّ مقاربتَيهما تختلفان. إذ ينظر إرفن إليه بعين الريبة، ويراه في التحليل السريري ضربًا من الهوس أو الافتتان العابر الذي لا يلبث أن يزول، بل قد يؤدي إلى نزاعات شديدة. «الفكرة هي أن تقف في الحبّ، لا أن تقع فيه». أما مارلين فتتناول «شغف الحب» من زاوية ثقافية، وتشير إلى أنّ بعض الثقافات تسمح بتعايش الحبّ الزوجي وغير الزوجي معًا، وتستشهد بسيمون دو بوفوار وجان بول سارتر اللذين ناديا بعلاقة أساسية خارج الزواج. «أي أنك حرّ في علاقاتك العاطفية والجنسية. الحرية هي كلمة السرّ». ويؤكد إرف ومارلين كلاهما على الحبّ الخالد الذي لا يموت، وسعيا إلى تحويل المثال إلى واقع، لكنها تُبدي تقديرًا أعمق للرؤية الفرنسية التي ترى أنّ للحب والشغف مبررات وجودهما الخاصة.

اللحظة الوحيدة في فيلم «علاج يالوم» التي يختلف فيها الزوجان هي حول إن كان الرجال والنساء يحبّون بطرائق مختلفة. وبما أن مارلين يالوم باحثة نسوية، فهي ترى أنه توجد فروق جوهرية بين الجنسين في الحبّ. وتشير في الفيلم الوثائقي إلى قصة هيلويز وأبيلار التي ناقشتها في كتابيها «تاريخ الزوجة» و«كيف اخترع الفرنسيون الحبّ»: «لقد تمسّكت بحبّها لأبيلار لفترة طويلة بعد أن هجرها. لذلك، أصبحا تاريخيًّا النموذج الأولي للرجل الذي تحرّكه الشهوة أساسًا، والمرأة التي يستمر شعورها بالارتباط زمنًا أطول». لكن إرف يالوم اعترض على هذا التعميم، وقال: «مهلًا،

انتظري لحظة. «كل النساء- أيعني ذلك أن الرجال لا يمرّون بهذا أيضًا؟ لقد رأيتُ رجالًا بالعشرات يتحسّرون على حبّ مضى. هذا يحدث للرجال أيضًا. فالمسألة ليست مسألة جندرية مطلقة». لكن مارلين يالوم التي تصرّ على موقفها، تستشهد ببحث معاصر: «أستحضر هنا كتاب الطبيبة العصبية النفسية لوان بريزندين التي تقول إنّ دماغ الرجل يخصّص مساحة تعادل ضعفي ونصف مساحة دماغ المرأة للمطاردة الجنسية، أما جهاز التعاطف في دماغ المرأة فهو أكثر نشاطًا بكثير من دماغ الرجل». لكن إرف يالوم اعترض وقال: «هذا يوحي كما لو أن الرجال عاجزون عن حبّ النساء حبًّا حقيقيًّا، أو عن الرغبة في البقاء معهن، أو عن رفض إبعادهن. وأنا لا يمكن أن أفكّر في إبعادك عني»، فأجابته مارلين بابتسامة: «هذا صحيح».

دون الانحياز في الجدل الدائر حول الطابع الجندري للحبّ، يمكن القول إنّ لوان بريزندين راجعت موقفها من هذه المسألة. فهي طبيبة نفسية عصبية تشغل كرسيًّا علميًّا مرموقًا في جامعة كاليفورنيا بسان فرانسيسكو، وصاحبة الكتابين الشهيرين «دماغ الأنثى» (٢٠٠٦) و«دماغ الذكر» (٢٠١٠). وقد رأت في الأول أنّ «الفتيات يولدن وهن مهيّآت كفتيات، ويولد الفتيان وهم مهيّئون كفتيان، وأنّ اختلاف أدمغتهم منذ الولادة هو الذي يوجّه اندفاعاتهم وقيمهم وواقعهم»، وتعترف بأنها عندما كانت تكتب كتابها «دماغ الأنثى» «كان يتنازعها صوتان: صوت الحقيقة العلمية، وصوت الصوابية السياسية، وقد آثرت الحقيقة العلمية وإن لم تكن دائمًا موضع ترحيب». لكن يبدو أنها ندمت على ما ذكرته، فقد أقرّت في مقابلة أجرتها عام ٢٠١٤ مع ألينا توغند بأنها ربما «تركت البندول يتأرجح بعيدًا إلى الجهة الأخرى» عندما بالغت في التركيز على الفوارق الفطرية بين الجنسين، وتؤكد اليوم: «إنّ الذكور والإناث يشبهون بعضهم أكثر مما يختلفون، فنحن في نهاية المطاف جنس واحد».

هل توجد اختلافات بين الجنسين في روايات يالوم؟ إن شخصيات يالوم الذكورية أكثر انجذابًا جنسيًّا من شخصياته الأنثوية، لكن ذلك قد يكون

ذلك لأن أبطال الروايات الأربع هم جميعًا ذكور: بروير ونيتشه، وإرنست لاش في رواية «مستلقيًا على الأريكة»، وشوبنهاور وفيليب سليت، وسبينوزا وألفريد روزنبرغ. فقد كان بروير مهووسًا جنسيًّا بمريضته «آنا و.»، وهو هوس قاتم لا يزول حتى نهاية الرواية. ويبدو أن نيتشه مهووس بفكرة خيانة لو سالومي له، وليس بجنسانيتها. ويستسلم سيمور تروتر لمغازلة بيل فيليني الجنسية في رواية «مستلقيًا على الأريكة»، لكن تصعب معرفة أين ينتهي الحب الناجم عن الانتقال والانتقال المقابل، وأين تبدأ الرغبة في الاحتيال على شركة التأمين. إن ملاحقة كارول أستريد لإرنست ليس دافعها الشهوة بل الانتقام: فقد هجرها زوجها من أجل امرأة أصغر سنًّا. وفيليب سليت تجسيد للشهوة الجنسية النهمة، وهو أفضل مثال على أطروحة مارلين يالوم بأن الرجال تدفعهم الشهوة، والنساء يدفعهن الارتباط.

تجد شخصيات يالوم النسائية نفسها أحيانًا في قبضة حبّ هوسي، كما نرى في ثيلما في قصة «جلاد الحبّ». لكن بعد انتهاء القصة، قد يتذكّر القرّاء بشكل أوضح اعتراف يالوم نفسه بأنه عُذّب هو نفسه بحبّ هوسي: فقد أقرّ في القصة نفسها أنه التقى امرأة في مؤتمر «هيمنت على عقلي وأفكاري وأحلامي». كان الهوس مُرضيًّا في البداية، لكنه اضطره في النهاية إلى أن يعود إلى العلاج النفسي، وتمكن بعد أشهر من الجهد المضني من السيطرة على أفكاره. ويُظهر التدقيق في روايات يالوم وحكاياته العلاجية أنّ شخصياته الذكورية مدفوعة بالشهوة أكثر من الشخصيات النسائية -وأكثر عذابًا بالهواجس الجنسية، أو بعبارة مارلين يالوم، فإن شخصيات زوجها الذكورية تجسّد، كما عند بروست، «الحبّ بوصفه مرضًا»، وهو حالة أخطر من «داء الحب».

ومن المثير للاهتمام أن شخصيات يالوم الذكورية لا تُظهر نفس روابط التعلق التي تُظهرها شخصياته الأنثوية. فلا نرى أي شخصية ذكورية في روايات يالوم أو قصص في العلاج النفسي تعاني من حزن طويل الأمد على وفاة طفل أو زوج، لكننا نرى بيني حزينة على وفاة ابنتها في «جلاد

الحبّ»، وإيرين محطمة على وفاة زوجها في»أمي ومعنى الحياة». وتظل ناتاشا مهووسة بزوجها السابق في «مخلوقات فانية»، مع أن يالوم يعزو ذلك أساسًا إلى رغبتها في استعادة شبابها السحري. ثمة عامل معقد في مناقشة الاختلافات بين الجنسين في الكتب الثلاثة من قصص وحكايات العلاج النفسي، وهو أن يالوم يغيّر أحيانًا جنس الشخصية لحماية هوية المريض.

نهايات متوقعة

تشي مقابلة يالوم مع سيمي ريتشمان (٢٠١٥) بنبرة وداعية، فهو ينتهي كما يبدأ «علاج يالوم»، بالدعوة إلى حياة خالية من الندم. يقول: «كنت أرغب طوال الوقت في أن أكون كاتبًا، وربما لو وُلدت في جيل آخر، لاخترت الكتابة بدل الطب، من دون أن أنكر انجذابي لفكرة الطب. وقد أسعدني أن أجد سبيلًا للجمع بين الاثنين بشكل لم أكن أتصوره».

ويُسدل الفيلم ستاره باقتباسين: قول توماس هاردي: «إن الطريق إلى الأفضل يمرّ عبر مواجهة الأسوأ»، ورؤية شوبنهاور «أن غروب الشمس في أواخر العمر يكشف عن بهاء السماء المرصعة بالنجوم». يقول يالوم إن الثمانينيات من العمر قد تكون أفضل من السبعينيات: «ففي السبعينيات ينهار الجسد وتتعطل الرغبات. كثيرون يغرقون في يأس نهائي، لكنني وجدت العكس: حرية أكبر، وغياب للقلق، وإبداع متجدد. لذلك أقول للشباب: ربما تنتظركم أيام أجمل. أما أنا، فإني أستمتع الآن بسماء الليل».

كتابة الوداع: أن أُصبح نفسي

يواصل يالوم الاستمتاع بسماء الليل في مذكّراته «أن أُصبح نفسي» التي صدرت عندما بلغ السادسة والثمانين من العمر. يشير العنوان إلى وصية نيتشه: «أصبحْ من أنت»، أما الفصل الأخير في المذكرات، «مبتدئ في الشيخوخة»، فهو الأكثر تأثيرًا، ربما لأنه، مثل بروسبيرو في مسرحية شكسبير

الأخيرة «العاصفة»، يعلن أنّه يدفن عصاه السحرية. وهو ما يزال يكتب من ثلاث إلى أربع ساعات صباح كل يوم، ستة أو سبعة أيام في الأسبوع، لكنه مقتنع بأن كتاب «أن أُصبح نفسي» هو كتابه الأخير. «يُبدي أصدقائي وزملائي امتعاضهم عندما يسمعونني أقول ذلك. لقد سمعوه مني مرات عديدة، لكنني أخشى أن يكون الأمر مختلفًا هذه المرة».

لا يقدّم يالوم في مذكراته «أن أُصبح نفسي» حصيلة نهائية لمسيرته الأدبية، لكنه يفعل ذلك في كتابه «التحديق إلى الشمس»، حيث يعبّر عن متعته في حرفة «نجارة الكتابة» أي «إيجاد الكلمة المثالية، وصقل الجمل الخشنة وتلميعها، واللعب بإيقاعات العبارات والجمل». لم يملّ يالوم قط من اللذة الجمالية للكتابة وصنعة النثر. «أعرف أنني أفتقر إلى الصور الشعرية التي لدى كبار الكتّاب المعاصرين مثل روث وبيلو وأوزيك وماكيوان وبانفيل وميتشل وغيرهم ممن قرأت أعمالهم بإعجاب، لكنني حققت أقصى ما أملك من موهبة. فأنا راوٍ مقبول، كتبتُ الرواية والبحث، وحظيت بقرّاء وشهرة أكثر مما كنت أحلم».

ولم يقارن يالوم نفسه بغيره من كتّاب قصص وحكايات العلاج النفسي، لكنه، باستثناء فرويد، يظلّ الأبرز بين من جمعوا بين البصيرة العلاجية والسرد البارع. وكان أرفع ثناء أدبي ناله، كما يروي في «أن أُصبح نفسي»، قول رولو ماي عن كتابه «جلاد الحبّ»: «يكتب يالوم كالملاك عن الشياطين التي تحاصرنا». وقد أكسبته موهبته في سرد القصص لقب «شهرزاد في غرفة الاستشارة»، كما وصفته لورا ميلر بشكل ملفت في مقالة نُشرت في صحيفة نيويورك تايمز في عام ٢٠٠٣. كانت تشير إلى مجموعته «جلاد الحبّ» الذي يحتوي على «انكشافات مذهلة، وتحولات عسيرة، وأغرب المعضلات الأخلاقية»، لكن ذلك ينطبق على جميع قصص يالوم العلاجية. ففي رواية «مستلقيًا على الأريكة» يعبّر سيمور تروتر عن أسفه لقِصر عمر النصوص النفسية الكبرى التي لا تعيش أكثر من جيل، في حين ستبقى كتب يالوم، الروائية والبحثية، فترات أطول، وستصبح أعمالًا كلاسيكية في هذا المجال.

ويطوي يالوم نصف قرن من الكتابة بالاستشهاد بنيتشه في كتابه «هكذا تكلّم زرادشت»: «أكانت تلك حياة؟ إذًا فلنعِشها مرة أخرى»، وهي نفس العبارة التي ترد على لسان بام سوانفيل في نهاية رواية «علاج شوبنهاور». ولعلّ أفضل ختام لكتاب عن إرفن يالوم أن نستعيد جملة نيتشه السابقة لتلك العبارة التي تختصر جوهر عمله كطبيب نفسي وكاتب: «الشجاعة... هي القاتل الأعظم، الشجاعة التي تهاجم: فهي تقتل حتى الموت نفسه».

مكتبة
t.me/soramnqraa

المصادر والمراجع

Adams, Henry. The Education of Henry Adams. Boston: Houghton Mifflin, 1918. Albom, Mitch. Tuesdays with Morrie: An Old Man, a Young Man, and Life»s Greatest

Lesson. New York: Broadway Books, 1997.

Andreasen, Nancy C. The Creating Brain: The Neuroscience of Genius. New York: Dana Press, 2005.

Antoninus, Marcus Aurelius. The Meditations, trans. A. S. L. Farquharson, and selection from The Letters of Marcus and Fronto, trans. R. B. Rutherford, with introduction and notes by R. B. Rutherford. Oxford: Oxford University Press, 1989.

Babacan, Nalan Akgül. «Will We Have a New Ending for Irvin Yalom»s Novel? A Medical Oncologist View.» Journal of Oncological Science 6-5 :(2016) 2.

Barley, Andrew. «Review of The Schopenhauer Cure.» Philosophy Now 2005) 52). Https://philosophynow.org/issues/52/The_Schopenhauer_Cure_by_Irvin_ Yalom. Accessed November 2016 ,9.

Barnett, Laura, and Greg Madison, eds. Existential Therapy: Legacy, Vibrancy and Dialogue. East Sussex, UK: Routledge, 2012.

Bass, Ellen, and Laura Davis. The Courage to Heal: A Guide for Women Survivors of Child Sexual Abuse. New York: Harper & Row, 1988.

Berman, Jeffrey. Dying in Character: Memoirs on the End of Life. Amherst: University of Massachusetts Press, 2012.

———. «Remediable and Irremediable Suffering: Allen Wheelis»s Psychoanalytic and Novelistic Writings.» In Allen Wheelis: An Appreciation of His Work, ed. Maurice W. DuQuesnay, 57-29. Lafayette: Levy Humanities Series, 1999.

———. The Talking Cure: Literary Representations of Psychoanalysis. New York: New York University Press, 1985.

———. Writing Widowhood: The Landscapes of Bereavement. Albany: State University of New York Press, 2015.

Breuer, Josef, and Sigmund Freud. Studies on Hysteria. In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud, trans. James Strachey, vol.

2. London: The Hogarth Press, 1955.

Brizendine, Louann. The Female Brain. New York: Broadway, 2006.

Charon, Rita, and Eric R. Marcus. «A Narrative Transformation of Health and Healthcare.» In The Principles and Practice of Narrative Medicine, Rita Charon, Sayantani Dasgupta, Nellie Hermann, Craig Irvine, Eric R. Marcus, Edgar Rivera Colon, Danielle Spencer, and Maura Spiegel, 291-271. New York: Oxford University Press, 2017.

Clarke, Terence. «Irvin D. Yalom: A Conversation.» Huffington Post, May 2015 ,7. Https://www.huffingtonpost.

com/terence-clarke/irvin-d-yalom-a-conversation. Accessed July 2016 ,19.

Damasio, Antonio. Looking for Spinoza: Joy, Sorrow, and the Feeling Brain. Orlando: Harcourt, 2003.

Durant, Will. The Story of Philosophy: The Lives and Opinions of the Greater Philoso- phers. New York: Simon and Schuster, 1926.

Eby, Carl P. Hemingway»s Fetishism: Psychoanalysis and the Mirror of Manhood. Albany: State University of New York Press, 1999.

Elms, Alan C. Uncovering Lives: The Uneasy Alliance of Biography and Psychology.

New York: Oxford University Press, 1994.

Erikson, Erik H. Young Man Luther: A Study in Psychoanalysis and History. New York: Norton, 1962.

Farber, Leslie H. Lying, Despair, Jealousy, Envy, Sex, Suicide, Drugs, and the Good Life. New York: Basic Books, 1976.

Fiedler, Leslie A. Love and Death in the American Novel, rev. ed. New York: Stein and Day, 1966.

Fitzgerald, F. Scott. The Crack-Up. New York: New Directions, 1945.

Frank, Arthur W. The Wounded Storyteller: Body, Illness, and Ethics. Chicago: Uni- versity of Chicago Press, 1995.

Freeman, Lucy. The Story of Anna O. New York: Walker and Company, 1972. Freud, Sigmund. An Autobiographical

Study (1925). In The Standard Edition of the

Complete Psychological Works of Sigmund Freud, trans. James Strachey. Vol. 20. London: The Hogarth Press, 1959.

———. The Complete Letters of Sigmund Freud to Wilhelm Fliess, 1904-1887. Trans. and ed. Jeffrey Moussaieff Masson. Cambridge: Harvard University Press, 1985.

———. On the History of the Psycho-Analytic Movement (1914). In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud, trans. James Strachey. Vol. 14. London: The Hogarth Press, 1957.

———. Leonardo da Vinci and a Memory of His Childhood (1910). In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud, trans. James Strachey. Vol. 11. London: The Hogarth Press,1957.

———. Letters of Sigmund Freud. Selected and ed. Ernst L. Freud; trans. Tania and James Stern. New York: Basic Books, 1960.

———. «Mourning and Melancholia» (1917). In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud, trans. James Strachey. Vol.

14. London: Hogarth Press, 1957.

———. Notes Upon a Case of Obsessional Neurosis (1909). In The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud, trans. James Strachey. Vol. 10. London: The Hogarth Press, 1955.

———. «Observations on Transference-Love (Further Recommendations on the Technique of Psychoanalysis» (1915). In The Standard Edition of the Complete

Psychological Works of Sigmund Freud, trans. James Strachey. Vol. 12. London: The Hogarth Press, 1958.

———. Totem and Taboo (1913). In The Standard Edition of the Complete Psycho- logical Works of Sigmund Freud, trans. James Strachey. Vol. 13. London: The Hogarth Press, 1953.

Gabbard, Glen O. «Disguise or Consent: Problems and Recommendations Concerning the Publication and Presentation of Clinical Material.» International Journal of Psycho-Analysis 1086-1071 :(2000) 81.

———. «Review of The Schopenhauer Cure.» American Journal of Psychiatry 1118 :(2006) 163.

Gisiger, Sabine, dir. Yalom»s Cure: A Guide to Life, Love and Happiness, 2014. Godwin, Gail. The Good Husband. New York: Ballantine, 1994.

Goethe, Johann Wolfgang von. The Autobiography of Johann Wolfgang von Goethe. 2 vols. Trans. John Oxenford. Introduction by Karl J. Weintraub. Chicago: University of Chicago Press, 1974.

Goldstein, Rebecca. Betraying Spinoza: The Renegade Jew Who Gave Us Modernity.

New York: Schocken, 2006.

Gornick, Lisa. «Why I Never Wrote About My Patients.» New York Times, May 2015 ,12.

Greenberg, Gary. «Should Therapists Write About Patients?» New York Times, April 2016 ,19.

Hesse, Hermann. The Glass Bead Game [Magister Ludi].

Trans. Richard and Clara Winston. Foreword by Theodore Ziolkowski. New York: Henry Holt, 1990. Hirschmüller, Albrecht. The Life and Work of Josef Breuer: Physiology and Psychoanalysis.

New York: New York University Press, 1989.

Hoffman, Eva. «Tales of Suspense from the Psychiatric Couch.» New York Times, September 1989 ,6.

Horney, Karen. Neurosis and Human Growth: The Struggle Towards Self-Realization.

New York: Norton, 1950.

James, William. «On a Certain Blindness in Human Beings.» In Talks to Teachers on Psychology: And to Students on Some of Life»s Ideals. Cambridge: Harvard University Press, 1983.

Johnson, Michael. «Revisiting Irvin Yalom»s Seductive Novels of Ideas.» Facts & Arts, July 2015 ,23. Http://www.factsandarts.com/literary-essays/revisitingirvin-yaloms-seductivenovels-of-ideas. Accessed November 2016 ,12.

Joll, James. «Nietzsche v. Nietzsche.» New York Review of Books, February 1993 ,11. Jones, Ernest. The Life and Work of Sigmund Freud. 3 vols. New York: Basic Books, 1957-1953.

Josselson, Ruthellen. Irvin D. Yalom: On Psychotherapy and the Human Condition.

New York: Jorge Pinto Books, 2008.

Joyce, James. A Portrait of the Artist as a Young Man. New York: Viking, 1916] 1968]. Jung, C. G. Memories,

Dreams, Reflections. Recorded and ed. Aniela Jaffé. Trans.

Richard and Clara Winston. Rev. ed. New York: Vintage, 1989.

Kantrowitz, Judy Leopold. Writing About Patients: Responsibilities, Risks, and Ramifications. New York: Other Press, 2006.

Kaufmann, Walter. Nietzsche: Philosopher, Psychologist, Antichrist. 3rd ed. Princeton: Princeton University Press, 1968.

Kesey, Ken. One Flew Over the Cuckoo»s Nest. New York: Berkley, 1963.

Kirsch, Jonathan. «Getting Inside the Mind of a Shrink: A Review of Lying on the Couch.» Los Angeles Times, September 1996 ,4.

Kübler-Ross, Elisabeth. On Death and Dying. New York: Macmillan, 1970.

———. On Life after Death (1991). New foreword by Caroline Myss. Berkeley: Celestial Arts, 2008.

———. The Wheel of Life: A Memoir of Living and Dying. New York: Scribner, 1997. Lichtenstein, Heinz. The Dilemma of Identity. New York: Jason Aronson, 1977] 1983]. Lieberman, Morton A., Irvin D. Yalom, and Matthew B. Miles. Encounter Groups:

First Facts. New York: Basic Books, 1973.

Lindner, Robert. The Fifty-Minute Hour. New York: Rinehart, 1955.

Loftus, Elizabeth, and Katherine Ketcham. The Myth

of Repressed Memory: False Memories and Allegations of Sexual Abuse. New York: St. Martin»s Griffin, 1994.

Lynn, Kenneth S. Hemingway. New York: Simon and Schuster, 1987.

Magee, Bryan. Confessions of a Philosopher: A Personal Journey Through Western Philosophy from Plato to Popper. New York: Modern Library, 1999.

———. The Philosophy of Schopenhauer. Oxford: Oxford University Press, 1983. Mann, Thomas. Buddenbrooks. Trans. H. T. Lowe-Porter. New York: Knopf, 1964. Masserman, Jules. Principles of Dynamic Psychiatry. New York: Saunders, 1947.

May, Rollo, Ernest Angel, and Henri F. Ellenberger, eds. Existence: A New Dimension in Psychiatry and Psychology. New York: Simon and Schuster, 1958.

McAdams, Dan P. «What Psychobiographers Might Learn from Personality Psychology.» In Handbook of Psychobiography, ed. William Todd Schultz, 83-64. Oxford: Oxford University Press, 2005.

Merkin, Daphne. «A Neurotic»s Neurotic.» New York Times Magazine, December 2007 ,30.

Meyer, Nicholas. The Seven-Per-Cent Solution. New York: Ballantine, 1975. Middlebrook, Diane Wood. Anne Sexton: A Biography. Boston: Houghton Mifflin,

1991.

Miller, Laura. «The Last Word; Scheherazade in the Consulting Room.» New York Times, June 2003 ,15.

Moody, Skye K. «Review of The Schopenhauer Cure.» Seattle Times, February 2005 ,6.

Mosher, Paul W., and Jeffrey Berman. Confidentiality and Its Discontents: Dilemmas of Privacy in Psychotherapy. New York: Fordham University Press, 2015.

Nabokov, Vladimir. Lolita. London: Weidenfeld and Nicolson, 1959.

———. Speak, Memory. In The Portable Nabokov, selected, with a critical introduction, by Page Stegner. New York: Viking, 1973.

Nadler, Steven. Spinoza: A Life. Cambridge: Cambridge University Press, 1999. Nelson, Leah. «Hatewatch: White Supremacist Arthur Kemp Reprinting Forgotten

Racist Texts.» Southern Poverty Law Center. Http:// splcenter.org/hatewatch/ 12/07/2011/white-supremacist-Arthur Accessed July 2016 ,28.

Nietzsche, Friedrich. Basic Writings of Friedrich Nietzsche. Trans. and ed., with commentaries, by Walter Kaufmann. New York: Modern Library, 1992.

———. Beyond Good and Evil. Trans. R. J. Hollingdale, with an introduction by Michael Tanner. New York: Penguin, 1990.

———. Ecce Homo. In Basic Writings of Friedrich Nietzsche, trans. and ed., with commentaries, by Walter Kaufmann. New York: Modern Library, 1992.

———. The Gay Science with a Prelude in Rhymes and an Appendix of Songs, trans. with commentary by Walter Kaufmann. New York: Vintage, 1974.

———. Human, All Too Human: A Book for Free Spirits, trans. Marion Faber, with Stephen Lehmann. Introduction and notes by Marion Faber. New introduction by Arthur C. Danto. Lincoln: University of Nebraska Press, 1996.

———. «Schopenhauer as Educator.» Trans. Adrian Collins. Https://en.wikisource. org/wiki/Schopenhauer_as_educator. Accessed November 2016 ,12.

———. Thus Spake Zarathustra. In The Philosophy of Nietzsche. New York: Modern Library, 1954.

———. Twilight of the Idols. In The Portable Nietzsche, selected and trans. with an introduction, prefaces, and notes by Walter Kaufmann. New York: Penguin, 1959.

Noël, Barbara, and Kathryn Watterson. You Must Be Dreaming. New York: Poseidon Press, 1992.

O»Neill, Eugene. The Iceman Cometh. New York: Vintage Books, 1957.

Pattison, E. Mansell. «Review of Inpatient Group Psychotherapy.» Psychiatric Services

501-500 :(1984) 35.

Pennebaker, James. Opening Up: The Healing Power of Expressing Emotions. New York: Guilford Press, 1997.

———, ed. Emotion, Disclosure & Health. Washington, DC: American Psychological Association, 1997.

Pollack, George H. «The Possible Significance of Childhood Object Loss in the Josef Breuer—Bertha Pappenheim (Anna O.)—Sigmund Freud Relationship.» Journal of the American Psychoanalytic Association 16

739-711 :(1968).

Popkin, Richard. «Spinoza»s Excommunication.» In Jewish Themes in Spinoza»s Philosophy, ed. Heidi M. Ravven and Lenn E. Goodman, 279-263. Albany: State University of New York Press, 2002.

Presley, Gary. «Interview with Irvin Yalom.» March ,5 2012. Http://www.kirkusreviews. com/features/inside-spinoza-problem. Accessed August 2016 ,4.

Raabe, Peter B. Issues in Philosophical Counseling. Westport: Praeger, 2002.

Ravven, Heidi M. «Spinoza»s Rupture with Tradition—His Hints of a Jewish Modernity.» In Jewish Themes in Spinoza»s Philosophy, ed. Heidi M. Ravven and Lenn

E. Goodman, 223-187. Albany: State University of New York Press, 2002. Reik, Theodor. Listening with the Third Ear: The Inner Experience of a Psychoanalyst.

New York: Jove/HBJ, 1977.

«Review of Every Day Gets a Little Closer.» Kirkus Reviews, November 1974 ,8. «Review of Lying on the Couch.» Kirkus Reviews, June 1996 ,15.

«Review of Lying on the Couch.» Publishers Weekly, July 1996 ,29.

Richman, Simmy. «Irvin D. Yalom Interview: The Grand Old Man of American Psychiatry on What He Has Learned about Life (and Death) in His Still- Flourishing Career.» Independent, March 2015 ,25. Http://www.independent.co.uk/news/people/profiles/irvin-d-yalom-interview. Accessed August 2016 ,13.

Rosenberg, Alfred. Memoirs. Ostara Publications, 2015.

———. The Myth of the Twentieth Century: An Evaluation of the Spiritual-Intellectual Confrontations of Our Age. Middletown, DE: 2016.

Roth, Philip. Portnoy»s Complaint. New York: Random House, 1969.

Rubin, Merle. «Review of The Schopenhauer Cure.» Los Angeles Times, January 2005 ,8. Rudnytsky, Peter L. «Book Review of Writing About Patients: Responsibilities, Risks, and Ramifications.» Journal of the American Psychoanalytic Association 55

(1411-1406 :(2007.

Russell, Bertrand. History of Western Philosophy. London: George Allen & Unwin, 1946. Sacks, Oliver. Hallucinations. New York: Vintage, 2013.

———. «My Own Life.» New York Times, February ,19 2015.

Safranski, Rüdiger. Schopenhauer and the Wild Years of Philosophy. Trans. Ewald Osers. Cambridge: Harvard University Press, 1991.

Saks, Elyn R. The Center Cannot Hold. New York: Hyperion, 2007.

Saks, Elyn R., and Shahrokh Golshan. Informed Consent in Psychoanalysis: The Law, the Theory, and the Data. New York: Fordham University Press, 2013.

Schultz, William Todd, ed. Handbook of Psychobiography. Oxford: Oxford University Press, 2005.

Schwartz, Daniel B. The First Modern Jew: Spinoza and the History of an Image.

Princeton: Princeton University Press, 2012.

Schwartz, M. F., L. D. Galperin, and W. H. Masters. «Dissociation and Treatment of Compulsive Reenactment of Trauma Sexual Compulsivity.» In Adult Survivors of Sexual Abuse: Treatment Innovations, ed. M. Hunter, -174 186. Thousand Oaks: Sage, 1995.

Schwartz, Morrie [Morris S.]. Letting Go: Morrie»s Reflections on Living While Dying.

Introduction by Paul Solman. New York: Walker, 1996.

Sehmi, Sunita. «An Interview with Sabine Gisiger.» Swiss Style Magazine. Http://www. swissstyle.com/an-interview-with-sabine-gisiger. Accessed October 2016 ,13.

Sexton, Anne. Anne Sexton: A Self-Portrait in Letters. Ed. Linda Gray Sexton and Lois Ames. Boston: Houghton Mifflin, 1977.

———. Complete Poems. Boston: Houghton Mifflin, 1981.

Sexton, Linda Gray. Searching for Mercy Street: My Journey Back to My Mother, Anne Sexton. Boston: Little, Brown, 1994.

Sharp, Alan. A Green Tree in Gedde. New York: New American Library, 1965.

Shulman, Michael. « «Unavoidable Satisfactions»: The Analyst»s Pleasure.» Journal of the American Psychoanalytic Association 727-697 :(2016) 64.

Silverman, Phyllis R. Widow to Widow: How the Bereaved Help One Another. 2nd ed. New York: Brunner-Routledge, 2004.

Simpson, Eileen. « «I Had Botched This Case Beyond Belief «: Love»s Executioner.» New York Times, September 1989 ,3.

Smith, Joan-Dianne. «Review of The Schopenhauer Cure.» International Journal of Group Psychotherapy 56 382-379 :(2006).

Solomon, Robert C. Living with Nietzsche: What the Great «Immoralist» Has to Teach Us. New York: Oxford University Press, 2003.

Spence, Donald P. Narrative Truth and Historical Truth: Meaning and Interpretation in Psychoanalysis. New York: Norton, 1984.

Spinoza, Baruch. A Spinoza Reader: The Ethics and Other Works. Ed. and trans.

Edwin Curley. Princeton: Princeton University Press, 1994.

———. Tractatus Theologico-Politicus. Trans. Samuel Shirley. Introduction by Brad

S. Gregory. Leiden: E. J. Brill, 1989.

Stanley, Alessandra. «Poet Told All; Therapist Provides the Record.» New York Times, July 1991 ,15.

Stewart, Garrett. Death Sentences: Styles of Dying in British Fiction. Cambridge: Harvard University Press, 1984.

Thomas, Lewis. Lives of a Cell: Notes of a Biology Watcher. New York: Viking, 1974. «The Top 10 Most Influential Therapists.» PsychotherapyNetworker magazine. 2006. Https://www.psychotherapynetworker.org/magazine/article/661/the-top10-.

Accessed October 2016 ,20.

Tugend, Alina. «Engendering Sons: Is It Doable—or Even Desirable—to Raise Gender-Neutral Children?» California Magazine, Winter 2014. Http://alumni. berkeley.edu/california-magazine/winter-2014-gender-assumptions. Accessed October 2016 ,15.

Waite, Robert G. L. The Psychopathic God: Adolf Hitler. New York: Basic Books, 1977.

Wampold, Bruce E., and Zac E. Imel. The Great Psychotherapy Debate: The Evidence for What Makes Psychotherapy Work. 2nd ed. New York: Routledge, 2015.

Weingarten, Randall. Foreword to the Perennial Classics edition of Love»s Executioner and Other Tales of Psychotherapy by Irvin D. Yalom. New York: Perennial Classics, 2000.

Wheelis, Allen. The Doctor of Desire. New York: Norton, 1987.

Winnicott, D. W. «Hate in the Counter-Transference.» International Journal of Psycho-Analysis 74-69 :(1949) 30.

Wolf Man. The Wolf Man. With The Case of the Wolf Man by Sigmund Freud and A Supplement by Ruth Mack Brunswick, ed. with notes, an introduction, and chapters by Muriel Gardiner. New York: Basic Books, 1971.

Worden, J. William. Grief Counseling and Grief Therapy: A Handbook for the Mental Health Practitioner. 3rd ed. New York: Springer, 2002.

Wurmser, Léon. «Shame: The Veiled Companion of Narcissism.» In The Many Faces of Shame, ed. Donald L. Nathanson, 92-64. New York: Guilford Press, 1987. Yalom, Irvin D. «Autobiographical Note.» Http://www.yalom.com/pagemaker.php? nav»bio. Accessed December ,25 2015.

———. Becoming Myself: A Psychiatrist»s Memoir. New York: Basic Books, 2017.

———. Creatures of a Day and Other Tales of Psychotherapy. New York: Basic Books, 2015.

———. Existential Psychotherapy. New York: Basic Books, 1980.

———. Foreword. Studies on Hysteria, by Josef Breuer and Sigmund Freud. New York: Basic Books, 2000.

———. The Gift of Therapy: An Open Letter to a New Generation of Therapists and Their Patients. New York: HarperCollins, 2002.

———. Inpatient Group Psychotherapy. New York: Basic Books, 1983.

———. Love»s Executioner and Other Tales of Psychotherapy. New York: Perennial Classics, 2000.

———. Lying on the Couch. New York: Harper Perennial, 1997.

———. Momma and the Meaning of Life: Tales of

Psychotherapy. New York: Basic Books, 1999.

———. «Religion and Psychiatry.» American Journal of Psychotherapy 317-301 :(2002) 56.

———. The Schopenhauer Cure. New York: Harper Perennial, 2006.

———. The Spinoza Problem. New York: Basic Books, 2012.

———. Staring at the Sun: Overcoming the Terror of Death. San Francisco: Jossey- Bass, 2008.

———. The Theory and Practice of Group Psychotherapy. New York: Basic Books, 4 ;1970th ed., 5 ;1995th ed., with Molyn Leszcz, 2005.

———. When Nietzsche Wept. New York: Harper Perennial, 1993.

———. «Writing The Schopenhauer Cure.» In The Schopenhauer Cure. New York: Harper Perennial, 2006.

———. The Yalom Reader: Selections from the Work of a Master Therapist and Story- teller. Ed. Ben Yalom. New York: Basic Books, 1998.

———, and Robert L. Brent. I»m Calling the Police. New York: Basic Books, 2011.

———, and Ginny Elkin. Every Day Gets a Little Closer: A Twice-Told Therapy.

New York: Basic Books, 1974.

———, and S. Vinogradov. Concise Guide to Group Psychotherapy. Washington, DC: American Psychiatric Association, 1989.

Yalom, Marilyn. The American Resting Place: Four Hundred Years of History Through Our Cemeteries and Burial Grounds. Photos by Reid Yalom. New York: Houghton Mifflin Harcourt, 2008.

———. A History of the Breast. New York: Knopf, 1997.

———. A History of the Wife. New York: HarperCollins, 2001.

———. How the French Invented Love: Nine Hundred Years of Passion and Romance.

New York: Harper Perennial, 2012.

———. Maternity, Mortality, and the Literature of Madness. University Park: Pennsylvania State University Press, 1985.

———, and Theresa Donovan Brown. The Social Sex: A History of Female Friend- ship. New York: Harper Perennial, 2015.

Young, Philip. Ernest Hemingway: A Reconsideration. University Park: Pennsylvania State University Press, 1966.

Young, Royal. «Marilyn Yalom and the Language of Love.» Interview Magazine, October 2012 ,23. Http//:www. interviewmagzine.com/culture/marilyn-yalom-how-the-french-invented-love. Accessed October 2016 ,14.

Yovel, Yirmiyahu. Spinoza and Other Heretics: The Adventures of Immanence. Princeton: Princeton University Press, 1989.

مكتبة
t.me/soramnqraa



كتابة العلاج بالكلام

يُعدّ كتاب "العلاج بالكلام" بقلم جيفري بيرمان أول كتاب شامل يدرس جميع أعمال البروفيسور إرفين يالوم، الطبيب والمعالج النفسي المرموق، بمنهجية تجمع بين حقول معرفية مختلفة. ويستعرض إسهامات إرفن يالوم العميقة والمهمة في مجالي العلاج النفسي والأدب، ويسلّط الضوء على الأفكار التي تتكرر في كتب يالوم الذي ابتكر نوعاً أدبياً خاصاً يُسمّى "قصة العلاج". والتي تتمحور حول أهمية العلاقة بين المعالج والمريض، ووضوح وشفافية المعالج، والتركيز على علاج "هنا والآن"، وقلق الموت، والشفاء المتبادل بين المعالج والمريض، وفكرة المعالج الجريح. ويناقش بيرمان في فصول هذا الكتاب الأمور التي يمكن أن يعلمها يالوم للمعالج بشكل خاص، وللقارئ العادي (والمتميز) بشكل عام.

في هذا الكتاب الذي ينطوي على أبعاد عميقة وتفاصيل ثرية، يأخذنا بيرمان في رحلة دافئة وبارعة نستكشف فيها إسهامات إرفين يالوم المتميزة، بوصفه معالجاً نفسياً، ومؤلفاً، ومعلماً. ويقدم لنا رؤية شفافة حول كيف يمكن أن ينبثق الشفاء الإنساني من ثنايا الكلام والكتابة والقراءة. ويذكرنا بيرمان بعبارات واضحة أن العلاج النفسي، في جوهره، عملية تواصل إنساني وسعي مشترك لإضفاء المعنى على التجربة الإنسانية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تنمية